

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الجزائر (2) أبو القاسم سعد الله
كلية العلوم الإنسانية
قسم التاريخ

النشاط الاقتصادي لمملكة بيت المقدس الصليبية
(1099-1187م / 492-583هـ)

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في تخصص التاريخ الوسيط

إشراف الأستاذ الدكتور:

أ.د. عبد العزيز بوكنة

إعداد الطالب:

مبروك بن مسعود

أعضاء لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفة العلمية
أ.د. قويدر بشار	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر (2) أبو القاسم سعد الله	رئيس اللجنة
أ.د. عبد العزيز بوكنة	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر (2) أبو القاسم سعد الله	مشرفا ومقررا
أ.د. رشيد تومي	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر (2) أبو القاسم سعد الله	عضوا مناقشا
أ.د. فاطمة بوعمامة	أستاذ التعليم العالي	المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة-	عضوا مناقشا
أ.د. عاشوري قمعون	أستاذ التعليم العالي	جامعة حمة لخضر - الوادي-	عضوا مناقشا
د. عبد الحميد خالدي	أستاذ محاضر (أ)	جامعة الجزائر (2) أبو القاسم سعد الله	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: (2018 - 2019م) / (1439 - 1440هـ)

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الجزائر (2) أبو القاسم سعد الله
كلية العلوم الإنسانية
قسم التاريخ

النشاط الاقتصادي لمملكة بيت المقدس الصليبية
(1099-1187م / 492-583هـ)

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في تخصص التاريخ الوسيط

إشراف الأستاذ الدكتور:

أ.د. عبد العزيز بوكنة

إعداد الطالب:

مبروك بن مسعود

أعضاء لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفة العلمية
أ.د. قويدر بشار	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر (2) أبو القاسم سعد الله	رئيس اللجنة
أ.د. عبد العزيز بوكنة	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر (2) أبو القاسم سعد الله	مشرفا ومقررا
أ.د. رشيد تومي	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر (2) أبو القاسم سعد الله	عضوا مناقشا
أ.د. فاطمة بوعمامة	أستاذ التعليم العالي	المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة -	عضوا مناقشا
أ.د. عاشوري قمعون	أستاذ التعليم العالي	جامعة حمة لخضر - الوادي -	عضوا مناقشا
د. عبد الحميد خالدي	أستاذ محاضر (أ)	جامعة الجزائر (2) أبو القاسم سعد الله	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: (2018 - 2019م) / (1439 - 1440هـ)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

((وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا

تَعْتَدُوا، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)).

الآية (190) من سورة البقرة

الإهداء

إلى أرواح شهداء الجزائر الأمة الشهيذة المجاهدة، حفظها الله من كل سوء، إلى كل من يصب رفع راية الحق خفاقة، في أرض الإسراء والمعراج، فلسطين الجريئة، إلى اللذين أوطانا الله عنهما طاعة وخضوعا، الوالدين الكريمين، إلى زوجتي الفاضلة، إلى ولدي العزيز هارون عبد العزيز شفاه الله، إلى المجاهدين عمي الحاج مسعود بن مجدل وأخيه عمي عمر تغمدهما الله برحمته، وإلى كل أفراد العائلة، وأخص بالذكر الأخوين إبراهيم وسلاح الدين سدّد الله خطاهما، وإلى رفقاء درب البحث العلمي، لخضر بن نبلي، الأنغويني براق، خلفه الله ووجدي، وإلى كل طالب علم يريد به خيرا الأمة.

شكر وعرفان

أتقدم بجزيل الشكر والثناء، إلى أستاذي عبد العزيز بوكنة، الذي كان خير عون ومرشد طيلة مشواري العلمي، من مرحلة ليسانس إلى الماجستير والدكتوراه، فجزاه الله عنى كل خير، كما أتقدم بالشكر الجزيل لأستاذي رشيد تومي، الذي كان مشعل كل طالب علم. وكذلك لموظفي وعمال المكتبة المركزية بجامعة القاهرة، على حسن استقبالهم وتجاوبهم مع ما طلبته، بالإضافة إلى موظفي إدارة ومكتبة معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة، فلمن مني الشكر الجزيل. وإلى كل الذين ساعدوني من قريب أو من بعيد، من أجل إكمال بحثي المتواضع، فلكل منهم جزيل الشكر والثناء.

المختصرات

واللغة الأجنبية:

C.M.H.F.F.M.F Collections des Mémoires Relatifs a
L'Histoire de France Depuis la Fondation
de la Monarchie française.

Mass : Massachusetts

P.P.T.S: Palestine Pilgrims Text Society.

R.H.C: Recueil des historiens des croisades

مقدمة

I- أهمية الموضوع واشكاليته:

شكلت الحملات الصليبية في العصور الوسطى حلقة من حلقات الصراع بين المشرق الإسلامي والغرب اللاتيني، الذي زحف بترسانته العسكرية عدة وعتادا، بقيادة الأمراء والفرسان نحو بلاد الشام، التي توجد فيها المقدسات الدينية المسيحية.

وهذا ما اتخذته الصليبيون ذريعة لهذا الزحف المهول باستعادة مقدساتهم، علما أن هذا لم يكن سوى مبررٍ واهٍ فحجتهم داحضة في ذلك، ولكنهم تَحَقَّوا وراء وازعهم الديني لتحقيق مآرب أخرى. ومنها الاستيلاء على ثروات المنطقة بمختلف أنواعها، خاصة وأن الغرب اللاتيني كان يعيش محنة الصراع الداخلي في ظل النظام الإقطاعي. وبهذا وجد كثير من الأمراء مُرادهم فيما وراء البحار خاصة بلاد الشام.

في تلك الفترة استطاعت الكنيسة الغربية أن تستثمر فكرها وجهودها في توجيه تلك الجموع وتحقق رغبتها السياسية والدينية بزعامة البابوية، إذ أن البابا أوربان الثاني Urban II (ت.1099م) استطاع وفي فترة وجيزة، أن يوحد الجبهة المسيحية بمختلف شرائحها وتوجهاتها، تحت راية الكنيسة الغربية، لعله بذلك يحقق هدفه الشخصي سياسيا ودينيا، وهو قيادة العالم المسيحي، تحت سلطة البابوية شرقا وغربا. وقد نحج إلى حد ما في توحيد الجهود، وإزالة الفرقة بين أبناء الغرب اللاتيني، وتوجيههم لضرب المسلمين، وإقامة كيانات سياسية استيطانية تستغل ثروات المنطقة.

وبنجاح الحملة الصليبية الأولى (1095-1099م) ودخولها الأراضي المقدسة والاستيلاء على مدينة القدس، سرعان ما ظهرت للعيان فكرة الاستيطان اللاتيني بالشام، وأصبح الأمراء يتنافسون على مَنْ تكون بحوزته المزيد من الأراضي لتقوية نفوذه وسلطانه، علما أن الأرض تشكل مصدر الثروة والثراء، وإقامة الكيان لممارسة أي نشاط يخدم مصلحة المملكة الناشئة.

ومن هنا كان عنوان هذا البحث **النشاط الاقتصادي لمملكة بيت المقدس الصليبية في عهدها الأول أي من سنة تأسيسها عام (1099م/492هـ) إلى غاية سقوطها تحت ضربات السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة (1187م/583هـ).**

وطبعا ممارسة النشاط الاقتصادي مرتبطة بعنصر الأرض، الذي يشكل محور العملية الاستيطانية، إذ أن

الصلبيين بعد ما استولوا على بيت المقدس، انطلقوا في سباق محموم للاستيلاء على المزيد من الأراضي، لاسيما أن الغرب اللاتيني قد عرف النظام الإقطاعي، والذي شكل عاملاً أساسياً للاستيلاء على الأرض، فمن جهة أنها تشكل الملك والسلطان، ومن جهة أخرى تشكل مصدر رزق وثروة في بلاد أسموها أرض العسل واللبن.

ولهذا تم طرح التساؤلات التالية، كيف استطاع الصليبيون الاستيلاء على بيت المقدس، وجعلها عاصمة للمملكة؟ وكيف تمكنوا من السيطرة على الأراضي وجعلها محور الاستيطان لضمان البقاء بالمنطقة؟ وكيف فعلوا الأنشطة الاقتصادية التي تعد شريان الحياة، وكيف كانت نظرتهم الإستراتيجية في ربط اقتصادهم بالغرب اللاتيني خاصة؟

II- أسباب اختيار الموضوع:

إن الاستيطان الصليبي كان محوره الأرض التي تقوم عليها الدولة، بل أنها تضمن مصدر قوته ونفذه، وأن الصليبيين سرعان ما فعلوا عملية الأنشطة الاقتصادية بالمنطقة التي احتلوا في انتظار المزيد من الأراضي التي هم بحاجة إليها، وهذا من أجل إنتاج مختلف الحاجات لتلبية متطلبات المجتمع، وربط كيانهم بالغرب اللاتيني الداعم الرئيسي للاستيطان. ومن جملة أسباب اختيار موضوع البحث:

- الرغبة في معالجة هذا النوع من الدراسات، لاسيما الأنشطة الاقتصادية ودورها الفعّال في الحياة.
- معرفة كيف استطاع الغرب اللاتيني استغلال الثروات المتنوعة لأراضي بيت المقدس.
- تسليط الضوء على هذا العنصر الوافد، وكيفية بثه لروح الوجود الفعّال لضمان بقائه واستمراره.

III- أهمية الدراسة:

إن مثل هذه الدراسات لها أهميتها الإستراتيجية في تاريخ الشعوب والأمم وعلاقاتها، بل حتى أنها شكلت الدعامة الأساسية التي قامت عليها الدولة، بل أنها رباط لا تتفصم عراه بين السلطة والعامّة.

- فائدة هذه الدراسة تظهر في معرفة تحكم الغرب اللاتيني في الموارد الاقتصادية للمسلمين،

وانعكاسها الايجابي على المجتمع اللاتيني.

- الاستيطان الصليبي ودوره في تفعيل عملية النشاط الاقتصادي بالمنطقة، لضمان الإنتاج وتلبية الحاجات من جهة، واتصاله بالغرب وتعزيز وجوده بالمنطقة من جهة أخرى.
- إحداث عملية تنافس تجاري في المنطقة، خصوصا الجمهوريات الايطالية.
- إعادة تنشيط حركة الاتصال والتواصل بين الشرق والغرب، وخاصة في الميدان التجاري.

IV- الإطار الزمني والمكاني للدراسة:

ينحصر موضوع البحث في الفترة الواقعة بين حدثين لهما أهميتهما التاريخية، فسنة 1099م/492هـ، تشكل انتصار الحملة الصليبية الأولى ودخولها بيت المقدس، أما سنة 1187م/583هـ فإنها تمثل استرجاع بيت المقدس على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي، وهذا بعد أن وُحِدَ الصف بين مصر والشام. أما الإطار المكاني فإنه يتعلق بكل الأراضي التي أصبحت تحت سيطرة مملكة بيت المقدس الصليبية.

V- خطة البحث:

يتكون هذا البحث من مقدمة وخمسة فصول وخاتمة، تغطي من الناحية الزمنية حوالى ثمانٍ وثمانين سنة من تاريخ المملكة الصليبية في عهدها الأول ببيت المقدس.

يحمل الفصل الأول عنوان بلاد الشام والحملة الصليبية الأولى، حاولت في جزئه الأول إبراز الأوضاع السياسية والعسكرية، والاقتصادية والاجتماعية والدينية بالمنطقة، قبيل انطلاق الحملة الصليبية الأولى، إذ أن الظروف السياسية وقتها كانت جد مضطربة، ويرجع سببها إلى اجتياح السلاجقة لبلاد الشام، والى التنافس الحاد بين أمرائها وامتد حتى إلى داخل البيت السلجوقي، فضلا عن الصراع المحموم الذي دبّ بين الأمراء حكام العرب من أجل بسط النفوذ والسيطرة على حساب بعضهم، ولو تطلب الأمر الاستعانة بالقوى الخارجية، كما كان هناك ضعف للحكم الفاطمي بمنطقة الشام من جهة أخرى.

أما من الناحية الاقتصادية، فإن منطقة الشام قد اشتهرت بخصوبة تربتها، وقد استغل ساكنوها

هذه الظروف، ومارسوا أنشطتهم المختلفة زراعية وصناعية وتجارية، غير أن العوامل المختلفة كان لها تأثير على الوضع الاقتصادي بالمنطقة.

وأما بخصوص الأوضاع الاجتماعية فإن المنطقة شهدت تنوعا عرقيا ولغويا، كان أثره سلبيا على وحدتها، بالإضافة إلى أن الوضع الديني تماشى مع الوضع الاجتماعي، فأدى ذلك إلى تنوع الطوائف والنحل ببلاد الشام، بل كان هناك صراع بين مختلف هذه الطوائف، وهذا أحدث شرخا في وحدتها السياسية والاجتماعية والدينية.

وأما في الجزء الثاني من هذا الفصل، فقد حاولت أن أُبين فيه دور الحملة الصليبية الأولى وسقوط مدينة القدس، حيث تناولت فيه سير الحملة الصليبية باتجاه بلاد الشام، وإحرازها لانتصارات عديدة منها احتلال بيت المقدس، وهو الهدف المنشود لقادة الحملة الصليبية.

كما عرجت فيه بالحديث عن قيام النظام الملكي، وكيف تمكن الصليبيون من وضع أسس لسلطة سياسية وتنظيم إداري، تسير عليها المملكة الناشئة ببيت المقدس، بل حتى أنهم فعلوا القضاء، وأصبحت هناك أجهزة قضائية تلجأ إليها مختلف شرائح المجتمع الصليبي للتقاضي كل حسب انتمائه.

وعن الفصل الثاني، فقد ورد تحت عنوان النظام الإقطاعي في مملكة بيت المقدس الصليبية، حيث عرفت الإقطاع ونشأته الأولى، وكيف فعله الصليبيون في بلاد الشام، بحيث أصبحت هذه الجموع تخضع للنظام الإقطاعي داخل المملكة، وهذا في ظل نشأة الاقطاعات وانتشارها بمملكة بيت المقدس.

وتناولت أيضا في هذا الفصل العلاقات والخدمات الإقطاعية التي تربط بين الأسياد والأفصال في هذا النظام، سواء كانوا علمانيين أو كنسيين، وحتى مختلف الهيئات الدينية العسكرية، فالكل يسعى ليحقق طموحه في ظل هذه المؤسسة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية، والتي فتحت لهم آفاقا طالما انتظروها، في ظل تصدع أصاب أركان البيت الإسلامي في تلك الفترة.

ويحمل الفصل الثالث عنوان الأنشطة الفلاحية والصناعية في مملكة بيت المقدس الصليبية،

حيث يحتوي على قسمين أساسيين، الأول عالجت فيه **النشاط الفلاحي**، الذي يكتسي أهمية قصوى بالنسبة للصليبيين، فمنذ أن دانت بيت المقدس لهم، قاموا بتفعيل النشاط الزراعي ليضمنوا مختلف حاجاتهم الغذائية الضرورية، ومن ذلك عمدوا إلى تقسيم الأراضي الزراعية بين كبار السادة، وجعلوا لذلك نظاما يتماشى مع وجودهم بالمنطقة، وتحولت القرى إلى مركز نشاط فلاحي، حيث تُشرف عليها هيئة تابعة للسيد الإقطاعي تُحظى بامتيازات معتبرة، كما أنها تتولى جمع النسب المخصصة من المحاصيل والرسوم المفروضة على الفلاحين، الذين صاروا يُنتجون أنواعا مختلفة من المحاصيل تُلبى رغبة الصليبيين المعيشية والتجارية، هذا ولم يغفل الصليبيون تربية المواشي من أجل ضمان حاجتهم من اللحوم والحليب والألبان، وغيرها من الأصواف والجلود.

وفيما يتعلق بالجزء الثاني فقد كان عنوانه كالتالي **النشاط الصناعي**، فهذه ركيزة أساسية في الاقتصاد الصليبي في الشام، حيث فعّلوا الصناعات التي كانت قائمة، واستفادوا منها استفادة كبيرة، مثلا كصناعة الأسلحة التي تُعد الوسيلة الأكثر فعالية في تأكيد وجودهم بالمنطقة، لاسيما صناعة السيوف والدروع، ومختلف الآلات الدفاعية، بالإضافة إلى تفعيل صناعات أخرى ذات أهمية، كزراعة قصب السكر التي أصبحت تدر أرباحا ملحوظة للمملكة.

بالإضافة إلى وجود نشاطات صناعية أخرى لا تقل أهميتها، مثل صناعة زيت الزيتون والنبيد والزجاج، كل ذلك لبيّ مختلف حاجات المجتمع الوافد، بل أنه درّ عليه أرباحا طائلة.

أما **الفصل الرابع** فكان عنوانه **التجارة الداخلية لمملكة بيت المقدس الصليبية**، حيث تناولت حركة التجارة بين مختلف الإقطاعات، لتحقيق التكامل بين مدن المملكة، وذلك لتلبية الحاجات الضرورية للسكان. وليس هذا فحسب، بل أقاموها حتى مع جيرانهم المسلمين، وإستراتيجية لهم خفضوا الضرائب، بل أبطلوها أحيانا أخرى، وهذا تماشيا مع حاجتهم، كما أصبح للمدن التجارية الإيطالية دور في تزويد السوق بالضروريات. وقد تعددت الأسواق ومنتجاتها، وأصبحت هذه الأخيرة مقيدة بضوابط استعمال المكاييل والموازين والمقاييس. كما قام الصليبيون بضرب عملة صليبية وتداولها تقليدا للعملة الإسلامية عليها شعارات ورموز دينية، كما عرفوا أيضا معاملات

تجارية أخرى منها البيع بالمقايضة وبالأجل وبالمزاد. وأصبحت للمملكة آلياتها لتحصيل الرسوم والضرائب على ذلك، والرقابة المستمرة من طرف الأجهزة التي أقامها الملوك والأمراء، فضلا عن وجود محكمة السوق كونها أداة فعّالة في تنظيم الأمور التجارية.

وبخصوص **الفصل الخامس** فقد كان عنوانه **التجارة الخارجية لمملكة بيت المقدس الصليبية** عالجت في هذا الفصل موضوع التجارة الخارجية ذات الآفاق البعيدة وخاصة باتجاه الغرب. وقد نالت المدن الإيطالية باعا كبيرا في هذا النشاط، كالبنديقية Venice، وجنوة Genoa وبيزا Pisa، فضلا عن وجود مدن فرنسية أخرى كمرسيليا Marseille ومونتبليي Montpellier، ولكن بدرجة أقل. وبيّنت في هذا الفصل دور موانئ مدن الساحل الشامي التي هي تحت سيطرة المملكة، والرسوم والضرائب التي تم وضعها على الصادر والوارد، فضلا عن إقامة محكمة الميناء التي تُعد جهازا فعّالا في تنظيم التجارة وتحصيل الإيرادات، وقد حرصت المملكة على إدارتها وفق ما يتماشى وحاجاتها الضرورية، لأن هذا النشاط حساس يمثل عصب الحياة للمملكة الصليبية. وقد تنوعت صادرات وواردات المملكة، وكان لبعض المنتجات دور كبير في إثراء خزينة بيت المقدس. وبقدر ما ساهمت بعض العوامل في انتعاش النشاط الاقتصادي، بقدر ما كانت هناك عوامل أخرى ساهمت في إضعافه وتراجعها.

وفي الخاتمة خلصت إلى مجموعة من الاستنتاجات، بيّنت من خلالها أن الغزو الصليبي لمنطقة الشام بُني على أساس رؤية مستقبلية للأمراء والفرسان، وكذا على إستراتيجية لتحقيق مآرب طالما راودت أبناء الغرب اللاتيني، تتمثل في بناء كيان سياسي واقتصادي، وحتى ديني واجتماعي خارج ديارهم فيما وراء البحر، يكون فيه النظام الإقطاعي الركيزة الأساسية لتحقيق الاكتفاء الذاتي. وتظهر الكنيسة في هذا المشهد كله كطرف فاعل لما لعبته من دور محوري من دفع هذا المشروع الذي إحاطته بدعمها وتوجيهاتها. وقد ذيلت موضوع بحثي بمجموعة من الملاحق تتماشى وموضوع البحث.

VI- عرض لأهم المصادر والمراجع:

لإنجاز هذا العمل اعتمدت على مجموعة من المصادر والمراجع المتخصصة، التي قدمت لي الكثير من المعلومات حول موضوع البحث، وقد صنفتها كالاتي:

- 1- المصادر الأجنبية.
- 2- المصادر العربية.
- 3- المراجع الأجنبية.
- 4- المراجع العربية والمعربة.

I- المصادر:

1- المصادر الأجنبية:

لاشك أن المصادر التي عايش أصحابها أحداث هذا الموضوع تكتسي أهمية خاصة في هذه الدراسة، ومن هؤلاء الكتاب من تابع هذه الأحداث عن كثب فقدموا صورة شاملة وواضحة عن الحملة الصليبية الأولى منذ انطلاقها حتى سقوط بيت المقدس عام 1099م/492هـ. ويأتي في مقدمة هذه المصادر كتاب "أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس"، والذي جاء عنوانه اللاتيني كالتالي: **Gesta Francorum et Aliorum Hierrosolymitanorum** لمؤرخ مجهول⁽¹⁾، حيث سار هذا المؤرخ بصحبة مجموعة النورمان تحت زعامة الأمير بوهمند

⁽¹⁾ هو صاحب الجستا Gesta، وهذه الأخيرة رواية لشاهد عايش أحداث الحملة الصليبية الأولى (1095-1099م). وقد كُتبت من طرف مؤلف مجهول. ومن خلال مضمونها يتضح أنه كان أحد المرافقين لبوهمند Bohemond النورماني، والذي قدم مع جنوده من جنوب إيطاليا. ويبدو أن هذا العمل قد كُتب عقب سقوط بيت المقدس في قبضة الصليبيين، في الخامس عشر من شهر جويلية سنة 1099م. وكان لهذا العمل أثر على عمل المؤرخ البروفنسالي ريموند أجيل

Raymond D'Aguilers، إذ أنه استخدمه في تحضير كتابه المسمى: **Historia Francorum qui ceperunt**

Iherusalem، الذي أكمله سنة 1105م. أما ما كتبه المؤرخ بطرس توديبود Peter Tudebode فله علاقة وطيدة

بالجستا، إذ تعد هذه الأخيرة مصدرا رئيسيا لكتاب المؤرخ توديبود. للمزيد من المعلومات، أنظر: محمد مؤنس عوض، معجم أعلام عصر الحروب الصليبية في الشرق والغرب، 2015، مكتبة الآداب، القاهرة، ص. 499-500. وللزيد من التفاصيل عن الجستا، أنظر: **The Crusades An Encyclopedia, Edit., Alan Murray (V), A.B.C, Clio, Santa Barbara, California, U.S.A. 2006, P.529.**

Bohemond، الذين قَدِموا من جنوب ايطاليا. هذا المؤرخ غطى أحداثاً هامة أثناء سير الحملة، إذ أنه واكب وصولها إلى القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، وما جرى فيها من أحداث كانت لها أهميتها التاريخية.

بعد ذلك واصل طريقه باتجاه الشام وحضر محاصرة الصليبيين لمدينة أنطاكية، بل أنه يروي ما وقع من أحداث أثناء هذا الحصار، الذي استغرق حوالى ثمانية أشهر (20 أكتوبر 1097 إلى غاية 03 جوان 1098م). وأخيرا استولى عليها الصليبيون بفضل مؤامرة حاكها قائد النورمان بوهمند.

ولقد واصل هذا المؤرخ مسيرته مع الحملة إلى بيت المقدس، حيث كان شاهد عيان، وبيّن كيفية استيلاء الصليبيين عليها، وما جرى فيها من قتل وتكيل بالمسلمين. وقد قام بترجمة هذا العمل الدكتور حسن حبشي.

ويليه في الأهمية كتاب "تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس"، والعنوان اللاتيني له هو : **Historia de Hierosolymitano Itinere** للمؤرخ بطرس توديود Peter Tudebode (1)، حيث لهذا المصدر أهمية كبيرة في تاريخ الحملة الصليبية الأولى، إذ يسرد كثيراً من أحداثها، من بدايتها حتى سقوط بيت المقدس. وقد قام بترجمة هذا العمل الدكتور محمد حسين عطية، نقلا عن النسخة الانجليزية للمترجمين جون هيوغ هيل John Hug Hill ولوريتا هيل Laurita Hill. وهناك مؤرخ آخر عاصر أحداث الحملة الصليبية الأولى لكونه سار مع جيشها، وهو فوشيه الشارترى Fulcher de chartres (2)، صاحب كتاب "أعمال الفرنجة الحاجين إلى بيت

¹ شارك في الحملة الصليبية الأولى وألف حوليته اللاتينية بالاعتماد على الجستا لمؤلف مجهول، وعلى غرار هذا الأخير شارك هو أيضا في الحملة الصليبية، وحوليته تحمل عنوان Historia de Hierosolimitano Itinere. وبترس توديود وظف كتاب أعمال الفرنجة وأضاف إليه أعماله. للمزيد، أنظر: محمد مؤنس عوض، أعلام...، ص.ص. 476-477. وللمزيد عن شخصية توديود، أنظر أيضا: محمد حسين عطية، بطرس توديود "تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس"، 1998، دار المعرفة الجامعية، القاهرة.

² ولد بفرنسا سنة 1059م، حضر مؤتمر كليومونت Clermont الذي عقده البابا أوربان الثاني، والذي دعا فيه إلى شن حملة صليبية على بلاد الشام، وشارك في هذه الحملة رفقة روبرت النورماندي Robert of Normandy، لكن بعد الانتصارات التي حققها الصليبيون في الأناضول، انضم إلى بولدوين البويوني الذي سار إلى الرها، حيث عُيّن كاهنا للكنيسة هناك، وظل ملازما

المقدس " **Gesta Francorum Iherosalem Peregrinantium** "، هذا المؤرخ شغل منصب قسيس عند بولدوين البويوني Baldwin de Bouillon، مكنه ذلك من الاطلاع على خبايا الأمور، ووصف أحداث الحملة الصليبية الأولى وصفا دقيقا. قسم كتابه إلى ثلاثة أجزاء، تنتهي أحداثه عند سنة 1127م، ولعلها سنة وفاته.

هذا المؤرخ يعطينا صورة عن أوضاع المملكة في بداية نشأتها، وقد قام بترجمة هذا العمل زياد جميل العسلي تحت عنوان "تاريخ الرحلة إلى المقدس"، عن النسخة الانجليزية للراهبة فرنسيس ريتا ريان Frances Rita Ryan.

وثمة مؤرخ من الغرب اللاتيني أيضا له أهميته في تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ألا وهو المؤرخ ريموند اجويلرز Raymond de Aiguilers⁽¹⁾، صاحب كتاب "تاريخ الفرنجة الذين استولوا على بيت المقدس" **Historia Francorum Qui Ceperum Iharusalem**، كان قسيس تابع لريموند الصنجيلي كونت تولوز، وقائد مجموعة البروفنساليين Provençal، وهي من جنوب فرنسا، كتاباته تمدح الأعمال الوحشية لسيده ريموند الصنجيلي.

كتابه ذو أهمية بالغة عن أحداث الحملة الصليبية الأولى، ولقد اعتمدت على النسخة المترجمة إلى الفرنسية، التي قام بترجمتها فرانسوا جيزوت Guizot ضمن مجموعته المعروفة باسم: Collections des Mémoires Relatifs A L'Histoire de France, Depuis La Fondation de La Monarchie Française Jusqu'au 13^e Siècle. ولا يفوت في هذا العرض ذكر مصدر له أهميته الخاصة في دراسة أحداث الحملة الصليبية الأولى، وهو يحمل

لبولدوين الأول حتى وفاة هذا الأخير سنة 1118م. يبدأ كتابه من دعوة البابا إلى الحملة الصليبية وينتهي بأحداث سنة 1127م. أنظر: حسين عطية، بطرس توديود...، ص.19، حاشية (1). وللمزيد من التفاصيل عن شخصية الراهب فوشيه الشارترى، أنظر: محمد مؤنس عوض، أعلام...، ص.496.

¹ موطن هذا المؤرخ بإقليم اللوار Loire الأعلى بفرنسا، رحل إلى بلاد الشام بصحبة المندوب البابوي أدهيمار Adhémar أسقف Puy، ثم أصبح كاهنا لريموند الرابع Raymond IV الصنجيلي كونت تولوز Toulouse، كتابه يتناول الدعوة إلى الحملة الصليبية الأولى وحتى معركة عسقلان، للمزيد من المعلومات، أنظر: حسين عطية، توديود...، ص.18، حاشية (3). وللمزيد عن شخصية المؤرخ ريموند أجيل أنظر أيضا: محمد مؤنس عوض، أعلام...، ص.494.

عنوان **ألكسياد "Alexiad"** للمؤرخة والباحثة أنا كومنينيا Anna Comnena⁽¹⁾، التي تتميز بانتمائها إلى الثقافة الإغريقية أعطت الكتاب هذا العنوان نسبة إلى اسم والدها الإمبراطور ألكسيوس كومنينوس Alexius Comnenus (1081-1118 م).

ويعد هذا المؤلف من المصادر اليونانية الأساسية في تاريخ الحملة الصليبية الأولى، تطرقت فيه الكاتبة إلى حياة والدها بكثير من التفصيل عن الوقائع ذات الصلة بالحملة الصليبية الأولى وعلاقة أبيها بزعماء هذه الحملة. ويعبر هذا المصدر عن الثقافة العالية والوعي العميق اللذين تتمتع بهما أنا كومنينيا، كما أنها تمثل بحق سمو الأنتليجانسيا البيزنطية في هذه المرحلة. وعن هذا المصدر اعتمدت على النسخة المترجمة إلى الإنجليزية لمؤلفتها اليزابث داوس Elizabeth Dawes (A.S).

و هناك مؤرخٌ له صيته في الكتابة التاريخية وهو المؤرخ وليم الصوري، الذي يعتبر من أهم مؤرخي الحروب الصليبية، كان ملماً بعدة لغات منها اللاتينية والعربية، مما جعله يتميز باطلاع واسع عن أحداث عصره. ألف كتاباً أسماه **"الأعمال المنجزة فيما وراء البحار"**، يمتد إطراره الزمني إلى سنة 1184م. حيث يمدنا المؤرخ بمعلومات قيّمة عن أحداث الحملة الصليبية ببلاد الشام، وعلاقات الصليبيين وخاصة ملوك بيت المقدس بالمسلمين، وكذلك إستراتيجية المملكة على الصعيدين الداخلي والخارجي. وفي هذه الدراسة اعتمدت على النسخة التي ترجمها إلى العربية الدكتور حسن حبشي تحت عنوان **"الحروب الصليبية"**

⁽¹⁾ ولدت الأميرة آنا في أواخر سنة 1083م، وهي ابنة الإمبراطور ألكسيوس كومنينوس Alexius Comnenus (1080-1118م) من زوجته إيرين دوкас Irene Ducas، تزوجت الأميرة آنا من نقفور برينيوس Nicifure Brinus، وبعد وفاة والدها قام أخوها الإمبراطور يوحنا John بسجنها في أحد الأديرة، وهناك بدأت بكتابة التاريخ، وتميزت بغزارة علمها ولها دراية بالعلوم والفنون اليونانية، كالأدب والفلسفة والشعر. دونت كتابها باللغة اليونانية، حيث تناولت تاريخ والدها ألكسيوس، الذي يمتد من سنة 1069م إلى وفاته سنة 1118م. وقد ذكرت فيه المؤرخة العلاقات بين البيزنطيين والصليبيين والسلاجقة. للمزيد أنظر: حسين عطية، توديبود...، ص.24، حاشية (1). وللزيد عن هذه المؤرخة اليونانية، أنظر أيضاً: محمد مؤنس عوض، أعلام...، ص.664-665. أنظر أيضاً: The Crusades An Encyclopedia, op.cit., P.63.

أما ما يتعلق بكتب الرحالة اللاتين، فإنها هي الأخرى تعطينا صورة تقريبية لأراضي بيت المقدس، خاصة في القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري)، ومنهم: الرحالة الروسي دانيال الراهب، الذي زار الأراضي المقدسة فيما بين سنتي 1106 و1107م، مما سمح له بتأليف كتابه الذي سماه "وصف الأرض المقدسة في فلسطين"، إذ يعد من المصادر الهامة في تاريخ الاستقرار الصليبي في الأراضي المقدسة، ويتميز أيضا بكونه تناول الجوانب الاقتصادية والاجتماعية لفلسطين، خاصة في بداية الاستيطان الصليبي. واعتمدت على النسخة التي نقلها إلى العربية وعلق عليها الدكتوران سعيد عبد الله البيشاوي وداود إسماعيل أبو هدبة.

وأما المصدر الثاني، فإنه يحمل عنوان "وصف الأماكن المقدسة في فلسطين" للرحالة الألماني ثيودريش الذي زار الأراضي المقدسة خلال القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري)، وعليه فإن هذا المصدر يكتسي أهمية ملحوظة لدراسة تاريخ الاستيطان الصليبي في بلاد الشام وخاصة بيت المقدس، وكذا نفوذ الهيئات الدينية العسكرية بهذه المنطقة. واعتمدت على نسخته المترجمة إلى العربية للدكتورين سعيد عبد الله البيشاوي ورياض شاهين.

ولقد كان للتشريعات التي سنّها الصليبيون عقب نجاح الحملة الصليبية الأولى دورٌ كبيرٌ في إدارة دفة الحكم، وتوضيح العلاقة بين مختلف فئات المجتمع الجديد، وخاصة الأمراء والفرسان. ولدراسة طرق وكيفية إدارة الصليبيين للأراضي التي استوطنوها عقب الحملة الصليبية الأولى، اعتمدت على مجموعة التشريعات والقوانين التي سنّها هؤلاء الصليبيين، والتي اشتهرت باسم الأسييز les Assises⁽¹⁾، التي دُوّنت في القرن الثالث عشر الميلادي من طرف حنا إبلين⁽¹⁾.

⁽¹⁾ تعدُّ مَدُونَةُ حنا إبلين John of Ibelin من أطول الكتابات القانونية العامة، التي كُتبت في المشرق اللاتيني، والتي تعد من أفضل

الأعمال المتعلقة بالتشريعات الصليبية في بلاد الشام، وخاصة ما يتعلق بالملكة الصليبية في بيت المقدس. لمزيد من التفاصيل عن هذه

القوانين ارجع إلى: Peter Edbury, John of Ibelin, Le livre des Assises, In The Medieval

Mediterranean, Peoples, Economies and cultures (400-1500), Edit., Kennedy

Hugh, Magdalino Paul and others, Brill, Leiden, Boston, Vol.50, 2003,

Introduction, PP.2-4؛ وللمزيد عن هذه النصوص التشريعية في المشرق اللاتيني، أنظر أيضا: The Crusades

An Eyclopedia, op.cit., PP.731-732.

وثُعد مصدرًا للتشريع الصليبي، وعلى أساسها نُظمت حياة وشؤون الصليبيين وخاصة في مملكة بيت المقدس، وهذا في إطار قواعد النظام الإقطاعي.

وقد استعملت في هذه الدراسة النسخة التي نشرها الكونت بوغنوت Beugnot في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية **Recueil des Historiens des Croisades, Lois, Tome Premier**، تحت عنوان **Assises de Jérusalem ou Recueil des ouvrages de Jurisprudence, Assises de la Haute Cour.**

كما أن هناك إشارة إلى سجلات كنيسة قبر السيد المسيح في القدس **Cartulaire de L'église de Saint Sépulcre de Jérusalem**⁽²⁾، التي تضمنت بعض الحقوق نالتها كنيسة القيامة في بيت المقدس، مردها منح وهبات ملوك وأمراء الصليبيين في بلاد الشام.

⁽¹⁾ أحد النبلاء في المشرق اللاتيني أصبح كونتا ل: يافا وعسقلان ولوردا ل: الرملة. في شبابه كان ضمن مجموعة صغيرة من النبلاء الذين سيطروا على سياسة مملكة القدس في عهدها الثاني بعكا، والتي لها في الوقت نفسه مصالح هامة في مملكة قبرص. ولقد كانت أسرة إبلين في المشرق اللاتيني منذ أوائل القرن الثاني عشر الميلادي، ومرتبطة بالتاج في عكا وقبرص. وبين سنتي 1232م و1233م كان حنا مشارك في المرحلة الأخيرة في الصراع ضد أنصار الإمبراطور **Fredrich II Hohenstaufen**، كان نجاحهم كبير في السيطرة على معظم مملكة بيت المقدس في عهدها الثاني بعكا، بالإضافة إلى كونهم قوة مهيمنة على قبرص. أصبح حنا وصيا على المملكة بعكا بين سنتي 1250 و 1258م، كما أنه تدخل في الصراع بين الجنوية والبنادقة في عكا وما حولها. لحنا مؤلفين أحدهما عن القوانين والثاني خطاب قصير عن الوصاية أو النفوذ في مملكة عكا، وكان حنا يُدون تلك القوانين أو على الأقل يضع اللمسات الأخيرة عليها سنة 1264م، أي قبل وفاته بعامين. هذه المخطوطات لا تعطي عنوانا للعمل، ولكن تشير إلى كتاب القوانين واستخداماته في المحكمة العليا في المملكة. وللمزيد من التفاصيل عن ذلك، أنظر: **Peter Edbury, op.cit., Introduction, PP.1-2.** وعن شخصية حنا إبلين أنظر أيضا: **The Crusades An Eyclopedia, op.cit., P.692.**

⁽²⁾ تم نشر سجلات كنيسة القيامة، انطلاقا من مخطوطات الفاتيكان **Vatican**، التي تضمنت نصا وملحقا. وهذا من طرف السيد يوجين دي روزيير **Eugène de Rozière**، ويعود تاريخ إصدارها الأول إلى سنة 1849. وللمزيد عن ذلك أنظر: **Cartulaire de L'église du Saint Sépulcre de Jérusalem, Publiée D'Après les Manuscrits Du Vatican, Par De Rozière Eugène.(M), Imp.Nat., Paris, M DCCC XLIX(1849).** أنظر أيضا: **Failler Albert. Geneviève Bresc-Bautier, Le Cartulaire du Chapitre du Saint-Sépulcre de Jérusalem. In: Revue des Etudes Byzantines, tome 44, 1986. PP. 291-292.**

2- المصادر العربية:

اكتست المصادر العربية أهمية كبيرة في دراسة تاريخ الحملة الصليبية الأولى، خاصة وأن مسرح الأحداث كان في بلاد الشام. فهي تضاهي نظيرتها الأجنبية، بل تتعدها في كثير من الأحيان، خاصة ما تعلق بالعلاقات ما بين الصليبيين والقوى الإسلامية الفاعلة بالمنطقة.

يأتي في مقدمة هذه المصادر، كتاب "ذيل تاريخ دمشق" لابن القلانسي أبي يعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي (ت. 1160م/555هـ)، نشأ هذا المؤرخ في بيئة ذات ثقافة دينية وأدبية بدمشق، تولى رئاسة الديوان لمرتين في دمشق، وجمع بين كتابة الإنشاء (ديوان الرسائل) وكتابة الحساب (ديوان الخراج) في عهد الأتابكة من أبناء طغتكين، مما مكنه من الإطلاع على كثير من الوثائق الرسمية⁽¹⁾، كما يُعد معاصراً للحملة الصليبية الأولى. وعليه فإنه سجل بدقة ووضوح وصول الصليبيين إلى بلاد الشام، وما حدث فيها من تطورات عسكرية وسياسية حاسمة. ولقد اعتمدت عليه في معرفة أوضاع بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي، وكذا الصراع العسكري بين المسلمين والصليبيين وما تم فيه من اتفاق بين الطرفين.

وهناك مصدر آخر يعود إلى القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري) عنوانه "الإشارة إلى محاسن التجارة وغشوش المدلسين فيها"، ألفه أبو الفضل جعفر بن علي الدمشقي، ولهذا المصدر أهمية في هذه الدراسة، حيث يطلعنا على الأوضاع الاقتصادية لمجتمع بلاد الشام وبخاصة التجارة، كما أنه يكشف أنواع التجار وحيلهم في نشاطهم وممارساتهم للغش أثناء تعاملاتهم التجارية.

كما أن هناك مؤرخاً له مكانته في صف المهتمين بتدوين أحداث الحملة الصليبية الأولى، وهو المؤرخ كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد هبة الله المعروف بابن العديم (ت. 1261م/660هـ)، هو عالم ومؤرخ اشتهر بأجداده بالتجارة وممارسة الحياة السياسية والإدارية وحتى التجارية، وعلى

⁽¹⁾ للمزيد من التفاصيل عن هذا المؤرخ، أنظر: جاسر علي العناني، فتح صلاح الدين الأيوبي لبيت المقدس بين السياسة والحرب، 2012، أمواج للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، تحليل المصادر والمراجع، ص.ص. 31-32.

غراهم مارس القضاء وكذا التدريس، له كتاب اسماه "زبدة الحلب من تاريخ حلب"، تناول بعناية ملموسة مراحل تاريخ حلب إلى أن حمل أهلها راية الجهاد ضد الصليبيين. ألف ابن العديم هذا الكتاب وفق طريقة الحوليات⁽¹⁾. اعتمدت على الجزئين المشكلين للكتاب، الأول منهما تحقيق سهيل زكار أما الثاني حققه سامي الدهان. ولاشك أن هذا المصدر لا يقل أهمية عن سابقه، وهو واحد من أهم مصادر هذه الفترة، إذ يتناول بالتفصيل كثير من الحقائق خاصة ما تعلق منها بالصراع الإسلامي الصليبي، وما تم خلاله من اتفاقيات بين القوى الإسلامية والصليبية الفاعلة آنذاك.

واستفدت أيضا من كتاب آخر لنفس المؤلف عنوانه: "بغية الطلب في تاريخ حلب"، يقع هذا الكتاب على اثني عشر جزء، يعرض فيه المؤلف ترجمة لأعلام حلب ووصفا للأماكن، ويتميز الكتاب كذلك بكونه شاملا لتاريخ الشام جنوبه وشماله.

ومن المصادر العربية التي لها باع في تاريخ المنطقة، وخاصة الصراع الإسلامي الصليبي، أذكر أبا الحسن علي بن أبي الكرم بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري الملقب بعز الدين (ت.1233م/630هـ). ولد بجزيرة ابن عمر اشتهر بمؤلفه الكبير المسمى "الكامل في التاريخ"، تحدث فيه عن تاريخ ملوك الشرق والغرب، وفي تدوين هذا الكتاب اعتمد ابن الأثير طريقة الحوليات التي تُعرض فيها الأحداث وفق تسلسلها الزمني، ويذكرها أحيانا بشيء من التفصيل⁽²⁾.

يعد ابن الأثير من أبرز مؤرخي المدرسة العراقية، عاصر هذا المؤرخ السلطان صلاح الدين الأيوبي ومن المعارضين لسياسته، نتيجة إسقاط السلطان لحكم الزنكيين، الذين تربي ابن الأثير

⁽¹⁾ للإطلاع أكثر، أنظر: ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، 1997، دار الكتاب العربي، دمشق، القاهرة، ج.1، تقديم المحقق، ص.ص.7-22.

⁽²⁾ للمزيد من التفصيل، أنظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، مج.1، خطبة الكتاب، ص.ص.5-9.

في كنفهم، ولهذا كان يترصد أخطاء صلاح الدين ويدونها⁽¹⁾.

II - المراجع:

1- المراجع الأجنبية:

يأتي في مقدمة المراجع باللغة الأجنبية كتاب "الإقطاع في مملكة بيت المقدس اللاتينية Feudal Monarchy In The Latin Kingdom of Jerusalem (1100-1291م)"

لمؤلفه جون لا مونت John LA Monte، لهذا الكتاب بحق أهمية كبيرة في تاريخ مملكة بيت المقدس الصليبية، حيث يكشف عن الإقطاع ببلاد الشام في عهد الصليبيين. وتجدر الإشارة إلى أن النظام الإقطاعي لم يكن في بلاد الشام مكابحا لنشاط الأمراء، فعلى خلاف البلاد الأم فإن الإمارات الصليبية، إذا كان رباطها بالمملكة وثيقا فإنها تنعم بقدر كبير في إدارة شؤونها الخارجية، وتصرف أمرائها بحرية تامة، أي أن الوجود الصليبي بالشام هو عبارة عن دويلات ذات سيادة، يربط بينها رباط الإقطاع والعقيدة المشتركة، فيما شكلت مملكة بيت المقدس قلب هذا الاستيطان الصليبي، لها قوانينها وتنظيمها الإداري المحكم في إدارة شؤون الحكم بالمملكة.

كما أن هناك مرجعاً آخر لا يقل أهمية عنه حول الوجود الصليبي في بلاد الشام، للمؤرخ مروان نادر Marwan Nader، يحمل عنوان "ساكنو المدن والأرياف غير الإقطاعيين وقانون الأحرار في مملكتي بيت المقدس وقبرص 1099-1325م" Burgess and Burgess، Law in The Latin Kingdoms of Jerusalem and Cyprus 1099-1325،

حيث يشير إلى الإقطاع في مملكة بيت المقدس، وكيفية تفعيل القوانين الخاصة داخل هذا النظام، وعلاقة الملك بكل من جاء إلى الأراضي المقدسة، سواء كانوا مع الحملة كفرسان أو من استقدموهم للاستيطان، أو حتى الأحرار الذين جاؤوا وأصبحت لهم ممتلكات في بيت المقدس. ويوجد مرجع آخر له قيمته العلمية في دراسة تاريخ مملكة بيت المقدس، هذا على الرغم من

⁽¹⁾ للمزيد عن ذلك أنظر: محمد مؤنس عوض، معجم أعلام...، ص.148.

كونه يركز على تاريخ المملكة الصليبية في آخر عمرها الأول، عنوانه "النبالة الإقطاعية ومملكة

The Feudal Nobility and the Kingdom of Jerusalem، للمؤلف رايلي سميت جوناثان **Riley Smith Jonathan**، بيت المقدس من سنة 1174 إلى 1277م"،

استفدت منه خاصة في الشق المتعلق بالعلاقات الإقطاعية في المملكة.

وأشير أيضا إلى مرجع متخصص في اقتصاد الكيان الصليبي، وبصفة خاصة مملكة بيت

المقدس، للمؤرخ روني إلين بلوم **Ronnie Ellenblum**، وهو أستاذ بالجامعة العبرية بالقدس

المحتلة وعضو الأكاديمية "الإسرائيلية" للعلوم الإنسانية. عنوانه "المستوطنات الريفية الفرنجية في

Frankish Rural Settlement in the Latin kingdom of Jérusalem، أفادني في معرفة ظاهرة تقسيم المساحات الزراعية، وإنشاء المستوطنات

وممارستها للنشاط الزراعي في ربوع المملكة الصليبية.

واعتمدت كذلك على دراسة حول اقتصاد الكيان الصليبي وخاصة التجارة، وهي الدراسة الحديثة

التي أنجزها المؤرخ ديفيد جاكوبي **David Jacoby**، وهو أستاذ بالجامعة العبرية في القدس

المحتلة، والتي تحمل عنوان "تجارة العصور الوسطى في شرق المتوسط وما وراءه" **Medieval**

.Trade in the Eastern Mediterranean and Beyond,

وفي هذه الدراسة استفدت من الفصل الذي يتناول فيه المؤرخ وظيفة الاقتصاد في الكيانات

الصليبية ببلاد الشام، ولاشك أن هذه الدراسات كلها تعكس الاهتمام الكبير والهادف للباحثين

اليهود بالأبعاد السياسية والاقتصادية لمنطقة الشام، وخاصة بيت المقدس.

2- المراجع العربية والمعربة:

إن هذه المراجع لها أهميتها أيضا في هذا البحث وخاصة ما تعلق بالحركة الصليبية، وممارسة

الصليبيين لأنشطتهم الاقتصادية. وفي مقدمة هذه المراجع "الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام"

للباحث **عبد الرحمن الطحاوي**، حيث تطرق إلى الاقتصاد الصليبي في المنطقة بصفة عامة،

معرجا فيه على مملكة بيت المقدس بحكم أهميتها الإستراتيجية باعتبارها القلب النابض للاستيطان

الصليبي في الشام. وقد تناول فيه الكاتب أيضا الإقطاع الصليبي بالمنطقة، كما أنه يذكرنا بتأسيس القومونات الايطالية، والتي كان لها دور فعّال في التواجد الصليبي وإرساء قواعده بالمنطقة، فضلا عن باعها الملحوظ في النشاط الاقتصادي وما ارتبط به من تعاملات مالية وتجارية مُربحة.

كما أن هناك كتابا آخر له أهميته العلمية، يحمل عنوان "الأملك الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية (1099-1291م/492-690هـ)"، للدكتور سعيد عبد الله البيشاوي، يعد هذا الكتاب بحق مرجعا هاما لموضوع الدراسة، خاصة وأن مؤلفه تطرق للنظام الإقطاعي في مملكة بيت المقدس الصليبية، حيث أن الصليبيين أرسوا هذا النظام في الأراضي المقدسة، كما أنه تطرق لإقطاعات المملكة والعلاقات بين الأسياد والأفصال، فضلا عن الخدمات التي يؤديها هؤلاء لأسيادهم.

كما أنه ركز على الإقطاعات الكنسية في بيت المقدس، فمنذ الوهلة الأولى أعطى ملوك بيت المقدس الأولوية لرجال الكنيسة في ملكية الأراضي، والتي وردت في شكل منح وهبات. وقد كان لهذه الملكيات دور كبير في تزايد ثراء هؤلاء، خاصة بعد إقبالهم على ممارسة النشاط الاقتصادي، وتضاعفت ثروتهم أكثر عندما أقدم رجال الدين على شراء المزيد من الأراضي، مما زاد من تأثيرهم وسطوتهم في المنطقة.

وهناك مراجع أخرى لها أهميتها في موضوع الدراسة، أخص منها بالذكر: "تشريعات الصليبيين" (دراسات في قوانين أنطاكية ومملكة بيت المقدس الصليبية)، لصاحبه الدكتور محمد حسين عطية، حيث يتحدث فيه المؤرخ عن التشريعات الصليبية، خاصة في إمارة أنطاكية وبيت المقدس. إن أهمية هذا المرجع واضحة حيث أطلعني على القوانين والتشريعات والنظم التي تحكم الدويلات الصليبية في بلاد الشام، والتي تجعل المجتمع اللاتيني أكثر تنظيما وتماسكا، من خلال خضوعه للقوانين والأعراف.

كما يأتي بعده الكتاب الذي ألفه المؤرخ سعيد عبد الفتاح عاشور، الذي يحمل عنوان :

"الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى"، ماهيتها وبواعثها. إن هذا المرجع فيه كثير من السرد والتعليق على الأحداث في هذه الحملة، والتي تعتبر بحق زحف مهول للأوروبيين نحو بلاد الشام، والتي سعى الغرب من خلالها تأسيس إمارات والاستيطان بأرض الشام، وقد استفدت منه في معرفة العلاقات بين هذه الإمارات وغيرها من الإمارات الإسلامية.

وهناك أيضا مرجع ذو أهمية في تاريخ الاستيطان الصليبي بالشام، وخاصة في فلسطين عنوانه: "الاستيطان الصليبي في فلسطين" للباحث **جمعة الجندي**، حيث تطرق إلى استقرار الصليبيين في بيت المقدس، وكيف طبقوا نظم حكمهم وإدارتهم بالمنطقة. كما أنه ركز على الحياة الاقتصادية وخاصة الزراعة والتجارة بالمملكة الصليبية، إضافة إلى إقامة القلاع وتحصينها من أجل الدفاع عن مناطق استيطانهم بالقدس، ناهيك عن تناوله لحياة المجتمع الصليبي في بلاد الشام وخاصة بيت المقدس.

وأما عن المراجع المعربة فقد اعتمدت على كتاب "تاريخ الحملات الصليبية" لمؤلفه **ستيفن رنسيان**، ترجمة الدكتور نور الدين خليل.

وقد وظفت الجزأين الثاني والثالث في تتبع حقيقة الحركة الصليبية، وكيف استطاع الصليبيون تأسيس إماراتهم بأرض الشام، وما هو رد الفعل الإسلامي تجاه ذلك، إضافة إلى أنه بمرور الزمن تداخلت التقاليد الشرقية والغربية، وأصبح اللاتين يتوقون إلى محاكاة المسلمين في كثير من أنماط حياتهم.

وأیضا من المراجع الأجنبية المترجمة التي نالت نصيب من الاهتمام في دراسة الحركة الصليبية، أخص منها بالذكر كتاب "الحروب الصليبية"، للمؤرخ **أرنست باركر** ترجمة الدكتور السيد **الباز العريني**، يتطرق فيه الكاتب إلى أهمية الحروب الصليبية وأسبابها التاريخية وإلى كيفية تَمَكَّن الصليبيين من إحراز النصر على المسلمين، الذين يعانون الانقسام والتمزق. وبهذا تَمَكَّن الصليبيون من تأسيس إماراتهم، وتثبيت أنفسهم وبروزهم كجسم واحد لمقاومة ردة فعل المسلمين،

غير أنه بتكوين جبهة إسلامية موحدة، والتي ظهرت نتائجها على يد صلاح الدين الأيوبي، حيث استطاع المسلمون تقويض أركان المملكة الصليبية، ومحاولة الصليبيين استعادتها لكن ذلك لم يحدث.

حتى وإن تمكّن الصليبيون من تحقيق نتائج، وظهور مملكة بيت المقدس في طابعها الجديد بعكا، إلا أن العد التنازلي لزوال الوجود الصليبي قد بدأ، إلى أن جاءت ساعة الحسم وإنهائه بأرض الشام.

وهناك دراسة أخرى لها نصيبها في موضوع البحث عنوانها: "الاستيطان الصليبي في فلسطين (مملكة بيت المقدس اللاتينية)" للمؤلف يوشع براور ترجمة عبد الحافظ عبد الخالق البنا والمؤرخ براور يوشع هو أستاذ في تاريخ العصور الوسطى والحروب الصليبية سابقا بالجامعة العبرية بالقدس المحتلة.

هذا المؤلف أعطانا صورة عن الحركة الصليبية وتأسيس الإمارات الصليبية، وخاصة مملكة بيت المقدس، ونظمها وقوانينها وممارستها للأنشطة الاقتصادية، وقد كانت استفادتي معتبرة من عناصر هذا الكتاب وخاصة ما تعلق بالجانب الاقتصادي. كما استفدت من كتاب آخر له بعنوان "عالم الصليبيين"، ترجمة قاسم عبده قاسم، والذي يتناول فيه المؤرخ من الدعوة إلى الحملة الصليبية الأولى إلى تأسيس مملكة بيت المقدس، بالإضافة إلى ما جرى في بلاد الشام من صراع وأحداث، وحياة المجتمع الوافد فيما وراء البحار، فضلا عن الحياة الاقتصادية وبصفة خاصة التجارة.

ولا شك في أن التركيز على الاستيطان الصليبي له مدلوله في الدراسات الإسرائيلية الحديثة، إذ أن التجربة الاستيطانية اللاتينية في بلاد الشام عامة، وبيت المقدس بصفة خاصة، نموذج للاستيطان اليهودي المعاصر، وما يجب عليه من تجاوز للعقبات التي وقفت حاجزا في وجه المؤسسات الصليبية، بل أنه يتطلب منه إيجاد إستراتيجية جديدة، لعلها تضمن بقاءه واستمراره بالمنطقة.

وكذلك من المراجع المعربة التي اهتمت بالإقطاع في العصور الوسطى، نجد كتاب "الإقطاع والعصور الوسطى في غرب أوروبا" للمؤلفين كوبلاند وفينوچرادوف ترجمة محمد مصطفى زيادة، ولقد استفدت منه في تعريف الإقطاع بصفة خاصة.

ولاشك أن صعوبات جمّة قد واجهتني في انجاز هذا البحث، وهذا يرتبط حتما بكل بحث أكاديمي وخاصة عندما يتعلق بالمجال الاقتصادي، ولا أجنب الحقيقة إذا أقررت أن ما وجدته من معلومات في هذا المضمار يغلب عليها الطابع العام، كما أنها لا تميز بين الأطراف المكونة للكيان الصليبي ثم ما ورد خصيصا عن مملكة بيت المقدس فإنه يصب في معظمه في الجانبين السياسي والعسكري، هذا فضلا عما تثيره عملية ترجمة النصوص الأجنبية من مشقة نفسية مضنية وما تتطلبه كذلك من وقت طويل منهك لطاقة الباحث. وعلى الرغم مما بذلته من جهد في سبيل انجاز هذا البحث، فإن هذا الأخير لا يخلو من المثالب والنقائص، التي تعترى طبيعيا كل دراسة علمية بهذا الحجم وعليه، وعليه لا يفوتني في هذه المناسبة أن اعتذر لأعضاء اللجنة المُمتحنة الموقرة عما صدر مني من أخطاء.

وبهذه الدراسة أتمنى أن أكون قد وُفقت في إضافة لبنة جديدة في صرح البحث العلمي بالجزائر، وخاصة في مجال التاريخ الاقتصادي، كما أتمنى بهذا المولد العلمي الجديد أنني أثريت المكتبة الجزائرية خاصة والعربية عامة.

وفي ختام ذلك أسأل الله العلي العظيم أن يوفقني في كل ما يحب ويرضى.

الفصل الأول: بلاد الشام والحملة الصليبية الأولى

I- الأوضاع العامة ببلاد الشام قبيل الحملة الصليبية الأولى

أولاً: الأوضاع السياسية والعسكرية

- أ- توسع السلاجقة في بلاد الشام
- ب- انقسام بلاد الشام
- ج- تنافس الإمارات العربية ببلاد الشام
- د- انهيار الحكم الفاطمي ببلاد الشام

ثانياً: الأوضاع الاقتصادية ببلاد الشام

- أ- الزراعة
- ب- الصناعة
- ج- التجارة
- د- العوامل المؤثرة على النشاط الاقتصادي ببلاد الشام

ثالثاً: التركيبة السكانية والدينية ببلاد الشام

- أ- الأقليات العرقية
- ب- الطوائف والنحل

II- الحملة الصليبية الأولى وسقوط مدينة القدس

أولاً: انتصار الصليبيين في بلاد الشام والاستيلاء على بيت المقدس

ثانياً: التنافس بين الصليبيين وإرساء النظام الملكي

ثالثاً: نظام الحكم في مملكة بيت المقدس الصليبية

- أ- مجلس المملكة وصلاحيات الملك
- ب- تسيير الشؤون الإدارية بالمملكة
- رابعاً: القضاء في مملكة بيت المقدس الصليبية

- أ- المحكمة العليا
- ب- المحكمة البورجوازية
- ج- المحاكم العامة (الشعبية)
- د- محكمة الميناء (السلسلة)
- هـ- محاكم الكنيسة

و- المحاكم القنصلية (الجاليات الايطالية والبروفنسالية)

1- الأوضاع العامة ببلاد الشام قبيل الحملة الصليبية الأولى

أولاً: الأوضاع السياسية والعسكرية

أ- توسع السلاجقة في بلاد الشام

إن ما تميزت به بلاد الشام⁽¹⁾ من موقع استراتيجي جعلها قبلة للاستيطان البشري منذ أمد طويل، ولقد عرفت هذه المنطقة منذ النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي (الخامس الهجري) تدفق عنصر بشري تمثل في السلاجقة خدمة للخلافة العباسية وتوسيع للنفوذ⁽²⁾، وبوفاة طغرل بك سنة 1063م/455هـ⁽³⁾، جاء خلفه ابن أخيه ألب أرسلان⁽⁴⁾، الذي كان ذا طموح شديد،

⁽¹⁾ يحدها شرقاً نهر الفرات وغرباً البحر الأبيض المتوسط، وجنوباً البحر الأحمر وعريش مصر، ومن الشمال جبال طوروس المطلة على آسيا الصغرى (منطقة الأناضول) عرفت في العصر الإسلامي بالثغور الشامية والجزيرية، وقد أطلق عليها سكان بلاد الرافدين قديماً اسم أمورو، وهي مارتو بالسومرية وتعني الجهة الغربية، كما أن اليونانيين استخدموا مصطلح سورية واستخدمها الترك باسم سورستان، وجاءت في التوراة باسم آرام، والتي تعني بلاد الشام أو الشام أو الشام. وهناك من يجعله شاماً واحداً، بينما هناك من يجعله شامات، حيث بلاد فلسطين والأرض المقدسة إلى الأردن شاماً، ويقولون الشام الأعلى، كما أن دمشق وبلادها من الأردن إلى الجبال المعروفة بالطوال شاماً. وقد اختلف في تسميتها فهناك من يقول أن قوماً من كنعان بن حام خرجوا عند التفريق فشاءوا إليها، أي أجدوا ذات الشمال، بينما هناك من يرى أن تسميتها تعود إلى سام بن نوح عليه السلام. به القبلة الأولى وموضع الحشر والمسرى والأرض المقدسة والثغور الجليلية، كما بمأمهات المدن مثل بيت المقدس وحلب ودمشق وأنطاكية وطرابلس، أنظر، المقدسي شمس الدين أبو عبد الله، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط. 2، دار صادر، بيروت، 1906، ص. 151-152؛ ياقوت الحموي شهاب الدين أبو عبد الله، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977، مج. 3، ص. 311-312؛ القلقشندي أبو العباس أحمد، صبح الأعشى في صناعة الإنشا المطبعة الأميرية، القاهرة، 1914، ج. 4، ص. 90؛ الحريري أحمد بن علي بن المغربي، الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاحين على ديار المسلمين، تح. سهيل زكار، مكتبة الملاح، 1981، ص. 5؛ محمد بيومي مهران، بلاد الشام (مصر والشرق الأدنى القديم)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1990، ص. 11؛ وللمزيد عن امتداد بلاد الشام شمالاً وجنوباً، أنظر: الملحقين (01) و (02).

⁽²⁾ ينتسب السلاجقة إلى سلجوق بن دقاق ويقال له أيضاً تفاق ويقاق، كان ذا رأي ومشورة، له من الأولاد أرسلان وميكائيل وموسى، وأصلهم من الأتراك. يتوطنون فيما وراء النهر في موضع يسمى بنور بخارا، لعب السلاجقة دوراً ريادياً في المرحلة الأولى، إلا أنهم انقسموا إلى خمسة بيوت وهي: بيت طغرل بك وهي دولة السلاجقة الكبرى، وسلاجقة كرمان وهم عشيرة قاروت بك بن داود، وسلاجقة عراق العجم وكرديستان وسلاجقة الروم بآسيا الصغرى، وسلاجقة الشام وهي بيت تئش بن ألب أرسلان، أنظر، البنداري عماد الدين بن محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني، دولة آل سلجوق، شركة طبع الكتب العربية، مصر، 1900، ص. 5؛ الحسيني أبو الفوارس، أخبار الدولة السلجوقية، تح. محمد إقبال، لاهور، 1933، ص. 1-2؛ الفارقي أحمد بن يوسف بن علي، تاريخ الفارقي (الدولة المروانية)، تح. بدوي عبد اللطيف عوض، وزارة الثقافة، القاهرة، 1959، ص. 158، عاشور عبد الفتاح، الحركة الصليبية، ج. 1، ص. 81، حاشية (3).

⁽³⁾ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تح. أبي الفدا عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، مج. 8، ص. 360-361.

⁽⁴⁾ أبو شجاع محمد جغري بك داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق، الملقب بعضد الدولة. تولى السلطنة بعد وفاة عمه طغرل بك عظم مملكته ورهبت سطوته وانتصر على البيزنطيين في معركة ملازكرد الشهيرة سنة 1071م/463هـ، وألب معناها شجاع وأرسلان

وطد علاقته بمحمد بن أبي هاشم ومهنا أميري الحجاز، مكة والمدينة المنورة ودعاهما لولاء العباسيين والتخلي عن الدعوة للفاطميين، وكان ذلك سنة 1069م/462هـ⁽¹⁾.

بعد ذلك وجه نظره شطر بلاد الشام، وكانت جُل مدنها تدين بالولاء للدولة الفاطمية، غير أن أمير حلب محمود بن نصر المرداسي، بادر بالولاء للسلجقة وأقام الخطبة للعباسيين سنة 1069م/462هـ، ولكنه تخلى عنها في العام التالي، إلا أن السلطان السلجوقي ألب أرسلان توجه صوب حلب لمحاصرته فأستسلم له، ومنذ ذلك الحين أصبحت حلب ومدن شمال الشام تابعة للسلجقة.

وعليه فإن مشروع توسع ألب أرسلان على حساب منطقة الشام، وما جاورها من مصر لم تكن معالمه واضحة، خاصة وأن بعض مدن الشام لا تزال تدين بالولاء للدولة الفاطمية، كما أن مصر أصبحت بدون أهمية، خاصة بعد أن ضربتها المجاعة في عهد الحاكم المستنصر بالله (1035-1094م/427-487هـ)، التي استمرت سبع سنين، وكانت آثارها وخيمة على أهالي مصر، وقد عُرفت في التاريخ باسم الشدة المستنصرية⁽²⁾.

ومن خلال توسع ألب أرسلان في بلاد الشام أصبحت بيت المقدس ضمن الأملاك السلجوقية،

بمعنى أسد، وبهذا يكون الاسم الأسد الشجاع، قُتل في 10 من ربيع الأول سنة 1072م/465هـ، أنظر، ابن الأثير، المصدر السابق، مج.8، ص.393؛ ابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1994، مج.5، ص.69-71؛ ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، تح. سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، 1954، ج.2، ص.17؛ حامد زيان غانم، الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1983، ص.41.

⁽¹⁾ ابن الأثير، المصدر السابق، مج.8، ص.384؛ المقرئ تقي الدين أحمد بن علي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تح. محمد حلمي محمد أحمد، المجلس الإسلامي الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1996، ج.2، ص.304.

⁽²⁾ المقرئ، المصدر السابق، ج.2، ص.300؛ الغامدي علي محمد، بلاد الشام قبل الغزو الصليبي (1070-1098م/463-491هـ)، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي (غير منشورة)، إشراف، حسنين محمد ربيع، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، 1981-1982، ص.115؛ حامد زيان غانم، المرجع السابق، ص.41-42، أحمد السيد الصاوي، مجاعات مصر الفاطمية (أسباب ونتائج)، دار التضامن، بيروت، 1988، ص.49-65.

وكان ذلك سنة 1072م/464هـ، ولما مات تولى من بعده ابنه محمد ملكشاه⁽¹⁾.
 وفي سنة 1077م/469هـ، ثار المقدسيون على الحكم الفاطمي، فقام السلطان بإرسال جيش بقيادة أتنز بن أوق الخوارزمي⁽²⁾، وكانت بها حامية فاطمية ففتحتها عنوة ونهبها، وقتل كثيرا من أهلها، بعدها أصبحت بيت المقدس من أعمال الأمير أرتق بن أكسب⁽³⁾ التركماني، الذي استولى عليها بحد السيف وأسس بها ملكا لآل أرتق سنة 1077م/469هـ⁽⁴⁾.
 وفي سنة 1091م/483هـ توفي أرتق، وترك ولدين هما إيلغازي وسقمان فتوليا حكم بيت المقدس وما جاورها من أراضي فلسطين⁽⁵⁾.
 وفي سنة 1092م/485هـ توفي السلطان ملكشاه، فدبّ الضعف في دولة السلاجقة، وخاصة في الشام⁽⁶⁾، حيث بدأ الصراع بين بركياروق⁽⁷⁾ وإخوته، إضافة إلى عمه تاج الدولة تُتش، الذي

⁽¹⁾ أبو الفتح ملكشاه بن ألب أرسلان محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق، الملقب بجلال الدولة. توسعت السلطنة في عهده وامتدت من بلاد فارس شرقا إلى حدود مصر غربا، توفي سنة 1092م/485هـ، وبهذا دب الضعف في الدولة السلجوقية. أنظر، ابن الأثير، المصدر السابق، مج. 8، ص. 481-485؛ ابن خلكان، المصدر السابق، ص. 283؛ حسين محمد عطية، إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون 1171-1268، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1989، ص. 110.
⁽²⁾ أطسز، لا اسم له أو لا فرس له، أنظر، الغامدي، المرجع السابق، ص. 128.
⁽³⁾ أرتق بن أكسب جد الملوك الأرتقية، وهو من التركمان، ولاء تاج الدولة تُتش على القدس (1056 أو 1057م/448 أو 449هـ)، وبعد وفاته، ملك ولداه من بعده وهما سكرمان وإيلغازي إلى أن قامت الدولة الفاطمية بانتزاع بيت المقدس منهما في سنة 1098م/491هـ، أنظر، ابن خلكان، المصدر السابق، ج. 1، ص. 191.
⁽⁴⁾ العارف باشا عارف، تاريخ القدس، ط. 2، دار المعارف، ص. 65-66.
⁽⁵⁾ نفسه، ص. 67.
⁽⁶⁾ ابن الأثير، المصدر السابق، مج. 8، ص. 481-485، عاشور عبد الفتاح، بحوث ودراسات في العصور الوسطى، دار الأحد، بيروت، 1977، ص. 57؛ أحمد الشامي، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، القاهرة، 1985، ص. 36؛ حسين محمد عطية، إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، ص. 110؛ الغامدي، المرجع السابق، ص. 185؛ مسفر بن سالم عريج، الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي قبل قيام الدولة الأيوبية في مصر 1097-1173م/491-569هـ، دار المطبوعات الحديثة، جدة، 1986، ص. 35.
⁽⁷⁾ أبو المظفر الملقب بركن الدين بن السلطان ملكشاه، وهو أحد سلاطين السلاجقة، وبعد وفاة والده، دخل مع عمه تاج الدولة تُتش في صراع أودى بحياة هذا الأخير. توفي سنة 1105م/498هـ. أنظر، ابن خلكان، المصدر السابق، مج. 1، ص. 268؛ ابن الأثير، المصدر السابق، مج. 9، ص. 77.

أصبح ضمن دائرة الخلاف، وطالب هو الآخر بالعرش، فأنضم إليه كل من أق سنقر قسيم الدولة⁽¹⁾ وياغي سيان⁽²⁾، وبهذا ازداد طمعه وهمته، فأعلن نفسه سلطاناً سنة 1093م/486هـ⁽³⁾، و انتصر على بركياروق عند قرية سرخاب فيما وراء النهر، وبذلك لقي التأييد من الخليفة العباسي المستنصر بالله (1094-1118م/487-512هـ)⁽⁴⁾، غير أن هناك معركة فاصلة دارت بينه وبين ابن أخيه بركياروق سنة 1095م/488هـ كانت سببا في هزيمته ومقتله⁽⁵⁾.

وبهذا ستتدخل بلاد الشام مرحلة حرجة في تاريخها، من أجل التنافس على عرش السلطنة، ويُعد ذلك من العوامل المساعدة على انتصار الصليبيين في بلاد الشام.

ب- انقسام بلاد الشام

بعد مقتل تاج الدولة تُنش سنة 1095م/488هـ، أصبحت بلاد الشام قاب قوسين أو أدنى من الانقسام على نفسها، إذ أن ولديه دقاق ورضوان وقادته سيتحكمون في مصير المنطقة⁽⁶⁾، حيث

⁽¹⁾ أبو سعيد أق سنقر بن عبد الله الملقب بقسيم الدولة المعروف بالحاجب، جدُّ الأتابكة أصحاب الموصل وهو والد عمان الدين زنكي،

كان مملوكا للسلطان ملكشاه، حدثت بينه وبين تاج الدولة تُنش منافرة أودت بحياته، وكان ذلك في جمادى الأولى سنة

1094م/487هـ. أنظر، ابن خلكان، المصدر السابق، مج.1، ص.241؛ ابن الأثير، المصدر السابق، مج.8، ص.494.

⁽²⁾ يذكره كل من ابن الأثير وابن خلدون باسم باغيسيان، هو ابن محمد التركماني، أحد أشهر قادة السلطان السلجوقي ملكشاه، عينه

هذا الأخير واليا على أنطاكية حين مجيئه إلى بلاد الشام سنة 1086م/479هـ. أنظر: ابن الأثير، المصدر السابق، مج.9، ص.14؛

ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط

المتن ووضع الحواشي خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2000، ج.4، ص.85؛ جمال

الدين محمد الزنكي، مؤيد الدين ياغي سيان صاحب أنطاكية والحملة الصليبية الأولى 1085-1098م/477-491هـ،

حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، (1998)، ع.18.

⁽³⁾ ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين، 1908، ص.122، ابن الأثير، المصدر السابق، ج.8، ص.487؛ ابن

العدم، زبدة الحلب، ج.2، ص.107؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج.5، ص.17-18؛ أحمد الشامي، المرجع السابق، ص.36.

⁽⁴⁾ ابن الأثير، المصدر السابق، ج.8، ص.495-496؛ الغامدي، المرجع السابق، ص.192؛ مسفر بن عريج، المرجع السابق،

ص.41.

⁽⁵⁾ ابن القلانسي، المصدر السابق، ص.129-130؛ ابن العديم، المصدر السابق، ج.2، ص.119؛ محمد مؤنس أحمد عوض، الحروب

الصليبية، العلاقات بين الشرق والغرب في القرنين 12 و13م، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2000/1999،

ص.44؛ مسفر بن عريج، المرجع السابق، ص.41-42.

⁽⁶⁾ ابن العديم، المصدر السابق، زبدة الحلب، ج.1، ص.235-236؛ ابن الأثير، المصدر السابق، مج.8، ص.502؛ ابن القلانسي،

أصبحت مدينة حلب وقلعتها تحت سلطة رضوان والأتابك⁽¹⁾ جناح الدولة حسين⁽²⁾، في حين أصبحت دمشق تحت راية أخيه دقاق بمرافقة الأمير ساوتكين نائب تاج الدولة تُنش⁽³⁾.

ومن خلال ما جرى من تنافس بين الأخوين، نرى بأن التمزق السياسي والعسكري قد ضرب بلاد الشام، نتيجة الطمع في عرش السلطنة⁽⁴⁾.

وعليه أصبحت هذه المنطقة تعاني الفقرة والتشتت نتيجة هذا الصراع، وكل ذلك في مصلحة الصليبيين⁽⁵⁾.

ومما زاد الطين بلة، استمرار الخلاف بين الأخوين ومن سار في ركبهما، حينها كانت الجيوش الصليبية تتقدم باتجاه الشام، وأحرزت نصرا مؤزرا على السلاجقة في آسيا الصغرى⁽⁶⁾.

ولما بلغت الأخبار إلى بلاد الشام، عن زحف هذه الجيوش في اتجاه الشام، لم تسع القوى السلجوقية إلى توحيد صفوفها واتخاذ التدابير والاحتياطات، بل تفرقت لتبقى أنطاكية بوابة الشام من جهة الشمال الغربي، تعاني الحصار المضروب عنها طيلة فترة زمنية طويلة⁽⁷⁾.

المصدر السابق، ص.130.

¹ لقب يتكون من لفظين، أتا بمعنى أب وبك بمعنى أمير، أي الأمير الوالد، وفيما بعد أصبح لحامل هذا اللقب والمهمة سلطانا ونفوذا في الدولة، وأدى ذلك إلى تقسيم الدولة إلى دويلات مستقلة يحكمها الأتابكة، وأول من تلقب بذلك نظام الملك وزير السلطان السلجوقي ملكشاه، أنظر، ابن خلكان، المصدر السابق، ج.1، ص.365؛ الغامدي، المرجع السابق، ص.289-290؛ مسفر بن سالم بن عريج، المرجع السابق، ص.45، حاشية(1).

² ابن القلانسي، المصدر السابق، ص.130؛ ابن الأثير، المصدر السابق، مج.8، ص.502؛ ابن العديم، المصدر السابق، زبدة الحلب، ج.1، ص.336؛ مسفر بن سالم بن عريج، المرجع السابق، ص.43.

³ ابن العديم، المصدر السابق، زبدة الحلب، ج.1، ص.337؛ ابن القلانسي، المصدر السابق، ص.130، مسفر بن عريج، المرجع السابق، ص.45-46.

⁴ ابن القلانسي، المصدر السابق، ص.132؛ ابن العديم، المصدر السابق، زبدة الحلب، ج.2، ص.124-126؛ حسين محمد عطية، المرجع السابق، ص.112.

⁵ ابن العديم، المصدر السابق، زبدة الحلب، ج.2، ص.127؛ ابن القلانسي، المصدر السابق، ص.133؛ الغامدي، المرجع السابق، ص.282.

⁶ الغامدي، المرجع السابق، ص.283.

⁷ ابن العديم، المصدر السابق، ج.2، ص.129-130؛ ابن القلانسي، المصدر السابق، ص.133-134؛ الغامدي، المرجع السابق،

ج- تنافس الإمارات العربية ببلاد الشام:

قامت بمنطقة الشام إمارات عربية كان لقادتها طموح سياسي، ولعبت دورا في الصراع السلجوقي، بل كان هناك صراع داخل الأسر التي حكمت هذه الإمارات، وحتى التنافس فيما بينها، وطبعا كان لذلك أثر على الوحدة السياسية للشام.

ومن هذه الإمارات التي ظهرت بالمنطقة إمارة بني مرداس في مدينة حلب، بالإضافة إلى أعلى منطقة الفرات⁽¹⁾، إذ أنه في سنة 399هـ/1008م استولى صالح بن مرداس على مدينة الرحبة على نهر الفرات وأعلن تبعيته للدولة الفاطمية، وبدأ يوسع سلطانه⁽²⁾.

وبحلول سنة 415هـ/1025م، تمكن من الاستيلاء على حلب وقلعتها⁽³⁾، وواصل طموحه ليوسع نفوذه إلى أن قُتل سنة 420هـ/1029م⁽⁴⁾.

وأثناء التوسع الفاطمي شمال بلاد الشام، كان ولدا صالح قد ملكا من بعده، حيث أخذ ابنه نصر مدينة حلب، بينما أخذ ابنه شمال قلعتها⁽⁵⁾، وفي سنة 429هـ/1038م، قُتل نصر ودخل الفاطميون حلب تحت قيادة أنوتشكين الذبيري، إلى أن توفي سنة 433هـ/1042م فتملكها شمال بن صالح بأمر من الحاكم الفاطمي المستنصر (427-487هـ/1035-1094م).

وفي فترة حكمه عم الرخاء بإمارته، غير أن هناك منافرة حدثت بينه وبين الحاكم الفاطمي، فسير هذا الأخير قواته إلى حلب، لكنه لم يستطع فتحها ثم صلح الحال بينهما، وفي سنة 448هـ/1056م سلم شمال المدينة للفاطميين عن طيب خاطر⁽⁶⁾، ولكن الأمر لم يستتب فأستغل

ص.ص. 283-284.

⁽¹⁾ الغامدي، المرجع السابق، ص. 195.⁽²⁾ ابن الأثير، المصدر السابق، مج. 8، ص. 53؛ الغامدي، المرجع السابق، ص. 195.⁽³⁾ الأنطاكي يحيى بن سعيد، تاريخ الأنطاكي، تح. عمر عبد السلام تدمري، 1990، جروس برس، طرابلس، لبنان، ص. 390.⁽⁴⁾ نفسه، ص. 411؛ ابن العديم، زبدة الحلب...، ج. 1، ص. 201.⁽⁵⁾ ابن العديم، المرجع نفسه، ج. 1، ص.ص. 200-204.⁽⁶⁾ ابن العديم، زبدة الحلب، ج. 1، ص.ص. 215-233.

ذلك محمود بن شبل الدولة بن صالح بن مرداس ودخلها سنة 452هـ/1060م⁽¹⁾. وبسبب الخلافات وتواصل الضغط الخارجي سقطت الأمانة أخيراً، في فترة حكم سابق بن محمود سنة 473هـ/1080م على يد مسلم بن قريش العقيلي⁽²⁾، ولما ملك شرف الدولة حلب أحسن إلى أهلها، وخفف عنهم أثقالاً كثيرة⁽²⁾. كما ظهرت هناك إمارات أخرى بمنطقة الشام وما جاورها، وباضمحلال الدولة الحمدانية⁽³⁾ سنة 369هـ/979م برزت الإمارة العقيلية بالموصل والمروانية بشمالها، حيث تأسست إمارة بني عقيل على يد المقلد بن المسيّب سنة 386هـ/996م بعد أن انتزعت الموصل من البويهيين⁽⁴⁾. وبعد أن وصل الحكم إلى مسلم بن قريش، بدأ يوسع سلطانه، وتمكن من الاستيلاء على حلب، دخل في صراع مع سليمان بن قتلمش حاكم سلاجقة الروم⁽⁵⁾، وعلى إثر ذلك قُتل مسلم بن قريش سنة 478هـ/1085م⁽⁶⁾، فأصبحت الإمارة العقيلية تحت سلطه أخيه إبراهيم، الذي هُزم أمام تاج الدولة تُتَش سنة 486هـ/1093م، حيث استولى هذا الأخير على الموصل، وقدمها لعلي بن

⁽¹⁾ ابن الأثير، المصدر السابق، مج. 8، ص. 352-353.

⁽²⁾ ابن العديم، زبدة الحلب، ج. 1، ص. 288-303.

⁽³⁾ ينتسب الحمدانيون إلى العرب العدنانيين، من بطون تغلب بن وائل من أعظم بطون ربيعة بن نزار، مواطنهم في بادية الشام بالجزيرة الفراتية، كان لدولتهم وجود بين سنتي (929-1003م/317-394هـ). وللمزيد من التفاصيل عن تأسيس الدولة وتوسعها وسقوطها، أنظر: عطية القوسي، تاريخ الدول المستقلة في المشرق عن الخلافة العباسية، مكتبة دار النهضة العربية، 1992-1993م، (د.ب.ن)، ص. 18-26.

⁽⁴⁾ ابن الأثير، المصدر السابق، مج. 7، ص. 483-485؛ طقوش سهيل، المرجع السابق، ص. 59. يرجع نسب بني بويه إلى بهرام جور أحد الملوك الساسانيين. تتكون أسرهم من ثلاثة رجال هم: علي والحسن وأحمد أبناء بويه، عَظُم أمرهم وازداد نفوذهم واستقلوا بحكم جزء كبير من ممتلكات العباسيين، بل شاركوا الخلافة في حكم العراق وحتى حدود شبه الجزيرة العربية، وكانت لهم يد نافذة في إدارة شؤون الخليفة العباسي. للمزيد من التفاصيل عن النفوذ البويهي، أنظر: عطية القوسي، المرجع السابق، ص. 62-74.

⁽⁵⁾ من الأسر السلجوقية التي توسعت على حساب آسيا الصغرى (الأناضول)، وأخذت اسمها "سلاجقة الروم" من الإقليم الذي استقرت به، تأسست دولتهم في منتصف القرن الخامس الهجري (منتصف الحادي عشر الميلادي)، وتوسعت على حساب الأقاليم المجاورة، للمزيد من المعلومات عن سلاجقة الروم، أنظر: ابن البيي، تاريخ سلاجقة الروم، دراسة وترجمة، محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة العربية، القاهرة، (د.ت.ن).

⁽⁶⁾ ابن العديم، زبدة الحلب، ج. 1، ص. 317؛ طقوش، المرجع السابق، ص. 60.

مسلم، إلى أن تنازل عنها للسلاجقة سنة 489هـ/1096م⁽¹⁾.

أما فيما يخص الإمارة المروانية فكانت شمال الموصل، حيث ظهرت سنة 372هـ/982م وتوسعت على حساب ديار بكر، بالإضافة إلى الموصل، كل أمرائها الأوائل قُتلوا ولما وصل الحكم إلى أحمد نصر الدولة زاد نفوذها، بل وطدت علاقتها بالدولتين العباسية والبيزنطية، وأصبحت في خدمة السلاجقة، وبعد وفاة أميرها أقتسمت أملاكها، وسقطت هي الأخرى في يد السلاجقة سنة 478هـ/1085م⁽²⁾.

كما ظهرت ببلاد الشام إمارات أخرى، مثل إمارة شيزر والتي أسسها سديد الملك علي بن المقلد بن منقذ صاحب كفرطاب⁽³⁾، الذي استولى على قلعة شيزر والتي كانت تحت حكم أسقف مدينة البارة⁽⁴⁾، وهذه الأخيرة خاضعة للنفوذ البيزنطي، إذ أنه ضيق عليها الخناق، وتسلمها أخيراً بمقابل مالي في سنة 474هـ/1081م⁽⁵⁾.

ودخلت هذه الإمارة في صراع مع السلاجقة ببلاد الشام، كما حافظت على كيانها وتقربت من السلاجقة في عهد أميرها نصر بن علي بن منقذ، ودخلت في طاعة السلطان ملكشاه، فوافق عليه هذا الأخير أميراً على شيزر.

وبعد وفاة ملكشاه تجنبت الإمارة الدخول في صراع مع أمراء السلاجقة بالشام⁽⁶⁾، وأثناء الحملة الصليبية الأولى باتجاه مدينة القدس كان أميرها في خدمة الصليبيين⁽⁷⁾.

كما استطاع طموح سياسي آخر أن يؤسس كيانه، ويثبت وجوده طيلة فترة من الزمن، وتمثل

⁽¹⁾ ابن الأثير، المصدر السابق، مج.9، ص.5؛ الغامدي، المرجع السابق، ص.243.

⁽²⁾ طقوش، المرجع السابق، ص.60-61.

⁽³⁾ بلدة بين معرة النعمان وحلب، أنظر، ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج.4، ص.470.

⁽⁴⁾ بلدة من نواحي مدينة حلب، وهي ذات بساتين، كما أن البارة إقليم بالجزيرة الخضراء بالأندلس، أنظر، الحموي، المصدر السابق، ج.1، ص.320.

⁽⁵⁾ ابن القلانسي، المصدر السابق، ص.113؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج.1، ص.306.

⁽⁶⁾ مسفر بن سالم عريج، المرجع السابق، ص.91؛ الغامدي، المرجع السابق، ص.249-252، 250.

⁽⁷⁾ مجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ت. حسن حبشي، دار الفكر العربي، 1958، ص.107-108.

ذلك في بني عمار، إذ أنهم استقروا بطرابلس وأسسوا إمارتهم علي يد أبي طالب عبد الله بن محمد بن عمار الطائي، غير أن الفاطميين تمكنوا من استرجاع المدينة إلى حكمهم. ونتيجة للشدة المستتصرية بمصر، تمكن أبو طالب بن عمار من الاستيلاء على طرابلس سنة 462هـ/1070م، وبقي تابعا يدين بالولاء للدولة الفاطمية، بل أن أبي طالب كان شيعي، بالإضافة إلى أن سكان المدينة كانت غالبيتهم على المذهب الشيعي، واستطاع أبو طالب بن عمار أن يوسع نفوذه على حساب المناطق المجاورة، إلى أن توفي سنة 464هـ/1072⁽¹⁾، فخلفه ابن أخيه جلال الملك أبو الحسن⁽²⁾. وهذا بعد أن تمكن من التغلب على منافسه أخا أمين الدولة بن عمار، وكان ذلك بمساعدة سيد الملك علي بن منقذ⁽³⁾، فأحسن السيرة والإدارة في الإمارة "ولم يظهر لفقد عمه أثر كفايته"⁽⁴⁾.

ومن خلال ما جرى في المنطقة من تنافس أمراء البيت السلجوقي، وتطلع الفاطميين للمحافظة على مكانتهم ببلاد الشام، وتقدم الزحف الصليبي باتجاه بيت المقدس والتي سقطت في أيديهم عام 1099م/492هـ⁽⁵⁾. أصبحت طرابلس قاب قوسين أو أدنى من السقوط في قبضة الصليبيين، وكان لهم ذلك، إذ توجهت القوات الصليبية إليها وسقطت في أيديهم سنة 1109م/503هـ⁽⁶⁾، ويقول المؤرخ ابن الأثير: "في هذه السنة (503هـ) حادي عشر ذي الحجة ملك الفرنج طرابلس"⁽⁷⁾.

¹ الغامدي، المرجع السابق، ص. 253-255. ويقول المقرئ: "وفيها (سنة 464هـ) مات القاضي الأجل أمين الدولة أبو طالب عبد الله بن عمار بن الحسين بن قُندس بن عبد الله بن إدريس ابن أبي يوسف الطائي". أنظر، اتعاض الحنفا، ج. 2، ص. 307؛ بينما يقول ابن الأثير: "في هذه السنة (464هـ) في رجب توفي القاضي أبو طالب بن عمارة قاضي طرابلس، وكان قد استولى عليها واستبد بالأمر فيها"، غير أن ابن العديم يذكر وفاته سنة 465هـ. أنظر، اتعاض الحنفا، ج. 2، ص. 307؛ الكامل، مج. 8، ص. 392؛ زبدة الحلب، ج. 2، ص. 35.

² ابن الأثير، المصدر السابق، مج. 8، ص. 392.

³ ابن العديم، زبدة الحلب، ج. 2، ص. 35.

⁴ ابن الأثير، المصدر السابق، مج. 8، ص. 392.

⁵ وليم الصوري، المصدر السابق، ج. 2، ص. 137.

⁶ نحي فتحي الجوهري، إمارة طرابلس في القرن الثالث عشر الميلادي/السابع الهجري، 2008، دار العالم العربي، القاهرة، ص. 35.

⁷ ابن الأثير، المصدر السابق، مج. 9، ص. 136.

كما كانت هناك إمارات عربية أخرى ببلاد الشام، ومنها إمارة ابن أبي عقيل في مدينة صور تنافس عليها السلاجقة والفاطميون، والتي خضعت للنفوذ الفاطمي. ونتيجة لسوء أحوالها سقطت أخيراً في أيدي الصليبيين، هذا بالإضافة إلى إمارة خلف بن ملاعب في حمص⁽¹⁾ وأفامية⁽²⁾، ودخلت هذه الأخيرة في صراع مع إمارة شيزر، فكان لذلك أثر على وجودها⁽³⁾.

وأثناء تقدم الصليبيين باتجاه بيت المقدس، كانت بعض مدن الشام مثل شيزر وحمص وحماة وغيرها من المدن والقرى، في خدمة أمراء وفرسان الحملة الصليبية الأولى⁽⁴⁾.

د- انهيار الحكم الفاطمي ببلاد الشام:

إلى جانب تنافس الإمارات العربية ببلاد الشام، والصراع من أجل السلطة داخل البيت السلجوقي، كان هناك تراجع للنفوذ الفاطمي بمنطقة الشام، بسبب توسع السلاجقة باتجاه الجنوب، كما أن مصر قد مرت بأزمة حادة، كان لها أثرها السلبي على الدولة، بالإضافة إلى أن هناك تمرداً للجند كان له تأثيره على إدارة دفة الحكم⁽⁵⁾.

وعشية مجيء الصليبيين لم يُدرك الفاطميون حقيقة الغزو الصليبي، إذ اعتبروا ذلك مثل ما يحدث مع البيزنطيين، وأن ذلك لا يمكن أن يتعدى حدود مدينة أنطاكية، خاصة وأن هذه الأخيرة خضعت للسيطرة البيزنطية، غير أن الفاطميين بادروا بمراسلة قادة الحملة الصليبية من أجل التعاون لمحاربة السلاجقة واقتسام الشام⁽⁶⁾، وكان ذلك في ما بين شهري جانفي وفيفري

⁽¹⁾ من المدن القديمة ببلاد الشام ذات الأسوار، بما قلعة حصينة، تقع بين مدينتي حلب ودمشق. للمزيد عن هذا البلد، أنظر: ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج.2، ص.ص.302_304.

⁽²⁾ من مدن الشام ذات الحصانة، قريبة من الساحل، ويُطلق عليها أيضاً اسم فامية.، للمزيد عن هذه المدينة الشامية العريقة، أنظر: ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج.1، ص.227.

⁽³⁾ الغامدي، المرجع السابق، ص.ص.267،264،259.

⁽⁴⁾ وليم الصوري، المصدر السابق، ج.2، ص.43.

⁽⁵⁾ عاشور، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ص.167؛ الغامدي، المرجع السابق، ص.294.

⁽⁶⁾ الغامدي، المرجع السابق، ص.ص.294-296؛ حامد زيان غانم، المرجع السابق، ص.46.

1098م/491هـ⁽¹⁾.

كما أن الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي، اغتتم فرصة الصراع السلجوقي الصليبي في شمال الشام، وهاجم بيت المقدس وانتزعا عنوة من الأرتقة في شهر شعبان سنة 1098م/491هـ⁽²⁾.

وبهذه الصراعات والانقسامات تمكن أمراء وفرسان الحملة الصليبية الأولى، من دك حصون مدن بلاد الشام والاستيلاء عليها، بل الاستيطان فيها ما يقارب القرنين من الزمان.

ثانيا: الأوضاع الاقتصادية في بلاد الشام:

أ- الزراعة:

عندما يكون الحديث عن الحالة الاقتصادية لأي بلد كان، فإنه يتبادر إلى الذهن أوضاع القطاع الاقتصادي من زراعة وصناعة وتجارة، لأن هذه النشاطات تشكل الركيزة الأساسية لحياة الإنسان.

وتُعد أراضي الشام من أجود الأراضي الصالحة للغرس، وخاصة أرض فلسطين⁽³⁾، إذ أن العرب الفاتحين قد أبدوا اهتماما كبيرا بها، واستندوا إلى مبدأ من يُحيي أرضا مواتا فهي له. ويظهر إعجابهم بهذه الأراضي الخصبة من خلال الشعر الذي نظمّه حولها زياد بن حنظلة أثناء فتح عمر رضي الله عنه لمدينة إيليا (بيت المقدس)، "وألقت إليه الشام أفلاذ بطنها وعيشا خصيبا ما تعد مآكله"، وإن دل ذلك فإنه يدل على خصوبة أراضي الشام، وإقبال الفاتحين على استغلالها، حتى قيل: "العرب عمال زراعة ورجال براعة"⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ عاشور، المرجع السابق، ص. 170-171.

⁽²⁾ ابن خلكان، المصدر السابق، مج. 1، ص. 191؛ الغامدي، المرجع السابق، ص. 297؛ عاشور، الحركة الصليبية، ج. 1، ص. 116؛ مسفر بن سالم عريج، المرجع السابق، ص. 51.

⁽³⁾ حازم أحمد سليم الحلاق، الأوضاع الاجتماعية والعلمية والدينية والاقتصادية والسياسية للمشرق الإسلامي قبيل الحروب الصليبية، (334-490هـ/945-1097م)، رسالة ماجستير (غير منشورة)، إشراف، رياض مصطفى شاهين، كلية الآداب، قسم التاريخ والآثار، الجامعة الإسلامية، غزة، 2014م/1436هـ، ص. 92.

⁽⁴⁾ كرد علي، خطط الشام، ج. 4، ص. 162-163.

وبما أن الأرض تنتج غلالاً متنوعة بفضل الله ومنته، فهي مصدر قوت الإنسان، حيث قال تعالى: "وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنْعَامِ فِيهَا فَالْكَهْمَةُ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ"⁽¹⁾، وهذا كله من نعم الله على الإنسان، وقد وُضِعَ الخراج⁽²⁾، من أجل أن يكون لبيت مال المسلمين مورداً اقتصادياً تستند إليه⁽³⁾.

وبما أن الزراعة تشكل حينذاك الركن الأساسي في الحياة، فقد اهتم الخلفاء بحفر الآبار وشق القنوات، ولم يقتصر دور الدولة على توفير المياه فحسب، بل عملت على تخفيف العبء عن المزارعين، حيث قامت بتخفيض قيمة الضرائب وألغت الضريبة النقدية على بعض المحاصيل، وأخذها عيناً بنسبة معينة من الغلة.

في حين لا خراج على الأرض غير المزروعة، وهذا بحد ذاته تشجيع لممارسة النشاط الزراعي. ونتيجة لخصب أراضي بلاد الشام، أصبحت منبثاً لكثير من أنواع المزروعات، حيث يوجد الرز في أريحا وبيسان، كما كانت زراعة قصب السكر، وهذا نتيجة الظروف الملائمة⁽⁴⁾. ومن مدن الشام بالس والتي تكثر بها غلات القمح والشعير⁽⁵⁾، وقد كانت الحنطة والشعير يزرعان في كل أقاليم البلاد الإسلامية حيث وفرة المياه، وفي الأماكن التي يقل فيها الماء فيعتمدون على ماء المطر⁽⁶⁾. ويعد القمح غذاءً أساسياً لكثير من الناس وارتفاع سعره دليل على غلاء المعيشة، نتيجة طلبه وندرته في السوق⁽⁷⁾.

⁽¹⁾ سورة الرحمن، الآيات، 10-12.

⁽²⁾ مقدار معين من الغلة الزراعية ويكون على الأرض التي صولح عليها المشركون. أنظر، إسماعيل سامعي، معالم الحضارة العربية الإسلامية، ط. 2، 2017، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص. 145. للمزيد عن الخراج، أنظر: الماوردي، الحاوي الكبير، تح. محمود مطرجي، دار الفكر، 1994، ج. 4، ص. 251؛ وأيضاً، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تح. أحمد مبارك البغدادي، 1989، مكتبة دار ابن قتيبة، الكويت، ص. 181.

⁽³⁾ أحمد عبد الباقي، معالم الحضارة العربية في القرن الثالث الهجري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1991، ص. 105.

⁽⁴⁾ نفسه، ص. 105، 107، 109، 111.

⁽⁵⁾ ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، تح. سهيل زكار، (د.ط)، دار الفكر، بيروت، لبنان، ص. 123.

⁽⁶⁾ أحمد عبد الباقي، المرجع السابق، ص. 108.

⁽⁷⁾ أحمد السيد الصاوي، المرجع السابق، ص. 44.

وحسب ما ذكره النويري، فإن سكان بلاد الشام يعتمدون طريقة تقسيم الأرض الزراعية إلى قسمين، حيث يزرعون شطرا ويتركون الشطر الآخر، بالمقابل يُزرع الذي كان متروكا ويُريح الذي كان مزروعا، وطبعا هذا يزيد من الطاقة الإنتاجية للتربة⁽¹⁾.

والى جانب تلك المحاصيل كان للزيتون أهمية بمكان، حيث كان زيتها مثالا للجودة والنظافة، "وبلاد الشام أكثر بلاد الله زيتونا"⁽²⁾. والنشاط الزراعي للسكان في معرة النعمان القمح وهو كثير وفيها شجر وفير من التين والزيتون والفسق والوز والعنب، وتعتمد المدينة في شربها على مياه الأمطار والآبار⁽³⁾.

كما أنه يوجد بطرابلس مزارع وبساتين، وكثير من قصب السكر والموز والليمون، وغيرها كثير من الأشجار المثمرة، وكذلك في صيدا قصب السكر⁽⁴⁾. وببيت المقدس المحاصيل الزراعية وأشجار الزيتون والتين وغيرها من الأشجار المثمرة⁽⁵⁾، ومن المدن الشامية بفلسطين نجد غزة ذات الساحل العامر بالبساتين و"أجلُّ فاكهتها العنب والتين وبها بعض النخيل"⁽⁶⁾.

وفي حلب يُزرع القطن والسّمسم والبطيخ، والخيار والدخن والكروم والذرة والمشمش، والتفاح والتين، وكل ذلك يعتمد على ماء المطر⁽⁷⁾، كما أن هناك مدن شامية كثيرة ذات زروع وثمار، ومنها عسقلان التي فيها النخل الكثير وأصناف من التمور والرمان، وأن تفاح لبنان رائحته طيبة وطعمه لذيذ، وفي نابلس شجر الزيتون وزيتها ذائع الصيت وببيت المقدس أشجار الكروم⁽⁸⁾، كما

¹ نهاية الأرب في فنون الأدب، تح. علي بوملحم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج. 8، ص. 187.

² الثعالبي أبي منصور عبد الملك النيسابوري، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ص. 532.

³ خسرو ناصر، سفرنامه، تر. يحيى الخشاب، الهيئة العامة المصرية للكتاب، مصر، 1993، ص. 56.

⁴ المصدر نفسه، ص. 57، 60.

⁵ المصدر نفسه، ص. 66-67.

⁶ القلقشندي، صبح الأعشى، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1914، ج. 4، ص. 98.

⁷ ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، مج. 2، ص. 284.

⁸ كرد علي، خطط الشام، ج. 4، مطبعة الترقى، دمشق، 1926، ص. 164-167.

في أريحا زراعة النخيل والموز والسكر الكثير⁽¹⁾.

وعلى ما يبدو فإن حركة الحج المسيحي⁽²⁾ إلى الأراضي المقدسة، وما شاهده هؤلاء الحجاج من خيارات متنوعة من ثمار وزروع، كان له أثر على سكان الغرب اللاتيني، إذ أنهم أصبحوا أكثر طمعا للاستيلاء على تلك الأراضي⁽³⁾. ويظهر ذلك العامل المؤثر في خطاب⁽⁴⁾ البابا أوربان الثاني Urban II⁽⁵⁾ الموجه للحاضرين أثناء دعوته إلى الحملة الصليبية، حيث قال: "الله أعطى

¹ القزويني زكرياء بن محمد، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، (د.ط.)، ص.142.

² لم تكن زيارة الأراضي المقدسة من الأعمال الواجبة على المسيحيين، والتي اعتبروها مستحذثة، وحتى أن آباء الكنيسة الأوائل عارضوها نتيجة ما يتعرض له الحجاج من أخطار، ولكنهم أفروها منذ القرن الرابع أو الخامس الميلادي، بل حتى أن الكنيسة كانت تطلب من أتباعها المخطئين بالتكفير عن ذنوبهم، بزيارة الأراضي المقدسة بفلسطين. لكن بدعوة البابا أوربان الثاني إلى الحملة الصليبية الأولى في كليرمونت بفرنسا سنة 1095م، أصبح الإقبال على الأراضي المقدسة يزداد قصد تحرير الأرض من المسلمين حسب ما يزعمون، وقد تدخلت مع ذلك دوافع أخرى سياسية واقتصادية واجتماعية. للمزيد عن حركة الحج المسيحي، أنظر: هنادى السيد محمود، حركة الحج إلى مملكة بيت المقدس الصليبية في القرنين 12 و13 ميلادي، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2013، ص.ص.28-31، 62.

³ حازم أحمد سليم الحلاق، المرجع السابق، ص.92.

⁴ للمزيد عن خطاب البابا أوربان الثاني في مجمع كليرمونت بجنوب فرنسا، أنظر: الملحق رقم: (03).

⁵ هو أودو Odo من شاتيلون Chatillon، أو أودون Oddone، أو أودز Eudes، أو أوتو Otto أو أودو Odo من لاجيري Lagery، وأصبح يحمل اسم أوربان Urban. هو أول من دعا إلى الحملة الصليبية الأولى، ولد حوالى سنة 1042م ب: شاتيلون على مارن Surmarne، من عائلة نبيلة من شامباني Champagne، بعد دراسته مع سانت برونو Saint Bruno في ريمس Reims، دخل دير كلوني Cluny بين عامي 1067م و1070م وسرعان ما أصبح مقدا للدير بين سنتي 1074م و1079م، وأصبح من المؤيدين المتحمسين للإصلاح الغريغوري، وتمت مكافأته بالترقية إلى رتبة الكاردينال وأسقف أوستيا Ostia من طرف غريغوري السابع Gregory VII، وعند وفاة فيكتور الثالث Victor III خليفة غريغوري في 06 سبتمبر 1087م، كانت روما في حالة فوضى والتي دامت ستة أشهر قبل أن يُنتخب أودو. وأخيرا تم انتخابه لمنصب البابا باسم أوربان الثاني، وتم تنصيبه في تيراسينا Terracina جنوب روما Rome في 12 مارس 1088م، لقد كان أوربان الثاني أكثر اعتدالا لكنه أكد بقوة على مواقف غريغوري تجاه السيمونية (بيع المناصب الدينية) والهرقطة. توفي في 29 جويلية 1099م. وللمزيد عن شخصية أوربان الثاني. أنظر: ; Encyclopedia of the Medieval World, 2005, U.S.A., PP.710-711 ; وللمزيد أنظر أيضا: L a Grande Encyclopédie, Imp. E. Arrault, Et Cie, Paris, T.31, The Crusades An Encyclopedia, Edit., Alan Murray (A), A.B.C, PP.599-600. ; Clio, Santa Barbara, California, U.S.A, 2006, Vol., IV, PP.1214-1217. الطموح السياسي للبابا أوربان الثاني في طابعه الديني. أنظر: هالة عبد الحميد الوريكات، التأسيس الديني في مبررات إعلان الحملة الصليبية الأولى، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، قسم العلوم الاجتماعية، ع.18، جوان 2017، ص.ص.16-

هذه الأرض لإسرائيل كما قال الكتاب المقدس، والتي تُدر الحليب والعسل⁽¹⁾. يبدو أن تلك الإشارة كانت عاملاً مشجعاً في إثارة جشعهم المادي وحماسهم الدينية.

ب-الصناعة:

تشكل الصناعة ركناً أساسياً في النشاط الاقتصادي، وتلعب دوراً ملحوظاً في الحياة ببلاد الشام، وبما أن هذه المنطقة غنية بخيراتها ووفرتها، فقد تعددت الصناعات المحلية المستمدة موادها من المنتجات الزراعية، أولها زيت الزيتون، إذ أن سكان الشام ينتجون كميات كبيرة منه⁽²⁾، وهو مشهور بجودته ونظافته وقد نُعت بـ: "الزيت الركابي"، لأنه كان يُحمل على الإبل من الشام، وهي أكثر بلاد الله زيتوناً⁽³⁾.

وبيت المقدس أراضٍ ذات طابع جبلي، تكثر بها الزراعة وأشجار التين والزيتون، وقد كان بها بعض العائلات تنتج كميات كبيرة من زيت الزيتون، حيث تحفظ في الآبار والأحواض وتُصدّر إلى شتى أصقاع العالم⁽⁴⁾.

كما ازدهرت صناعة الصابون ومن المدن المنتجة لهذه المادة مدينة بالس، كما راجت صناعة الأخشاب في المدن الشامية الساحلية، والتي اشتهر بها حصن القينات، حيث يُقطع الخشب و يُنقل بكميات كبيرة إلى مصر والثغور، وغيرها من مدن الشام. وفي مدينة طبرية يُصنع الحصير ومنه حصير الصلاة، كما كثرت صناعة السفن في المدن الساحلية⁽⁵⁾، ومنها مدينة حيفا، بها

.21

⁽¹⁾ أنظر خطاب البابا في: Robert le Moine, histoire de la première croisade, dans collections mémoires relatifs a l'histoire de la France depuis la fondation de la monarchie Française Jusqu'au 13^e, trad, Guizot,(M), Imp.,de lebel, Paris,1825, P.304.

⁽²⁾ عبد ربه عبد القادر يوسف، أحوال بلاد الشام في عهد الحملات الصليبية 492-690هـ/1098-1291م، أطروحة دكتوراه في التاريخ (غير منشورة)، إشراف، د. لويس بوزيه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فرع الآداب العربية، جامعة القديس يوسف، بيروت، (د.ت.)، ص.40.

⁽³⁾ الثعالبي النيسابوري، المصدر السابق، ص.532.

⁽⁴⁾ خسرو، المصدر السابق، ص.67.

⁽⁵⁾ عبد ربه عبد القادر، المرجع السابق، ص.40.

عُمال يقومون بصناعة السفن تسمى الجودي⁽¹⁾، وفي مدينة الرملة رخام كثير بأنواع وألوان عديدة⁽²⁾.

واشتهرت بعض مدن الشام بصناعة الزجاج، حيث يُضرب به المثل في الرقة والصفاء، وكما أورد الثعالبي النيسابوري، حيث قال بعض الحكماء "أرفق بالعدوّ كما يُرفق بزجاج الشّام، إلى أن تجد الفرصة، فإما أن يضرّ به الحجر فيقُضّه، وإمّا أن تضربه بالحجر فتُرُضّه"⁽³⁾.

وقد كانت مدينة صور هي الأخرى بها "جيد الزجاج"، والفخار وبها من الثياب البيض المحمولة إلى كل الأصقاع⁽⁴⁾. وفي مدينة طرابلس "يصنعون الورق الجميل مثل الورق السمرقندي، بل أحسن منه"⁽⁵⁾. ومدينة دمشق جمعت كثيرا من المحاسن، وأنواع من الصناعات والثياب والديباج(الحرير) عجيب الصنعة يُصدر منها إلى كل بلد، "ويتجهز منها به إلى كل الآفاق والأمصار"⁽⁶⁾.

ج-التجارة:

من خلال وفرة الإنتاج الزراعي والصناعي، أضحت الضرورة ملحة لتنشيط حركة التجارة في المدن الشامية، وبهذا كثرت المحلات التجارية، ونتيجة لكثرة الطلب على المنتجات، أصبح التجار يجنون أرباحا من تجارتهم، "ومن عجائب حلب أن في قيسارية البرّ(محلات الثياب) عشرين دكانا للوكلاء، يبيعون في كل يوم متاعا قدره عشرون ألف دينار، مستمر ذلك منذ عشرين سنة وإلى الآن، وما في حلب موضع خراب أصلا"⁽⁷⁾.

لقد كانت فعلا التجارة رائجة، إذ تنوعت منتجات المدن الشامية، وهذا من خلال ما يردُّ إلى

⁽¹⁾ خسرو، المصدر السابق، ص.64.

⁽²⁾ نفسه، ص.66.

⁽³⁾ المصدر السابق، ص.532.

⁽⁴⁾ الإدريسي، المصدر السابق، مج.1، ص.ص.365-366.

⁽⁵⁾ خسرو، المصدر السابق، ص.58.

⁽⁶⁾ الإدريسي، المصدر السابق، مج.1، ص.369.

⁽⁷⁾ ياقوت، المرجع السابق، ج.2، ص.284.

الأسواق من بضائع، فمثلا مدينة القدس كانت تنتج الجبن والقطن والمرابيا، وقدر القناديل والإبر والثياب والحبال، وبيسان، التمور والرّز وعمان، الحبوب والعسل، وطبرية الكاغد(نوع من الورق)، وصور، السكر والزجاج المخروط ومن حلب القطن والثياب⁽¹⁾.

وعما يستورده الشاميون، يوجد العاج الذي كانوا يأتون به من بلاد الزنج (شرق إفريقيا)، ثم يصدرونه إلى الشرق الأقصى(الصين)، وكانوا يجلبون أيضا الذبل(ظهور السلاحف) من أجل صناعة الأمشاط، بالإضافة إلى جلود النمر الحمراء لصناعة أغطية السروج⁽²⁾، ومن بلاد الزنج يستحضرون الذهب والعيبد والنارجيل(جوز الهند)⁽³⁾.

وأما ما يأتي من بلاد الشرق الأوسط والأقصى فإنهم يجلبون الخيزران، والساج(الخشب) والفلفل والماس والياقوت والبقم(نبات لعلاج السم)، كما يأتون بالنارجيل والكافور(نبات) والصندل(الخشب) والقرنفل والمسك والعود(الطيب) والذهب والأبنوس(خشب أسود صلب)، و أنواع أخرى من المنتجات⁽⁴⁾. وكان لسيوف الهند نصيب في هذه التجارة، يُضرب بها المثل في الجودة والصفاء⁽⁵⁾، وجلب الشاميون أيضا الصمغ (القاطر) من جزيرة سُقُطرى⁽⁶⁾.

د-العوامل المؤثرة على النشاط الاقتصادي ببلاد الشام

ومما لا شك فيه، أن المصائب التي تصيب العباد في الأرض، تُحدث خلا في مقدرات المجتمع سواء كانت هذه الأخيرة مادية أو بشرية، لأنهما معا يشكلان عصب الحياة وازدهارها، إذ أنه بانحباس الغيث تنتضر البلاد وسكانها. وهذا ما حدث بالشام والموصل والعراق وخراسان وغيرها من الأقطار، حيث ازدادت الشدة وارتفعت الأسعار "واستسقى الناس فلم يُسقوا"، وأعقبه الوباء وكثُر

¹ حازم أحمد سليم الحلاق، المرجع السابق، ص.101.

² متز، المرجع السابق، مج.2، ص.332.

³ ابن طاهر المقدسي، كتاب البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، ج.4، (د.ب)، (د.ط)، ص.70.

⁴ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تح. محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، ط.2، 1992، دار الكتب

العلمية، بيروت، لبنان، ج.1، ص.153.

⁵ الثعالبي النيسابوري، المصدر السابق، ص.533.

⁶ ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج.3، ص.227.

الموت، وكان ذلك سنة 423هـ/1031م⁽¹⁾، بل أن الزلازل ضربت مصر والشام، وكان أكثر الضرر بمدينة الرملة، حيث فارق الناس منازلهم وانهدم ثلثها، ومات جمع غفير تحت الهدم، وكان ذلك سنة 425هـ/1033م⁽²⁾.

وفي سنة 448هـ/1056م انعدم الأمن بالعراق فاختلفت الأقوات وارتفعت الأسعار، فأكل الناس الميتة وضربهم وباء عظيم، فكثر الموت "حتى دُفن الموتى بغير غسل ولا تكفين"، كما ظهر بمصر وباء شديد فكان يموت بها ألف نفس في اليوم، ثم انتشر ببلاد الشام، وغيرها من الأماكن المجاورة⁽³⁾. ولقد تعرضت بلاد الشام مرة أخرى لزلزلة عظيمة، دمرت المدن والقرى وبسببها تحطم سور طرابلس، وكان ذلك سنة 455هـ/1063م⁽⁴⁾، بالإضافة إلى ما حل بمدينة حلب من وباء عظيم في سنة 459هـ/1066م، فكانت حصيلته بالآلاف "حتى أنه مات في رجب من هذه السنة زهاء أربعة آلاف، فضلا عن سائر الشهور"⁽⁵⁾.

وقد توالى الزلازل على بلاد الشام، حيث أنه في جمادى الأولى من سنة 460هـ/1067م ضربت زلزلة بفلسطين فخربت الرملة ومات من أهلها "خمسة وعشرون ألف نسمة"، كما ضربت مصر أيضا⁽⁶⁾، بينما يقول ابن القلانسي: "وفي يوم الثلاثاء العاشر من جمادى الأولى عام 460هـ جاءت زلزلة عظيمة بفلسطين، هدمت أكثر دور الرملة وسورها وتضعض جامعها، ومات أكثر أهلها تحت الردم... وهلك في بانياس تحت الردم نحو مائة نفس، وكذلك في بيت المقدس"⁽⁷⁾، ولم

⁽¹⁾ ابن الأثير، المصدر السابق، مج. 8، ص. 205.

⁽²⁾ نفسه، ص. 213.

⁽³⁾ ابن الأثير، المصدر السابق، مج. 8، ص. 335.

⁽⁴⁾ طقوش سهيل، تاريخ السلاجقة في بلاد الشام 471-511هـ/1087-1117م، ط. 3، 2009، دار النفائس، بيروت، لبنان، ص. 52.

⁽⁵⁾ ابن العديم، زبدة الحلب...، ج. 2، ص. 10.

⁽⁶⁾ ابن الأثير، المصدر السابق، مج. 8، ص. 381.

⁽⁷⁾ المصدر السابق، ص. 94.

تسلم المنطقة من العواصف المدمرة⁽¹⁾.

ويقول ابن القلانسي بشأن ذلك: "وسُمع في شهر أيار (مايو) من هذه السنة رعدة هائلة ما سُمع بأعظم منها ولا بأهول من صوتها فغشي على جماعة من الرجال والنسوان والصبيان، وطلع في إثرها سحب هائل ووقع منه برد شديد الوقع، أهلك كثيرا من الشجر وجاء معه سيل عظيم في بلد الشام، قلع ما مرّ به من الشجر والصخر. حُكي أن ارتفاعه بوادي عُلِيم نحو ثلاثين ذراع، وأنه سحب صخرة عظيمة لا يُقلها خمسون رجل ذهب بها فلم يعرف مستقرها"⁽²⁾.

وقد كان لذلك أثر على المدن التي ضربها، حيث "خربت الرملة خرابا لم تعمُر بعده"⁽³⁾. وفي سنة 468هـ / 1075م، حلت بدمشق شدة كان لها وقعها "وفي هذه السنة اشتد غلاء الأسعار في دمشق، وعُدِمَت الأَقوات ونفدت الغلّات منها، واضطر الناس إلى أكل الميتان، وأكل بعضهم بعضا"⁽⁴⁾، كما حل أيضا بالجزيرة والعراق والشام سنة 469هـ / 1076م "وباء عظيم وموت كثير، حتى بقي كثير من الغلات ليس لها من يعملها لكثرة الموت في الناس"⁽⁵⁾.

وتوالت الزلازل على المشرق، فكانت بالعراق والجزيرة والشام وغيرها كثير من البلدان، فدمرت الكثير منها "وفارق الناس مساكنهم إلى الصحراء فلما سكنت عادوا"، وكان ذلك سنة 479هـ / 1086م⁽⁶⁾، وكل ذلك كان له أثره على سكان المنطقة، والذي انعكس سلبا على النشاط الاقتصادي.

ثالثا: التركيبة السكانية والدينية لبلاد الشام:

تحتل بلاد الشام موقعا محوريا لوقوعها بين قارات العالم القديم، وتعد أيضا معبرا حضاريا بين

⁽¹⁾ طقوش سهيل، المرجع السابق، ص. 52.

⁽²⁾ المصدر السابق، ص ص. 94-95.

⁽³⁾ المقرئزي، المصدر السابق، ج. 2، ص. 277.

⁽⁴⁾ ابن القلانسي، المصدر السابق، ص. 108.

⁽⁵⁾ ابن الأثير، المصدر السابق، مج. 8، ص. 413.

⁽⁶⁾ ابن الأثير، المصدر نفسه، مج. 8، ص. 450.

الشرق والغرب، كما كان لسكانها عبر الزمن انجازاتهم الحضارية⁽¹⁾.

والملاحظ للتركيب السكانية والدينية لبلاد الشام قبيل الغزو الصليبي، يرى بأن سكان هذه المنطقة يتشكلون من أطراف متعددة الأعراق والنحل، ونتيجة لهذا التنوع جعل من بلاد الشام موطنًا ذا أعراق ومذاهب⁽²⁾.

إن التركيبة الاجتماعية لبلاد الشام، لم تكن متناسقة عرقيا ولا دينيا⁽³⁾، إذ برزت الانقسامات العرقية والمذهبية وحتى اللغوية، بحيث كانت العربية هي الأكثر استعمالا بين المسلمين، فيما انتشرت الأرمنية في أوساط الأرمن⁽⁴⁾، فضلا عن وجود اللغة التركية في آسيا الصغرى والجزيرة الفراتية وشمال الشام⁽⁵⁾.

أ- الأقليات العرقية:

سكنت منطقة الشام أقليات عرقية منها العنصر التركي⁽⁶⁾ والأكراد⁽⁷⁾ وكذا الأرمن⁽⁸⁾، فضلا عن عنصر اليهود الذي استوطن الجهة الشمالية للشام، وبالذات أنطاكية واللاذقية، وكانت لهم

⁽¹⁾ محمد بيومي مهران، بلاد الشام، مصر والشرق الأدنى القديم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1990، ص.ص. 11-12.

⁽²⁾ عبد ربه عبد القادر، المرجع السابق، ص. 23.

⁽³⁾ أنظر: Cahen , PP.186-187.

⁽⁴⁾ من الشعوب الهندوأوروبية في منطقة آسيا الوسطى، أنظر، Gatteryias(J.A), L'arménie et les arméniens , Léopold cerf,1882, P.7.

⁽⁵⁾ الغامدي، المرجع السابق، ص. 298.

⁽⁶⁾ من الشعوب البدوية في آسيا الوسطى، ينتمي إلى جنس Ural-Altaic، في المنطقة الواقعة بين الخليج الفارسي وجبال كيرغان Khir-Gan، والتي تتضمن إقليمين وهي موطن كل من الشعبين الصيني والمغولي، أنظر، زبيدة عطا، بلاد الترك في العصور الوسطى، د.ط.، دار الفكر، ص.ص. 9-10.

⁽⁷⁾ ينسبون إلى كرد بن مرد بن عمرو بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن، وقيل هم من ولد عمرو مزيقياء بن عامر بن ماء السماء، وقيل من بني حميد بن طارق، وينتهي نسبهم إلى أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، وهم عدة قبائل منها: بنو كوران والهدبانية والبشنوية. أنظر، الفارقي أحمد بن يوسف بن علي، تاريخ الفارقي، الدولة المروانية، ت. بدوي عبد اللطيف عوض، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1959م/1379هـ، ص. 49.

⁽⁸⁾ الغامدي، المرجع السابق، ص.ص. 298-303.

أحياء خاصة بهم ويمارسون أنشطتهم المختلفة⁽¹⁾، كما كان لهم وجود في نابلس وبيت المقدس وطبرية ودمشق، ولكن بأعداد قليلة⁽²⁾. وعليه فإن التركيبة السكانية والدينية لم تكن متناغمة بمنطقة الشام، على الرغم من أن غالبيتهم من العرب والمستعربين، الذين يتكلمون باللغة العربية⁽³⁾.

إن التنوع العرقي والطائفي ببلاد الشام، كان له أثره السلبي على مصير المنطقة، بسبب التنافس الحاد بين مختلف الأعراق والطوائف والنحل، مما زاد من هوة الفرقة والتشتت بين هؤلاء السكان، واستفاد الصليبيون دون شك من هذا الوضع الذي مكنهم من ترجيح كفة الصراع لصالحهم والاستيلاء على المنطقة واستيطانها⁽⁴⁾.

ب- الطوائف والنحل:

لقد ظهرت الطوائف والنحل على شكل تكتلات مذهبية عُرفت بالموارنة⁽⁵⁾، حيث استقر هؤلاء في مناطق مختلفة من بلاد الشام ومنها: جبيل، البترون، جبة المنيطرة، جبة بشرى وعكار، وقد كان عداؤهم للمسلمين شديد، ومن مظاهر ذلك وقوفهم إلى جانب الغزاة الصليبيين أثناء حملتهم الصليبية الأولى على بلاد الشام⁽⁶⁾. كما كانت هناك نحلة أخرى تمثلت في الدروز⁽⁷⁾، هؤلاء قالوا بفكرة تأليه الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (996-1020م / 386-411هـ)، وبذلك أصبح أهل

Cahen, op.cit., P.187.

⁽¹⁾ أنظر:

⁽²⁾ طقوش سهيل، تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، 471-511هـ/1078-1117م، ط.3، دار النفائس، 2009، بيروت، ص.49.

⁽³⁾ الغامدي، المرجع السابق، ص.ص.308-309.

⁽⁴⁾ للمزيد عن التوطن الصليبي بمنطقة الشام، أنظر: الملحق رقم: (04)؛ وللمزيد أيضا عن هذا التوطن، أنظر: Atlas of the medieval Europe, Edit., Angus Mackay, David Ditchburn,, Routledge, London, N.Y., 1997, P.90

⁽⁵⁾ طائفة دينية مسيحية من العنصر السامي من أتباع القديس مارون، الذي ظهر في أواخر القرن الرابع الميلادي في منطقة أفامية بالشام. أنظر، جوزيف نسيم يوسف، العدوان الصليبي على بلاد الشام، ط.3، دار الكتب الجامعية، الإسكندرية، 1971، ص.313. وأنظر:

أيضا، La Grande Encyclopédie, P.282.

⁽⁶⁾ محمد مؤنس عوض، تاريخ الصليبيات، الصراع العالمي في العصور الوسطى، دار العالم العربي، 2012، القاهرة، ص.62.

⁽⁷⁾ طائفة شيعية عملت بمذهب الإسماعيلية، حتى وإن كان الدروز يعتبرون أنفسهم مستقلين عن سائر المذاهب، أنظر: بدوي عبد الرحمن، مذاهب الإسلاميين، د.ن.، بيروت، 1973، مج.2، ص.508.

المذهب السني يكفرونهم.

وعن أماكن تمركزهم في بلاد الشام، واد التيم وجبل السّماق والسفوح الشرقية من جبل الشيخ وحروران وأفامية وإقليم صغد وغيرها، وكلها أماكن تغلب عليها الطبيعة الجبلية ذات الدروب والمسالك الوعرة، وقد ضمن لهم ذلك الحماية المطلوبة من المذاهب المخالفة لتوجهاتهم الفكرية والعقدية، بل أن ذلك جعلهم ينطوون على أنفسهم وينعزلون عن غيرهم⁽¹⁾.

بالإضافة إلى طائفة أخرى وهي النّصيرية⁽²⁾، وقد قال هؤلاء بفكرة تأليه الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وفي الوقت نفسه يعظمون عبد الرحمن بن ملجم قاتل الإمام علي، لأنهم يرون بعمله هذا قد فصل اللاّهوت⁽³⁾ عن الناسوت⁽⁴⁾ في شخصه، وبينهم وبين أهل السنة عدااء شديد، وعن بعض أماكن وجودهم ثمة اللادّنية وطرابلس وحماه⁽⁵⁾.

في حين برزت طائفة أخرى تُسمّى الباطنية⁽⁶⁾، ويقول محمد بن طاهر البغدادي: "اعلموا - أسعدكم الله- أن ضرر الباطنية على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس

⁽¹⁾ محمد مؤنس عوض، تاريخ الصليبيات، ص. 60-61.

⁽²⁾ طائفة من غلاة الشيعة، أنظر: الشهرستاني أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، ت. عبد الأمير علي مهنا، علي حسن فاعور، ط. 3، دار المعرفة، بيروت، 1993م/1414هـ، ج. 1، ص. 220-225.

⁽³⁾ علم المعتقدات المسيحية، يعتمد على الوحي والعقل، من أجل إيجاد مذهب محكم بناء على المعطيات الإيمانية عكس ما تعتمده الفلسفة على العقل وحده، علما أن هناك أسراراً لا يدرك العقل جوهرها، في حين أن اللاّهوت بمقدوره تفسير ذلك. وللمزيد عن فكرة اللاّهوت، أنظر: الموسوعة العربية الميسرة، ط. 3، 2009، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ص. 2846.

⁽⁴⁾ كلمة يشيرون بها إلى الناس كما يشار باللاّهوت لله، وهذه الكلمة أصلها عبري، أما في مصطلحات علم الكلام فإن الناسوت هو جميع الأوصاف الحيوانية التي يتصف بها الإنسان. وتستعمل طائفة النصيرية كلمة الناسوت للدلالة على ظاهر المعنى البشري لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. حيث أن في قولهم إن لفظه الباطن تدل على لاهوت علي رضي الله عنه، وأما الظاهر فيدل على إنسانيته. فعلي هو اسم الله الواقع على الناسوت، أي الظاهر البشري للذات الإلهية، ومحمد صلى الله عليه وسلم هو الله، والله اسم واقع على اللاّهوت أي باطن الذات الإلهية. للمزيد من المعلومات، أنظر: محمد بن شعبة الحراني، كتاب الأصفير، تج. رواء جمال علي، 2016، (د.د.ن)، ص. 254-255. وللمزيد عن فكرة اللاّهوت والناسوت، أنظر: الشهرستاني، المصدر السابق، ج. 1، ص. 270-272.

⁽⁵⁾ محمد مؤنس عوض، تاريخ الصليبيات، ص. 61-62.

⁽⁶⁾ من فرق الشيعة تسموا بذلك لحكمهم أن لكل ظاهر باطنا، ولكل تنزيل تأويلاً، أنظر، الشهرستاني، المصدر السابق، ج. 1، ص. 228-235.

عليهم، بل أعظم من مضرة الدهرية⁽¹⁾ وسائر أصناف الكفرة عليهم، بل أعظم من ضرر الدجال الذي يظهر في آخر الزمان، لأن الذين ضلوا عن الدين بدعوة الباطنية من وقت ظهور دعوتهم إلى يومنا، أكثر من الذين يضلون بالدجال في وقت ظهوره، لأن فتنة الدجال لا تزيد مدتها عن أربعين يوماً، وفصائح الباطنية أكثر من عدد الرمل والقطر⁽²⁾.

من خلال ذلك يُستنتج بأن هذه الفرقة كانت من أخطر الطوائف الدينية، التي ظهرت بالشرق والتي راحت تنتشر فكرها ومعتقداتها، بل لجأت في كثير من الأحيان إلى سلاح الغدر والخيانة من أجل تحقيق مُرادها. حتى أن التنافس الطائفي المسيحي كان له وجود، إذ أن اليعاقبة⁽³⁾، تمكنوا من بناء كنائسهم بأنطاكية أثناء حكم الأمير ياغي سيان، بل حتى بعد استيطان الصليبيين بالمنطقة⁽⁴⁾.

وعلى ما يبدو أن حدة الصراع اتسعت هوتها بين مختلف المذاهب المسيحية، وهذا بعد حركة التوسع التي قامت بها الدولة البيزنطية في القرن العاشر الميلادي في شرق الأناضول ومنطقة الشام، وبدأت عملية اضطهاد الأرمن واليعاقبة والسريان⁽⁵⁾، وبهذا أصبح هؤلاء أكثر قرباً لأمرء وفرسان الحملة الصليبية الأولى⁽⁶⁾.

¹ نسبة إلى الدهر وهو الدائم امتداد للحضرة الإلهية وهو باطن الزمان، حيث يتحد الأزل والأبد، وقد أُطلق على هؤلاء اسم الدهرية أي الذين قالوا بقدم الدهر وجحدوا خالق الكون. وفي العصر الحديث أُستعمل مصطلح الدهريين للدلالة على أصحاب المذاهب المادية. للمزيد عن الدهرية ومذهبهم، أنظر: الموسوعة العربية الميسرة، ص.1527.

² الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، تح. محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 1995، ص.ص.281-282.

³ حسب ما قيل أنهم من أتباع ديسقرس بطرك الإسكندرية المسمى بيعقوب، وقيل كان له تلميذ اسمه يعقوب وقيل أن يعقوب هذا كان تلميذ لساويرش بطرك أنطاكية، وقيل ينسبون إلى يعقوب البرذعاني تلميذ سويرس بطرك أنطاكية، وهم الذين قالوا بالأقانيم الثلاثة، إلا أن الكلمة انقلبت لحما ودما فصار الإله هو المسيح وهو الظاهر بجسده. أنظر، الشهرستاني، المصدر السابق، ج.1، ص.ص.270-272؛ القلقشندي، صبح الأعشى، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1918، ج.13، ص.278.

⁴ أنظر، Cahen,op.cit., PP.186-187.

⁵ من الشعوب الآرامية ذات المعتقد المسيحي ذو الطبيعة الواحدة. وللمزيد عن السريان وعن انحازتهم الحضارية، أنظر: فيليب دي طرازي، عصر السريان الذهبي، 2012، مؤسسة هندواوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ص.ص.9-131.

⁶ عاشور، الحركة الصليبية، ج.1، ص.ص.120-122؛ أحمد الشامي، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى،

كما أنه ومن خلال ما حدث بين هذه الفرق والطوائف من اختلاف، يكون قد أحدث خلافاً في وحدة سكان بلاد الشام⁽¹⁾، حيث تصدع بنيانها من الداخل نتيجة الصراع المذهبي فانعكس سلباً على التماسك السياسي لبلاد الشام، بل أن قواه الحاكمة لم تستطع تحقيق التوفيق بين مختلف الطوائف المذهبية، وأن تتجاوز ذلك الوضع المزري بتعايش سلمي قد يضمن لكل فئة أو طائفة على الأقل الحد الأدنى من الحرية الدينية، في ظل سلطة ذات هيمنة سياسية تستطيع مواجهة ما ستعرض له المنطقة من هجمة شرسة دبرها الغرب اللاتيني⁽²⁾.

وبهذا يمكن القول بأن سكان بلاد الشام بمختلف توجهاتهم السياسية والمذهبية وصراعها وتنافسها، كانوا سبباً في التواجد الأجنبي بالمنطقة، أي أنهم ساهموا في تيسير الغزو الصليبي، بل تثبيته بالمنطقة ردحا من الزمن⁽³⁾.

II - الحملة الصليبية الأولى وسقوط مدينة القدس

أولاً: انتصار الصليبيين في بلاد الشام والاستيلاء على المدينة المقدسة:

إن دعوة البابا أوربان الثاني Urban II (ت.1099م) إلى الحملة الصليبية الأولى في مجمع كليرمونت فيرُوند Clermont Ferrand سنة 1095م⁽⁴⁾ بجنوب فرنسا قد أتت بثمارها، إذ لم يلبث في صائفة العام الموالي أن بدأت الجيوش الصليبية تزحف باتجاه بلاد الشام عبر الأراضي البيزنطية⁽⁵⁾، التي جعلها البابا أوربان الثاني محط أنظارهم، كقاعدة التقاء وانطلاق باتجاه القدس

1985، دار النهضة العربية، القاهرة، ص.51-53.

⁽¹⁾ الغامدي، المرجع السابق، ص.300.

⁽²⁾ محمد مؤنس عوض، تاريخ الصليبيات، ص.63.

⁽³⁾ نفسه.

⁽⁴⁾ مجلس الكنيسة الذي عُقد في كليرمونت (كليرمونت فيرُوند بفرنسا)، في أوفيرن Auvergne من 18 إلى 28 نوفمبر 1095م،

حيث دعا فيه البابا أوربان الثاني الفرسان والنبلاء كما بدعوى تحرير مسيحي الشرق من الأتراك، ويمكن اعتبار هذه الحملة، والتي

أصبحت تعرف باسم الحملة الصليبية (1095-1099م) على أنها تدشين للحركة الصليبية. للمزيد عن هذا المجلس، انظر: The

Crusades An Encyclopedia, Edit., Alan Murray (V), Vol.I, PP.263-265

⁽⁵⁾ غير أن هناك من لم يلتزم بالموعد الذي حدده البابا، وسار متحمساً لمطلبه في الشرق بقيادة بطرس الناسك، وقد كان رد فعل الأتراك

السلاحقة في آسيا الصغرى قاسياً، إذ أنهم تمكنوا من إبادة معظم رجال هذه الحملة، التي سُميت بالحملة الشعبية، انظر، للمزيد من

هدفهم المنشود. إذ أنه في الشهور الأولى من سنة 1097م بدأت تحط بأرض القسطنطينية حفافل جيوش الأمراء والفرسان⁽¹⁾. وبدأ التفاوض مع الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنينوس Alexius I Comnenus (1081-1118م)⁽²⁾، بخصوص ما سيجري وما سيتتج عن هذه الحملة⁽³⁾، غير أن ريموند الصنجيلي كان رافض لهذه الفكرة أي التبعية للإمبراطور⁽¹⁾، ولكن

التفصيل، مجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ت. حسن حبشي، دار الفكر العربي، 1958، ص. 19-22؛ قاسم عبد قاسم، ماهية الحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية والإنسانية، القاهرة 1993، ص. 115-116؛ سعيد عمران، تاريخ الحروب الصليبية، دار المعرفة الجامعية، 2000، ص. 27؛ أرست باركر، الحروب الصليبية، ت. الباز العربي، دار النهضة العربية، ط. 2، (د.ن)، ص. 26.

⁽¹⁾ تشكلت جيوش الحملة الصليبية الأولى على أساس من التقسيم اللغوي والجغرافي، كما أن الإقطاع جعلها تتمايز فيما بينها، وقد ضمت هذه الجيوش كل من جيش جودفري البويوي Godfrey of Bouillon وأخيه بولدين Baldwin من منطقة اللورين، وروبرت دوق نورماندي Robert Duke of Normandy وصهره ستيفن كونت بلوا Stephen Count of Blois من غرب فرنسا، أما الجيش الثالث فقد كان بزعمارة ريموند الرابع كونت تولوز Raymon IV Count of Toulouse من جنوب فرنسا والبروفنسال برفقة المندوب البابوي ادھيمار دي بوي Adhemar du Puy. وأما الجيش الرابع فكان الأقل عدد بقيادة هيو كونت فرماندوا Hugh count Vermandis شقيق ملك فرنسا فيليب الأول، إضافة إلى جيش النورمان بقيادة بوهمند Bohemond وابن أخته تانكرد Tancred من جنوب إيطاليا. للمزيد من المعلومات، أنظر: مجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ت. حسن حبشي، دار الفكر العربي، 1958، ص. 22-28؛ أرست باركر، الحروب الصليبية، ت. الباز العربي، دار النهضة العربية، ط. 2، (د.ن)، ص. 26-27؛ قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1993، ص. 117-118؛ رايلي سميث جوناثان، الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، ت. محمد فتحي الشاعر، الهيئة العامة المصرية للكتاب، ط. 2، 1999، ص. 109؛ العروسي محمد المطوي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي، ط. 1982، ص. 47-48؛ انظر أيضا، Michael Paine; The Crusades; Trafalgar-Square; U.S.A; 2005, P.34; Purton Peter, A History of the early Medieval Siege 450-1200 The Boydell Press, Woodbridge, U.K, 2009, P.210, Alan Jamison (G), Faith and Sword; Reaktion Books; London; U.K; 2006; P.53.

⁽²⁾ انظر: Anna Comnena, The Alexiad, Trad. Elizabeth Dawes (A), Byzantine Series, Parenteses Publications, Cambridge, ontarion, 2000, X, PP.186-190؛ وسام عبد العزيز

فرج، بيزنطة، قراءة في التاريخ السياسي والإداري، 2004، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ص. 145.

⁽³⁾ فوشيه الشارترى، تاريخ الحملة إلى القدس، ت. زياد جميل العسلي، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 1990، ص. 45؛ أنظر أيضا: Anna Comnena, op.cit., X, PP.186-190؛ ويقول صاحب أعمال الفرنجة "أن الإمبراطور بعث لبوهمند سرا لمفاوضته، واشترك معه في تلك المقابلة جودفري وأخوه بولدين... وقد وعد الإمبراطور بوهمند أن يقطع أرضا وراء

بعد أخذ ورد بين الأطراف المتفاوضة استجاب الكونت ريموند لذلك⁽²⁾، ولكنه لم يحضر حفل الاحتفاء بالعهد، في حين غادر كل من تانكرد⁽³⁾ وريتشارد السالرنى Richard of salerno، ليتجنبا القسم الإمبراطوري، بحيث عبرا مضيق البوسفور بجيش القائد النورمانى بوهمند⁽⁴⁾. ولم تتردد الجيوش الصليبية في أن تواصل سيرها ومحاصرة مدينة نيقية بآسيا الصغرى، حيث وصلت إمدادات الإمبراطورية لحصارها الذي طال أكثر من شهر، واستسلمت أخيرا في 26 من شهر

أنطاكية طولها خمسة عشر يوما وعرضها ثمانية أيام، إذا أقسم بوهند يمين الولاء للإمبراطور، كما أن هذا الأخير لن ينسى وعده إليه طالما هو مقيم على يمينه... كما وعد الإمبراطور من جانبه جميع رجالنا الوفاء بما عاهد، وأن يضمن لهم السلامة والتموين، بل أنه سيرافقهم بجيشه برا وبحرا"، كما ذكر ذلك بطرس توديبود" أن الإمبراطور وعد بوهمند بأن يقطع أرضا طولها خمسة عشر يوما وعرضها ثمانية أيام ومن جانبه يتعهد الإمبراطور بأن يفى بوعد ما لم يتقضه بوهمند"أنظر، أعمال الفرنجة، ص.30-31؛ تاريخ الرحلة، ص.80-81.

⁽¹⁾ رفض الكونت ريموند الاعتراف بسيادة الإمبراطور، ولم يكن زحفه باتجاه الشرق لهذا السبب، وإنما من أجل الضريح المقدس، وهو في أتم الاستعداد للاستجابة للقسم بشرف الإمبراطور وحياته والسير في موكبه وطاعته، إذا كانت بين ألكسيوس إعداد العدة والسير معهم في اتجاه القدس، أنظر، بطرس توديبود، المرجع السابق، ص.82؛ Raimond D'agiles, Histoire des Franc qui ont pris Jérusalem, Tra de Guizot(M) dans Collections des mémoires relatifs a L'histoire de France Depuis la fondation de la monarchie française Jusqu'au 13^e siècle, Paris;1824;P.241.

⁽²⁾ أصبح الكونت ريموند في موقف لا يحسد عليه، حيث تمكن غريمه بوهمند من كسب ثقة الإمبراطور وأصبح هو تابعا لهذا الأخير بمعنى تحت زعامة بوهمند، علما أن البابا أوربان الثاني قد حول ريموند زعامة الحملة، كما أن الإمبراطور الذي سيحظى بالتبجيل يبقى قابعا في القسطنطينية وطبعاً هذا لا يقبله ريموند. ولذلك سيوافق هذا الأخير إذا سار ألكسيوس على رأس القوات الصليبية باتجاه القدس، ولكن سرعان ما تأزمت العلاقة بين الكونت والإمبراطور فتدخل جودفري، وقال لريموند ليس من الحكمة أن تشن حرباً على المسيحيين في القسطنطينية، في حين أن المسلمين يتربون عن كذب، كما أن بوهمند وقف صراحة إلى جانب الإمبراطور، لذا أقسم ريموند على احترام حياة وشرف ألكسيوس رافضاً الولاء والتبعية، وبعد ذلك تحسنت النية بين الكونت والإمبراطور عندما أسر هذا الأخير لريموند بتخوفه من بوهمند، وبهذا لن يمكنه من قيادة القوات الصليبية في آسيا الصغرى، وهكذا هدأت نفس الكونت وأطمأنت، ووجد في الإمبراطور خير حليف للتصدي لأطماع بوهمند. أنظر، بطرس توديبود، المرجع السابق، ص.81؛ عاشور، الحركة الصليبية، ج.1، ص.157-159؛ قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب، ص.120.

⁽³⁾ من أمراء النورمان في جنوب إيطاليا، خرج مع الأمير بوهمند في الحملة الصليبية الأولى، رفض إعلان الولاء للإمبراطور، دخل مع بولدوين البولوني في صراع على مدن قليقية أثناء سير الحملة الصليبية. تولى الوصاية على إمارة أنطاكية مرتين، ظهر هذا الفارس بمظهر القوة التي مكنته من إرساء دعائم الإمارة بأنطاكية أثناء غياب بوهمند إلى غاية وفاته سنة 1112م. أنظر، La Grande Encyclopédie, Imp., de E., Arrault et C., Paris, T.30, P.909.

⁽⁴⁾ مجهول، أعمال الفرنجة، ص.30-32؛ وليم الصوري، الحروب الصليبية، ت. حسن حبشي، الهيئة العامة المصرية للكتاب 1991، ج.1، ص.185-186. أنظر أيضا، Albert D'aix; Histoire des croisades; tra; de Guizot dans; C.M.R.F. Briere, Librairie; Paris 1824; T. 1; P.68

جوان سنة 1097م/490هـ⁽¹⁾.

بعدها زحف الصليبيون متغلغلين داخل أعماق آسيا الصغرى باتجاه الشام، وخاضوا معركة أبلى فيها كلا الطرفين بلاءً حسناً وهي وقعة ضوروليوم قرب مدينة أسكي شهر، وكان ذلك في الفاتح من شهر جويلية سنة 1097م/490هـ عقبها تقدم الصليبيون باتجاه الشام⁽²⁾، وتمكنوا من دخول قونية والاستيلاء على هرقلية وطرسوس وأدنة والمصيصة وبعض الحصون ذات المواقع الإستراتيجية، مما عززوا انتصاراتهم اللاحقة في مرعش وأنطاكية التي أصبحت محاصرة⁽³⁾.
وجراء التنافس بين الأمراء الصليبيين أثناء سيرهم باتجاه الشام، توجه بولدوين البويوني باتجاه أعالي الفرات، حيث وصل مدينة الرها⁽⁴⁾، التي أصبحت مقراً لإمارته بعد أن كان قد تلقى طلباً من أميرها ثوروس Thoros الأرمني بعد سماعه بانتصارات الصليبيين، واغتمت الفرصة وأصبح حاكماً للمدينة⁽⁵⁾، وبهذا تحقق حلم بولدوين وذلك بقيام إمارة الرها الصليبية، وهي أولى الإمارات اللاتينية التي تأسست في بلاد الشام.

¹ فوشيه الشارترى، مصدر السابق، ص.47، مجهول، أعمال الفرنجة، ص.ص.33-37، بطرس توديود، المصدر السابق، ص.111؛ عاشور، المرجع السابق، ج.1، ص.163.

² مجهول، أعمال الفرنجة، ص.ص.38-42؛ توديود، مصدر سابق، ص.ص.111-115؛ قاسم عبده قاسم، الحملة الصليبية الأولى نصوص ووثائق، عين للدراسات والبحوث، 2001، ص.ص.191-192، ارنست باركر، المرجع السابق، ص.31، أنظر أيضاً، Peter Purton, op. cit., p.212.

³ مجهول، أعمال الفرنجة، ص.ص.42-48، توتيبود، ص.ص.116-119، أنظر أيضاً، Matthieu D'Edesse, Chroniques de Matthieu D'Edesse 962-1136, Tra, Edouard dulaurier, meaux, Imp., A. , carro, Paris, 1858, P.216; guibert de Nogent, Histoire des Croisades, Trad, Guizot(M), dans, C.M.R.H.F., Paris, 1825, PP.106-108, 116-117.

⁴ تسمى بأورفا Orfa أو Orfa وقيل إنها استمدت اسمها من الاسم الآرامي أورهاي Urhai، والأكثر شيوعاً من أسمائها الرها بالعربية وإديسا Edessa باللاتينية. وقد تعددت الأسماء لتسمية هذه المدينة. أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج.3، ص.106؛ ابن الشحنة أبو الفضل محمد، الدر المنتخب في مملكة حلب، تح. عبد الله محمد الدرويش، دار الكتاب العربي، 1984، ص.200؛ علية عبدالسميع الجنزوري، إمارة الرها الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2001، ص.ص.23-28.

⁵ وليم الصوري، المصدر السابق، ج.1، ص.ص.263-264، عاشور، الحركة الصليبية، ج.1، ص.183، 184، علية الجنزوري، إمارة الرها الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2001، ص.69، سعيد عمران، تاريخ الحروب الصليبية 1095-1291، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 2000، ص.30.

وعليه فقد رُفعت راية دوق اللورين بين نهري دجلة والفرات، وظل يحكمها بولدوين إلى غاية شهر أكتوبر سنة 1100م⁽¹⁾، وبوفاة أخيه جودفري غادرها باتجاه القدس لما طُلب منه إدارتها، تاركا الرها لقريبه بولدوين أف لوبورغ Baldwin of du Bourgue⁽²⁾.

إن الحماس الديني لقادة الحملة الصليبية الأولى، وجشعهم ورغبتهم في الحصول على الغنائم قد أتت بثمارها، وذلك بتأسيس إمارة الرها في أعالي الفرات واستمرار حصار أنطاكية، والتي وقعت أخيرا في قبضتهم⁽³⁾، وتوجه نظرهم إلى القدس التي يُشكل احتلالها حلما طالما حلم به البابا أوربان الثاني.

إن الانتصار الصليبي في هذه الحملة يعود سببه إلى التواطؤ الأرمني في شمال الشام، وبهذا أصبحت قاعدة خلفية للمد الصليبي، ويظهر في مناطق عدة منها منطقة تل باشر ومحورها الرها وأنطاكية ومنطقة الراوندان على محور مرعش وأنطاكية⁽⁴⁾. إضافة أن الانتصار الصليبي في أنطاكية، قد شكل قاعدة إستراتيجية للصليبيين، والتي أصبحت قلعة متقدمة لحماية مملكة بيت المقدس، هذه الأخيرة تُعد القلب النابض للاستيطان الصليبي في الشام، إذ أصبح النورمان أكثر حماسة ورغبة في توسيع نفوذهم على حساب المناطق المجاورة، وبهذا أصبح الباب مفتوحا أمام الزحف الصليبي باتجاه القدس⁽⁵⁾.

⁽¹⁾ براور يوشع، عالم الصليبيين، ص.44؛ عليّة الجنزوري، المرجع السابق، ص.71، أنظر أيضا، -Stevenson, op.cit., PP.22- 24.

⁽²⁾ عاشور، المرجع السابق، ج.1، ص.283.

⁽³⁾ ما يتعلق بحصار أنطاكية والعقبات التي اعترضتهم، وخطة الاستيلاء وأحوال الصليبيين بعد دخولها، ورد الفعل الإسلامي تجاه سقوطها، وأخيرا المعركة الحاسمة وانتصار الصليبيين، يبدو ذلك قد فتح لهم آفاقا بعيدة الأثر وتقدمهم باتجاه بيت المقدس، أنظر: عادل محي الدين الألوسي، حصار أنطاكية 1097م/491هـ، مجلة آداب المستنصرية، كلية الآداب، جامعة بغداد، ع.13، 1986، ص.ص.419-430. وللمزيد عن المؤامرة التي حاكها بوهمند قائد النورمان للتخلص من قائد القوات البيزنطية تاتيكوس Tatikios المشاركة في

الحصار، والاتفاق مع فيروز وهو أحد الذين تولوا حراسة أبراج مدينة أنطاكية، أنظر: Anna Comnena, op.cit., XI, PP.197-198.

⁽⁴⁾ عاشور، الحركة الصليبية، ج.1، ص.180.

⁽⁵⁾ حسين عطية، إمارة أنطاكية والمسلمون، ص.122؛ قاسم عبده قاسم، الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية والإنسانية، القاهرة، 1999، ص.168.

إذ توجهت الجيوش الصليبية نحو بيت المقدس، في الثالث عشر من شهر يناير سنة 1099م/492هـ⁽¹⁾، فوصلت طلائع الجيش الصليبي إليها مساء يوم الثلاثاء من اليوم السابع من شهر جوان سنة 1099م/492هـ، وكان تواطؤ نصارى المدينة واضحا، إذ أنهم راسلوا أمراء الصليبيين بالإسراع ودخول المدينة خوفا من حاكمها الفاطمي افتخار الدولة، والذي قد يبادر بتحسينها، وبالرغم من حصانة المدينة، إلا أن هناك نقاط ضعف في التحصينات، وهي الجهة الشمالية والشمالية الغربية، التي عسكروا بها وأحكموا سيطرتهم عليها⁽²⁾.

ومن جهة رد فعل الفاطميين فقد بادر افتخار الدولة بتحسين الأسوار، وتخريب الآبار وإخراج النصارى وغيرهم من السكان باستثناء اليهود، وأرسل يطلب المساعدة من القاهرة، ونتيجة لقلّة الماء والطعام وشدة الحر والضغط الإسلامي المتواصل على الصليبيين قاموا بهجمات متتالية عليهم يدخلون المدينة، لكن محاولاتهم باءت بالفشل، فحاولوا مرة أخرى إيجاد وسيلة أكثر نجاعة، وهي إنجاز الأبراج ودك حصون المدينة لإحداث فجوات في أسوارها، وقد كان ذلك مكلفا وقتا وجهدا، مما أدى إلى اختلافهم، كما اختلفوا حول ملكية المدينة فأضطر البعض منهم إلى العودة من حيث أتوا⁽³⁾.

ونتيجة لمحاولاتهم المتكررة استولوا على المدينة في 15 من شهر جويلية سنة 1099م الموافق لـ 23 من شهر شعبان سنة 492هـ⁽⁴⁾. وقد حدثت بها مذبحه مروعة، ويروي ابن الأثير خبر

⁽¹⁾ مجهول، أعمال الفرنجة، ص. 107؛ توديبود، المرجع السابق، ص. 289؛ في حين يقول وليم الصوري "ولما رأى الكونت أن خصمه بوهمند انسحب أصبح في قدرته هو وحده أن يقضي في المدينة أي المعرة المفتوحة بما يشاء... فلما كشف الصليبيون خطته سخطوا عليه أشد السخط، وعمت شكائتهم بعضهم لبعض من أن القادة يحاولون اختلاق معاذير لتبرير تراخيهم، ويبدوا أنهم نسوا هدفهم الأصلي من أمر حجهم... لذا قام العامة من تلقاء أنفسهم بتخريب مدينة المعرة لإجبار الكونت على السير إلى القدس، ومن ثم تم تحديد 15 جانفي 1099م لمواصلة الزحف. وللمزيد من التفاصيل أنظر: الحروب الصليبية، ج. 2، ص. 38-41، 39.

⁽²⁾ شفيق جاسر أحمد محمود، القدس تحت الحكم الصليبي ودور صلاح الدين في تحريرها 1099م-1244م، ط. 1، 1989، عمان، الأردن، ص. 32.

⁽³⁾ شفيق جاسر، المرجع السابق، ص. 33.

⁽⁴⁾ مجهول، أعمال الفرنجة، ص. 107، 117-118؛ فوشيه الشارترى، المصدر السابق، ص. 74 حاشية (184)، توديبود، المصدر السابق، ص. 319؛ وليم الصوري، المصدر السابق، ج. 2، ص. 137. للمزيد عن مخطط مدينة بيت المقدس في القرن الثاني عشر

ذلك، حيث يقول: "وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد عن سبعين ألف منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم"⁽¹⁾.

لقد كان سقوط بيت المقدس في أيدي الصليبيين نصرا دينيا، فضلا عن النصر السياسي والاستراتيجي، حيث أصبحت القدس القاعدة الصليبية للغرب اللاتيني في بلاد الشام بنظامها الإقطاعي، الذي أكسبها قوة وتوسعا على حساب المناطق المجاورة لبيت المقدس، والتي أصبحت أقطاعات للأمرء والفرسان، بل أنه زاد من نفوذ الكنيسة الغربية في المنطقة دينيا ودنيويا.

ثانيا: التنافس بين الصليبيين وإرساء النظام الملكي

لقد كان الاستيلاء الصليبي على القدس هو الهدف الأسمى، الذي تحركت من أجله الحملة الصليبية الأولى، وبعد أن تحقق النصر أصبح من الضروري اختيار حاكم للمدينة المقدسة، وتشكيل جهاز إداري يشرف على تسييرها⁽²⁾، غير أنه على ما يبدو أن المشكلة ليست في حكم المدينة، بل من يحكمها. فأثناء حصار بيت المقدس كان هناك اقتراح باختيار حاكم علماني يدير شؤونها، وبالتالي يكون الأمر قد حُسم ويعود من له رغبة من الصليبيين إلى الغرب، غير أن هؤلاء القادة العلمانيين لقوا معارضة قوية من جانب الزعماء الذين تأثروا بفكرة الحرب الصليبية

الميلادي (السادس المحجري)، والتي اتخذها الصليبيون مقرا لحكمهم، أنظر: الملحق رقم (05).

⁽¹⁾ ابن الأثير، المصدر السابق، مج.9، ص.19؛ ويقول ابن الجوزي "أخذ الفرنج بيت المقدس في يوم الجمعة 13 شعبان 492هـ، وقتلوا أكثر من سبعين ألف مسلم"، أما المؤرخ المجهول فيقول: "فلما دخل حجاجنا المدينة جُدوا في قتل الشرقيين، ومطاردتهم حتى قبة عمر، حيث تجمعوا واستسلموا لرجالنا الذين اعملوا فيهم أفضع القتل طيلة اليوم حتى فاض المعبد كله بدمائهم، ويقول ريمونداجيل "فقد قطعت رؤوس بعض المسلمين بلا رحمة، وتكدست في البيوت والطرقات الجثث والرؤوس والأيدي والأقدام" أما وليم الصوري فيقول: "وراح فرساننا يذرعون الشوارع مشهرين سيوفهم فاتكين بكل من يصادفونه من الأعداء، لا يراعون عمرا ولا وضعاً، فكان في كل ناحية مذبح مروعاً"، أنظر، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تح، محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992، ج.17، ص.47؛ أعمال الفرنجة، ص.ص.118-119؛ تاريخ الفرنجة، ج.6، ص.295؛ الحروب الصليبية، ج.2، ص.125.

⁽²⁾ مصعب حمادي نجم الزبيدي، الاستيطان الصليبي في بلاد الشام، مملكة بيت المقدس أنموذجاً، 492هـ-583هـ/1099م-1187هـ رسالة دكتوراه غير منشورة إشراف، د/ ناصر عبد الرزاق الملا جاسم، جامعة الموصل، العراق، 2005، ص.39.

وقد استنها، ورفضوا اختيار أو تعيين حاكم للمدينة، وادّعوا أن المسيح عليه السلام على وشك الظهور وأن أي حكم مصيره الزوال⁽¹⁾.

وبالتالي فإقامة الإدارة في القدس بقوانينها مثل التي تركوها في الغرب، تعتبر خيانة لمبادئ الحملة الصليبية بحد ذاتها، في ظل ذلك ظهر فريق آخر تزعمه رجال الدين، وطرحوا فكرة مناقشة الشؤون الروحية على أن لها الأولوية على الجانب الدنيوي، وبذلك تعيين حاكم ديني بدل الحاكم الزمني للمدينة، وأن للحاكم الديني حق الإشراف على عملية الانتخاب، وبما أن الحملة الصليبية باركتها الكنيسة بإيعاز من البابا أوربان الثاني، فلا بد أن تكون لها اليد العليا في ذلك، خاصة وأن الحملة قادها الأمراء والفرسان دون غيرهم من الملوك⁽²⁾.

ويورد المؤرخ وليم الصوري خبر ذلك بعد دخول المدينة، حيث يقول: أنه في اليوم الثامن "التأم عقد القادة للتشاور" أن يكون اختيار حاكم للمدينة يتحمل مسؤوليته بشأن ذلك، حينها ظهر رجال الدين هم أيضا وتغلّبت عليهم روح العناد وحب مصالحهم الدنيوية، وبهذا يكون الصراع ممكنا بين رجال الحكم العلماني والديني في بيت المقدس⁽³⁾.

وبالرغم من التنافس على اختيار من يحكم المدينة وقع التفاهم على الأمير جودفري البويوني، حيث يقول وليم الصوري "تم انتخابه ثم ساروا به في موكب مهيب إلى قبر المسيح" عليه السلام وهم ينشدون الأغاني⁽⁴⁾.

وكان ذلك يوم الجمعة 22 من شهر جويلية سنة 1099م / 01 من شهر رمضان سنة 492هـ⁽⁵⁾، وتواضعا منه لم يرض لنفسه لقب ملك على مدينة عُدب فيها المسيح عليه السلام⁽¹⁾،

⁽¹⁾ جمعة الجندي، الاستيطان الصليبي في فلسطين 492هـ-690هـ/1099م-1291م، ط.1، 2006، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ص.17.

⁽²⁾ جمعة الجندي، الاستيطان، ص.ص.17-18.

⁽³⁾ المصدر السابق، ج.2، ص.ص.143-144.

⁽⁴⁾ وليم الصوري، المصدر السابق، ج.2، ص.147.

⁽⁵⁾ البيشواي سعيد عبد الله، الأملاك الكنسية في بيت المقدس الصليبية 1099-1291م/492-690هـ، دار الشيماء للنشر والتوزيع رام الله، فلسطين، 2012، ص.57.

إذ أنه كيف يضع التاج المرصع على رأسه، في مدينة تُوج فيها المسيح عليه السلام بتاج من الشوك⁽²⁾، واكتفى بلقب "حامي بيت المقدس"⁽³⁾، بل أنه حامي القبر المقدس⁽⁴⁾.

على أن هذا الاعتراف يعكس بعيد الحكم عن الملكية العلمانية⁽⁵⁾، وبالتالي أقرب منه إلى الحكم الديني الدنيوي⁽⁶⁾. وفي تلك الأثناء كان قد تولى البطريرك الجديد أنولف مالكورن منصبه، ولم يكن على خلاف مع جودفري، حيث كرس اهتمامه لشؤون الكنيسة، إضافة إلى قيامه بإبعاد القساوسة الأرثوذكس، مما أثار حفيظة المسيحيين المحليين⁽⁷⁾.

ولقد واجه جودفري في بداية حكمه معضلة نقص القوى البشرية العاملة، وهذا بعد عودة الكثير من الصليبيين إلى غرب أوروبا، لذا حاول الاعتماد على السكان المحليين سياسيا واقتصاديا، وجعلهم خاضعين لنظام حكم بيت المقدس، بغية عدم الاعتماد على النظام الفاطمي في مصر. فلقد أبرم معاهدات تجارية مع شيوخ الأردن، وأمر بإعدام أي مسلم يأتي إلى بيت المقدس عن طريق البحر، تمهيدا للاستيلاء على موانئ المدن الساحلية بالشام⁽⁸⁾.

ولم تكف تستقر الأوضاع في بيت المقدس، حتى وصل الأسقف دايمبرت مبعوث البابا مدعوما بأسطول بيزا، واستفاد منه الأسقف في تعزيز مكانته في المشرق، إضافة إلى وجود بوهمند

⁽¹⁾ أنظر: Conder Claude Reignier, The Latin kingdom of Jerusalem 1099-1291 Published by the committee of the Palestine exploration Fund, 24, Hanver =Square, Lodon, 1897, p.67.

⁽²⁾ أنظر: Assises de Jérusalem, Pub, Le Comte Beugnot (M), dans, Recueil des historiens des croisades, Assises de la Haute Cour, Imp., Royale, Paris, 1841, T. I, Chap.I, P.22.

⁽³⁾ عاشور، الحركة الصليبية، ج.1، ص.267.

⁽⁴⁾ أنظر: Alex Malloy (G), Irene Fraley Briston, (A.J). Seltmen, Coins of the Crusader States (1098-1291), Attic Books, L.T.D., N.Y., 1994, Introduction, P.47.

⁽⁵⁾ عاشور، الحركة الصليبية، ج.1، ص.267.

⁽⁶⁾ شفيق جاسر أحمد محمود، المرجع السابق، ص.43.

⁽⁷⁾ نفسه.

⁽⁸⁾ أنظر: Alex Malloy (G), Irene Fraley Briston, (A.J). Seltmen, op.cit., Introduction, P.47.

وبولدوين البويني إلى جانبه، ولقد كان حاكم القدس جودفري في حاجة ماسة إلى فرسانهما وللأسطول، وبهذا تم خلع البطريرك أرنولف من منصبه وتعيين دايمبرت (1099-1103م)، على أن يتم الاعتراف بجودفري حاكما للقدس بموافقة البطريرك الجديد⁽¹⁾، وبهذا تكون الكنيسة الغربية إلى حد الآن قد حققت جزءا من هدفها.

ومن خلال التقليد الذي أشرف عليه البطريرك دايمبرت، أصبح سيدا إقطاعيا لكل من الدوق جودفري وبوهمند، وفي هذا الشأن يقول وليم الصوري: "وما كاد رجل الرب دايمبرت يُنصب في كرسي البطريركية، حتى سلم بيده كلُّ من الدوق جودفري والأمير بوهمند تقليديهما، بما في يدهما فتسلماه في خشوع، فأما الأول فمنحه مقاليد المملكة، وأما الثاني فقد وكل إليه أمر إمارة أنطاكية فكان ذلك توقيرا منهما باعتباره البطريرك نائب السيد الأعلى"⁽²⁾، وذلك الاحترام والتقدير وإعلاء شأن البطريرك دايمبرت، يجعل هذا الأخير سيدا أعلى في بلاد الشام، وبالتالي استطاعت الكنيسة الغربية أن تضع بصمتها من خلال الصلاحيات التي حولها لها البابا أوربان الثاني.

وعليه فإن البطريرك قد سنحت له الفرصة لتأكيد سلطته، ولم يجد حاكما زمنيا قويا يقف في وجهه ويحد من سلطة الكنيسة، لأن جودفري معروفا بطيبته والتي ربما انعكست سلبا على حكمه، وأصبح ضعيفا أمام رغبة دايمبرت الجامحة المدعومة بأساطيل بيزا، وفرسان النورمان بقيادة بوهمند⁽³⁾.

وعلى أية حال فإن جودفري من خلال فضائله وتواضعه، استحق لقب الملك بدون منازع⁽⁴⁾، ولقد كان دوقا أكثر مسيحية في المملكة التي تأسست⁽⁵⁾، ومن خلال اختيار دايمبرت بطريركا وما

⁽¹⁾ ماير، إتش.إ، تاريخ الحملات الصليبية، تعريب محمد فتحي الشاعر، دار الأمين للنشر والتوزيع، 1999، القاهرة، ج.1، ص.96.

⁽²⁾ المصدر السابق، ج.2، ص.172.

⁽³⁾ عاشور، الحركة الصليبية، ج.1، ص.273.

⁽⁴⁾ أنظر: Michaud François Joseph, Histoire de la Première croisade, New York, Mac-

Milan, Company, 1897, p.91.

Ibid., P.104.

⁽⁵⁾ أنظر:

جرى من أحداث يُؤشر بحق إلى قيام إدارة دينية جديدة في القدس⁽¹⁾. وما كاد الوضع يستقر حتى اندلع الصراع في بيت المقدس بين جودفري ودايمبرت، وهذا عندما تقاطعت مصالحهما حول ملكية بعض الإقطاعات⁽²⁾، وقد أبدى جودفري موافقته بشأن ملكية دايمبرت ليافا وجزء من القدس بعد وفاته، غير أن البطريرك استعجل ذلك، وأراد إضعاف نفوذ السلطة الزمنية في المملكة الناشئة ببيت المقدس⁽³⁾.

وأثناء ذلك لم يكن للصليبيين سوى بيت المقدس واللّد والرملة ويافا، وقد كان سقوط تلك المدن بالأمر السهل، إذ أن سقوط القدس قد أحدث هلعاً لسكان المدن المجاورة والتي خلت من مدافعها، وأصبح الأمر حتمياً على سكان نابلس تقديم مدينتهم، حيث تسلمها تانكريد في أواخر شهر جويلية سنة 1099م، مما زاد الصليبيين قوة فانتصروا قرب عسقلان في 12 أوت 1099م⁽⁴⁾.

وعلى الرغم من قصر مدة حكم جودفري البويوني لبيت المقدس، إلا أنها اكتست أهمية خاصة في تاريخ الحملة الصليبية الأولى على بلاد الشام، فبعد أن أصبح حاكماً وجب عليه مواجهة الخطر المحدق بالصليبيين خاصة من جهة الفاطميين في مصر، وبانتصاره قرب عسقلان ارتفعت معنويات فرسانه، بل أنه نجح في امتحانه العسكري بعد توليه أمر المملكة، وعلى الرغم من قلة الجنود -لأن كثيراً من الفرسان قد رحلوا بعد دخول بيت المقدس- استطاع أن يستولي على مدينة الخليل ذات الموقع الاستراتيجي والأهمية الاقتصادية البالغة، وكان ذلك سنة 1100م وشيد بها قلعة حصينة، استعملها الصليبيون لحماية مواطنيهم في بلاد الشام⁽⁵⁾.

إن انتصار الصليبيين في عسقلان قضى على هيبة الفاطميين في فلسطين، بل أصبحت مدن

⁽¹⁾ عاشور، الحركة الصليبية، ج.1، ص.273.

⁽²⁾ وليم الصوري، مصدر سابق، ج.2، ص.173.

⁽³⁾ عاشور، الحركة الصليبية...، ج.1، ص.274.

⁽⁴⁾ المرجع نفسه، ج.1، ص.254، 256.

⁽⁵⁾ مؤنس عوض، العلاقات بين الشرق والغرب في القرنين 12 و13م، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2000/99،

ص.ص.90-91.

الشام هدفا لإطماع الصليبيين، و"غدت يد الصليبيين طليقة في فلسطين، مثلما صارت يدهم طليقة في شمال الشام عقب انتصارهم على كربوغا"⁽¹⁾. ويروي ابن القلانسي خبر ذلك حيث يقول: "ووصل الأفضل في العساكر المصرية، وقد فات الأمر... ونزل بظاهر عسقلان في رابع عشر رمضان منتظرا وصول الأسطول في البحر والعرب، فنهض عساكر الإفرنج إليه وهجموا عليه في خلق عظيم فانهمز العسكر المصري إلى ناحية عسقلان... وتمكنت سيوف الإفرنج من المسلمين"⁽²⁾. وقد كان نصر الصليبيين معنويا أكثر منه ماديا، إذ أن الفاطميين لم يحاولوا مرة أخرى مواجهة الصليبيين، ونتيجة لاختلاف نوايا الإفرنج وتنافسهم صمدت عسقلان ولم تسقط في أيديهم، إلا بعد خمسة عقود ونيف (1153م)⁽³⁾.

وعليه فإن حكم الدوق جودفري لم يدم طويلا، إذ أنه أصيب بالحمى ومات بعدها بوقت قصير، وقد وافق ذلك 18 من شهر جويلية سنة 1100م⁽⁴⁾، وأدت وفاته إلى فتح باب الخلاف من جديد حول طبيعة الحكم في المدينة المقدسة، أتكون علمانية أم دينية⁽⁵⁾. غير أن المؤرخ والأسقف وليم السوري يقول بأن الدوق جودفري قبل وفاته، كان قد أوصى بأن يرثه دايمبرت في إقطاعه في القدس، وهذا في حالة عدم وجود من يخلفه شرعا⁽⁶⁾، ومن خلال ذلك يتبين أن حكومة بيت المقدس قد تتحول إلى حكومة دينية وهذا ما تسعى إليه الكنيسة⁽⁷⁾.

وعلى ما يبدو أن مؤيدي فكرة قيام نظام ملكي وراثي هم من عجل بقيامه، وذلك من خلال مراسلتهم لبولدوين أمير الرها، ليأتي على جناح السرعة ويتولى السلطة لكونه وريثا شرعيا⁽⁸⁾.

⁽¹⁾ عاشور، الحركة الصليبية، ج.1، ص.257.

⁽²⁾ المصدر السابق، ص.137.

⁽³⁾ عاشور، الحركة الصليبية، ج.1، ص.256-258.

⁽⁴⁾ وليم السوري، المصدر السابق، ج.2، ص.ص.186-187.

⁽⁵⁾ عاشور، الحركة...، ج.1، ص.274.

⁽⁶⁾ المصدر السابق، ج.2، ص.ص.173-174.

⁽⁷⁾ عاشور، الحركة...، ج.1، ص.279.

⁽⁸⁾ فوشيه الشارثري، مصدر سابق، ص.103.

ويقول المؤرخ ستيفنسون Stevenson أنه بموت الدوق جودفري تم فتح مسألة من يتولى القدس. وبما أن دايمبرت قد تم اختياره بطريقا عليها واعتراف جودفري وبوهمند به سيدا أعلى، وجب أن يكون الأحق لتولي العرش، ولقطع الطريق أمام بولدوين البويوني، فكر في طلب مساعدة صديقيه بوهمند كونه أميرا كفاء وتانكريد ذي الحماسة الفياضة⁽¹⁾.

وعليه فإن رسالة دايمبرت لم تصل إلى بوهمند، إذ أن حاملها وقع أسيرا لدى ريموند الصنجيلي منافس أمير أنطاكية اللدود⁽²⁾، وفي تلك الأثناء تم أسر الأمير النورماني بوهمند، عندما توجه إلى ملطية لعله يمتلك ذلك الثغر في شمال إمارته بأنطاكية، غير أنه أُسر بصحبة ريتشارد السالرنى، وأُستبيح جنده "ولم يفلت منهم أحد"⁽³⁾. ولقد كان سجنُ هذا الأمير نعمة على الصليبيين، لكونه جنبهم الصراع فيما بينهم، لاسيما فرسان أنطاكية النورمان وأقرانهم اللورين في الرها وبيت المقدس⁽⁴⁾. وعند وصول رسل القدس إلى الرها أخبروا بولدوين بعرضهم لتوليهم الحكم في القدس "أصابه شيء من الحزن لوفاة أخيه، لكن فرحه أكثر لميراثه"⁽⁵⁾، وبهذا تحرك على جناح السرعة إلى بيت المقدس فاستقبله سكانها بالترحيب⁽⁶⁾، ونادوا به ملكا عليهم، وقد وافق ذلك عيد الميلاد لسنة 1100م في كنيسة بيت لحم⁽⁷⁾، وبذلك يكون أول ملوك بيت المقدس⁽⁸⁾.

ولقد حاول تانكريد الوقوف في وجه بولدوين ومنعه من تقلد منصبه في القدس، لكنه لم يستطع

⁽¹⁾ أنظر: Crusaders in the East, Cambridge University Press, 1907, p.42.

⁽²⁾ عاشور، الحركة...، ج.1، ص.281.

⁽³⁾ ابن العديم، زبدة الحلب، ج.2، ص.145.

⁽⁴⁾ أنظر، Cahen Claud, La Syrie du Nord a L'époque des des Croisades et la Principauté franque d'Antioche, Librairie, orientaliste, Paul geuthner, Paris, 1940, p.229

⁽⁵⁾ الشارترى، المصدر السابق، ص.103.

⁽⁶⁾ المصدر نفسه، ص.107.

⁽⁷⁾ شفيق جاسر أحمد محمود، المرجع السابق، ص.45. وبيت لحم هي إحدى مدن الجنوب الشرقي من القدس على بعد ستة عشر

كيلومتر وُلد بها السيد المسيح عليه السلام، وبها كنيسة المهد؛ المرجع نفسه، ص.45، حاشية (103).

⁽⁸⁾ أنظر: Stevenson, op.cit., p.44.

وخسر رهانه⁽¹⁾، ولو استمرت تلك العداوة لربما أصبح الأمر أكثر تعقيدا، خاصة وأن الأمير تانكريد كانت له قوة معتبرة في بيت المقدس، لاسيما أن له إقطاعية الجليل وتزداد مكانته قوة ونفوذا، بعد وصايته على أنطاكية نتيجة غياب خاله بوهمند، لذا نراه يرفض مقابلة الملك بولدوين⁽²⁾.

وبالرغم من ذلك العداء، إلا أنهما تصالحا وتنازل تانكريد عن إقطاعيته بشرط استرجاعها في حالة عودته في المدة المحددة بينهما وهي سنة وثلاثة أشهر⁽³⁾. وبهذا يكون التأم الصدع الذي ربما تكون نتيجته وخيمة على مستقبل الوجود الصليبي في بلاد الشام، خاصة وأنهم حديثي العهد بالمنطقة، والتي لا تزال على صفيح ساخن.

ويروي المؤرخ راول دو كاين Raoul de Caen: "أن مجيء بولدوين البويوني إلى بيت المقدس، كاد أن يحدث فتنة عظيمة، لكن برحيل تانكريد إلى إمارة أنطاكية، قد أنهى ذلك الوضع، بل أنه أذن بنصرٍ للصليبيين"⁽⁴⁾.

إن ترسيم بولدوين ملكا على القدس يكون قد أنهى مطامع قيام حكم ديني، والذي ربما رغب البطريك في تأسيسه⁽⁵⁾، ولقد كان إصرار بولدوين على أخذ التاج الملكي عملية تحرير للمملكة الوليدة في القدس من سيطرة الكنيسة، علاوة على ذلك أنه خادم للقبر المقدس.

وعليه فبمجرد تتويجه من طرف البطريك انتهى دور هذا الأخير، ومن أجل تدعيم مسعاه استعان بالمندوب البابوي الجديد موريس من بورتو Maurice of Porto، الذي قدم مع الأسطول الجنوبي إلى القدس، وهذا من أجل إبطال مساعي دايمبرت وعودته إلى التدخل في شؤون المملكة

⁽¹⁾ أنظر: Setton(K.M), A History of crusades, the University

Press,Milwaukee,London,1969,Vol.,I,p.381.

⁽²⁾ أنظر: Runciman, A History of crusades, Vol.I,p.325.

⁽³⁾ أنظر: Albert D'aix,op.cit.,T.I.PP.436-437.

⁽⁴⁾ أنظر: Histoire de tancréd, Trad., Guizot(M) dans Collections des mémoires relatifs a

L'histoire de France depuis la fondation de la Monarchie Française jusqu'au 13^e

Siecle, Imp. LeBel, Paris, 1825, P.265.

⁽⁵⁾ شفيق جاسر، المرجع السابق، ص.ص.45-46.

الناشئة.

إن سياسة بولدوين كانت تسعى لإيجاد نوع من توازن القوى، ويظهر ذلك في لجوئه إلى الجنوبية منافسي البيازنة⁽¹⁾، وقد استهل بولدوين بداية عهده بمهاجمة المسلمين الذين يشكلون خطرا على طرق ومواصلات الحجاج الصليبيين، حول القدس وعسقلان والخليل وغيرها من المدن الهامة، بجيش يعد معتبرا من حيث التنظيم من فرسان ومشاة⁽²⁾.

وعلى ما يبدو أن بولدوين الأول قد ورث مملكة لا تزال في طور التأسيس، لاسيما أن الصراع بين المتنافسين لا يزال حديثا، حتى وإن كان بولدوين قد تقلد زمام الأمور، بالإضافة إلى أن المسلمين يشكلون عائقا في وجه المملكة الناشئة ومواردها الاقتصادية محدودة⁽³⁾.

خاصة وأن مواردها مرتبطة بمدى استيلائها على الأراضي، والتي كانت حينها مقتصرة على القدس وبعض أعمالها. حيث يقول الشارترى: "مَلَكَ بولدوين في بداية عهده بضعة بلدان وأناس فقط، ودافع ببسالة عن مملكته ضد أعدائه من كل صوب"⁽⁴⁾، بل حتى أنه لم يكن للمملكة العدد الكافي من الرجال، ويبين ذلك بقوله مرة أخرى: "إذ لم يكن لدينا في ذلك الوقت أكثر من ثلاثمائة فارس ومثلهم من المشاة، للدفاع عن القدس ويافا والرملة وحيفا المنبوعة"⁽⁵⁾.

إن استراتيجيه المملكة الناشئة تركزت على إيجاد مناطق نفوذ ساحلية، والتي تعتبر صمام أمان وجسر عبور إلى الغرب اللاتيني، الذي يعد الظهر الأقوى لمد عُمُر مملكة بيت المقدس، حيث لم يكن لديها سوى ميناء يافا. وبهذا نجد بولدوين الأول يسعى وبجدية لضم الموانئ الساحلية، التي تعد الطريق الآمن وروح المملكة، والذي يتمثل في تنشيط التجارة مع الغرب، بالإضافة إلى تأمين

⁽¹⁾ ماير، المرجع السابق، ج.1، ص.ص. 99-100.

⁽²⁾ شفيق جاسر، المرجع السابق، ص.ص. 45-46.

⁽³⁾ مصعب حمادي نجم الدين الزبيدي، الاستيطان الصليبي في بلاد الشام، مملكة بيت المقدس نموذجا، أطروحة دكتوراه (غير منشورة)،

إشراف، د. ناصر عبد الرزاق الملا جاسم، جامعة الموصل، 2005، ص. 43.

⁽⁴⁾ المصدر السابق، ص. 111.

⁽⁵⁾ الشارترى، المصدر السابق، ص. 112.

طرق الحجاج⁽¹⁾.

وتنفيذا لمشروعه استطاع بولدوين أن يحاصر أرسوف برا وبحرا والاستيلاء عليها، بمساعدة أسطول الجنوية مقابل امتيازات، وهذا ما يسعى إليه هؤلاء، كما مدّ نفوذه إلى قيسارية، حيث اجتاحتها القوات الصليبية ورأى منه سكانها أشد العذاب، وكل ذلك يمثل نصرا سياسيا واستراتيجيا لمملكة بيت المقدس الصليبية⁽²⁾.

كما واصل الملك مشروعه إلى المناطق الساحلية، حيث كان له في مدينة عكا مقام، حيث حاصرها سنة 1103م ولم يستطع دخولها، فعاد أدراجه إلى يافا، وفي سنة 1104م تهيأ الملك مرة أخرى ليُدك حصونها بمساعدة الجنوية، الذي بلغ أسطولهم سبعين سفينة، وبعد حصار طويل سلّم السكان مدينتهم لبولدوين. وقد تميزت المدينة بمينائها العظيم، وهو حلّم طالما راود ملوك الغرب. كما استولى على بيروت سنة 1110م⁽³⁾، وكل ذلك يشكل امتيازاً لمملكة بيت المقدس، إذ أن هذا الشريط الساحلي شكل بموانئه العمود الفقري، ومنتفسا لاقتصاد الدولة الصليبية بصاداته ووارداته. ولقد كان الاستيطان الصليبي في بلاد الشام، بحاجة ماسة إلى حيازة مزيد من الأراضي لتأسيس مستوطناتهم، على الساحل الشامي من أجل تأمين اتصالهم بالغرب هذا من جهة، ومن جهة أخرى بسط النفوذ على الطرق التي تربطهم بممتلكاتهم في الداخل، و"كانت الأرض الأساس المادي لإقامة الحكومة"⁽⁴⁾.

وعليه ومن خلال ما قام به بولدوين الأول، من أعمال يعد المؤسس الفعلي للمملكة الصليبية في بيت المقدس، بل أنه أضفى عليها الصبغة العلمانية بعد تحييده لدايمبرت وابعاده عن التدخل في شؤونها. ونتيجة للنشاط الصليبي في الحملة الصليبية الأولى بدأت معالم الاستيطان تظهر في

⁽¹⁾ مصعب حمادي، المرجع السابق، ص. 43.

⁽²⁾ وليم الصوري، مصدر سابق، ج. 2، ص. 216-220.

⁽³⁾ الشارترى، المصدر السابق، ص. 130-145، 131-146. ؛ للمزيد عن حصار مدينة عكا والاستيلاء عليها. أنظر: وليم الصوري، المصدر السابق، ج. 2، ص. 242-247.

⁽⁴⁾ سميل، ر، سي، فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر 1097-1193م، ت. محمد وليد الجلاد، مركز الدراسات العسكرية، 1985، دمشق، ص. 54.

بلاد الشام، وخاصة بيت المقدس والمدن المجاورة لها مثل: صور، عكا، حيفا، قيسارية، أرسوف، اللد، يافا، الرملة، بيت لحم والخليل، وكل ذلك كان طموح لملوكها، إذ أصبحت بيت المقدس أهم مملكة في بلاد الشام وأقواها، حيث امتدت من بيروت شمالاً إلى عسقلان جنوباً، ومن نهر الأردن شرقاً إلى البحر الأبيض المتوسط غرباً. وكان لها نفوذ على شرق الأردن (الكرك)، بل حتى خليج العقبة على البحر الأحمر⁽¹⁾. ومن خلال الغزو الصليبي العنيف على بلاد الشام، تبين أن الصليبيين قد جاؤوا إلى المنطقة من أجل استيطانها، بل أصبح من الضروري توجيه النظام الاقتصادي لتلبية حاجات المجتمع الوافد⁽²⁾.

ولم يتوقف طموح الملك بولدوين الأول عند هذا الحد، بل بدأ سنة 1116م بدأ بتشديد حصن الشوبك Montreal، الواقع بين أيلة والبحر الميت⁽³⁾، بل أمتد نفوذه جنوباً إلى أن وصل إلى أيلة على خليج العقبة، بحيث أصبح له قاعدة عسكرية. وبهذا الانجاز أصبح للمملكة الناشئة محور استراتيجي من الشمال إلى الجنوب، بحيث يتحكمون في طرق القوافل التجارية بين القاهرة وبغداد. وكخطوة استيطانية، بدأ الملك بولدوين بتعمير المناطق التي هجرها سكانها، بأن استقدم المسيحيين الروم والسريان من أجل زراعة هذه الأرض، ليضمن الحاجات الغذائية لمملكته⁽⁴⁾.

كما في فترة حكم الملك فولك أنجو أنه شُيّد حصن الكرك سنة 1140م شرق البحر الميت. وكل هذه الانجازات أملتها الحوافز التجارية، سواء كان نشاطاً بحرياً أو برياً، وعليه فكل اتساع للمملكة كان وراءه الأطماع التجارية لملوك وأمراء الصليبيين⁽⁵⁾، بل كانت الرغبة وراء كل هذه الحدود، إذ أن بولدوين الأول كان مشروعه يمتد إلى الاستيلاء على مصر، ولكن وافته المنية في

⁽¹⁾ مصعب حمادي، الاستيطان...، ص.45.

⁽²⁾ براور يوشع، عالم الصليبيين، ت. قاسم عبده قاسم، محمد خليفة حسن، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 1999، القاهرة، ص.89.

⁽³⁾ باركر أرنست، الحروب الصليبية، ت. الباز العريني، ط.2، دار النهضة العربية، بيروت، ص.46.

⁽⁴⁾ غروسييه رنيه، موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ت. أحمد إيش، ط.1، 2014، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، ص.ص.51-52.

⁽⁵⁾ باركر أرنست، المرجع السابق، ص.46.

سنة 1118م/512هـ، غير أن وفاته فتحت مشكلة وراثة عرش المملكة، وعليه فإن الأمر قد حُسم بتتويج بولدين الثاني خليفة له يوم الأحد 14 من شهر أبريل سنة 1118م/512هـ في كنيسة القيامة⁽¹⁾، وبرحيله انتهت فترة التأسيس للمملكة الصليبية بالقدس، التي تميزت بالقوة والمكانة بين الكيانات الصليبية في بلاد الشام⁽²⁾.

لقد كان الملك بولدين الأول رجلاً سياسياً وقائداً عسكرياً فذاً، خرج بمملكته إلى بر الأمان ووسع حدودها، بل أصبح لها ساحل مهم أمّن لها اتصالاً بالغرب اللاتيني، بل شريان حياتها من تصريف لمنتجاتها واستقبال المساعدات العسكرية من الغرب اللاتيني⁽³⁾. كما كانت وفاته نهاية حكم آل بويون، الذين حكموا المملكة وراثياً ولعبت عائلتهم دوراً هاماً في تأسيس وتقوية مملكة بيت المقدس داخلياً وخارجياً⁽⁴⁾.

ثالثاً: نظام الحكم في مملكة بيت المقدس الصليبية

إن التواجد الصليبي في بلاد الشام وبقائه ما يقارب القرنين من الزمان له مدلوله، فمنذ دخولهم أصبحت الأرض استيطانية للأمرء والفرسان، ولكي يتسنى لهم ذلك سنوا قوانينهم ونظمهم التي تحكمهم هناك. وبما أن الغرب اللاتيني قد عرف النظام الإقطاعي، فإن هذا شكّل نواة أساسية لحكم الأرض والاستفادة من ثرواتها⁽⁵⁾. ويقول مارك بلوخ Marc Bloch "إن هذه الظاهرة (النظام الإقطاعي) حدثت في القرن الحادي عشر الميلادي ثلاث مرات، آخرها كان في سوريا حيث تأسست الدويلات الصليبية بدءاً من سنة 1099م"⁽⁶⁾.

⁽¹⁾ صفاء عثمان محمد، مملكة بيت المقدس في عهد بولدين الثاني، دار العالم العربي، القاهرة، ط. 2008، 1، ص.ص. 60-61.

⁽²⁾ مصعب حمادي، الاستيطان...، ص. 46.

⁽³⁾ شفيق جاسر، المرجع السابق، ص. 53.

⁽⁴⁾ مصعب حمادي، الاستيطان...، ص. 46.

⁽⁵⁾ إبراهيم علي طرخان، النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1968، ص. 47.

⁽⁶⁾ أنظر: Marc Bloch, Feudal Society, Rowtledge, London, New York, Taylor, Francis, e-

ومن خلال الكيانات الصليبية التي أسسها الصليبيون في الشام، يبرز لنا قطبين هما بيت المقدس وأنطاكية، وقد كانت لهذه الدويلات قوانينها، وكانت بيت المقدس من بين أقوى تلك الكيانات⁽¹⁾، فقد كانت لمملكة بيت المقدس قوانينها التي تسيروها⁽²⁾، حيث وُضعت هذه القوانين في عهد الدوق جودفري البويوني وبرزت معالمها في عهد الملك بولدوين الأول، وبموجب هذا القانون قُسمت الأرض إلى إقطاعات كبرى وأخرى صغرى، أُعطيت للأمرء والنبلاء، هذا بالإضافة إلى إقطاعات خاصة بالملك⁽³⁾، غير أن هذا لم يكن تنظيمًا نهائيًا للمملكة، بل في حوالي سنة 1143م تم اكتمال مجموعة قانون العرف بمملكة بيت القدس⁽⁴⁾.

إن أخذ جودفري البويوني للقب "حامي القبر المقدس"، قد مزج بين صفة الحكم العلماني والديني، وعلى أية حال فإن هذه الفكرة قد جنبت الدوق الاصطدام مع رجال الدين، مما ترتب عنه ترضية جميع الأمرء ورجال الدين على حد سواء، وعليه فإن هذا العمل قد أحر قيام مملكة قوية في ظل محيط إسلامي يترقب عن كثب⁽⁵⁾. وبوفاة جودفري تولى أخوه بولدوين أمور المملكة الناشئة، وكان رجلاً حكيماً ذو صرامة ورجل دولة⁽⁶⁾. وبهذا تجسدت طبيعة حكم الصليبيين في الشام، حيث اعتمدوا المبدأ الوراثي في نظام الحكم الملكي الصليبي، المأخوذ عن الغرب اللاتيني⁽⁷⁾.

وبوفاة جودفري يوم 18 جويلية سنة 1100م، ظهر النزاع من جديد، حيث قام الكونت جارنييه

Boissonnade (P), Life and work in : أنظر أيضا؛ Librairy,2004, Vol.,I, PP.187-188.

Medieval Europe, Routledge, London, N.Y. 2011, PP.119-181.

Cahen,op.cit.,P.438.

(1) أنظر:

(2) حسين عطية، تشريعات الصليبيين، دار المعرفة الجامعية، 2012، الإسكندرية، مصر، ص.15.

(3) مصعب حمادي، الاستيطان...، ص.48.

(4) باركر، المرجع السابق، ص.72.

(5) جمعة مصطفى الجندي، نظم الحكم والإدارة في مملكة بيت المقدس، في دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، تح، مؤنس عوض، ط1. 2003، عين للدراسات، ص.194.

(6) رنسيمان، تاريخ الحملات الصليبية (مملكة القدس 1100-1187)، ج.2، ت. نور الدين خليل، (د.ن)، ص.29.

(7) مصعب حمادي، الاستيطان...، ص.48.

دي جراي وهو من الفرسان الأشداء، والذي قام بالاستيلاء على برج داود وحصنه، وبعث برسله إلى الكونت بولدوين يطلب مجيئه⁽¹⁾، في حين قام البطريرك دايمبرت بمراسلة بوهمند ليقف في وجه بولدوين ويتصدى له، ويمنعه من تولي عرش القدس الشاغر⁽²⁾، غير أن ذلك لم يجد نفعا، حيث وقع قائد النورمان بوهمند أسيرا في يد أمير سيواس الدانشمندي بالأناضول أثناء توسيع حدود إمارته في الشمال الشرقي من بلاد الشام، وكان ذلك سنة 1100م/493هـ⁽³⁾. ويروي ابن القلانسي خبر ذلك "نصر الله المسلمين وقتلوا من حزبه خلقا كثيرا، وحصل في قبضة الأسر مع نفر من أصحابه"⁽⁴⁾.

كما أن تانكريد سيصبح وصيا على إمارة أنطاكية، وهذا من خلال مراسلة أهل أنطاكية له، ليدير شؤونها مكان خاله الأسير⁽⁵⁾. وكل هذا يُقلل من حظوظ دايمبرت ليتولى زمام الأمور بالمملكة، وبهذا أصبح مجبرا على أن يتصالح مع الكونت بولدوين، وأن يتوج هذا الأخير ملكا بوضع التاج المرصع بالجواهر على رأسه وكان ذلك سنة 1101م⁽⁶⁾.

وعلى ما يبدو أن الصراع بين السلطتين الزمنية والدينية لم ينته بعد في بيت المقدس، إلا بعد أن قام البابا باسكال الثاني بإرسال مبعوثه إلى الشام، ليحقق في الأمر والذي انتهى بعزل دايمبرت من منصبه، وبهذا غادر باتجاه أنطاكية ليتولى شؤون كنيسة القديس جورج هناك، بإيعاز من تانكريد وكان ذلك سنة 1102م⁽⁷⁾، وستشهد القدس قيام نظام حكم ملكي وراثي، ذو صبغة

⁽¹⁾ وليم الصوري، مصدر سابق، ج.2، ص.196، 187-197.

Grousset Réne, op.cit., P.44

⁽²⁾ أنظر:

⁽³⁾ علي بن صالح الخيميد، الدانشمنديون وجهادهم في بلاد الأناضول، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1994، ص.177.

⁽⁴⁾ المصدر السابق، ص.138.

⁽⁵⁾ أنظر، Yewdal R.B, Bohemond I, Prince of Antioch, A Dissertation Presented to the Faculty of Princeton University, U.S.A., 1917, P.94.

⁽⁶⁾ وليم الصوري، المصدر السابق، ج.2، ص.ص.209-210.

⁽⁷⁾ عاشور، الحركة الصليبية...، ج.1، ص.ص.299-300.

إقطاعية⁽¹⁾.

إن سياسة بولدوين الدينية التي اتبعتها، تميزت بالمهارة وأعطته سلطاناً أعلى على إدارته وجنبت الصراع بين العلمانيين ورجال الدين، وأصبح البطريرك أرنولف مالكورن ضمن فلك سياسة الملك، والتي مكنت هذا الأخير من تثبيت النظام الملكي الوراثي في بيت آل بويون⁽²⁾.
ومن أجل إحكام السيطرة على بيت المقدس واستيطانها اعتمد الصليبيون على الأجهزة التالية:

أ- مجلس المملكة وصلاحيات الملك:

من خلال ما جرى بعد الانتصار في القدس واختيار جودفري حاكماً عليها، وانتقال الحكم إلى أخيه بولدين، الذي سیر شؤونها وأضفى على المملكة صفة الوراثة⁽³⁾، إلى غاية وفاته سنة 1118م⁽⁴⁾، وبموته المفاجئ أثيرت مسألة وراثة العرش الملكي بالقدس، حيث لم يكن للملك وريث شرعي، وبهذا اجتمع أمراء المملكة برفقة البطريرك أرنولف لبحث المشكلة، واتفق البعض على استدعاء أخيه إيستاش البويوني Eustache du Bouillon الموجود بايطاليا، ولكن بعضهم عارض الفكرة، لأن الظروف لا تسمح بذلك. كما أن وريثه يجب أن يكون من الصليبيين المقيمين بالشام، والذين لهم خبرة عسكرية ودراية بالمنطقة وظروفها، وبهذا هتف الجميع بأن يكون بولدوين دي بورغ أمير الرها، بالإضافة أنه ابن عم الملك الراحل، وقد وافق تتويجه يوم الأحد 14 من شهر أبريل سنة 1118م/512هـ⁽⁵⁾.

وإذا ما نظرنا إلى الصراع في بيت المقدس بين الملكية والكنيسة فإنه كان صراع من أجل

⁽¹⁾ مصعب حمادي، الاستيطان...، ص.50.

⁽²⁾ صفاء عثمان، المرجع السابق، ص.57، للمزيد عن نسب ملوك بيت المقدس، من تأسيس المملكة إلى سقوطها على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة 1187م/583هـ، أنظر الملحق رقم: (06).

⁽³⁾ الشارترى، المصدر السابق، ص.103.

⁽⁴⁾ أنظر: Stevenson, op.cit., P.64.

⁽⁵⁾ صفاء عثمان، المرجع السابق، ص.60-61.

ترسيخ مبدأ تقليد من ستكون له أحقية إدارة دفة الحكم الصليبي في الأماكن المقدسة، وبانتصار الملك بولدوين الأول على غريمه دايمبرت، وجعل البطريرك أرنولف مالكورن يسير ضمن سياسته، هنا لم يكن قد بسط نفوذه على الكنيسة، وتجنب الصراع بين السلطتين الدينية والزمنية فحسب، بل ضمن لآل بويون نظاماً وراثياً، غير أن ما يتعلق بالأحوال الداخلية للكنيسة فقد كانت من اختصاص البطريرك، أي مستقلة في شؤونها الداخلية. ولقد كانت للملك بولدوين محاولات لمساندة الكنيسة وتوسيع نفوذها واختصاصها الديني في الشام، بحيث نجده يناصرها على حساب كنيسة أنطاكية، عندما اختلفتا حول تبعية أسقفية بيروت بعد أن استولى عليها بولدوين الأول سنة 1110م، وبمراسلة البابا باسكال الثاني في روما سنة 1111م، أفتى البابا بأن المدن التي استولى عليها الملك بولدوين تكون تابعة لكنيسة القدس⁽¹⁾.

وبالرغم من سعي البابا في تحرر الكنيسة، إلا أنه لم يعترف بقيام بطريركية قوية، كما كان دايمبرت يأمل في قيامها، لذا كانت البابوية تنظر بعين الحذر تجاه كنيسة القدس، التي ربما يعلو مركزها وتزايد ثروتها فتكون نداً لكنيسة روما⁽²⁾. ولقد كان التقليد المعمول به يفرض على الملك تقديم الولاء للبطريرك في حفل التتويج، كما أنه يسعى إلى الموافقة على لقبه من البابا، وكانت تبعيته لهذا الأخير أكثر بقليل من التبعية الاسمية، وكان لذلك منافع، إذ أن البابوية تمدد بالرجال والأموال ومساعدتها الدبلوماسية كلما احتاج الملك لذلك، واستخدام البابوية لكبح جماح البطريركية، بل الحد من نفوذ الأنظمة الرهبانية العسكرية⁽³⁾.

ولقد تم تقسيم الأرض إلى إقطاعات الأمراء والضياع التي تتبع الملك وتدين له بالولاء كونه في قمة التنظيم الإقطاعي⁽⁴⁾. وبعد ثلاثة عقود من الغزو الصليبي أصبحت الخطوط العريضة

⁽¹⁾ جمعة الجندي، الاستيطان...، ص.ص. 93-94.

⁽²⁾ رنسيمان، المرجع السابق، ج. 2، ص. 358.

⁽³⁾ المرجع نفسه، ج. 2، ص.ص. 358-359.

⁽⁴⁾ براور يوشع، عالم الصليبيين، ص. 98. للمزيد عن توزيع الأراضي على شكل إقطاعات في مملكة بيت المقدس. أنظر: الفيتري يعقوب، تاريخ بيت المقدس، ت. سعيد عبد الله البيشاوي، 1998، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ص. 62.

للإقطاع ثابتة، وكانت الأملاك الملكية أوسع وأكثر ثراءً، إذ امتد الإقطاع الملكي من حبرون (الخليل) جنوباً إلى السامرة حول نابلس في الشمال، في حين كان سيداً على المدن البحرية ذات المكانة الرفيعة، مثل يافا وصور وعكا، بالإضافة إلى القدس عاصمة المملكة⁽¹⁾. وإلى جانب الملك في سلطته كان يوجد أربعة من كبار البارونات، وهم بارونات كل من يافا وعسقلان والكرك والشوبك (مونتريال)، وإمارة الجليل ومقاطعة صيدا، ولكلٍّ موظفوه وإدارته الخاصة أشبه بالملك وإن كانت أقل منه درجة، إضافة إلى وجود اثنتي عشرة مقاطعة صغيرة، وأبرز بارونات هذه المقاطعات قيسارية وتبنين⁽²⁾.

ولقد اعتمدت الملكية في بيت المقدس على مبدأ الانتخاب⁽³⁾، تماشياً مع التراث الجرمانى الذي كان معمولاً به في العصر الوسيط، وقد أيدته الكنيسة لتكون لها كلمتها في حالة عدم رغبتها في الملك المتوج، من حيث عدم جدارته بالعرش⁽⁴⁾. وعلى الرغم من ممارسة هذا التقليد الذي يقضي بانتخاب الملك لاسيما في الفترة الأولى، إلا أنهم أخذوا بعد ذلك بمبدأ الوراثة، ويظهر ذلك عند تولية بولدوين الرابع ملكاً سنة 1174م، وسنه آنذاك ثلاثة عشر سنة، بعد وفاة والده عموري الأول⁽⁵⁾.

ولقد كان للكنيسة دورها، إذ أنها رفضت أن ترجح كفة الملك ضد النبلاء، خاصة وأن هؤلاء بدأ نفوذهم يزداد، كما لم تكن للكنيسة معارضة للتاج⁽⁶⁾، بمعنى أن الملك إذا كان قد حصل على المملكة أنها إقطاع فهو بذلك شأن ككل النبلاء، وما يسري عليه من قوانين يطبق أيضاً على

⁽¹⁾ براور، عالم...، ص.98.

⁽²⁾ جمعة الجندي، الاستيطان...، ص.96-97. للمزيد عن إقطاعات مملكة بيت المقدس أنظر، Conder, the Latin Kingdom, P.162.

⁽³⁾ جمعة الجندي، الاستيطان...، ص.97.

⁽⁴⁾ نورمان كانتور(ف)، التاريخ الوسيط قصة حضارة البداية والنهاية، ت. قاسم عبده قاسم، ط.5، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ج.1، ص.153-154.

⁽⁵⁾ جمعة الجندي، الاستيطان...، ص.97.

⁽⁶⁾ باركر، المرجع السابق، ص.66.

المملكة، حيث أن الإقطاع يورث، وبهذا يمكن أن تنتقل المملكة من الوريثة إلى زوجها⁽¹⁾. وفي حالة عدم وجود ورثة من الذكور يسري ما أشرنا إليه، وينتقل الحكم في المملكة إلى أسر أخرى، وهذا ما حدث مع بولدوين الثاني، إذ لم يكن له وريث من الذكور، فكان قد اختار لابنته الكبرى ميليزاند Melisende أحد الأمراء من الغرب ألا وهو فولك الخامس كونت أنجو، وفي سنة 1129م، وصل هذا الأخير إلى بيت المقدس، وتمت الترتيبات لذلك الزواج⁽²⁾، وجعل الملك بولدوين صداق ابنته مدينتي صور وعكا، وقد احتفظ بهما الكونت فولك ما يقارب ثلاث سنوات⁽³⁾.

وقد رأى الملك بأن أحفاده هم من يرث المملكة، لذا قيد حدود فولك الملكية وهو على فراش الموت، حيث عين ابنته وصهره وحفيده وهو لا يزال صغيرا (السنة الثانية من عمره)⁽⁴⁾، وعندما توفي الملك في 31 من شهر أوت سنة 1131م، أصبح فولك وزوجته متوجين بتاج الملكية، وقد وافق ذلك التتويج الرابع عشر من شهر سبتمبر في كنيسة القبر المقدس⁽⁵⁾، ويذكر ابن القلانسي الملك أنجو بأنه لم يكن ذو رأي سديد، "فلم يتسدد في رأيه ولا أصاب في تدبيره"⁽⁶⁾.

وعليه فإن التشريع الذي سنّه الصليبيون في بيت المقدس الذي يقضي بالوراثة، فإنه كان سببا في إضعافها خاصة وأن الوريثات يخترن بعولتهن، بالرغم من عدم توفر المقدرّة السياسية، وبهذا تعرضت المملكة إلى الفوضى وكثُر بذلك مريدو العرش الملكي⁽⁷⁾.

وبما أن المحكمة العليا في قمة القضاء أصبح تدخلها ضروريا في مثل هذه الحالات، بحيث أصبح البارونات لهم الحق في الفصل في هذه النزاعات حول الحكم، بل أصبحت مواقفهم

⁽¹⁾ جمعة الجندي، الاستيطان، ص.ص. 97-98.

⁽²⁾ ماير، المرجع السابق، ج. 1، ص. 122؛ أنظر أيضا، جمعة الجندي، الاستيطان...، ص.ص. 97-98.

⁽³⁾ وليم الصوري، المصدر السابق، ج. 3، ص. 92.

⁽⁴⁾ ماير، المرجع السابق، ج. 1، ص.ص. 122-123.

⁽⁵⁾ وليم الصوري، المصدر السابق، ج. 3، ص. 92.

⁽⁶⁾ المصدر السابق، ص. 233.

⁽⁷⁾ جمعة الجندي، الاستيطان...، ص. 98.

ضرورية على من يتولى الحكم من الورثة⁽¹⁾، إذ لم يكن لملك بيت المقدس من الحقوق مثلما كان لملوك النورمان بانجلترا، والذين بدورهم ورثوها عن الأنجليز السكسون Saxons، أو مثلما كان لآل كابيه Capetians⁽²⁾ في فرنسا من حقوق موروثه عن الكارولنجيين Carolingians⁽³⁾، إذ لم يكن بمقدور الملك أن تكون له بمقتضى حقوق السيادة أن يتصل بأتباعه مباشرة، مثلما كان لوليم I William الأول بمقتضى يمين ولاء سالسبوري Salisbury سنة 1086م⁽⁴⁾، غير أن

⁽¹⁾ باركر، المرجع السابق، ص.55.

⁽²⁾ هي الأسرة الفرنجية الثالثة التي حكم ملوكها فرنسا بعد الميروفنجيين Merovingians والكارولنجيين، وكان ذلك سنة 987م إلى غاية 1328م. انتهى حكم هذه الأسرة بقيام أسرة أخرى حاكمة في فرنسا وهي أسرة فالوا Valois . للمزيد من التفاصيل، أنظر: Medieval France An Encyclopedia, Edit. John Bell Henman, JR, Garland Publishing, 1995, N.Y, London, PP.312-317.

⁽³⁾ أسرة فرنجية حكمت أقاليم كبيرة من الغرب اللاتيني، تأسست سنة 751م على يد بيبين Pippin، وهو أحد نظار القصر في البيت الميروفنجي، من أبرز ملوكها شارلمان Charlemagne، الذي حاول إحياء الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وكان تنويجه في روما كإمبراطور سنة 800م. وللمزيد من التفاصيل عن هذه المملكة، أنظر: Rasamond Mckitterick, History and memory in the Carolingian world, 2004, Cambridge University Press, P.133, 208. ؛ وللمزيد من التفاصيل عن شخصية شارلمان، أنظر: اينهارد، سيرة شارلمان، ترجمة: عادل زيتون، 1989، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق.

⁽⁴⁾ أنظر: Bland (A.E), B.A, The Normans in England 1066-1154, G.Bell And Sons, LTD, 3rd Edition, 1921, London, P.26.؛ شهد ما يقارب القرن من التاريخ الإنجليزي النورماندي (1066-

1154م)، والذي بدأ بانتخاب وليام William الأول ملكاً، وبوصول هنري الثاني (بلانتاجنيت Plantagenet) إلى العرش الملكي العديد من الاضطرابات. وعلى الرغم من ذلك لا يمكن اعتباره فترة تدمير، بل على العكس من ذلك فقد وُضعت أسس إنجلترا في العصور الوسطى وإيجاد نظام ملكي قوي. ولقد استمرت المقاومة المحلية لمدة خمس سنوات. ولكنها لم تجد قيادة منسقة وأصبحت مجرد سلسلة من الانتفاضات المحلية، والتي سحقها وليام بلا رحمة. ولقد كانت ثورات البارونات الفرنسيين، غير الراضين عن نصيبهم من الغنائم والمتحمسين لتخفيف نير الملكية أكثر جدية، ومسألة حكومة من نورماندي، إضافة إلى الصعوبات التي يواجهها التاج وسيادة دوقية الكابيين Capetians الذين حاولوا استغلال الظروف. ولقد نجحت الملكية الأنجلو نورماندية بتحقيق التوازن، ولكن فقط بعد التذبذب بين الفوضى و طغيان غير مسؤول. وليام عرف كيفية تحقيقه والمحافظة عليه. وفي سنة 1086م في سالسبوري Salisbury، جاء جميع المستأجرين الأحرار، سواء كانوا من رتبة الفرسان أو غير ذلك، من الأنجليز أو الفرنسيين، ممن كانوا خاضعين للالتزام بخدمة الملك في حالة الطوارئ، وأدوا يمين الولاء والتبعية لوليام، وأقسموا له بالدفاع عنه ضد جميع الآخرين. وبواسطة قسم سالسبوري، أسس الملك سلطته بشكل مستقل عن التسلسل الهرمي للأفضال، وفي الوقت نفسه صمم على كسب كل الدعم الممكن من النظام الإقطاعي. أنظر: Charles Petit DuTaillis, The Feudal Monarchy in the France and England from the tenth to the thirteenth century, Harper and Row, Publishers,

عموري الأول حاول بموجب قانون التبعية، أن يصل إلى أتباع الأتباع، وأصبح بمقدور هؤلاء أن يلجأوا إلى المحكمة العليا، ويرفعوا قضاياهم إليها⁽¹⁾.

وفيما يخص العلاقة بين الملك وكبار البارونات في المملكة، فإنها لم تختلف عن علاقته بأمراء الشام الصليبي، أي التوافق لا التبعية، بينما في إنجلترا أصر الملك على حقوقه، ولكن في القدس أصر البارونات على ما يلتزم به الملك من واجبات، إذ أن ظروف إنشاء المملكة الصليبية في القدس قد تكون لها آثارها على ذلك، فحينما تقدم الصليبيون باتجاه الشام، أصبح الحق لمن يملك أولاً، ولم يكن للملك وجود، إلا بعد استقرارهم بالمنطقة. أي كلهم كانوا أمراء وفرسان، في حين خالفت إنجلترا النورمانية ذلك، إذ أن الملك هو من استولى على الأرض، ثم وزعها إقطاعات على النبلاء. وعليه تفوقت الارستقراطية الإقطاعية في مملكة بيت المقدس، وقد ظهرت هذه السيادة في المحكمة العليا صاحبة السيادة العليا، إذ لم يكن الملك سوى زعيم لهؤلاء النبلاء، ومع ذلك خضع للقانون الذي جعل مكانته مساوية لمجتمع النبلاء⁽²⁾.

ويقول براور: إن الذين حملوا على عاتقهم الاستيلاء على بيت المقدس، قد عادوا أدرجهم إلى الغرب، في حين أن الذين بقوا لم يكونوا ينتمون إلى العائلات الكبيرة، وكانت غالبيتهم من الفرسان الأدنى مرتبة، وكان هذا عاملاً مساعداً للحكم، إذ أن ملك بيت المقدس لم يلق معارضة، وخاصة في العقود الثلاثة الأولى من عُمر المملكة⁽³⁾.

وعلى الرغم من مرور نصف قرن على احتلال منطقة الشام، لا يزال ملك القدس يمارس سلطته القضائية في كامل تراب المملكة، بحيث ينظر في الدعاوى والفصل فيها طبقاً للقوانين الصادرة في عهد بولدوين، حيث يستطيع الملك مصادرة الإقطاع دون دعوى قضائية، وقد تم

Bland (A.E), B.A, op.cit., للمزيد عن يمين ولاء سالسبوري، أنظر: N.Y, Evanston, PP.60-62.

Ann Williams, The World Before the Domesday, the English وكذلك: P.26.

.Aristocracy (900-1066), Cornwall, G.B. 2008, P.81.

⁽¹⁾ باركر، المرجع السابق، ص.ص.55-56.

⁽²⁾ نفسه، ص.ص.54-55.

⁽³⁾ عالم الصليبيين...، ص.98.

تحديد هذه الحالات، عكس ما كان سائد في الغرب، ولا يشمل هذا القانون الجرائم الإقطاعية فحسب، بل شمل الجرائم ضد الدولة، وهي الجرائم التي تحرمه من الدخل الحكومي مثل تزوير النقود أو ضربها، وانتهاك حرمة الميناء وحقوق الطريق العام، بالإضافة إلى الجرائم ضد السلطة، والتخلي عن المعتقد، كما وصل نفوذ الملك إلى طوائف الرهبان الفرسان، وهذا نتيجة ضعفها كقوة إقطاعية عسكرية، في حين كانت الملكية قوية آنذاك، بالإضافة إلى عقد المعاهدات وسك العملة وفرض الرسوم الجمركية، بل حتى تعيين البطريرك⁽¹⁾.

وهذا بعد أن تقوم الهيئة العامة للكنيسة ببيت المقدس بترشيح اثنين من البطاركة، حيث يختار الملك أحدهما⁽²⁾، وكذلك هو القائد الأعلى للجيش الصليبية في وقت الحرب، وكانت له عائداته من التجارة، بالإضافة إلى الخراج على الأراضي الشاسعة، وبهذا تحكّم في الأرض والموارد، وكذلك الإقطاع التي تعود إليه، في حالة زوال الأسرة الإقطاعية، كما كانت له الوصاية على حديثي السن في إقطاعاتهم، بل أنه يختار للأرامل أزواجهن، فضلا على أن نفوذه وصل إلى الكيانات الصليبية الأخرى، مثل الرها وأنطاكية وطرابلس، كونه يحكم في الأرض باسم المسيح عليه السلام⁽³⁾.

علما أن الكيانات الصليبية الأخرى كانت ذات سيادة واستقلال، حيث يقول المؤرخ أرنول "La Tierre de Triple ne D'Antioce n'est mie dou Roiaume"⁽⁴⁾، ومعنى ذلك أنه لم تكن أراضي طرابلس ولا أنطاكية جزءا من مملكة بيت المقدس⁽⁵⁾. وحقيقة الأمر لم تكن إمارة أنطاكية ولا كونتيتا الرها وطرابلس جزءا من المملكة⁽⁶⁾، علما أن وجودهم

⁽¹⁾ جمعة الجندي، الاستيطان...، ص.104.

⁽²⁾ رنسيمان، المرجع السابق، ج.2، ص.359.

⁽³⁾ جمعة الجندي، الاستيطان...، ص.105-107.

⁽⁴⁾ أنظر: Chronique D'ernoul et Bernard de Trisorie, E^d. Le Comte De Mas-laterie, Paris, 1871, P.27.

⁽⁵⁾ حسين عطية، إمارة أنطاكية الصليبية...، ص.169.

⁽⁶⁾ أنظر: La Monte, Feudal Monarchy in the latin Kingdom of Jerusalem 1100-1291, The

بالمنطقة كان أساسه التحالف، والاعتراف بمكانة ملوك بيت المقدس⁽¹⁾. ويقول جون لامونت بخصوص ذلك: "حتى وإن كان الملك هو الأول بين أتباعه Primus Inter Pares في مملكة بيت المقدس لم يكن له ذلك فيما يتعلق بأمرأة أنطاكية عدا مكانته"⁽²⁾. ولقد كان ذلك صعبا على الأمير بوهمند الأول الذي لم يعترف بجودفري ولا ببولدين سيدا أعلى له، وحتى الكونتات لم يلتزما بما عليهم من واجبات، غير أنه يكون الالتزام عندما يكون ملك بيت المقدس أقوى⁽³⁾

ب- تسيير الشؤون الإدارية للمملكة:

إن التنظيم الإداري في القدس مستمد من النظام الإقطاعي اللاتيني، حيث كان الملك هو أعلى رتبة في الدولة، ويليه في السلم الإداري موظف يدعى الفيسكونت Viscount⁽⁴⁾، وهو الذي يتولى جمع الخراج المُحصّل من الرسوم على القوافل ومن الموائئ والمكوس المختلفة، وما يرد من الاحتكارات ورسوم القضايا، والجزية على المسلمين واليهود وغيرها من أنواع الأتاوى⁽⁵⁾، بحيث وُكّل إليه جمع الضريبة وإرسالها إلى الخزينة، مع أخذ نسبة له لسد مختلف حاجاته، كما تولى مسؤولية المحاكم القانونية المحلية، بالإضافة إلى أنه أسندت إليه مهمة حفظ النظام في مدينته⁽⁶⁾، وله سلطة واسعة، بحيث يشرف إداريا على أتباعه في أراضيه الإقطاعية⁽⁷⁾.

وفيما يخص نسب الفيسكونت، فعادة ما يكون من الأسر النبيلة ومنصبه ليس وراثيا، ويليه المحتسب Mathesep (اللقب العربي لمراقب الأسواق)، كما عُرف برئيس ضباط النظام Master

Medieval Academy of America, New York, U.S.A.,1932, P.187.

La Monte, op.cit., P.187.

⁽¹⁾ أنظر:

Ibidem.

⁽²⁾ أنظر:

Ibid., PP.187-188.

⁽³⁾ أنظر:

⁽⁴⁾ مصعب حمادي، الاستيطان...، ص.68.

⁽⁵⁾ باركر، المرجع السابق، ص.65.

⁽⁶⁾ رنسيمان، المرجع السابق، ج.2، ص.353.

⁽⁷⁾ مصعب حمادي، الاستيطان...، ص.69.

Sergeant حيث يكون إشرافه على الأسواق⁽¹⁾، إذ ترتبط رقابته بالأسواق والطرق والموازين والمكايل، وتجار الحبوب والخبازين والجزارين وبائعي الأطعمة، وجب عليه أن يُقدّم تقريرا مفصلا إلى الفيسكونت. وقد قام الملك بإرساء دعائم إدارته بإسناد مقاليدها إلى موظفي البلاط⁽²⁾، وهم من كبار الملاك الإقطاعيين في المملكة، يمدون له يد المساعدة في إدارة شؤون القدس، ويتمثل هؤلاء في:

*-**القهرمان (السنجيل) Seneschel** وهو بمثابة الوزير الأول في إدارة الملك ومن أتباعه، حيث يتولى الإشراف على الخزينة، كما أُسندت إليه مهمة الاحتفالات، وحمل الصولجان عند تتويج الملك ويتقدمه في الموكب، كما ينوب عنه في رئاسة المحكمة العليا، بالإضافة إلى إشرافه على تسيير شؤون المدن والحصون الخاصة بالتاج⁽³⁾، إذ أنه يرفع شؤون الملك ويدخله ويشرف على جباية الإيجارات، وله حق التعيين والتتحية للمستحفظين من خدمتهم، وفي غياب الملك يشرف على الجيش والحرب، بالإضافة إلى صرف مرتبات الجنود⁽⁴⁾.

*-**الكونستابل (الكنداسطبل) Constable** وهو المقدم العسكري، وقد ذاع صيته وازدادت مكانته كونه قائد للجيش تحت سلطة الملك، يشرف على إدارة الجيش وتنظيمه وإمداداته، وفي حفل تتويج الملك كان يمسك بلجام حصان هذا الأخير، وفي حالة الغارات العسكرية كان الكونستابل قاضيا عسكريا، حيث يحكم في قضايا الفرسان والطبقة الوسطى، وينظر في أحوال الجنود المرتزقة والقضايا الخاصة بالموونة، وفي حالة الشدائد له وصاية على المملكة، وبإمكانه أن يقوم بعقد الاتفاقيات نيابة عن الملك⁽⁵⁾.

*-**المارشال Marshal**: وهو مساعد الكونستابل في مهمته وينوب عنه في جميع أعماله، سواء

⁽¹⁾ رنسيان، المرجع السابق، ج.2، ص.353.

⁽²⁾ بخصوص أسماء الضباط، الذين تولوا هذه الوظائف وفترة حكمهم، أنظر: الملحق رقم: (07).

⁽³⁾ مصعب حمادي، الاستيطان...، ص.ص.69-70.

⁽⁴⁾ جمعة الجندي، الاستيطان...، ص.129.

⁽⁵⁾ جمعة الجندي، المرجع نفسه، ص.129-130.

ما تعلق بالجيش وإدارته أو الإمدادات وكل ما يتعلق بشؤون المملكة⁽¹⁾.

*-**الشامبرلين Chamberlain** (الياور): وهو حاجب الملك، ومسؤوليته تتعلق بحاشية الملك وأمواله وهو أمينه الخاص، وقد جني من ذلك المنصب أموالاً معتبرة، نتيجة ما يتلقاه من هدايا وأموال يدفعها الأتباع للملك، حين تأدية يمين الولاء⁽²⁾، وفي الفترة الأخيرة من القرن الثاني عشر الميلادي، ازدادت مكانة الحاجب عند اشتداد المرض على الملك بولدوين الرابع، حيث تولى مهمة الإشراف على مملكة بيت المقدس⁽³⁾.

*-**كبير الخدم Butler**: مهمته غير معروفة وعلى العموم ارتبطت بالاحتفالات⁽⁴⁾.

*-**كبير كُتاب الإنشاء Chancellor**: وذلك شبيه برئيس ديوان الإنشاء عند المسلمين، تمثلت مهمته في تحرير ما يصدره الملك من وثائق وكتابات، إذ أنه يسجلها ويختتمها بالختم الملكي، وعادة ما يكون ذلك الاختيار من رجال الدين، غير أن هذه الوظيفة لم تكن دينية⁽⁵⁾.

إن تعدد الموظفين في مملكة بيت المقدس الصليبية يعكس تنوع الاختصاصات والوظائف فيها، ولذلك نجد موظفين وكُل إليهم القيام بتلك المهام المتنوعة في مجال الإدارة⁽⁶⁾.

ولقد استمدت هذه الأخيرة أصولها من التراث اللاتيني، والذي استمر بالشام طيلة الوجود الصليبي بها. وكان النبلاء هم من شغلوا تلك المناصب، بإيعاز من التاج، وكان هذه الوظائف جزء من تربيتهم في الحياة السياسية والعامة⁽⁷⁾.

رابعاً: القضاء في مملكة بيت المقدس الصليبية:

إن التنظيم القضائي يشكل حجر الأساس في حفظ الحقوق، وإلزام الأشخاص بالتقيد بالواجبات،

⁽¹⁾ رنسيمان، المرجع السابق، ج.2، ص.352.

⁽²⁾ صفاء عثمان، المرجع السابق، ص.186.

⁽³⁾ جمعة الجندي، الاستيطان...، ص.130-131.

⁽⁴⁾ رنسيمان، المرجع السابق، ج.2، ص.352.

⁽⁵⁾ مصعب حمادي، الاستيطان...، ص.72-73.

⁽⁶⁾ عاشور، الحركة الصليبية، ج.1، ص.482.

⁽⁷⁾ براور يوشع، عالم...، ص.100.

وإقرار العدالة في أي مجتمع كان، ولقد كانت لمملكة بيت المقدس نظمها القضائية، فمنذ الوهلة الأولى حاول الدوق جودفري إيجاد هيئة تشرف على ذلك، وبهذا كان تأسيس محكمتين هما المحكمة العليا ومحكمة البورجوازية⁽¹⁾.

بالإضافة إلى وجود محاكم السلسلة والسوق والكنيسة والجاليات الايطالية، ومحاكم المسلمين والمسيحيين الشرقيين⁽²⁾، وهذا قصد إدارة دفة الحكم الصليبي ببلاد الشام.

أ- المحكمة العليا: The High Court

تأتي في قمة هرم قضاء مملكة بيت المقدس أسند إليها تشريع القوانين، وتقوم بمحاكمة النبلاء من الأتباع، كما أنها تعد مجلسا للملك الصليبي، بحيث تحفظ له حقوقه في الملكية، كونه الأول بين الأتباع في النظام الإقطاعي "Primus Inter Pares"، وفي الوقت نفسه رئيسا للمجلس ولأتباعه⁽³⁾.

ولقد انشأ الدوق جودفري اثنتين من المحاكم ذات طابع علماني، الأولى المحكمة العليا مهمتها الحكم بين أتباع الملك من الفرسان وإقرار العدالة، والثانية محكمة البورجوازية يديرها الفيسكونت وإقرار الحكم بين البورجوازيين في المملكة⁽⁴⁾.

ونتيجة لارتباط المحكمة بالسلطة فقد هزت كيائها ضربات، كما كان لها سطوتها هي الأخرى، ونلمس ذلك في عمر المملكة المبكر، عندما دبّ النزاع بين كل من جودفري، بولدوين الأول والثاني والبطريك، فقد أصبح للنبلاء سلطان أوسع، وهذا لدعمهم سيدهم الإقطاعي ملك القدس، وكذلك عندما برزت سلطة الملك على الكل في عهد فولك الأنجوي (1131-1143م).

⁽¹⁾ البورجوازيون هم من اللاتين غير الإقطاعيين، قدموا إلى الأراضي المقدسة سواء كانوا من الصليبيين أو الحجاج أو المستوطنين، واستقروا في المدن والقرى الفلاحية. وللمزيد من التفاصيل عن هذه الفئة، أنظر: Marwan Nader, Burgesses and Burgess Law in the latin kingdoms of Jerusalem and Cyprus 1099-1320, Ashgate Publishing company, Burlington, 2006, U.S.A., Introduction, P.1-10.

⁽²⁾ حسين عطية، تشريعات الصليبيين، دراسات في قوانين أنطاكية ومملكة بيت المقدس الصليبية، دار المعرفة الجامعية، 2012، ص.171.

⁽³⁾ أنظر: LA Monte John, op.cit., PP.88-89.

⁽⁴⁾ أنظر: Assises de Jérusalem, op.cit., T.I, chap., II. P.23.

بالإضافة إلى بولدوين الثالث (1143-1162م) فقدت المحكمة العليا سطوتها، وأصبحت ترضخ لطلبات التاج، ولكن بعض التشريعات التي تم سنها في عهد عموري الأول (1162-1174م)، حيث فتحت الباب أمام أتباع الأتباع للانضمام للمحكمة العليا، في حالة وقوعهم في ظلم سادتهم واللجوء إلى الملك، إذا ما رفض السيد الإقطاعي دعوة المحكمة، وبهذا صار الأتباع في خدمة الملك⁽¹⁾، بالإضافة إلى ذلك أنه أعلن وبموافقة المحكمة العليا، أن أصحاب الإقطاعات من كبار الإقطاعيين أو أتباع الأتباع أن يعلنوا طاعتهم وولاءهم للملك.

وبهذا سعى لرفع مكانة أتباع الأتباع ليكونوا يماثلون جماعة البارونات، وبالتالي يتمتع بتأييدهم ضد الفرسان والنبلاء⁽²⁾، فبقدر ما أضعف هذا التشريع سلطة البارونات وزاد من سلطة المحكمة العليا، بقدر ما أصبح حجر عثرة في طريق الملك نفسه⁽³⁾.

ولقد كان الملك يماثل كبار الإقطاعيين في المحكمة العليا، الذين تلقوا منه اقطاعاتهم، ولقد كانت هذه الأخيرة مثل بقية المحاكم في الغرب اللاتيني، إذ أنها محكمة قانونية بالدرجة الأولى ودورها إحقاق العدالة بين الملك وأتباعه، وإيجاد حلول للمشاكل المختلفة، فضلا على أنها المجلس الأعلى للحكم ذو صبغة استشارية.

وهكذا تحولت إلى عنصر أساسي في إدارة الشؤون السياسية بالمملكة، فأصبحت لها سطوتها في تقرير السياسة الخارجية، وما يتعلق بالحرب والسلام، بل إصدار القرارات الخاصة بالتعبئة وفرض الضرائب الاستثنائية⁽⁴⁾.

ويروي لنا أسامة بن منقذ عن أمر حكمهم، إذ أنه كان لهم اتفاق مع الصليبيين، فخرق صاحب بانياس ذلك وألحق الضرر بماشيتهم، فشكوته للملك فولك، فقال هذا الأخير لمجموعة الفرسان "قوموا اعملوا له حكما"، فخرجوا من مجلسه وانفقوا على رأي واحد وهو تغريم صاحب

(1) حسين عطية، تشريعات...، ص. 171-172.

(2) جمعة الجندي، الاستيطان...، ص. 111.

(3) حسين عطية، تشريعات، ص. 172.

(4) جمعة الجندي، الاستيطان...، ص. 106-107.

بانياس" فأمره الملك بالغرامة"، وحتى وإن لم يكن الملك موجودا بينهم، فإنه يحكم بحكمهم ولا يَزُدُه عليهم، ولا حتى من مُقدمي الصليبيين يستطيع تغيير الحكم ولا نقضه⁽¹⁾، علما أن رأيه كان حاسما طالما كانت قوته أكبر⁽²⁾.

وقد كان من وظائف المحكمة العليا اختيار ملوك بيت المقدس أو نوابهم والأوصياء عليها، وهذا في الحالات الاستثنائية كأسر الملك مثلا، بالإضافة إلى اختيار زوج للملكة الأرملة، وكان الملك هو رئيسها ومن ينوب عنه تابعا إقطاعيا من النبلاء، يمثله في المحكمة العليا أو تابع إقطاعي يمثله في محاكم السیادات (البارونات في الاقطاعات)، وكان مكان انعقادها في بيت المقدس، وعند سقوط هذه الأخيرة في يد المسلمين بقيادة السلطان صلاح الدين الأيوبي عام 1187م/583هـ، أصبحت تُعقد في عكا، إلا في حالة الظروف الاستثنائية، كما حدث وإن اجتمعت في صفرية سنة 1187م.

وكانت تضم البارونات أصحاب الاقطاعات من أتباع الملك، بالإضافة إلى رجال الدين، كما يحضرها قادة الحملات الصليبية الذين ظهروا في بلاد الشام، وفي وقت الحرب لا بد أن يكتمل أعضاء المحكمة، ولكي تتشكل هيئتها يجب أن يكون رئيسها موجودا وعضوين على الأقل إلى جانب المستشارين والمحامين، وكان يتوجب على جميع الأتباع أصحاب الاقطاعات أداء خدمة المحكمة⁽³⁾. ولم يكن أمرا ضروريا حضور الملك لجلسات المحكمة، فقد كان بإمكانه اختيار نائبه لحضور الاجتماع، وكانت موافقتها ضرورية سواء كان الملك أو أحد البارونات، إذا أراد إلحاق عقوبة بأحد أتباعه كمصادرة الإقطاع مثلا، كما أنه أيضا موافقتها ضرورية على نقل ملكية الإقطاع مهما كانت صفته إهداء أو بيع أو رهن، بالإضافة إلى أنه يحق لها إنزال العقوبة بالملك، إذا ما أراد مصادرة إقطاع أحد الأتباع⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ أسامة ابن منقذ، الاعتبار، تح. فيليب حتي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ص.ص. 64-65.

⁽²⁾ براور، عالم...، ص. 99.

⁽³⁾ حسين عطية، تشريعات...، ص.ص. 172-173.

⁽⁴⁾ المرجع نفسه، ص.ص. 173-174.

ويقول المؤرخ جون لامونت: "إن البورجوازية قد التقوا أحيانا في جلسات المحكمة العليا، حسب الوثائق المدونة، وقد دُعوا إلى الحضور، ولكنهم لم يكونوا أبدا من أعضائها"⁽¹⁾.

ب- محكمة البورجوازية Court Bourgeois

كان مجال اختصاصها محاكمة الفرنج غير المنتمين لطبقة النبلاء، وقد انتشرت هذه المحاكم في كل المدن الكبرى في مملكة بيت المقدس، وكان رئيسها الفيسكونت وأعضاؤها اثنا عشر محلفا، وكان يعينهم الملك أو السيد الإقطاعي، ولم يكن للفيسكونت أي دور في قراراتها، والتي كانت لها اختصاصات محددة، مثلا الفصل في النزاعات بين البورجوازية⁽²⁾، وتم إنشاء هذه المحكمة منذ الفترة المبكرة للتواجد الصليبي بالمنطقة⁽³⁾، ولقد أقيمت محكمة البورجوازية في كل مدن المملكة الصليبية ببيت المقدس⁽⁴⁾.

ويقول المؤرخ مروان نادر: "واستند نجاح الصليبيين على إيجاد نظام للحكم والعدالة، والتي تهدف إلى تعزيز مكانة المهاجرين الأوربيين، ولتلبية مختلف حاجات هؤلاء المواطنين، في جميع أرجاء المستعمرة الشرقية، وفي أعقاب الغزو تم الاتفاق من قبل الصليبيين، على أن تسوية القوانين، والتي تعتبر الملك هو صاحب جميع الأراضي في بيت المقدس، مثلا (القدس وعكا) فضلا على أنه زعيمهم وقائد الجيوش الصليبية"⁽⁵⁾.

ويلعب المحلفون دور القضاة في هذه المحكمة، باستثناء قيام أحد طرفي الخصومة واختياره لأحد المحلفين بأن يكون مدافعا عنه في الجلسة، في هذه الحالة لا يجوز للمحلف أن يكون عضوا فيها، وتسجل كل تلك القرارات أو العقود في سجلات خاصة يقومون على رعايتها كُتَّاب⁽⁶⁾، مثلها مثل المحكمة العليا، فتسجل كل

LA Monte, op.cit., PP.90-91.

⁽¹⁾ أنظر:

⁽²⁾ حسين عطية، تشريعات...، ص.174.

Assises de Jérusalem, op.cit., T.I, chap., II. P.23.

⁽³⁾ أنظر:

Ibid, T.I. P.24.

⁽⁴⁾ أنظر:

Marwan Nader , op.cit., P.129.

⁽⁵⁾ أنظر:

⁽⁶⁾ حسين عطية، تشريعات...، ص.174.

الأحكام وارتبطت تلك المهمة منذ وقت مبكر بالكتّاب الذين حافظوا على سجلاتها⁽¹⁾. وتتعدّد جلساتها أيام الاثنين والأربعاء والجمعة، من كل أسبوع عدا أيام القديسين في زمان ومكان محددين، عكس المحكمة العليا التي كانت تنعقد بغير انتظام، وقد وُجد في السجلات الخاصة بالمحاكم اثنان وعشرون سيّدا لهم محاكم بارونات وثلاث وثلاثون للبورجوازية، إلى جانب أربعة محاكم للملك في كل من بيت المقدس ونابلس وعكا والدارون⁽²⁾. ولقد كانت المحكمة البورجوازية تنظر في القضايا المرفوعة أمامها بطرفيها البورجوازي والنبيل، وكانت تُقرّ قضاءها بالمبارزة مثلا⁽³⁾.

ج- المحاكم العامة (الشعبية):

لقد كان للسكان المحليين بالمنطقة محاكمهم، حيث تنظر في قضاياهم المختلفة، يرأسها رؤساء محليون وكان ذلك في الفترة المبكرة من عمر المملكة الصليبية، تستند أحكامها على الشرع والعرف لكل من هؤلاء السكان⁽⁴⁾.

وفي عهد عموري الأول، أنشئت محكمة الدعوى Cour de La Fonde، وهي خاصة بالأسواق في كل مدينة تجارية، كانت تنظر في القضايا التجارية وغيرها من الدعاوى الأخرى، بل الجنائية التي يختلف فيها سكان المنطقة من غير الصليبيين، تحت رئاسة الوكيل (المشرف) يعينه السيد المحلي، وتتكون من ستة محلفين، اثنان من الفرنج وأربعة من السكان، بحيث يُقسّم المتخاصمون كلٌّ على كتابه المقدس، بحيث يُقسم المسلمون على القرآن الكريم، وقد كانت محكمة الدعوى تسجل كل المبيعات والهبات، من كل الممتلكات عدا العقارات، بالإضافة إلى أنها مكتب لجمع ضرائب المشتريات⁽⁵⁾.

وبهذا تقلص دور المحاكم الخاصة بالسكان، واندمجت في محكمة المدينة، وكانت قوانينها تتبع قوانين

LA Monte, op.cit., P.107.

⁽¹⁾ أنظر:

LA Monte, op.cit., P.107.

⁽²⁾ أنظر:

⁽³⁾ رنسيمان، المرجع السابق، ج.2، ص.350.

⁽⁴⁾ حسين عطية، تشريعات...، ص.175.

⁽⁵⁾ رنسيمان، المرجع السابق، ج.2، ص.350-351.

المحكمة البورجوازية، التي كانت تستقبل القضايا الكبرى⁽¹⁾، إذ تعددت وظائفها وتتنظر في القضايا، بالإضافة إلى الحصول على ضرائب من المبيعات وغيرها من الأراضي والمعاملات التجارية الأخرى، فضلا عن كونها مكتبا لجمع الضريبة على البيع والشراء⁽²⁾.

د- محكمة الميناء (السلسلة):

أخذت اسمها من السلسلة التي بها تُغلق مداخل الموانئ في العصور الوسطى، كانت محكمة قضائية تختص بقضايا الشحن والسفن الغارقة والأعمال البحرية، كما أنها أيضا مكتب للجباية واستقبال الرسوم الجمركية الخاصة بالميناء.

وقد تكونت هيئتها القضائية من المشرف الملكي Bailli والمحلفين المستخلصين من البحارة والتجار، حيث يتم التمسك بسيادة المحاكمة، ولا تنظر في القضايا الجنائية والمدنية، وكذا البضائع المتنازع عليها، والتي قيمتها أقل من مارك فضي. والقضايا الأكثر أهمية تُرسل إلى محكمة البورجوازية، بعد أن كانت قد نظرت إليها في جلساتها التمهيدية الأولى⁽³⁾.

هـ- محاكم الكنيسة:

نتيجة لمكانة الكنيسة في مملكة بيت المقدس الصليبية، فقد كان لها محاكمها، والتي تخضع للقانون الكنسي، بحيث يخضع لها رجال الدين بما فيهم عناصر الأسبترارية والداوية وجماعات الرهبان، وأصبح للمحاكم سلطان على أملاك الكنيسة، وقد أتاح القانون الصليبي كل ما يتعلق بشؤون الدين والزواج والوصايا لمحاكم الكنيسة، بل أن هذه الأخيرة وسعت نفوذها ليصل للعلاقات الزوجية، كما تبنت قضايا الإنجاب غير الشرعي والتصديق القانوني، وإذا حدث خلاف بين رجل دين وآخر علماني، كان على الفيسكونت ومحلفي محكمة البورجوازية حضور جلسة محكمة الكنيسة للمساعدة في إصدار الأحكام⁽⁴⁾.

و- المحاكم القنصلية (الجاليات الإيطالية والبروفينسالية):

إن نجاح الحركة الصليبية في بلاد الشام قد فتح أفقا للغرب اللاتيني، وخاصة المدن التجارية التي تسعى

⁽¹⁾ حسين عطية، تشريعات...، ص.175.

LA Monte, op.cit.,P.108.

⁽²⁾ أنظر:

Ibid.,P.109.

⁽³⁾ أنظر:

⁽⁴⁾ حسين عطية، تشريعات...، ص.176.

للريح، إذ أصبحت الهجرة باتجاه الشام للتجار أمراً ضرورياً، والاستقرار هناك لرعاية مصالحهم واستمرارها بالمنطقة. وبهذا ظهرت التجمعات فتشكلت الأحياء تقطنها الجاليات، ومن الضروري أن تكون لهم محاكمهم، إذ نجد مثلاً للحي الإيطالي محكمته، حيث يرأس كل منها القنصل وتستند في أحكامها إلى ما هو موجود في الوطن الأم⁽¹⁾.

وقد كانت أيضاً للجاليات الروفنسالية محاكمها، بناءً على المنح المقدمة من سادة المدن الصليبية في بلاد الشام⁽²⁾. وأما فيما يخص محاكمهم فإنهم يُحاكمون أمام أقرانهم في المحكمة، وتميزت بأن لا تنظر في قضايا السرقة والتزوير، أما القضايا الكبرى كالقتل مثلاً، فقد كانت تناقش في المحاكم البورجوازية⁽³⁾. وفي حالة حدوث نزاع بين أعضاء قومونات مختلفة أو بين إفرنجيي من غير هؤلاء الأعضاء، فإن القضية يُنظر فيها في محكمة المدعى عليه، إلا أن القضايا الكبرى كالجريمة كان يتم مناقشتها في المحاكم العليا للملك أو محاكم البارونات⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ جمعة الجندي، الاستيطان...، ص.128.

⁽²⁾ حسين عطية، تشريعات...، ص.177.

⁽³⁾ جمعة الجندي، الاستيطان...، ص.128.

⁽⁴⁾ حسين عطية، تشريعات...، ص.177.

الفصل الثاني: النظام الإقطاعي في مملكة بيت المقدس الصليبية

أولاً: ملكية الأراضي في بيت المقدس

- أ- مفهوم الإقطاع وممارسته بالمملكة
- ب- إقطاعات مملكة بيت المقدس
- ج- أشكال الإقطاع في مملكة بيت المقدس

ثانياً: العلاقات والخدمات الإقطاعية

ثالثاً: الكنيسة والإقطاع

- أ- الإقطاع الكنسي
- ب- الحملة الصليبية الأولى وإقطاع الكنيسة
- ج- الاقطاعات العينية والنقدية

رابعاً: إقطاع فرق الرهبان العسكرية

- أ- الأسبترارية والداوية ودورها في بلاد الشام
- ب- مساهمة تنظيمي الأسبترارية والداوية في محاربة المسلمين

أولاً: ملكية الأراضي في مملكة بيت المقدس الصليبية

أ- مفهوم الإقطاع⁽¹⁾ وممارسته بالمملكة:

إن الحالة التي مر بها الغرب اللاتيني في القرن التاسع الميلادي من تفكك وحدته السياسية عقب الغزو المجري (الهنغاري)⁽²⁾، من الشرق وغزوات النورمان Normans⁽¹⁾ من الشمال

⁽¹⁾ إن من أولى صور الإقطاع ما يمكن تسميته بـ: بينيفيسيوم Beneficium، وهي الأرض الممنوحة من الحياة الإقطاعية والاحتفاظ بها مؤقتاً، ولكن من الناحية النظرية هي للسيد. حيث قُدمت منحٌ لرجال الدين من قبل التاج مقابل الدعاء له ولعرشه، بل الدعاء له حتى بعد وفاته. ويقوم من يتسلم الأرض باستغلالها وتظل الحياة للسيد، بعدها أصبحت تمنح للمحاربين مقابل الخدمة العسكرية بالشرط نفسه، غير أن ضعف الحكومة المركزية في الدولة الميروفنجية Merovingians شجع الهيئات والأفراد على تحويل هذه المنح إلى اقطاعات وراثية، بعد ذلك تغير اللفظ إلى فيودوم Feudum، وهي حياة الأرض قابلة للتوريث، مع بقاء شرط خدمة السيد. وبضعف البلاط الميروفنجي وازدياد نفوذ النواب في الأقاليم وإدارة شؤونها رسخ ذلك المفهوم. وعند ظهور الكارولنجيين، حاول شارلمان Charlemagne الحد من نفوذ الكونتات والأدواق وإخضاعهم للتاج، ولكن عندما ضعفت الدولة الكارولنجية ازداد نفوذ الكونتات والأدواق مرة أخرى، فأصبحوا يعقدون المحاكم ويحصلون الضرائب ويُعدّون الجيوش لحماية مصالحهم، وأصبح هؤلاء يُقطعون الأرض لأفصال مقابل الخدمة العسكرية في جيوشهم. وبهذا اضطر الملوك العاجزون إلى الاكتفاء بيمين الولاء يؤديه الكونت إلى التاج، ويقدم مجموعة من فرسانه للملك في حالة الحرب وبعض المال في المناسبات. وبهذا يكون النظام الإقطاعي قد أصبح حقيقة في الغرب الأوربي. للمزيد من التفاصيل عن تعريف الإقطاع ونشأته وتطوره، أنظر: إسحاق عبيد تاووروس، الفرسان والأفنان في مجتمع الإقطاع، ط. 2، 1975، مطبعة دار الكتب، بيروت، لبنان، ص.ص. 20-22. وللمزيد أيضاً أنظر: أحمد إبراهيم الشعراوي، الإقطاع وأوروبا في العصور الوسطى، 1970، المطبعة العالمية، القاهرة.

⁽²⁾ من بين القبائل التي استوطنت أراضي أوربا الشرقية، وحسب الأبحاث والدراسات العلمية المتعلقة بالأصول المجرية واستيطانها لهذه الأراضي، يبدو من المحتمل أن مجموعة الشعوب الأوغرية Ugrians، التي تعيش في منطقة في وسط جبال الأورال Ural بين نهر كاما Kama في الغرب ونهر أوب Ob في الشرق، بدأت في الانقسام إلى مجموعات أصغر في الألف الثالثة قبل الميلاد. انتقلت إحدى هذه المجموعات، "الفنلنديون الأوغريون"، غرباً تدريجياً إلى ما وراء جبال الأورال، ومنه ظهر فرع لغوي، وهي مجموعة القبائل التي سميت في نهاية المطاف بالمجريين (ملاحظة حول التسميات: "ماجيار" كان اسم القبيلة المهيمنة في المجموعة التي تنتمي إليها، وكانت القبائل السبع في الكونفدرالية القبلية التي تقودها مجيار تستخدمها لوصف أنفسهم. لكن الغرياء استخدموا مجموعة متنوعة من الأسماء للمجريين، حيث أطلق عليهم البيزنطيون اسم "الأتراك Turks"، البلغار Bulgars "البشكيروز Bashkirs"، "الخرز Khazrs"، "Majgars"، والسلاف "أونوغورز Onoghurs"، تحولت كلمة "أونوغور" تدريجياً عن طريق استخدام أوروبا الغربية (اللاتينية) إلى "المجر" و "المجرية" ولا يزال المجريةون يسمون أنفسهم ماجيار وبلدهم ماجيارورزاغ Magyarorszag). وبحلول القرن السادس قبل الميلاد، استقر المايجار Magyar في المنطقة الواقعة بين جبال الأورال ونهر الفولغا Volga، والمعروف لاحقاً باسم باشكيرييا Bashkiria وشرعوا في تاريخهم الطويل كمجموعة عرقية ولغوية متميزة بشكل واضح. وبين 700 و 830 للميلاد استأنف المايجار تحركهم غرباً، حيث احتلوا منطقة في شمال القوقاز بين نهر دونets و دنيستر Dniester، والتي كانت جماعة الأنوغور البلغارية وهي مجموعة من القبائل القوية كانت تتحرك هي أيضاً غرباً. للمزيد عن العنصر المجري واستقراره بأوروبا الشرقية، أنظر: Bryan Cartledge, The will to Survive , A history of Hungary, Hurst and Company, London, 2011,

والضغط الإسلامي من الجنوب، لجأ أصحاب النفوذ إلى تأسيس نظام لعله يضمن تماسكه ومقاومة هذه الغزوات، بحيث يوفر الغذاء والسلاح والأموال، في ظل هذه الظروف غير الملائمة، وبذلك كان ظهور الإقطاع. ولقد كانت له أصوله في الدولتين الرومانية والبيزنطية، في حين تم إضافة الخدمة العسكرية له، نتيجة امتزاجه بالتبعية الجرمانية⁽²⁾.

لاشك أن ذلك له مبرراته السياسية والعسكرية⁽³⁾، وبشأن ذلك يقول مارك بلوخ: "إذ أن الإقطاع في الغرب اللاتيني وُلد في بيئة مضطربة، كانت سببا في وجوده، حيث تعرض الغرب من جهاته الثلاث للضغط المتواصل، المد الإسلامي من الجنوب، ومن الشرق الهنغاريين ومن الشمال العناصر الاسكندنافية"⁽⁴⁾.

Pal Engel, A history of Medieval Hungary (895-1526), the Realm of ST. Stephen, Translated, Tamas Palosfalvi, English, Ed., Edit., Andrew Ayton, I.B, Tauris Publishers, London, N.Y., 2001.

هم سكان شبه الجزيرة الاسكندنافية، من الدانيين والنرويجيين والسويديين، ونتيجة لطبيعة بلادهم وكثرة خلجانها، ساعدهم ذلك على النشاط البحري. ولقد كان هؤلاء يخرجون في مجموعات من أجل السلب والنهب معتمدين على الهجوم المباغت للمناطق التي يريدونها.

⁽¹⁾ سببت هجماتهم دمارا وفزعا في أنحاء الغرب اللاتيني. أنظر: محمد سعيد عمران، معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، (د.ب.ن)، دار المعرفة الجامعية، (د.ت.ط)، ص.231. للمزيد عن النورمان واستيطانهم في مناطق مختلفة من العالم، أنظر: G.B. De La Gréze,

Les Normands Dans les deux mondes, Imp. De L'institut, Rue Jacob, 56, Paris, Charles Homer Haskins, The Normans in European history, Boston, 1890.

David Crouch, The Normans, the history of a dynasty, London, N.Y.1915.

John George Edgar, Danes, Saxons, and Normans, or, Stories our Ancestors, S.O., Beeton, 248, Strand, London, 1863.

⁽²⁾ لقد كان لكل قائد جرمني في موطنه الأول عصابة من الرفاق يجارون في جيشه، بحيث يمنحهم قائدهم السلاح ويزودهم بالطعام ويشاركهم الغنائم التي يحصلون عليها، ويسمى هذا النظام عند الجرمان بـ: "الزمالة في خدمة الزعيم" Comitatus، وفي حالة الحرب تسود هذه العصابة روح الجماعة، فيتشاركون في الطعام والشراب وبمقدور أي كان من فرسان العصابة أن ينفصل عنها ليكون لنفسه جماعة زمالة مستقلة تقوم بمغامراتها الخاصة، أنظر: إسحاق عبيد، المرجع السابق، ص.18. وللمزيد عن يمين الولاء لدى الجرمان، أنظر: محمد مرسي الشيخ، الممالك الجرمانية في أوروبا في العصور الوسطى، 1975، دار الكتب الجامعية، دار بور سعيد للطباعة، الإسكندرية، ص.9.

⁽³⁾ نعيمة عبد السلام الساحلي، الاستيطان الفرنجي وتأثيره في البيئة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للكيانات الصليبية في فلسطين والساحل الشامي، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ب.ن)، 2009، ص.165.

⁽⁴⁾ أنظر: Marc Bloch, op.cit., Vol.I, P.3.

ومن خلال ذلك نستطيع القول بأن الإقطاع تجربة عملية فرضتها الأحداث على مجتمع الإنسانية عامة، وبصفة خاصة المجتمع اللاتيني، لتتولى أمورها في ظل غياب السلطة المركزية، من أجل إيجاد قسط من الأمن والأمان، علما أن هذه التجربة وتطبيقها الفعلي تفاوتت بين الشعوب والأمم⁽¹⁾.

والإقطاع الذي عرفه الغرب اللاتيني كانت بوارده في نهاية القرن الثامن الميلادي وأخذ في التطور ليصبح أكثر فاعلية، ولقد عرف الفرنجة النظام الإقطاعي بشكله التقليدي على أساس ثلاثة عناصر، أولها علاقة السيد Lord بتابعه Vassal أي السيادة والتبعية Lord Vassalage، وثانيها حيازة الإقطاع Fief مقابل تأدية الخدمة العسكرية في جيش السيد الإقطاعي، وثالثا لامركزية القضاء، حيث أصبحت للسادة الإقطاعيين حقوقا قضائية على حساب سلطة الملك⁽²⁾.

وعليه فإن الإقطاع شكل نظاما اجتماعيا وأخلاقيا سياسيا، ثقافيا وعسكريا، بما فيه من التزامات متبادلة بين الطرفين، ولقد ظهر النظام الإقطاعي بشكل جلي ما بين القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، حيث أصبح الغرب رهينة لهذا النظام، بل أنه انتقل إلى بلاد الشام وأعالي الفرات بعد استقرار الصليبيين بهما، كما أن الكيانات الصليبية اعتمدته كوسيلة لتأكيد وتعزيز وجودها وبخاصة مملكة بيت المقدس⁽³⁾.

ولقد فعل الصليبيون ذلك النظام دفاعا عن استيطانهم بالمنطقة، حيث وضع جودفري البويوني نظاما إقطاعيا يحاكي إقطاع الغرب، من أجل الدفاع عن مملكته الناشئة، وبما أن البيئة مختلفة بتركيبها الاجتماعية وتقاليدها، فقد كانت هناك تعديلات بشأن الإقطاع الغربي ببلاد الشام⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ كويلاند (ج.و)، فينوجرادوف(ب)، الإقطاع والعصور الوسطى، ت. محمد مصطفى زيادة، ط.3، 1985، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص. ص. 4-5.

⁽²⁾ مصعب حمادي، الاستيطان...، ص. 110.

⁽³⁾ المرجع نفسه.

⁽⁴⁾ حسام حلمي الآغا، الأوضاع الاجتماعية في فلسطين زمن الحروب الصليبية 1099-1291، رسالة ماجستير (غير منشورة)،

ويقول براور بشأن ذلك: "إن النظام السياسي في المملكة قام على أساس إقطاعي، مثلما كان معروفا في الغرب، حتى وإن تم تعديله نتيجة الظروف السائدة آنذاك في المشرق"⁽¹⁾. وربما يرجع تطبيق النظام الإقطاعي الصليبي في الشام، إلى السمة العسكرية للدولة الناشئة في ظل ظروف غير ملائمة، يترىص فيه أصحاب الأرض بالغزاة، كما أن الفرسان قد عهدوا ذلك النظام في الغرب، وهو الوسيلة الوحيدة للحفاظ على ولائهم وامتيازاتهم⁽²⁾.

إن ما تميزت به بلاد الشام في تنظيمها الاجتماعي والاقتصادي أتاح للصليبيين فرصة تطبيق نظمهم الإقطاعية، ويرجع الفضل في ذلك إلى دور السلاجقة في إرساء النظام الإقطاعي الشرقي⁽³⁾، إذ أنه عرف تطورا ملحوظا منذ أن تقلد نظام الملك الوزارة في عهد السلطانين ألب أرسلان (455-465هـ/1063-1072م) وملكشاه (465-485هـ/1072-1092م)، حيث أصبح الإقطاع بمثابة مؤسسة تديرها الدولة، للاستفادة منها، وتحول بنية الجيش من الاعتماد على القبائل إلى نظام الغلمان (المماليك الأرقاء). ومن أجل توفير الأموال تم تعميم الإقطاع على سائر أرجاء الدولة السلجوقية⁽⁴⁾، إذ أن السلطان ملكشاه أقطع أخاه تاج الدولة تثنس سنة 470هـ/1077م بعض مناطق الشام، ومنها طبرية ومدينة القدس، بالإضافة إلى ما يمكن لتاج الدولة الاستيلاء عليه، وبهذا أصبح الباب مفتوحا أمام تثنس، حيث تمكن من بسط نفوذه على مدن الشام ومنها فلسطين⁽⁵⁾.

إشراف، أ.د. رياض مصطفى شاهين، الجامعة الإسلامية، غزة، 1428/2007هـ، ص.50.

⁽¹⁾ براور، عالم...، ص.97.

⁽²⁾ البيشايوي سعيد عبد الله، الأملاك الكنسية...، ص.57.

⁽³⁾ حسام حلمي، المرجع السابق، ص.50.

⁽⁴⁾ عليان عبد الفتاح الجالودي، "الإقطاع العسكري في عصر سلاطين السلاجقة الكبار"، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، مج.2، ع.1، 2008، ص.50.

⁽⁵⁾ الطحاوي حاتم عبد الرحمن، الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 1999، القاهرة، ص.28.

وهذه الأخيرة أصبحت إقطاعاً لأرتق بن أكسب التركماني⁽¹⁾، وبهذا التقسيم توفر عامل مساعد للصليبيين، إذ أصبح الدوق جودفري مالكا لجميع الأراضي، التي خضعت لسيطرته في بيت المقدس، غير أنه لم يكن يحتفظ لنفسه إلا بمساحة محدودة، تمثل ثروته الشخصية. أما الباقي من الأراضي فإن الملك أقطعها للنبلاء من كبار البارونات وقادة الجيش الذين يشكلون بلاطه. وبما أن المنطقة عرفت الإقطاع، أصبح من اليسير أن يحل الفارس الصليبي محل الفارس السلجوقي، دون إحداث خلل في النظام، كما أن الصليبيين حرصوا على تطبيقه وما يتماشى والتركيبية السكانية والاجتماعية في الشام⁽²⁾.

وبما أن الأرض قد شكلت مصدراً أساسياً للعيش واكتساب الثروة والنفوذ، فإن الملك الصليبي باعتباره السيد الإقطاعي الأول ابدي تخوفاً من ظهور قوى إقطاعية مناوئة له، في حال توزيع الإقطاعات في القدس، علماً أنها في بادئ الأمر كانت محدودة مما يضمن له ولاء أتباعه وخضوعهم له⁽³⁾.

ومن خلال النظام الذي ألفه الغرب اللاتيني فإن الملوك والأمراء كانوا يقطعون الضياع لأتباعهم، بغية الاستفادة من دخله ليضمن لهم حياة كريمة. وفي الوقت نفسه يؤدون ما عليهم من خدمة عسكرية للسيد الإقطاعي⁽⁴⁾. وقد تبين طموح قادة الحملة الصليبية الأولى، إذ أنهم حصلوا على الأراضي كإقطاعات، وأصبحوا يديرونها كممتلكات خاصة لهم، وكان تانكريد واحداً من هؤلاء المستفيدين، حيث نال من لدن الملك جودفري مدينة طبرية ومنطقة الجليل وحيفاً الساحلية⁽⁵⁾. ويقول ألبرت داكس: أن فرسان تانكريد الأشداء قد استولوا على حيفا بعد أن سقطت في أيدي

⁽¹⁾ طرخان علي إبراهيم، المرجع السابق، ص.30.

⁽²⁾ البيشاوي، الأملاك...، ص.57-58.

⁽³⁾ الطحاوي حاتم، الاقتصاد...، ص.29.

⁽⁴⁾ براور، عالم...، ص.97.

⁽⁵⁾ وليم الصوري، المصدر السابق، ج.2، ص.168.

الصليبيين، وكان الدوق قد وعد بإعطائها لوليم كارنتيني⁽¹⁾، وبهذا أصبح للأمير النورماني إقطاعاً واسعاً يضم طبرية، نابلس، الناصرة، بيسان وحيفا، وكل ذلك يدخل ضمن إمارة الجليل، وبهذا غدا من أقوى الأمراء التابعين لملك بيت المقدس⁽²⁾.

وقد واصل جودفري عملية منح الإقطاعات ومن ذلك حدث أن أقطع جيرارد أف أفسنيز Gerard Avesnes مدينة الخليل، كما أنه أعطى وعداً لأحد الفرسان وهو روبرت الأبولي Robert of Apulia، بأن يمنحه مدينة أرسوف وهي لم تسقط بعد، ومثل هذا الموقف، يشجع الفرسان على السعي إلى اكتساب المزيد من الإقطاعات.

ونتيجة لتدخل الكنيسة في النظام الإقطاعي بأوروبا، فقد نالت هي الأخرى نصيبها في المستوطنات الصليبية بالشام، حيث منح جودفري العديد من الإقطاعات لكنيسة القيامة، التي بلغت إحدى وعشرين قرية في ضواحي القدس وهكذا، فعلى الرغم من قصر مدة حكم الملك جودفري (1099-1100م)، إلا أنها تُعد مرحلة تأسيس نظام الإقطاع وتحديد مميزاته في بلاد الشام⁽³⁾.

وباعتلاء بولدوين الأول عرش مملكة بيت المقدس، برزت معالم النظام الإقطاعي بوضوح وذلك بعد اتساع الرقعة الجغرافية للاستيطان، واتضحت العلاقات الإقطاعية بشكل جلي⁽⁴⁾، وهذا من أجل توطيد أركان المملكة، وإحكام قبضته عليها خاصة وأنها لا تزال في طور التأسيس، وقد تأكد هذا المسعى عندما أُقبل على تغيير وضع إمارة الجليل بعد أن غادرها تانكريد باتجاه أنطاكية للإشراف على إدارتها سنة 1101م/494هـ، حيث اقتطع لنفسه جزءاً منها ووزع الباقي على الأمراء الآخرين، أمثال هيو سانت أومير Hug Saint Omer، هذا فضلاً عما قام به من جهود لتوسيع حدود مملكته، فصارت تمتد من بيروت شمالاً إلى بئر السبع جنوباً، ناهيك عن نفوذه في أقصى

Albert D'Aix, op.cit., T.I, P.412.

(1) أنظر:

(2) حسام حلمي يوسف، المرجع السابق، ص.51.

(3) الطحاوي، الاقتصاد الصليبي، ص.ص. 29-30.

(4) نفسه، ص.30.

الجنوب الشرقي من نهر الأردن، وهذا الامتداد الجغرافي للمملكة، كفل للملك السيطرة الواضحة على الطرق التجارية⁽¹⁾.

ويقول وليم الصوري في هذا الشأن: إن الملك بولدوين بعد أن عادت إليه طبرية، التي كانت في يد تانكريد، أقطعها لهيچ سانت أومير "رجل رفيع المكانة باسل في الحرب" وجعلها وراثية له⁽²⁾. وعليه فإن الملك بولدوين الأول قام بتوزيع أراضي المملكة وفي شكل إقطاعات على كبار الأمراء والنبلاء⁽³⁾، ومن ذلك كانت قيسارية من نصيب الفارس يوستاش جارنييه Eustache Garnier سنة 1108م فضلا عن بارونية صيدا كحق وراثي له سنة 1110م، كما منح جزءاً من نابلس لبابين دي ميللي Payen De Milly سنة 1108م، على الرغم من أن نابلس تابعة للتاج، ومُبرر ذلك أن الملك كان يُقطع الأراضي للذين يثق في ولائهم، مثل ما فعل مع يوستاش جارنييه، وهذا يوحي بأنه كان من كبار الأمراء يثق التاج، كما أن لبابين دي ميللي مكانة لدى الملك، وذلك من خلال تخليه عن جزء من نابلس ذات الموقع الهام والثراء الكبير⁽⁴⁾.

ب- إقطاعات مملكة بيت المقدس الصليبية:

لقد كان ملك بيت المقدس في قمة الهرم الإقطاعي، بجانبه أربعة من كبار السادة، وهم سيد بارونية صيدا وأمير الجليل وكونت يافا، وأمير الكرك والشوبك، وكان هؤلاء السادة الإقطاعيون يظاهون الملك بما لديهم من موظفين.

والى جانب هذه الإقطاعات، وُجد اثني عشر إقطاعاً صغيراً، وهي: اللد ونابلس والخليل وحيفا وبيسان وأرسوف وقيسارية والقيمون وتبنين والإسكندرونة والداروم وبيروت، حيث أدارها اثنا عشر أميراً، وخضعت تلك الإقطاعات لأنظمة الإدارة الصليبية في بيت المقدس، مما أدى إلى التكامل في وجود إدارة مؤهلة سُميت بقوة التاج، في حين احتفظ الملك بأربعة مدن، وهي بيت المقدس ونابلس وعكا وصور، كما أضيفت الداروم

⁽¹⁾ البيشاوي سعيد عبد الله، الأملاك، ص. 64.

⁽²⁾ المصدر السابق، ج. 2، ص. 210.

⁽³⁾ البيشاوي، الأملاك، ص. 65.

⁽⁴⁾ نفسه.

إلى إقطاع الملك⁽¹⁾.

بينما يذكر المؤرخ كوندر Conder إقطاعات مملكة بيت المقدس، حيث يقول: "تم تنظيم المملكة بإيجاد إقطاعات كبيرة، ومنها طرابلس وأنطاكية والرها، وأربع بارونيات يافا والخليل والجليل والشوبك، إلى جانب وجود إقطاعات سيادية، ومنها الداروم وأرسوف والقيمون وقيسارية وبيسان وصيدا وبيروت وتورون ومارون وسويث وسان جورج، بالإضافة إلى حيفا"⁽²⁾.

ولقد كان الفضل للملك بولدوين الأول الذي أرسى قواعد النظام الإقطاعي إلى حد ما في مملكة بيت المقدس، علما أن هذا النظام أخذ شكلا أكثر تطوراً، وهذا من خلال المنح التي قُدمت للأتباع⁽³⁾.

وبوصول بولدوين الثاني (1118-1131م) إلى الحكم، أصبحت إدارة المملكة أكثر وضوحاً، وهذا بعد أن اتسع نفوذها على حساب المناطق الإسلامية، وتوزيعها على شكل إقطاعات، بحيث أصبح النبلاء أفضالاً تابعين للملك، في حين أصبح ملاك الأراضي الصغار أتباعاً للنبلاء، وأصبح الجميع ملزمين بفروض الولاء والطاعة للسيد الإقطاعي، وقد تعمد ملوك بيت المقدس إلى تعدد الإقطاعات، وهذا بغية ضمان الولاء والتبعية، بالإضافة إلى الاستفادة من خدمات هؤلاء الأتباع، وعلى الرغم من تعددها واختلاف مساحاتها في المملكة، إلا أنها في عمومها كانت ذات مساحات شبه ثابتة⁽⁴⁾.

وقد تواصلت الإضافات على النظام الإقطاعي، لاسيما أن الأراضي هي جوهر الصراع وبالتالي أصبحت من أولويات السياسة الاستيطانية في عهد بولدوين الثاني، وخاصة الأراضي الزراعية الخصبة والغنية بمواردها المائية، وهذا من أجل جلب المهاجرين وتوطينهم في المراكز الحيوية والمواقع الإستراتيجية⁽⁵⁾.

وأصبحت حيازة الأرض تقوم على الحق الوراثي، بحيث تصبح الملكية للأب في حالة عدم وجود وريث

⁽¹⁾ البيشاوي، الأملاك، ص.ص. 64-65.

⁽²⁾ أنظر: Conder, The latin Kingdom, P.162.

⁽³⁾ صفاء عثمان، المرجع السابق، ص. 56.

⁽⁴⁾ الطحاوي، الاقتصاد الصليبي، ص. 31-32.

⁽⁵⁾ صفاء عثمان، المرجع السابق، ص. 225.

من الذكور⁽¹⁾، وهذا التشريع لم يعرفه الغرب بعد، وأصبح سلاح ضد النبلاء، علما أن القانون في الفترة الباكرة كان يمنع تركز الاقطاعات لصاحب الحيازة في منطقة محددة، وبهذا يستطيع السيد الإقطاعي أن يتجنب توريث إقطاعه لقريبه البعيد. وفي نفس الوقت يمكنه أن يورثه لقريبه الذي لا يملك، إذ أن التشريع أصبح أكثر فعالية ورؤية مستقبلية، حيث يهتم بتوظيف الأرض، والموارد المالية للمملكة بأسلوب اقتصادي، وأصبح ذلك عاملا يشجع على الهجرة باتجاه الشام والاستيطان فيها⁽²⁾.

ومن الملاحظ أن التغييرات في النظام الإقطاعي في بلاد الشام، قد استمرت حتى أواخر القرن الثاني عشر الميلادي، إذ أن الملك في بداية هذا القرن كان له حق المشاركة في إقامة الحكم في المحكمة الإقطاعية، غير أن ذلك لقي معارضة في الفترة الأخيرة، بحيث حُرِمَ من حقه في ممارسة القضاء الإقطاعي المحلي، وهذا يوحى ببداية الاستقلال الذاتي للسادة الإقطاعيين في المملكة⁽³⁾.

كما يتضح التغيير المستمر للإقطاع في بعض الملكيات، وذلك بتغيير الأسر الإقطاعية، وبهذا لا يمكن أن نجزم باستقرار الإقطاع في أيدي أسرة واحدة. وفيما يخص عدم وضوح الملكيات في مملكة بيت المقدس، وخاصة الفترة الأولى مرده هو العامل الاجتماعي، مثلا كانهام الوراثة للسيد الإقطاعي، وبهذا يتم نقل الإقطاع إلى أسرة أخرى⁽⁴⁾.

ومن خلال ما يؤكد المؤرخ براور أن الإقطاعيين الأوائل في مملكة بيت المقدس، كانوا من حديثي الحصول على الإقطاعات، كما كانوا عنصرا متغيرا باستمرار على الأقل في الجيل الأول من عمر المملكة، بحيث كان الملوك يُقَطِّعون الأراضي لأتباعهم، ثم يُعْطَى لشخص آخر ولم يلبث أن يعود الإقطاع مرة أخرى لملك بيت المقدس، علما أنه يمكن أن يقطعه لأي تابع آخر، وهذا لا ينفي وجود قانون الوراثة في الغرب

⁽¹⁾ رنسيان، المرجع السابق، ج.2، ص.346.

⁽²⁾ براور يوشع، الاستيطان الصليبي في فلسطين، مملكة بيت المقدس اللاتينية، ت.عبد الحافظ البناء، عين للدراسات، 2001، ص.93.

⁽³⁾ نفسه، ص.166.

⁽⁴⁾ حسام يوسف الآغا، المرجع السابق، ص.55-56.

اللاتيني، إذ أنه كان موجود منذ القرن الحادي عشر الميلادي⁽¹⁾.

ولقد كانت بنية المجتمع في الفترة البكرة ربما هي التي جعلت عودة الإقطاع إلى الملك، لأن غالبية المشاركين في الحملة الصليبية الأولى كانوا خاصة من الفرسان صغار السن ومن الفرسان الكبار، وقد حدث تفاعل بين الوافدين والسكان المحليين وخاصة المسيحيين، حيث تم زواج الصليبيين بالنساء المسيحيات المحليات، وبهذا ظهر جيل جديد يطلق عليه اسم البولان Pullan، والتي تعني "الفتية"⁽²⁾.

وفي غياب الروابط والالتزامات الأسرية تسبب ذلك في عدم استقرار طبقة النبلاء، أي بعد وفاة أحد هؤلاء يصبح الإقطاع شاغراً، وبالتالي يعود إلى التاج، وبهذا يستطيع الملك أن يمنحه لأي فارس مناسب له، يضمن له الولاء والتبعية، وغالبا ما يكون هذا التابع من الوافدين الجدد إلى المنطقة. ولعل الملك يريد بذلك تدعيم الاستيطان بعناصر جديدة تتميز بروح الحماسة للحصول على الثروة⁽³⁾.

وبمرور ثلاثة عقود من الزمن، تمكن الصليبيون من وضع أقدامهم في منطقة الشام وخاصة بيت المقدس، حيث بدأ الوضع يستقر وأصبح الإقطاع أكثر وضوحاً، وينتقل بشكل منظم بين الأسر، حيث تأسست البيوتات والأسر الإقطاعية الحاكمة، التي عُرفت باسم عائلات ما وراء البحار، والتي حُظيت بالتمجيد والتقدير، لما تتمتع به من فضيلة الفروسية والشجاعة والبسالة⁽⁴⁾. غير أن الإقطاع الكنسية كانت تزداد باضطراد، نتيجة الهبات التي تقدم لها، وكذلك إقطاعات الفرق الرهبانية العسكرية، بسبب ما يحتاج إليه الكيان الصليبي من خدمات هذه الهيئات⁽⁵⁾. ولذلك فتحوا أمامهم أبواب المنح والهبات

⁽¹⁾ براور، الاستيطان...، ص.ص. 91-92.

⁽²⁾ نفسه، ص. 92. وبقي هذا الاسم ملازماً لهم حتى الكبر، وكان سكان الغرب اللاتيني يطلقون هذا الاسم عن كل لاتيني يدافع عن مصالح الصليبيين المتواجدين في الشام استهزاءً به، كما تعني الكلمة مسيحيو الشرق. أنظر، مجهول، تممة كتاب وليم الصوري المنسوب خطأً إلى روثلان 1229-1261م، ت. أسامة زكي زيد، ط. 2، 2001، دار المصطفى للطباعة والكمبيوتر، طنطا، مصر، ص.ص. 233-234 حاشية(2)؛ وللمزيد عن صور التفاعل بين الصليبيين والمسيحيين الشرقيين في بلاد الشام، أنظر، عاشور، الحركة الصليبية، ج. 1، ص. 493.

⁽³⁾ براور، الاستيطان...، ص.ص. 91-92.

⁽⁴⁾ المرجع نفسه، ص. 93.

⁽⁵⁾ الطحاوي، الاقتصاد الصليبي...، ص. 32.

والامتيازات، فكثرت بذلك قلاعهم وحصونهم وأحيائهم⁽¹⁾، وقد ازداد عددها في عهد الملك عموري الأول (1162-1174م)⁽²⁾.

من خلال ذلك يظهر بأن ملوك بيت المقدس أدركوا مدى فعالية هذه الفرق في الدفاع عن كيانهم، فأغدقوا عليهم بالمنح والهبات، من أجل تثبيت الاستيطان في الأراضي المقدسة.

ج- أشكال الإقطاع في مملكة بيت المقدس الصليبية:

لقد عرفت مملكة بيت المقدس الصليبية النظام الإقطاعي العيني *Fiés en Villains* والنقدي *Fiés en Besens*، بحيث أن التابع يُقدّم خدمته لسيده، مقابل حصوله على أجره، سواء كان ذلك الأجر عينيا من غلة الإقطاع، أو من دخل الإقطاع النقدي، بالإضافة إلى أن الاقطاعات النقدية تتساوى مع الاقطاعات العقارية، وذلك من خلال ما هو مطلوب منها من خدمة، حيث أن الفصل أصبح يتمتع بإيجاره العيني، بحيث يجمع الحبوب ومختلف المواد المُنتجة من قرى الإقطاع بعد موسم الحصاد، أو من مخازن السيد في أوقات أخرى محددة.

أما فيما يخص الإقطاع النقدي فإن له حالات، الأولى منها: أن يدفع السيد لفصله مقدارا ثابتا من المال كل سنة، وظل ذلك إلى أواخر القرن الثاني عشر الميلادي، حيث كان امتيازاً إقطاعياً للكثير من الفرسان في عكا، أما الحالة الثانية من الإقطاع النقدي، فقد تمثلت في مصروفات سنوية من إيرادات القرية أو عدة قرى، مثلا كأن يعطى أحد الأوصال إيجارا محتكرا في القرية، مثل الضريبة على الحصاد أو على قبائل البدو، مقابل الاستفادة من الأراضي حول الإقطاع⁽³⁾.

وبخصوص الحالة الثالثة من الإقطاع النقدي، فهو نوع مألوف يمنح من تحصيل الإيرادات التي تُجمع في المدينة، من طرف موظفي السيد الإقطاعي، ويكون ذلك على أسواق اللحوم والفواكه والأسماك والملابس والخمور، ودور سك العملة ومصانع الصابون ومحلات الصباغة وعلى الآلات الموسيقية، وكذلك على

⁽¹⁾ انظر: Ernoul, op.cit., PP.27-28.

⁽²⁾ حسين عطية، إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون 1171-1268م، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1989، ص.159، حاشية (291).

⁽³⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.32.

صرافي العملات، بالإضافة إلى أنه يكون على الضرائب التي يتم جمعها عند الدخول والخروج من بوابات المدن⁽¹⁾.

لقد تمثل الإقطاع النقدي في ثلاثة أصناف، أولها أن يلتزم السيد بدفع مبلغ مالي ثابت لتابعه، ومن الممكن أن يكون الفرسان في مدينة عكا قد تمتعوا بهذا الإقطاع حتى سنة 1198م، لأن الملك ايمري Aimery⁽²⁾ قد جعلهم يختارون اثنين من بينهم للإشراف على تحصيل الإيرادات ودفع المستلزمات الإقطاعية⁽³⁾.

وأما بخصوص الصنف الثاني فهو: قد يتم تعيين دفعة سنوية على إيرادات قرية، أو مجموعة من القرى، وقد يُمنح الفصل أيضاً إجباراً من احتكار قرية، مثل الضريبة على منطقة ريفية أو حتى على مخيمات البدو. إلا أن أكثر أنواع الإقطاعات النقدية شيوعاً، والتي تم تخصيصها على العائدات التي تم جمعها في المدن، من قبل أحد موظفي مكاتب السيد الإقطاعي: حيث يجد المرء إشارات إلى الإقطاعات الممنوحة على إيرادات الأسواق من اللحوم والأسماك والفواكه والقماش والنبيد، والزيت والآلات الموسيقية، وكذلك المطاحن ومحلات الدباغة والصابون ومصانع الصباغة، ودور سك العملة، وكذلك الصرافين، بالإضافة إلى الضرائب التي يتم

⁽¹⁾ الطحاوي، الاقتصاد، ص.ص. 32-33.

⁽²⁾ شقيق جي دو لزيجنان Guy de Lusignan، جاء إلى الأراضي المقدسة سنة 1174م، وفي سنة 1180م عرض على أخيه جي الزواج من ميليزاند Milisend بنت البكر ملك بيت المقدس بولدين الرابع Balwin IV، وبزواجه أصبح جي كونت ليافا وعسقلان. وفي سنة 1183م، أعلن الملك بأن جي حاكماً على جميع الأراضي، باستثناء بيت المقدس، لكن حدث خلاف بينهما بخصوص هذه الممتلكات، لكن بولدين الرابع اختار حفيده الصغير بولدين الخامس ابن سيبيل Sybella من زوجها الأول وليم مونتيفرات William of Montferrat. وبعد وفاة بولدين الرابع سنة 1185م وبولدين الخامس سنة 1186م، أصبحت السلطة بيد سيبيل بمساعدة رينالد دي شاتيلون حاكم شرقي الأردن وهرقل Heracl بطريك بيت المقدس، وتزوجت سيبيل من جي. وفي معركة حطين في 4 جويلية سنة 1187م كان الملك من بين الأسرى، وتم إطلاق سراحه، لكنه نكث وعده وعاد لمحاربة صلاح الدين. توفي جي لوزيجنان سنة 1194م. أصبح ايمري أخو الملك جي حاكماً لجزيرة قبرص سنة 1197م، ويعتبر أول ملوك أسرة لوزيجنان اعتباراً من هذه السنة. للمزيد من المعلومات، أنظر: محمد مؤنس عوض، معجم أعلام...، ص.ص. 394-395؛ محمد عبد الحفيظ فرشوخ، مملكة قبرص اللاتينية بين الشرق الإسلامي والغرب الأوربي "تكملة الحروب الصليبية" (588-895هـ/1192-1489م)، 2012، (د.د.ن)، بيروت، لبنان، ص. 287.

⁽³⁾ أنظر: Riley Smith Jonathan, The Feudal Nobility and The Kingdom of Jerusalem

1174-1277, Published by Palgrave macmillan, N.Y.1974, P.6.

جمعها عند الدخول والخروج من بوابات المدن⁽¹⁾.

وقد كان للكثير من السادة الإقطاعيين هذا النوع من الإقطاع، ووصولهم على مورد مالي ثابت من المدن والقرى مقابل توفير الأمن لها، وبخصوص الإقطاع النقدي لا يمكن للملك أن يلغيه، وفرسته الوحيدة في استعادته ترتبط بوفاة السيد الإقطاعي بدون وريث، أو من يرثه أنثى فللملك الحق في أن يختار للوريثة زوجا من بين أتباعه.

وقد كان لبعض الأتباع جزء من الأراضي، والآخر عيني أو نقدي، في حين كان لبعض اقطاعات حصلوا منها على المال والمحاصيل وغيرها⁽²⁾، إذ يكون للأفصال اقطاعات مختلطة جزء منها من الأراضي، والجزء الآخر من إيجارات نقدية أو عينية⁽³⁾.

في حين أن هناك من كانت له من الاقطاعات المتعلقة بالأراضي، وواحد فقط نقدا، مثل ما كان في أرسوف في القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري)، أما الباقي فهو مجموعات مختلفة تضمنت الإيرادات المالية والإنتاج، وحصص تموينية والأراضي والأرباح والامتيازات⁽⁴⁾.

وطبعا ذلك يوحي بتطور الإقطاع، وما ترتب عنه من امتيازات للأسياد والأتباع، ولأخذ مثال عن حيازة الاقطاعات نجد جوسلين دي كورتيناوي Joceline de Courtenay في سنتي 1182م و1183م، حيث كان يحصل على إيجارات قيمتها خمسمائة بيزنت Bezant⁽⁵⁾ في عكا وكذلك في صور، بالإضافة إلى إقطاعه في الجليل الأعلى وعدة قرى بجوارها، وأكثر من ثلاثة اقطاعات استبدل أحدها بقرية وإيجار قيمته ألف

¹ أنظر: Riley Smith Jonathan, The Feudal Nobility..., P.6.

² الطحاوي، الاقتصاد...، ص. 33.

³ أنظر: Riley Smith, The Feudal..., P.6.

⁴ أنظر: Ibidem.

⁵ أنظر: Solidus.

⁵ السوليدس Solidus: عملة ذهبية وهي النوميما، ظلت متداولة إلى أن أُطلق عليها في أواخر عصر الإمبراطورية البيزنطية اسم البيزنت، وقيمتها 12 دينارا. للمزيد من التفاصيل عن العملة البيزنطية (البيزنت)، أنظر: النبراوي، النقود الصليبية في الشام ومصر، 2004، مكتبة القاهرة للكتاب، القاهرة، ص. 23، حاشية (2)؛ ماير، تاريخ الحملات الصليبية، ج. 1، ص. 115، 198؛ نهي فتحي الجوهري، المرجع السابق، ص. 61.

بيزنت، في حين تكونت الاقطاعات الأخرى من عدة قرى وإيجار يبلغ ثمانمائة بيزنت⁽¹⁾.

ثانياً: العلاقات والخدمات الإقطاعية في مملكة بيت المقدس الصليبية

لقد كان التنظيم الإقطاعي في الشام الصليبي، وبيت المقدس خصوصاً، يقوم على أساس هرمي في قمته الملك الصليبي، الذي يُحظى بمكانته لدى الجميع، وفي الفترة الباكرة من عملية الغزو، تجنب الملوك سواء كان جودفري أو بولدوين الأول تسليم الإقطاعات حين سقوطها للأفصال، بل بقيت في أيديهم وكانوا بذلك يسعون إلى إيجاد منطقة نفوذ ملكية "الدومين"⁽²⁾، حيث يشرف على هذه مفوض ملكي وحاميته، وتخصص نسبة من إيراداتها لإعالة الحاكم وفرقته العسكرية، ولم تُمنح الاقطاعات السيادية، إلا بعد مرور العقد الأول من الغزو⁽³⁾.

وكان يليه أتباع المملكة الذين يدينون له بالقسم الإقطاعي لخدمته، وإلى جانبهم فرسانهم⁽⁴⁾، وأن الملك هو القائد الأعلى ورئيس الإدارة بالمملكة، له سلطة التعيين وكونه سيذا لأتباعه بإمكانه أن يمنعهم من حق التصرف في أراضيهم، بل اختيار الأزواج لوريثات الإقطاع، وبهذا أصبح مالك لجميع الأراضي ومواردها⁽⁵⁾، لذا فالعلاقة التي نشأت بين الملك وأتباعه كانت على أسس إقطاعية، وبهذا يتم تقديم فروض الولاء والطاعة له⁽⁶⁾.

وقد كانت سلطة تحصيل الضرائب غير الإقطاعية من اختصاصه، باعتباره سيذا إقطاعياً أعلى، ولما كانت موارد الخزينة الملكية تُجبي من الإقطاعات الأخرى، تعذرت الحاجة إلى سن قوانين بشأن ذلك تماشياً

⁽¹⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص. 33.

⁽²⁾ يقصد به الضياع والضواحي التي هي تحت يد السيد الإقطاعي، قد تكون متقاربة أو مبعثرة هنا وهناك، و الدومين معروف منذ مدة. وعلى سبيل المثال دومين الأسقف برترانوس Bertrannus أسقف مدينة لو مانز Le Mans، حيث كتب هذا الأسقف وصيته سنة 610م وذكر فيها جميع ما تحت يده من اقطاعات، حيث ورد فيها ما لا يقل عن ثمانين ضيعة موزعة في أماكن مختلفة من غالة الفرنجية. للمزيد من المعلومات عن الدومين، أنظر: كوبلاندي (ج.و)، فينوجرادوف(ب)، المرجع السابق، ص.ص. 10-11.

⁽³⁾ براور، الاستيطان...، ص. 88، للمزيد أنظر، رنسيمان، المرجع السابق، ج. 2، ص.ص. 348-349.

⁽⁴⁾ الفيتري يعقوب، تاريخ بيت المقدس، ت. البيشاوي سعيد، ط. 1، 1998، دار الشروق، عمان، الأردن، ص. 62.

⁽⁵⁾ رنسيمان، المرجع السابق، ج. 2، ص.ص. 348-349.

⁽⁶⁾ الفيتري، المصدر السابق، ص. 62.

مع العرف السائد⁽¹⁾.

وإذا ما نُظر إلى هذه العلاقات الإقطاعية، تظهر أنها لا تختلف في عمومها عن نظيرتها القائمة في الغرب اللاتيني في تلك الفترة، مع وجود اختلافات نتيجة الظروف التي تعيشها المنطقة، لاسيما أنها فترة حرب وتوسع الكيان الصليبي، وفي مقدمة ذلك الخدمة العسكرية والاستفادة من موارد الإقطاعات لتموين خزينة المملكة، لمواجهة أية طوارئ، وخاصة ردة الفعل الإسلامي، وذلك حتم على الصليبيين في الشام، صياغة علاقات إقطاعية تحاكي العلاقات في الغرب، مع سمة تتناسب مع الأولويات في ظل وضع جيوسياسي جديد⁽²⁾.

إن اللبنة الأولى للعلاقات الإقطاعية للمجتمع الصليبي، هو "التعاقد" وهي صيغة تربط الطرفين السيد والفصل، ببعضهما، بحيث يحدد العقد التزامات وواجبات كل واحد منهما وهي متبادلة، بمعنى أن يلتزم السيد الإقطاعي بحماية أتباعه، وإعطائهم نفقات معيشية، بحسب شكل الإقطاع أو الإيجارات أو مختلف الممتلكات، بحيث يتمكن الفصل من العيش في أمن وسلام ويقوم بواجباته⁽³⁾، إذ أن عملية التعاقد تعتبر حجر الأساس في العلاقات الإقطاعية في المجتمع الصليبي⁽⁴⁾.

وفي قانون التبعية الإقطاعية هو أن يرتبط الفصل بخدمات سيده الإقطاعي الأعلى، بطريقة مباشرة ومضبوطة، ومن بين الالتزامات في هذا السياق الولاء الخاص، بحيث كان يُلزمُ الفصل بخدمة سيده ضد الجميع، أولئك الذين يستطيعون العيش أو الموت⁽⁵⁾، وكان على الفصل أداء الخدمة، وهي تختلف باختلاف حجم الإقطاع وأهميتها في المملكة⁽⁶⁾.

وبموجب التعاقد أصبح الفصل مُلزماً بالدفاع عن سيده في حالة الخطر والمحافظة على شرفه، وكل ما

⁽¹⁾ براور، الاستيطان...، ص.147.

⁽²⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.37.

⁽³⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.37.

⁽⁴⁾ أميرة محمد شحاتة، دور الفرسان في مملكة بيت المقدس، 2017، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ص.53.

⁽⁵⁾ أنظر: Assises de Jérusalem, op.cit., T. I, Chap.141, P.215, Marge (a).

⁽⁶⁾ أنظر: Conder, The Latin Kingdom, P.163.

يسئ إليه أو يضر بمصلحته، كما أنه في الحالات الاستثنائية، يجب أن يكون فاعلا، مثلا عند وقوع سيده في الأسر، وجب عليه دفع الفدية بواسطة ضريبة على ممتلكاته (1%)، أو بيع إقطاعه إذا كان من النوع الذي لا يورث، وأهم الخدمات التي يؤديها الأفاضل تجاه الأسياد، تتمثل في الخدمة العسكرية وتقديم النصح والاستشارة، بحيث يكون حاضر في مكان الاجتماع بعدته وعتاده، بل حتى حراسة قلعة سيده. وفيما يخص مملكة بيت المقدس، وجب على الفصل أن يبقى ضمن أفراد الجيش الإقطاعي في حدود المملكة، لمدة سنة كاملة من تاريخ استدعائه⁽¹⁾.

والحالة نفسها بالنسبة لزوجة التابع، فقد كانت تقدم خدمة الزواج مثل الخدمة العسكرية، فعند طلب يدها للزواج ترتبط من أحد المتقدمين لخطبتها عن طريق السيد الإقطاعي، بشرط التكافؤ في مكانتها الاجتماعية، أما بالنسبة للنصح والمشورة فقد وجب على الفصل أن يشترك في الحكم على سلوك سيده، وذلك مع أقرانه من الأفاضل، أي يشترك في المحكمة الإقطاعية، إذا كان هناك نقض للعقد، كما نص أيضا على منع الفصل من محاربة سيده مقابل أن لا يحدث ظلم من السيد، وأن لا يصادر منه إقطاعه، بالإضافة إلى مسعى السيد في إنقاذ فصله في حاله أخذه كرهينة دفاعا عن سيده.

وأصبح من الضروري على السيد الإقطاعي تزويج وريثة الإقطاع، إذا بلغت اثنتي عشرة سنة، وكانت تختار زوجها من ثلاث مرشحين، وعلى والديها تقديم مبلغ مالي إلى السيد من أجل موافقته على زواجها الذي وافقا عليه⁽²⁾.

وبناء على العقد الإقطاعي أصبح الكل يتمتع بما له من حقوق وما عليه من واجبات، ولكن كيف يكون ذلك في اختلاف الملك مع أمرائه وباروناته، وكيف يكون موقف الأفاضل أي أتباع الأتباع من النزاع، علما أن التعاقد يلزم الأتباع المباشرين بالولاء والتبعية، ولهذا تأثيره على المجتمع الإقطاعي في بلاد الشام⁽³⁾.

وبوصول عموري الأول⁽⁴⁾ إلى عرش المملكة، أقر في عامه الأول تشريع التبعية Assise sur la

⁽¹⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.38.

⁽²⁾ نفسه، ص.38.

⁽³⁾ نفسه، ص.39.

⁽⁴⁾ كونت يافا وعسقلان، وصل إلى الحكم بعد وفاة أخيه بولدوين الثالث، وعمره حينذاك سبعة وعشرين عاما، تُوج في الثامن

ligece، ولعله بذلك يُلزم أتباع الأتباع بالتبعية له مباشرة⁽¹⁾، أي كُُل الأتباع في المملكة وأتباع الملك بحكم قانون التبعية، يصبح هؤلاء خاضعون للسيد الأول في المملكة⁽²⁾، إذ أن عموري الأول (1162-1174م) أراد أن يكون له نفوذ مباشر على أتباع أتباعه، حيث أعطى لكل هؤلاء الحق في اللجوء إلى الملك، كونه سيداً أعلى في الهرم الاجتماعي الإقطاعي، في حالة حدوث ظلم من سيده، بمعنى عدم الرجوع إلى محكمة البارون وموافقته على ذلك، ويطلب من سيده المباشر أن يعدل في حكمه، وإذا رفض السيد الإقطاعي كل ذلك حُق لهؤلاء أن يجعلوا أنفسهم في خدمة الملك⁽³⁾.

ويقول رايلي سميث بشأن هذا التشريع: "أكد Assise sur la ligece على الرابطة المشتركة لجميع الفرسان باعتبارهم أقراناً مرتبطين بولاء التبعية الذي أسدوه للملك، والتزموا بمساعدة بعضهم بعضاً ضد تعديلات السلطة"⁽⁴⁾.

كما أن الملك وبموافقة المحكمة العليا، اقر على أصحاب الاقطاعات سواء من كبار الإقطاعيين أو غيرهم من أتباع الأتباع، أداء يمين الولاء والطاعة لملك بيت المقدس ويكون ذلك أمامه مباشرة⁽⁵⁾.

ويقول مروان نادر: "أصبحت العلاقة بين الملك وكل المستوطنين بالمملكة واضحة، من خلال قانون التبعية الذي أقره الملك عموري الأول، إذ أنه ليس فقط أتباع الملك هم من يخضع له، بل يمكن للملك أن يطلب ولاء أتباع الأتباع في إقطاعاتهم، وبعبارة أخرى المستوطنين الذين يعيشون خارج المجال الملكي"⁽⁶⁾.

وقد كان لهذا التشريع تأثير على كل فروع الحياة بالمملكة، والذي أقر "أنه منذ الآن فصاعداً يجب على كل حائزي الاقطاعات بالمملكة اللاتينية، سواء كان كبار الأفضال أو صغارهم، أن يقدم كل حائز منهم،

عشر من شهر فيفري سنة 1162م. للمزيد عن شخصية الملك عموري، أنظر: Assises de Jérusalem, T.I, Chap.140, P.214, Marge (a).

⁽¹⁾ أنظر: Setton Kenneth, A history of the crusades, Vol.I, P.549.

⁽²⁾ أنظر: Assises de Jérusalem, T.I, Chap.140, P.214.

⁽³⁾ جمعة الجندي، الاستيطان...، ص.111.

⁽⁴⁾ أنظر: Riley Smith, Feudal Nobility...,P.150.

⁽⁵⁾ جمعة الجندي، المرجع السابق، ص.111.

⁽⁶⁾ أنظر: Marwan Nader, op.cit.,PP.129-130

قسما مباشرا بالولاء والتبعية الإقطاعية للملك الصليبي⁽¹⁾.

وهذا انعكس إيجابا على حقوق الأفضال، حيث بإمكانهم مساعدة بعضهم في حالات اللاتوافق مع السيد الإقطاعي، ويخضع الفصل للاستجواب أمام المحكمة قبل تخليه عن إقطاعه، وإذا كان السيد الإقطاعي رافضا لقرار المحكمة، فإن الأفضال يرفضون أداء ما عليهم من خدمات، ولذلك يتدخل الملك لحل الخلاف، كما يلزمه تحقيق العدالة في محكمته لأي فصل يتعرض للعقوبة من طرف سيده⁽²⁾.

وفي حالة الظلم يطلب الفصل من أقرانه أن يلتمسوا من الملك السماح له بالمثل أمام المحكمة العليا، أو إذا سمع الفرسان أن أحدهم قد سُجن، فيمكنهم أخذ زمام المبادرة ويتطلب الأمر جلسة محاكمة، وقد كان هذا المطالب ضرورياً، لأنهم لا يستطيعون فعل أي شيء، إذا لم يكن التابع مستعد للمحاكمة⁽³⁾.

وفي تشريع التبعية تأكيد على شرعية موقفهم: في الواقع العلاقة بين التشريع (Assise) والتحرر من نزعة الملكية التعسفية، كانت قريبة جداً لدرجة أنهم اعتبروا أن الملك عموري الأول الذي أصدر هذا التشريع، قام بإلغاء تأكيد الملك بولدوين الثالث، الذي أعطاه الحق في العقاب دون محاكمة في بعض الحالات⁽⁴⁾.

وقد أصبح الملك مقيدا برأي أمرائه وأفضاله وقرار المحكمة العليا، أي لا يمكنه عزل أمير أو فصل عن إقطاعه إلا بقرار المحكمة العليا⁽⁵⁾، وكان يُفرض على السيد الإقطاعي الذي أدى يمين الولاء والطاعة، أن يركع أمام الملك، ويجمع يديه ويمدهما بين يدي هذا الأخير. وقد أصبح الملك مقيدا باقتراحات أفضاله وأمرائه ورأي المحكمة العليا، فلا يمكنه عزل أي من الأتباع إلا بموافقتها، والتي كانت تتألف من كبار البارونات بالمملكة، حيث يدينون له بالولاء المباشر، وكانت مكانة الملك مساوية لأتباعه، على الرغم من أنه أولهم ورئيس للمحكمة⁽⁶⁾.

⁽¹⁾ براور يوشع، الاستيطان...، ص. 142.

⁽²⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص. 39-40.

⁽³⁾ أنظر:

Riley Smith, Feudal..., P.150.

Ibidem.

⁽⁴⁾ أنظر:

⁽⁵⁾ حسام حلمي الآغا، المرجع السابق، ص. 61-62.

⁽⁶⁾ البيشاوي، الأملاك...، ص. 66.

وبمرور الوقت أدت المساواة إلى أن تكون الملكية وراثية، وأن الملك حصل عليها كإقطاع، وبهذا أصبح شبيه بالنبلاء في إقطاعاتهم، وما يطبق عليهم بالضرورة يسري تفعيله على المملكة، كما كان على الملك أن يعرض السادة عن خسائرهم في الحرب، بل حماية الإقطاعات من الغزو الخارجي، ومن واجبه أن يحصنها، ولذلك قام الملك بولدين الأول ببناء قلعة نابلس وبرجها، بالإضافة إلى تحمله مسؤولية الدفاع عن الكنيسة، والمحافظة على رعاياه في المملكة⁽¹⁾.

وبخصوص أصحاب الإقطاعات بإمكانهم أن يتنازلوا عن إقطاعاتهم أو بجزء منها إلى النبلاء المقيمين في الإقطاعات، وبهذا نشأت إقطاعات فرعية يديرها التابعون لهذا السيد، بحيث أصبحت سلسلة من الارتباطات لها علاقة بملكية الأرض وتعدد بذلك النبلاء، وتتعين أهميتهم حسب المكانة والرتبة الاجتماعية، كما كان السادة الإقطاعيون يعتمدون إلى منح أجزاء من ممتلكاتهم إلى القادة العسكريين والفرسان لكي يقوم هؤلاء بحماية النبلاء، وبهذا نشأت فئة من الفرسان تقدم خدمات للسيد الإقطاعي، مقابل حصولها على حقوقها⁽²⁾.

وعليه فإن مملكة بيت المقدس قد أنشئت على أساس ملكية إقطاعية، مثلما كان سائد في الغرب اللاتيني، حيث أن الصليبيين الذين استوطنوا ببلاد الشام قد أخذوا سمات النظام المعمول به هناك، مع إدخال بعض التغييرات من أجل التكيف مع الوضع الجديد، وخاصة في بيت المقدس⁽³⁾.

علما أن هذه الأخيرة حدث فيها تغيير في الأسر الإقطاعية، بالإضافة إلى أن الملوك تفادوا تركز الإقطاع في يد أشخاص معينين، وهذا من أجل ضمان الولاء والتبعية، ويتسنى لكل إقطاعة تقديم ما عليها من خدمات للمملكة. وبهذا أصبح المقطعون ملزمين بتقديم الخدمة العسكرية، تجاه سيدهم الملك والدفاع عن المملكة ضد أي خطر يتهدها، ولم تكن الخدمة العسكرية محددة بمدة

⁽¹⁾ البيشاوي، الأملاك، ص.ص. 66-67.

⁽²⁾ نفسه، ص. 67..

⁽³⁾ نفسه، ص. 72.

زمنية معينة، مثلما كان سائد في الغرب، حيث كانت مقررة بأربعين يوماً⁽¹⁾.

في حين يشير المؤرخ إسحاق عبيد أنها تتراوح ما بين أربعين و ستين يوماً في السنة⁽²⁾، وتكون على نفقة التابع، بينما إذا زادت عن ذلك يتكفل بها السيد، وبخصوص الخدمة في المملكة وغيرها من الإمارات، فلم تكن محددة لأن الظروف آنذاك فرضت ذلك، خاصة وأن الصليبيين معرضين في أي وقت للهجوم الإسلامي، كما أن الملك الصليبي كان على أهبة الاستعداد للإغارة على أراضي المسلمين، والتوسع على حسابها، وهذا بحد ذاته يدخل ضمن إستراتيجية الاستيطان الصليبي، للحصول على مزيد من الأراضي، ولهذا لم تحدد مدة الخدمة العسكرية في جيش السيد الأول، وتركت على مدار العام⁽³⁾.

وهذا نتيجة أن الكيان الصليبي كان في حالة اللأستقرار، وبهذا لا يحق للتابع مغادرة إقطاعه لمدة طويلة، إذ أنه في السنوات الأولى من عمر المملكة الناشئة، صدر قرار يقضي بانتزاع الإقطاع من صاحبه، في حالة مغادرته بدون إذن الملك، ولا يرجع إليه في غضون سنة ويوم⁽⁴⁾. علماً أن أصحاب الإقطاع حددوا عدد الفرسان، الذين يمكن تقديمهم لخدمة الملك، ويعد هذا من أهم واجبات التبعية، والتي كانت موجودة في النظام الإقطاعي منذ ظهوره في الغرب اللاتيني. حيث كانت تقدم إمارة الجليل مائة فارس، بينما إمارة الكرك والشوبك أربعين فارساً والخليل عشرين فارساً، في حين تقدم بارونية صيدا وقلعة بوفيرت Beaufirt (الشقيف) ستين فارساً، وقيسارية خمسة وعشرين فارساً وكونتية يافا وعسقلان خمسين فارساً. بينما الرملة ومجدل يابا Mirabel وبينه Ibelin خمسين فارساً، وإقطاعية جوسلين (إقطاعية القديس جورج الصغيرة ST.George) أربعة وعشرين فارساً⁽⁵⁾.

⁽¹⁾ البيشاوي، الأملاك، ص.72.

⁽²⁾ إسحاق عبيد، المرجع السابق، ص.34.

⁽³⁾ البيشاوي، الأملاك...، ص.72-73.

⁽⁴⁾ زابوروف، المرجع السابق، ص.142.

⁽⁵⁾ البيشاوي، الأملاك...، ص.73.

بينما تقدم قلعة الملك أربعة فرسان، بالإضافة إلى عشرة فرسان من المقاطعات الواقعة في هذه الضواحي، كما أن إقطاعة بيروت تقدم واحد وعشرين فارساً، بالإضافة إلى الأسقفيات فقد قدمت أسقفية اللد والرملة عشرة فرسان، ورئاسة أسقفية الناصرة ستة فرسان، كما ألترمت المدن الخاضعة للتاج بتقديم خدمات الفرسان، حيث تقدم نابلس خمسة وثمانين فارساً، وعكا ثمانين فارساً، وبيت المقدس واحدا وستين فارساً، وصور ثمانية وعشرين فارساً، بينما تُقدم الداروم فارسين. وكل ذلك كان يقدمه النبلاء المقيمون في مدن وإقطاعات مملكة بيت المقدس⁽¹⁾.

في حين لم تقم الطبقة البورجوازية بتقديم هذه الخدمة، ومن المدن التي قدمت خدمة الفرسان، توجد نابلس التي كانت تقدم خمسة وثمانين فارساً، منها عشرة فرسان يلتزم بتقديمهم فيسكونت المدينة، وخمسة عشر فارساً على عاتق سيد الإقطاع، أما باقي الفرسان وعددهم ستون، فهم على عاتق النبلاء المقيمين بنابلس، أو من يمتلكون بعض العقارات والأمالك بالمدينة، علماً أن عدد النبلاء بنابلس الذين يقدمون خدمات الفرسان قد بلغ أربعة وثلاثين نبيلاً، بما فيهم الفيسكونت وسيد الإقطاع⁽²⁾.

كما أسهمت المدن والإقطاعات في القدس، بتقديم خدمات السرجندية، بحيث تُقدم بيت المقدس تقدم خمسمائة رقيب، وعكا خمسمائة سرجندي، ونابلس ثلاثمائة، وصور مائة، ويافا مائة، وعسقلان مائة وخمسين، وطبرية مائتين، وقيسارية خمسين، وأرسوف خمسين، وحيفا خمسين، والرملة ورأس العين وبينه مائة وخمسين، وجنين خمسة وعشرين، كما كان البطريرك في القدس ورؤساء الأساقفة، والكنائس والأديرة يقدمون خدمات السرجندية للمملكة⁽³⁾.

علماً أن مالكي الإقطاعات أو مستأجريها، يؤدون خدمات الفرسان على أساس العلاقات الإقطاعية. وقد شكلت هذه الخدمات الركيزة الأساسية لجيش المملكة. وكانت الكنيسة والطبقة البورجوازية تقدمان خدمات السرجندية كواجب على أساس الملكية المحنفظين بها وليس على

⁽¹⁾ البيشاوي، الأملاك...، ص.73.

⁽²⁾ نفسه.

⁽³⁾ نفسه.

أساس العلاقات الإقطاعية، حيث أن أفراد البورجوازية لم يكونوا مُلزمين بالتزامات النظام الإقطاعي، إذ لم يكن يقع عليهم التزام الخدمة العسكرية، بحيث كانوا يعقدون الاتفاقيات مع السادة الإقطاعيين، على أساس إعفائهم من الخدمة الحربية⁽¹⁾.

في حين على ما يبدو أن هذه الطبقة كانت مُلزمة بتقديم خدمات السرجندية⁽²⁾، وتزويد جيش المملكة في الحالات الضرورية. أما بخصوص الفرسان⁽³⁾، الذين كانت تقدمهم مدن التاج، مثل نابلس وعكا وبيت المقدس، فقد كانت الخدمات على كاهل النبلاء الذين يتركزون في المدن المذكورة ويملكون بها عقارات وغيرها⁽⁴⁾.

ثالثا: الكنيسة والإقطاع:

أ- الإقطاع الكنسي:

نتيجة لقوة الكنيسة وهيمنتها في الغرب اللاتيني، حصلت على كثير من الاقطاعات، أثناء عصر الإقطاع في الغرب، وبذلك صارت طرفا فاعلا في هذا النظام، وبهذا أصبحت كل الأسقفيات والأديرة مُلزمة بإيجاد قوى عاملة تدير الإقطاع على النحو المعمول به آنذاك⁽⁵⁾.

وبما أن الكنيسة سارت في فلك النظام الإقطاعي، أصبحت مؤسسة سياسية وعسكرية واقتصادية وحتى اجتماعية، فضلا على أنها مؤسسة دينية، لذا تأهلت بأن تكون أقوى السادة الإقطاعيين، بيدها أقطاعات مثلت ثلث أراضي العالم المسيحي الكاثوليكي في تلك الفترة، وأضفت على نفسها الصبغة الإقطاعية، مُنافسة لأصحاب السلطة الزمنية من الملوك والأمراء. وأن المساس بهذه الحقوق المكتسبة لرجال الدين، يعتبر اعتداء يستدعي الحرب على الحكام

⁽¹⁾ نفسه، ص. 74.

⁽²⁾ للمزيد عن خدمات السرجندية (المساعدون)، التي تقدمها المؤسسات الكنسية، والبورجوازيون إلى مملكة بيت المقدس، أنظر: الملحق رقم (08).

⁽³⁾ للمزيد عن عدد الفرسان المقدم عن كل إقطاعية إلى مملكة بيت المقدس، أنظر الملحق رقم: (09).

⁽⁴⁾ البيشاوي، الأملاك...، ص. 74.

⁽⁵⁾ نحا عوض العجمي، الحملات الصليبية على مصر وبلاد الشام (494-690هـ/1095-1291م)، التمويل والإمداد، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2015، القاهرة، ص. 127.

العلمانيين، علما أن رجال الدين كانوا يتمتعون بالإعفاءات من الالتزامات الإقطاعية عكس أقرانهم العلمانيين⁽¹⁾.

وبما أن البابا يعتبر نفسه نائب المسيح عليه السلام في الأرض، فقد كان هدفه الأسمى هو جعل العالم المسيحي مملكة يتولى زعامتها ويدير شؤونها، ونتيجة للمكانة التي حظيت بها الكنيسة، فقد كان انعكاسها جليا، إذ تمتعت بنفوذها السياسي، فضلا عن مكانتها الدينية في المجتمع اللاتيني⁽²⁾.

وعليه فإذا كان البابا رأس الكنيسة في روما أضحي ملك له سطوته، فإن الأساقفة كانوا بمثابة أمراء تابعين له يتمتعون بالسلطان والنفوذ⁽³⁾، ومن جهة تنظيم الكنيسة فقد انقسم الغرب اللاتيني المسيحي إلى أسقفيات يدير كلا منها أسقف، كما انقسمت هذه الأسقفيات بدورها إلى أبرشيات صغيرة، بكل منها كنيسة يديرها القس⁽⁴⁾. ولقد كانت قوة الكنيسة تتزايد منذ أن أعطاه ذلك الإمبراطور قسطنطين (305-337م)، إذ يحق لرجال الدين أن يخوضوا في المسائل الدنيوية، كما تم إعفاء الكنائس من الضريبة، بل وهبها بعض الممتلكات، وأعطاه أيضا حق تلقي الهبات والتوصيات، وبهذا أصبحت الكنيسة تجمع بين السلطتين الزمنية والروحية⁽⁵⁾.

ب- الحملة الصليبية الأولى وإقطاع الكنيسة:

إن دعوة البابوية إلى الحملة الصليبية الأولى على بلاد الشام، قد جنت ثمارها تلك الجحافل من الجيوش الصليبية التي قادها الأمراء والفرسان، وأن الكنيسة سُنحطى بمكانة مرموقة في الشام، بل ستكون كلمتها مسموعة، كما سيُغدق عليها بالهبات والمنح والاقطاعات، وهذا ما جعلها صاحبة ثراء، لذا نجد منذ الوهلة الأولى أن الكنيسة في هذه المنطقة وخاصة بيت المقدس، ستحصل على

⁽¹⁾ نحا عوض العجمي، المرجع السابق، ص.128.

⁽²⁾ عاشور، أوربا العصور الوسطى، النظم والحضارة، 1959، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص.5.

⁽³⁾ نحا عوض العجمي، المرجع السابق، ص.128.

⁽⁴⁾ عاشور، أوربا العصور الوسطى...، ص.19.

⁽⁵⁾ محمود سعيد عمران، معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى، (د.ت.ن)، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ص.55.

كثير من الإقطاعات والمنح في مختلف أنحاء المملكة الصليبية، كما كان لها في الغرب اللاتيني⁽¹⁾.

ويقول براور: "وكانت الممتلكات الإقطاعية القريبة من المدينة والممتلكات البورجوازية، يُحظر نقل ملكيتها إلى الكنيسة، وسجل المشرعون الصليبيون بوضوح هذا الحظر والتحریم"⁽²⁾، ويضيف قائلاً: "بيد أن سجلات الكنيسة قد أظهرت أنها كانت تحصل على كميات كبيرة من أملاك المدينة وتحفظ بها"⁽³⁾.

ج- الاقطاعات النقدية والعينية للكنيسة:

وبخصوص الاقطاعات فهي نوعان، الاقطاعات النقدية والعينية، إذ أنها تخضع لرجال الدين، بحيث يكون رئيس الكنيسة أو رئيس الدير سيداً إقطاعياً على ممتلكاته، بمعنى أن البطريرك هو السيد الإقطاعي الأول لرجال الدين في مملكة بيت المقدس، أي أن الأسقف يكون سيداً إقطاعياً على جميع رجال الدين داخل حدود أسقفية.

كما يمكن اعتبار رئيس الأساقفة سيداً إقطاعياً لجميع الأساقفة التابعين له، ولهذا يكون البطريرك في قمة الهرم الإقطاعي الكنسي في المملكة، ويليه رؤساء الأساقفة، ثم رؤساء الكنائس، ثم رؤساء الأديرة، فالقساوسة، إلى آخر درجة في السلك الكنسي، حيث يأتي الرهبان وغيرهم من رجال الدين العاديين، الذين يشكلون القاعدة في التسلسل الإقطاعي الكنسي، بحيث تجب الطاعة على صغار رجال الدين للأساقفة، ثم يقدم هؤلاء الطاعة لرؤساء الأساقفة الذين يخضعون للبطريرك، وهذا الأخير يتمتع بتفويض من البابا⁽⁴⁾.

إن النوع الأول من الاقطاعات هو الإقطاع النقدي، والذي تحصلت عليه الكنيسة من المملكة، وتحصل الكنائس والأديرة على إيراد سنوي ثابت من مختلف القطاعات والمؤسسات في الكيان الصليبي. حيث أن الأمير جودفري البويوني خصص منح نقدية لرجال الدين، والتي سُميت برواتب رجال الدين، كما خصص

⁽¹⁾ البيشاوي، الأملاك...، ص. 119.

⁽²⁾ براور، الاستيطان...، ص. 197.

⁽³⁾ نفسه. ولعرفة المنح والهبات المقدمة لكنيسة القبر المقدس، أنظر: Cartulaire de L'église...، op.cit.

⁽⁴⁾ البيشاوي، الأملاك...، ص. 119.

الملك بولدوين الأول لكنيسة القيامة ألف مكيال من القمح المنتج من أراضي نابلس سنويا⁽¹⁾. وتؤكد ذلك سجلات القبر المقدس، حيث تحصل الكنيسة على ألف بوشل⁽²⁾ من القمح النابلسي " Mille ModiorumTritici In Territorio Neapolis"⁽³⁾، بل أن ملوك بيت المقدس كانوا أسخياء في تعاملهم مع الكنيسة، حيث وهبهم الملك بولدوين الأول واحدا وعشرين قرية⁽⁴⁾. كما قدم باليان Balian كوندسطل يافا لكنيسة القديس يوحنا في سبسطية، العائد السنوي للقرى التي تحت نفوذه.

بالإضافة إلى أن الملك بولدوين الثاني قدم مبلغ مائتي بيزنت لكنيسة القيامة، حيث يأخذها رجال الكنيسة كل سنة من دخل مدينة نابلس.

وأما النوع الثاني من الإقطاع الذي حازته الكنيسة والأديرة في المملكة فنجد الإقطاعات العينية حصلت عليها من ملوك بيت المقدس، وكبار السادة الإقطاعيين والنبلاء وأفراد الطبقة البورجوازية، داخل حدود مملكة بيت المقدس⁽⁵⁾.

وقد اختلفت الإقطاعات والمنح من حيث ماهيتها وقيمتها ومساحتها، بحيث أن هذه الإقطاعات شملت كل الأراضي بأنواعها، سهلية وجبلية صالحة للزراعة أو غيرها. وبهذا نلاحظ أن الكنائس قد حصلت على الأراضي الواسعة الصالحة للزراعة وغيرها من الحدائق والحقول، زيادة على العقارات والمنازل والطواحين والأفران، وعربات نقل المحاصيل والحصون وغيرها كثير. كما حصلت على بعض المدن كإقطاع خاص بها، مثلا أخذت أسقفية الرملة مدينتي اللد والرملة، وما يحيط بها من أراضٍ كإقطاع لأسقف الرملة، كما أن يافا أصبحت لكنيسة القيامة ما يقارب العقدين من الزمن. وفي سنة 1118م/511هـ استرجعها الملك بولدوين الثاني، وأقطعها لهيوج الأول من بوزيت Hugh I of Puiset، كما أصبحت مدينة أريحا إقطاعا خاصا

⁽¹⁾ البيشاوي، الأملاك، ص.120.

⁽²⁾ مكيال للحبوب والفواكه يساوي ثمانية جالونات، أنظر: الطحاوي حاتم، الاقتصاد...، ص.225، حاشية (145). للمزيد عن البوشل، أنظر: زياد السلامين، معجم المصطلحات الأثرية المصور، الإنجليزي عربي، 2012، دار ناشري للنشر الإلكتروني، القاهرة، ص.56.

⁽³⁾ أنظر: Cartulaire de L'égglise..., op.cit., N.29, P.54.

⁽⁴⁾ أنظر: Ibid. N.29, P.54.

⁽⁵⁾ البيشاوي، الأملاك...، ص.120.

لكنييسة القيامة⁽¹⁾.

وقد كانت هذه المدينة ولواحقها تجني من ورائها الكنييسة إيرادا سنويا كبيرا، قدره خمسة آلاف قطعة ذهبية⁽²⁾، كما كانت كنييسة القيامة قد احتفظت بملكية بيت لحم لمدة تسع سنوات، وتنازلت عنها أخيرا لأسقفية المدينة مقابل تعويض قدمه الملك بولدوين الأول لرجال الكنييسة.

وبهذا كان ثراء الكنائس والأديرة يزداد يوما بعد يوم، من جراء المداخل التي تدرها هذه الإقطاعات والمنح⁽³⁾. في حين أن المنح والهبات لم تتوقف، إذ نجد مرة أخرى الملك بولدوين الثاني يمنح امتيازاً للكنييسة في صور، وكان هذا بتاريخ 1125م⁽⁴⁾، كما نجد الملك فولك وزوجته ميليزاند يقدمان لكنييسة القيامة بعض الأراضي، وكان ذلك سنة 1138م⁽⁵⁾، بل أنه تنازل للكنييسة حتى على بعض الأملاك في حدود مدينة القدس⁽⁶⁾، وقد كانت القرية هي الوحدة الأساسية الأولى للإقطاع⁽⁷⁾، إذ أنها مصدر الرزق والإيرادات، وفي حالة أن تصبح إقطاعاً، فإنها بكاملها تنتقل إلى ملكية المُقطَع الجديد⁽⁸⁾.

علما أن الذي حصل على القرية بإمكانه أن يقسمها إلى حصتين، إحداها يحوزها لنفسه والثانية يقسمها بين أتباعه، بالإضافة إلى أن هناك جزءاً من أراضي القرية مشاعاً لسكانها. وعليه يمكن القول بأن كل ما حازته الكنييسة والأديرة من أراضي وعقارات وبمن في القرية من سكان، يخضع لإدارة رجال الدين. وبالرغم من أن القرية كانت الوحدة الأساسية للإقطاع في الأراضي المقدسة، إلا أنه جرت العادة على منح الكنائس والأديرة أنصاف القرى. ومن جملة ذلك ما قام به يوستاش جارنييه Eustahce Garnier بمنح

⁽¹⁾ البيشاوي، الأملاك...، ص.120.

⁽²⁾ حسام حلمي يوسف الآغا، المرجع السابق، ص.70.

⁽³⁾ البيشاوي، الأملاك...، ص.121.

⁽⁴⁾ أنظر: Cartulaire de L'église, op.cit., N.30-31, PP.56-57.

⁽⁵⁾ أنظر: Ibid, N.31, P.57.

⁽⁶⁾ أنظر: Ibid, N.32, P.58.

⁽⁷⁾ حسام حلمي، المرجع السابق، ص.71.

⁽⁸⁾ البيشاوي، الأملاك...، ص.121.

نصف قرية في حدود إقطاعة قيسارية إلى كنيسة القيامة⁽¹⁾.

إن حجم الإقطاعات يختلف، وقد كانت الإقطاعات العلمانية مرهونة بمدى حركية الغزو، وهي عبارة عن قطع محددة، بينما ممتلكات الكنيسة والتنظيمين العسكريين فهي آخذة في الزيادة، نتيجة الهبات ووصايا التوريث، أو ما يتماشى استراتيجيا مع حالة الهيئتين العسكريتين، وقد كانت "وحدة القياس التي تقاس بها الأراضي هي القرية، أو الدار Casal، أو نادرا جدا نصف القرية أو ثلثها، لكن القرى كانت تختلف في أحجامها كذلك"⁽²⁾.

بالإضافة إلى ما تم الإشارة إليه من المنح والهبات، والتي كانت تقدم إلى الكنائس والأديرة نقديا أو عينيا، كانت محاولات لرجال الدين من شراء للإقطاعات الدنيوية أو جزء منها، والتي بدورها ستصبح إقطاعا كنسيا، أي ذات صبغة دينية. ولم يتسن لها هذا إلا من خلال الثروة التي كانت تملكها الكنائس والأديرة.

ومن جملة ذلك ما قام به رجال كنيسة القيامة، من شراء كروم عنب في حدود بيت المقدس، بمبلغ مائة وأربعين بيزنتا، كما اشترى منزلا في المدينة نفسها، بمبلغ مائتي بيزنت. علما أن العملية لم تصادفها عقبات من الحكومة أو من البطريك، وبالرغم من محدودية عملية البيع والشراء في الفترة الأولى من الوجود الصليبي، إلا أنها كشفت عن نية رجال الدين في زيادة أملاكهم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى عن الثروة الطائلة التي يمتلكونها⁽³⁾.

رابعا: إقطاع فرق الرهبان العسكرية:

لاشك أن الحملة الصليبية الأولى على بلاد الشام، تعد حدثا له أهميته الخاصة في تاريخ توسع الغرب اللاتيني، إذ من خلاله خاض هذا الأخير تجربته الاستيطانية فيما وراء البحر، وعلى أطراف الكيان الصليبي الدينية والعلمانية على السواء العمل كجسد واحد لتنفيذ هذا المشروع الاستيطاني، وفي هذه الظروف برزت إلى الوجود تنظيمات دينية عسكرية، لعبت دورا رياديا في تاريخ الوجود الصليبي في الشرق الأدنى.

⁽¹⁾ البيشاوي، الأملاك...، ص.ص. 121-122.

⁽²⁾ رنسيان، المرجع السابق، ج.2، ص.346.

⁽³⁾ البيشاوي، الأملاك...، ص.ص. 151-152.

أ- الأسبترارية والداوية ودورهما في بلاد الشام:

بفضل الهيئات الدينية العسكرية تم حراسة الطرق وتشديد القلاع، وتزويد الجيش بالمدرّبين والمسلحين والفرسان والرقباء، وبذلك شكلوا إحدى أعمدة الجيش الصليبي، فضلا على أنه كان لهم توسعٌ ودورٌ حيويٌّ في الغرب⁽¹⁾، وخصوصا هيئتي الفرسان الأسبترارية Knights of hospitallers⁽²⁾، والفرسان الداوية Knights of templars⁽³⁾، على الخصوص والتي كان لها الأثر البالغ في تاريخ الصراع مع المسلمين⁽⁴⁾، إذ أنه

⁽¹⁾ أنظر، Boas Adrian (J), Archaeologie of the military orders, Routledge, New York, 2006, P.1.

⁽²⁾ تعود أصول تأسيس هذا التنظيم الديني ذو الصبغة العسكرية في تاريخ الحروب الصليبية، إلى حوالي سنة 1080م، إذ أن التجار الأمالفيين أسسوا ديرا في بيت المقدس بموافقة الحاكم الفاطمي المستنصر بالله 1036-1094م/427-487هـ، كما أنشأوا بجواره مستشفى لرعاية الحجاج المسيحيين، أُطلق على هذه الفرقة فيما بعد فرسان يوحنا وفرسان رودس وفرسان مالطة، وهذا حسب المناطق التي استقروا بها، تحولت هذه الهيئة إلى جماعة عسكرية تحارب إلى جانب الصليبيين ضد المسلمين في الشام، بل لعبت دورا كبيرا في ترجيح كفة الصراع لصالح الكيان الصليبي، للمزيد من التفاصيل، أنظر، نبيلة مقامي إبراهيم، فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام، جامعة القاهرة، القاهرة، 1994، ص.ص.11-15، للمزيد عن هذا التنظيم الديني ذو الصبغة العسكرية، أنظر:

Delaville le Roulx(J), Les Hospitaiers en terre saint et a chypre 1100-1310, Paris,1904, P.11-13 ; Boas adrian, Jerusalem in the time of the crusades, Routledge, london,New York, 2005, PP.26-27, Edgington Susan, The ordre of Hospital In Encyclopedia of crusades, Vol.2, PP.598-606؛ أنظر كذلك، عاشور، الحركة

الصليبية، ج.1، ص.486-487؛ سوربال عطية، العلاقات بين الشرق والغرب، تجارية ثقافية صليبية، تر. فيليب صابر سيف، دار الثقافة، القاهرة، 1972، ص.ص.55-56.

⁽³⁾ من أولى التنظيمات الرهبانية العسكرية، التي تأسست في القدس حوالي سنة 1120م، أخذ اسمه من معبد سليمان عليه السلام، حسب ما زعم الصليبيون، وأعطوه اسم فرسان المعبد، وحتى فرسان الهيكل. كانت مهمته في بادئ الأمر حماية الحجاج المسيحيين والمسافرين من وإلى الأراضي المقدسة، غير أنه تحول إلى هيئة عسكرية محاربة، إلى جانب الصليبيين ضد المسلمين، كما لعبت هي الأخرى دورا ملحوظا، في ترجيح كفة الصراع لصالح الكيان الصليبي في الشام. وللمزيد من التفاصيل عن هذا التنظيم، أنظر: آلان فوري، النظم الرهبانية العسكرية 1120-1512م، في تاريخ أكسفورد للحروب الصليبية، تح. رايلي سميت، ت. قاسم عبده قاسم، 2009، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ج.2، ص.ص.7-64؛ وللمزيد أيضا عنه أنظر:

Malcolm berber, The order of temple in an Encyclopedia of the crusades, Oxford, England, 2006, Vol.4, PP.1149-1157 ; Newman sharan The real history behind the templars, Berkly Books, New York, U.S.A, 2007, PP.3-9 ; Boas adrian(J), Jerusalem in the time of the crusades, PP.27-28.

⁽⁴⁾ مصعب حمادي نجم الدين الزيدي، موقف تنظيمي الأسبترارية والداوية من حروب صلاح الدين الأيوبي 573-587هـ/1177-1191م، مجلة كلية العلوم الإسلامية، جامعة الموصل، العراق، مج.3، ع.6، 1430/2009هـ، ص.87.

قبيل نهاية القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري)، أصبح للهيئتين بسطة ونفوذاً على الكنائس في الدويلات التي أسسها الصليبيون في الشام، فمنذ نشأة هذه التنظيمات كان أعداد أفرادها وثروتها في زيادة مطردة، وبحلول سنة 1187م، أصبح التنظيمان العسكريان الأستبارية والداوية، يمثلان أهم أصحاب الأراضي المستوطنة في بلاد الشام، وخاصة مملكة بيت المقدس⁽¹⁾.

لقد ازدادت ضياعهما عن طريق الهبات والشراء، كما انضم الكثير من نبلاء المشرق اللاتيني إلى صفوفهما، بالإضافة إلى المجندين الذين يفدون من الغرب بصفة منتظمة، وقد قدم الأستبارية والداوية إمدادا لا ينقطع من الجنود المحترفين إلى الجيوش الصليبية، علما أنهم لا يكلفون الملك الصليبي أي شيء، ونتيجة لتزايد ثروتهم أصبحوا يبنون القلاع والحصون، والمحافظات عليها أكثر من السادة الإقطاعيين العلمانيين، ولولاء الدعم الذي قدمه هؤلاء، لأصبحت الدويلات الصليبية في خير كان⁽²⁾.

ب- مساهمة تنظيمي الأستبارية والداوية في محاربة المسلمين:

لقد ازدادت الحاجة إلى هذه الهيئات، عندما تلقى الصليبيون هزائم متتالية في بلاد الشام، وبهذا أصبحوا بحاجة ماسة إلى خدمات فرق الرهبان، وخاصة الأستبارية والداوية⁽³⁾.

وقد لعبت الهيئتان دورا رياديا، في الحفاظ على قلب الاستيطان الصليبي في القدس، ولكن ذلك مقابل امتيازات، كانت تحصل عليها التنظيمات الدينية العسكرية، بل كان أمراء الكيان الصليبي أسخياء جدا معها، وقد ذكر ذلك أرنول Ernoul: "Sir dist Thoros au roy, quant je vinc parmi vostre tiere, et je demandoie des castiaus cui il estoient, li uns me disoit cest temple, il autres de hospital si que jou ne trouvai ne castiel, ne cite qui fust vostre"⁽⁴⁾.

ومعنى ذلك أن ثوروس Thoros الأرميني لما زار مملكة بيت المقدس في عهد الملك عموري الأول (1162-1174م)، أدهشته كثرة القلاع التي كانت تملكها الهيئات الدينية العسكرية، حيث قال: "سيدي

⁽¹⁾ رنسيمان، المرجع السابق، ج.2، ص.360.

⁽²⁾ نفسه، ج.2، ص.360-361.

⁽³⁾ حسين عطية، إمارة أنطاكية، ص.159.

⁽⁴⁾ أنظر:

عندما جئت إلى أرضك وسألت عن تخص هذه القلاع، قال بعضهم هذه للداوية وقال البعض الآخر للأسبتارية، وهكذا لم أستطع أيجاد أية قلعة أو مدينة تخصك⁽¹⁾.

وإن دل ذلك على شيء، فإنه يدل على نفوذ الهيئتين في المملكة الصليبية ببيت المقدس، مقابل خدمات جليلة كانت تقدمها لهذه الأخيرة، بل لكل الدويلات التي أنشأها الصليبيون في بلاد الشام.

وعلى ما يبدو أن الحملة الصليبية الأولى، قد فتحت لمختلف فئات الغرب اللاتيني آفاقاً واسعة للعاية، نتيجة جشعهم ورغبتهم في التملك، بل حتى نفوذ سلطانهم، إذ أنه في سنتي 1099م/1100م، أصبحت هيئة الأسبتارية كيانا مستقلاً، تباشر عملها دون الرجوع إلى أمراء وفرسان الحملة الصليبية⁽²⁾. بمعنى أنه لا نفوذ ولا سلطان للملك على الهيئتين الأسبتارية والداوية، وسيدهما الأعلى والوحيد هو البابا⁽³⁾.

ومما زاد الهيئتين قوة ونفوذاً وخاصة هيئة الأسبتارية، عندما أصدر البابا باسكال الثاني Paschal II (1099-1118م) مرسوماً بابويًا في 15 من شهر فبراير 1113م، حيث اعترف بوجود هذه الهيئة، وأصبحت بموجبه تحت رعايته مباشرة، كما أنه أقر شرعية ما تملكه الهيئة من ممتلكات في بلاد الشام، وحتى في الغرب اللاتيني، زيادة عن بعض الامتيازات التي أُعطيت لها⁽⁴⁾.

وبذلك أصبح التنظيم الديني العسكريان خارج سلطة الملوك والأمراء في بلاد الشام، بل لهما نفوذ هناك ولعل البابا يريد من ذلك المرسوم أن يجعل من الهيئتين قوة موازية لقوة البطارقة في الشام، بل سيف مسلول في وجه الملوك والأمراء، إذا ما كان لهم ريب في سلطة البابا في روما.

ومن مظاهر تحكم الهيئتين الدينيتين في حركة المقيمين بالقصور والمدن والقرى، أنهم يراقبونهم ويخضعونهم لسلطتهم مثل ما للملك من سلطة، حيث يقول الرحالة الألماني ثيودريش: "إن عدداً من الكفار (غير النصارى) الذين يقطنون هناك في المدن والقصور، وفي القرى يخضعون لجواز مرور من ملك

⁽¹⁾ حسين عطية، إمارة أنطاكية، ص. 159، حاشية (291).

⁽²⁾ أنظر: Jochen Burgdorf, the central convent of hospitallers and templars, (1099/1120-1310), Brill, Leiden, Boston, 2008. P.28.

⁽³⁾ رنسيان، المرجع السابق، ج. 2، ص. 362.

⁽⁴⁾ مصعب حمادي نجم الدين الزبيدي، الاستيطان...، ص. 99.

بيت المقدس، أو فرسان المعبد أو أعضاء المنظمات الدينية (فرسان الأَسبتارية)⁽¹⁾. ولم تلبث أن تواصلت الهبات والهدايا والعطايا لهذه الأخيرة، من الحجاج والعائلات الملكية والنبيلة في الغرب اللاتيني، لتدعيم خزانة هذه الجماعة في بيت المقدس⁽²⁾.

ولقد تنوعت الأملاك والعقارات التي كان فرسان الأَسبتارية يحصلون عليها، من الملوك والأمراء الصليبيين في الشام، إذ نجد العقارات التي مُنحت لهم هبة، كما أن هناك أملاكاً قد اشتروها نتيجة تزايد ثروتهم، فعقب الحملة الصليبية حصل هؤلاء على بعض الأملاك، التي كانت تحت سيادة أمراء وفرسان الحملة الصليبية الأولى⁽³⁾، في حين كانوا يرغبون في توسيع أملاكهم إلى جانب الأملاك التي مُنحت لهم.

والتي كانت شبيهة بالأراضي التي لا تزال تحت حكم أصحابها من المسلمين، إذ أنها أصبحت مزارع للكروم والبعض الآخر حدائق، بالإضافة إلى أن هناك أراضٍ أخرى خُصصت لرعي الماشية.

ولقد كانت معظم التبرعات عبارة عن هدايا تقدم أثناء الاحتفالات، في مقابل ذلك الدعاء للمتبرع وأسرته⁽⁴⁾، ولكن هناك اختلافاً كبيراً في الشروط والأحكام، التي بموجبها تم تقديم المنح⁽⁵⁾.

ولقد كان لفرسان الأَسبتارية دور في جيش المملكة الصليبية، إذ أنه في الحملة على مصر سنة 1158م، كان عدد الفرسان المشاركين خمسمائة فارس، علماً أن هؤلاء الفرسان قدموا من مملكة بيت المقدس⁽⁶⁾.

وكانت كل الأراضي التي تمنح لهما تصبح حكراً ووفقاً عليهما، علماً أنه لا توجد خدمات إلزامية يقومون بها، ولا عشر 10/1 على مستأجري أراضي الهيئتين للكنيسة، بالإضافة أن فرسانهما يشاركون في جيش الملك الصليبي على أساس التطوع لا غير.

⁽¹⁾ ثيودريش، وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، القرن 12م/6هـ، ت. سعيد عبد الله البيشاوي، رياض شاهين، 2003، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ص.125.

⁽²⁾ براور، عالم...، ص.143.

⁽³⁾ أنظر: Paul sidelko(L), The Acquisition of the landed estates of the hospitallers in the Latin east 1099-1291, Ph.D., Dissertation, University of, Ottawa, Canada, 1998, P.22.

⁽⁴⁾ أنظر: Ibidem.

⁽⁵⁾ أنظر: Ibidem.

⁽⁶⁾ رنسيمان، المرجع السابق، ج.2، ص.361.

ونتيجة لفعالية نشاطهما، كان الملك أو السيد الإقطاعي يقوم بوضع إحدى قلاع أو حصونه تحت قيادة فرسان الهيئتين، بل أنهم أحيانا يصبحون أوصياء على بعض الذين لم يبلغوا الحلم (القُصّر)⁽¹⁾.

وقد كان سيدا التنظيمين أو من ينوب عنهما، يستطيعان حضور جلسات المحكمة العليا للمملكة. وكان ممثلوهما يحضران جلسات المحاكم العليا التابعة للإمارات الصليبية في الشام، كأنطاكية وطرابلس، علما أن تعاونهما في المحكمة يخلو من أية مسؤولية، كما كان بإمكانهما أن يرفضا التعاون في حالة لم يعجبهما ما تم الإشارة إليه في المحكمة، مثل ما قام به فرسان المعبد من مقاطعة للحملة على مصر سنة 1158م. علما أن التنافس بينهما كان على أشده، فنادرا ما يشتركان في الحملة نفسها⁽²⁾.

وهذا بقدر ما يخدم الكيان الصليبي في الشام، خاصة لصناعة توازنات، بقدر ما كان معول هدم بداخله، وخاصة مملكة بيت المقدس.

ولقد سجلت لنا أولى التبرعات في الممتلكات الريفية لتنظيم الأُسبترية، ما قام به الملك جودفري البويوني، حيث منحهم قلعة Casal Hissilia⁽³⁾ سنة 1099م، والتي تسمى بالسلسلة (es-silsileh)، وهي قرية قريبة من بيت المقدس⁽⁴⁾.

كذلك تبرعات أخرى من الأراضي، بما في ذلك عشر قلاع، كان قد أقامها الملك بولدوين الأول في 28 من شهر سبتمبر 1110م. وفي سنة 1112م أصدر بيانا يؤكد فيه جميع الأراضي التي يحتفظ بها تنظيم الأُسبترية في المملكة. وربما تم تقديم تبرع سابق في الوقت نفسه تقريبا، لكن المعلومات متوفرة فقط في عهد

⁽¹⁾ رنسيان، المرجع السابق، ج.2، ص.362.

⁽²⁾ نفسه، ج.2، ص.362.

⁽³⁾ كاسال وهي مصطلح فرنسي لاتيني للقرية التي كانت شائعة الاستخدام في الشام اللاتيني، والتي نشأت في أوربا الغربية، وأصلها

من الكلمة اللاتينية كازا، والتي تعني المنزل أو المزرعة. وكاسال كونها مجموعة من المنازل في بيئة ريفية. أنظر: Boas adrian, (J), Domestic Settings, Sources domestic architectures and day to day activities in, the crusader states in the medieval mediterranean, Peoples, economies and cultures, 400-1500, Vol.84, Edit., Hugh Kennedy, Brill, Leiden, Boston, 2010, P.364.

⁽⁴⁾ أنظر: Boas Adrian, Archaeology of the military orders a survey of the urban centres rural settlement and castles of the military in the latin east 1120-1291, Routledge, New York, London, 2006, P.73

الملك بولدوين⁽¹⁾. فإذا كانت الإشارة إلى بولدوين الأول فستكون سنة 1119م، لأن السنة الأخيرة وإلى غاية 1131م هي فترة حكم بولدوين الثاني⁽²⁾. فبعد سنة 1110م، هناك تدفقٌ سيلٌ من التبرعات والهدايا للهيئة العسكرية، في كل عقد من القرن الثاني عشر الميلادي. وبحلول سنة 1153م، استطاع البابا يوجين الثالث Eugen III (1145-1153م) تأكيد التبرع بأكثر من ثلاثين عقار تم تقديمها للتنظيم⁽³⁾.

ولقد تلقى أكبر عدد من العقارات سنة 1136م و1168م، وكل ذلك يرتبط بمدى نشاطه العسكري المباشر في الشام. فعندما تم منح التنظيم سيادته على بيت جبرين Bethgibelin، والأراضي المجاورة سنة 1136م، ذلك جزء من سياسة المملكة لحماية جهتها الجنوبية من الهجوم الإسلامي المرتقب من مصر، وفي الوقت نفسه مخطط للاستيلاء على حصن عسقلان⁽⁴⁾. أما في سنة 1168م فجزء كبير من الأراضي التي منحها بوهمند الثالث، أمير أنطاكية والتي تقع على ضفتي نهر العاصي، والتي كانت بأيدي المسلمين، والقصد منه هو تشجيع التنظيم لغزو المناطق الشمالية الشرقية، المحاذية للكيانات الصليبية⁽⁵⁾.

وأما بخصوص الممتلكات التي حصل عليها التنظيم عن طريق الشراء، فقد سعى الأسبترارية للاستحواذ على الأراضي، ولو كان ذلك يكلف كثيرا من الأموال، من أجل الحصول على مساحات محددة من مختلف العقارات، إلا أنّ الاحتياجات العسكرية والاعتبارات الإستراتيجية، لعبت دورا مهيمنا في الاستحواذ على مختلف الحصون والمباني الدفاعية⁽⁶⁾.

في القرن الثاني عشر الميلادي تم إضافة العديد من المشتريات، من عقارات للأبراج والقلاع والمدن المحصنة التي مُنحت لهم مسبقا. في حين أنه في القرن الثالث الميلادي تضاءلت عملية

Paul Sidelko, op.cit., P.22.

⁽¹⁾ أنظر:

Ibid., P.22-23.

⁽²⁾ أنظر:

Ibid., P.23.

⁽³⁾ أنظر:

Ibidem.

⁽⁴⁾ أنظر:

Ibidem.

⁽⁵⁾ أنظر:

Ibid., P.117.

⁽⁶⁾ أنظر:

التبرعات، وهذا عندما بدأت الحظوظ المالية للواردات تتضاءل، خاصة وأن تنظيم الأسبتارية أصبح يطلب أموالا طائلة لحماية الأسياد، كما أن هذه الهيئة أعادت صيانة عسقلان سنة 1243م، واستتجار المدينة وحصن أرسوف سنة 1260م⁽¹⁾.

وقد ركز التنظيم استحوازه على الأراضي الزراعية، وإقامة عقارات متجاوزة لتظهر في شكل تجمعات استيطانية، ومن أمثلة السياسة التي اتبعتها هيئة الأسبتارية في الشام اللاتيني، وخاصة في منطقتي قيسارية وعكا، اشترى هذا التنظيم (قرية) Casalia و (أراضي البور) Gastinae المجاورة لممتلكاتهم، اشترى قطعاً صغيرة متفرقة، لاستكمال ما كان لهم في Casal⁽²⁾.

في حين أن بعض المناطق التي تم التبرع فيها للتنظيم، لم يتمكن فرسان الأسبتارية من توسيع ممتلكاتهم فيها مثل حبرون (الخليل)، وربما يرجع ذلك لادخار الأموال لأمر آخر، أو كما كان في المناطق المحيطة ببيت المقدس، وهذا يعكس ندرة الأراضي المتاحة للشراء، كما كانت هناك عوامل أخرى غالباً ما تتمثل في المشاكل المالية، والصعوبات العسكرية المرتبطة بمخاوف بائعي الأراضي. والمشكل في الشام اللاتيني لا يتوقف فقط عند المدد العسكري، بل أن الدعم المالي له تأثيره المباشر على هذه الكيانات⁽³⁾.

وأما بخصوص تنظيم الداوية، فقد كان هو الآخر يشكل ركيزة أساسية في بيت المقدس، حتى وإن كانت هيئة الأسبتارية أكبر وأكثر ثراءً⁽⁴⁾.

إن هيئة الداوية خلفاً لهيئة الأسبتارية، فقد كانت حدثاً جديداً في تاريخ الحروب الصليبية، وخاصة المملكة الناشئة في بيت المقدس، إذ أن تأسيسها في العقد الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي، يُبين مدى هدفها تزامناً مع مشروع الحملة الاستيطانية التي خاضها الغرب اللاتيني على الشام، بالإضافة إلى دورها في حماية الوافدين للأراضي المقدسة، خاصة وأن الطرق

Paul Sidelko, op.cit., PP..117

Ibidem.

Ibid., PP.117-118.

⁽¹⁾ أنظر:

⁽²⁾ أنظر:

⁽³⁾ أنظر:

⁽⁴⁾ رنسيان، المرجع السابق، ج.2، ص.361.

أصبحت غير آمنة، في ظل ظروف تميزت بالتوتر⁽¹⁾.

ولحماية القادمين من الغرب من الحجاج لبيت المقدس، قامت هيئة الداوية بتنظيم قوافل مسلحة، أصبحت فيما بعد جزء من الكيان الصليبي. هذه الجماعة العسكرية سرعان ما تطورت، ومن الممكن أن تكون بعض قواعد هذه الهيئة قد وُضعت فعلا على يد مؤسسها هيوغ دي بايينز Hugh of Paynes⁽²⁾ سنة 1118م، والتي أُدمجت في قواعد تنظيم الداوية عندما وافقت البابوية على نشاط هذه الهيئة⁽³⁾.

وإستراتيجية من الصليبيين لمواجهة نقص العامل البشري، الذي يعاني منه الكيان الصليبي، عهدوا ببناء القلاع لهيئتي الأستبارية والداوية، اللتين كانتا على قدر كبير من الثراء، إضافة إلى نفوذهما السياسي والحربي⁽⁴⁾.

وقد كان بناء القلاع حتمية لها أسبابها، وأولها تمثل في الموقع الجغرافي، حيث نجد بأن جميع الأراضي التي احتلها الصليبيون تقع داخل المحيط الإسلامي، حتى وإن كان موقعها إستراتيجيا، إلا أنها تحت الرقابة المستمرة للمسلمين الذين يتحينون الفرصة المناسبة للانقضاض عليها.

Jochen Burgdorf, op.cit., P.31.

⁽¹⁾ أنظر:

⁽²⁾ المقدم الأول للداوية، كان فصلاً لكونت شامبني Champagne، من منطقة بايينز Paynes، الواقعة شمال غرب ترويس Troyes بفرنسا، استقر في المملكة الصليبية ببيت المقدس بعد سنة 1113م، وفي سنة 1119م اشترك مع جودفري أوف سانت أومير Godfrey of Saint Omer في تأسيس هيئة فرسان المعبد (الداوية)، من أجل حماية الطريق الممتد من يافا إلى بيت المقدس، حينما كانت المقاومة الإسلامية ضد الغزو الصليبي للمنطقة. ولقد كان هيوغ دي بايينز ضمن الوفد الذي تم إرساله سنة 1127م، لمصاحبة فولك الخامس كونت أنجو إلى بيت المقدس، من أجل زواج هذا الأخير من ميليزاند البننت الكبرى للملك بولدوين الثاني. انتقل هيوغ دي بايينز إلى الغرب اللاتيني، وبالتحديد فرنسا، ونورمانديا، والفلاندرز وأنجلترا واسكتلندا بغية حشد القوى الصليبية لمهاجمة دمشق سنة 1129م. وفي هذه السنة تم الموافقة والاعتراف بهيئة الداوية في مجمع ترويس، وهذا بعد أن شرح هيوغ دي بايينز مبادئ هيئته الدينية العسكرية. كما أن هيوغ طلب من القديس برنارد أوف كليرفو Bernard of Clairvaux أن يدعم هيئة الداوية، فكان نتاج ذلك مدح الجندي الجديدة الجديدة De Laude Novae Militae. توفي هيوغ دي بايينز سنة 1136. للمزيد من المعلومات، أنظر: محمد مؤنس عوض، أعلام...، ص.ص. 454-455.

⁽³⁾ براور، عالم...، ص. 144.

⁽⁴⁾ نبيلة مقامي، المرجع السابق، ص. 68.

وأما بخصوص السبب الثاني فهو قلة العنصر البشري الصليبي، وهذا بحد ذاته معيق لإحكام السيطرة على جميع المستوطنات، وبالنسبة للعامل الثالث، فقد شكلت القلعة مظهرا من مظاهر الوجود الصليبي وسيطرته على الإقطاع في الشام، ولهذا أصبح من الضرورة أن يؤسس السيد الإقطاعي مقرا آمنا محصنا يدير منه ضياعه⁽¹⁾.

كما أنها تشكل مستودعا لجميع المحاصيل الزراعية، فمثلا قلعة صدف التي كانت تابعة لتنظيم الداوية تدير مجمعا يتكون من 260 قرية casalia فلاحية، يقيم فيها عدد كبير من الفلاحين. من ذلك يمكن القول بأن القلعة لها وظيفتان، تمثلتا في كونها سلاحا حربيا دفاعيا وهجوميا، كما أنها تمثل أيضا مركزا إداريا لجميع الإقطاعات⁽²⁾.

وقد كان لفرسان الداوية مشاركة مع جيش المملكة، إذ أنهم ساهموا بحوالي ثلاثمائة فارس في معركة حطين ضد قوات السلطان صلاح الدين سنة 1187م، بالإضافة إلى أنهم انغمسوا في الأعمال المصرفية، وأصبحوا وكلاء ماليين للصليبيين القادمين من الغرب، وقد كان للتنظيمين سلطة مستقلة في عقد الاتفاقيات مع المسلمين، بل أصبح لديهم أساطيل بحرية حتى وإن كانت أقل حجما⁽³⁾.

ويقول المؤرخ جون لامونت أن الهيئات الدينية العسكرية، المتمثلة في فرسان المعبد والأسبتارية والتوتون، شكلت دعامة أساسية للمملكة الصليبية، حيث أمدوها بالفرسان الرقباء وفي بعض الحالات بالسفن⁽⁴⁾.

وخلافا لفرسان الأسبتارية الذين أطلق عليهم اسم الأخوة، قبل أن تكون لهم قاعدة، بينما لم يُشر إلى فرسان المعبد باسم الأخوة، سواء في الشرق أو الغرب، حتى حصلوا على حكمهم سنة 1129م مع مُقَدِّمهم هيوج دي بايينز، في مجمع ترويس Troyes، وهكذا أصبح فرسان المعبد في

⁽¹⁾ نبيلة مقامي، المرجع السابق، ص.ص. 68-70.

⁽²⁾ المرجع نفسه، ص. 70.

⁽³⁾ رنسيان، المرجع السابق، ج. 2، ص.ص. 361-362.

⁽⁴⁾ أنظر:

السنة الأخيرة ميليشيا يحملون اسم الفرسان الجدد، لأن حكمهم يجمع بين حياة المقاتلين والمتعبدين، وذلك بصدور ميثاق سنة 1130م⁽¹⁾.

وعلى ما يبدو أن الملك بولدوين الثاني قد أرسل مقدم الداوية هيوغ دي بايينز إلى الغرب، لطلب المساعدة لمملكته بالقدس. ونتيجة لذلك، عُقد مجمع ترويس الديني بفرنسا وقد حضر هذا اللقاء كل من رؤساء أساقفة ريمس Reims⁽²⁾، وسنس Sens⁽³⁾، رفقة مساعديهم وممثل البابا تحت رعاية القديس برنارد أف كليرفو Bernard of Clairvaux⁽⁴⁾ لمناقشة ما يتعلق بالمملكة الصليبية في بيت المقدس⁽⁵⁾.

⁽¹⁾ أنظر: Jochen Burgdorf, op.cit., P.36

⁽²⁾ مدينة تقع شمال شرق فرنسا. أنظر: The Encyclopaedia Britannica, 11th, E^d. 1911, New York, Vol.23, P.53

⁽³⁾ إحدى مدن الوسط الفرنسي، للمزيد عن موقع هذه المدينة، أنظر: Atlas of Medieval Europe, Edit., Angu Mackay, David Ditchburn, Routledge, London, N.Y, 1997, P.120.

⁽⁴⁾ مقدم دير جماعة الرهبان السيسترشيان في كليرفو، ذو فكر لاهوتي، ولد سنة 1090م في فونتان لي دي جون Fontaines-les-Dijon في بورغندي Burgundy في عائلة من طبقة النبلاء الدنيا. تلقى تعليمه الكنسي من القديس فورلز Vorles في شاتيلون على سان Chatillon-sur-seine، دخل في الدير الجديد في سيتو Citeaux سنة 1113م مع العديد من رفاقه. في سنة 1115م أرسله رئيس الدير ستيفن هاردينغ Stephen Harding لتأسيس مقر جديد في كليرفو، حيث هو المقر الثالث في سيتو. تم تنصيبه كمقدم من طرف وليام أف شامبو William of Champeaux أسقف شالون على المارن Chalons-sue marne. وشرع برنارد في وقت مبكر كتابة أطروحته الروحية

De gradibus humilitatis et superbiae "التواضع والكبرياء" بين سنتي 1118-1119م. على الرغم من أن نشر أعماله لم يبدأ إلا سنة 1130م، أصبح برنارد متورط في شؤون خارج الدير، عندما دافع عن مطالب أنوسونت الثاني Innocent II للبابوية ضد منافسه أناكليتوس Anacletus، كما تورط مرة أخرى في جدال مع اللاهوتي بطرس أبيلارد Peter Abilard، والذي أدانه في مجلس سنس Sens فيما بعد سنة 1140م. وفي سنة 1139م عُرضت على برنارد رئاسة أسقفية ريمس Rheims لكنه رفض. وذلك عندما انتخب راهب من كليرفو يدعى برنارد باغانيللي Paganelli والذي انتخب بابا تحت اسم إيغينيوس الثالث Eugenius III، ولقد تسارعت مشاركة برنارد في الشؤون الكنسية. وفي سنة 1145م شرع في الوعظ في جنوب فرنسا ضد الهرطوق هنري Henry، الذي كان قد تمت إدانته في مجلس بيزا Pisa سنة 1135م، لكنه استأنف وعظه المعارض سنة 1140م. بدأ برنارد دعوته إلى الحملة الصليبية الثانية (1147-1149م) في فيزيلاي Vézelay ببورغندي Burgundy في مارس سنة 1146م. توفي برنارد في كليرفو في 20 أوت سنة 1153م. للمزيد عن هذه الشخصية الدينية، أنظر: The Crusades An Encyclopedia, Vol. I, PP.162-164.

⁽⁵⁾ مصعب حمادي نجم الدين الزيدي، الإستيطان...، ص.103.

الصلبية

I- النشاط الفلاحي

أولاً: النشاطات الزراعية

- أ- حركة الاستيطان الصليبي
- ب- تقسيم المساحات الزراعية
- ج- إدارة القرى الفلاحية وامتيازات الهيئة المشرفة
- د- النظام الزراعي والأدوات المستخدمة
- هـ- المحاصيل الزراعية
- 1- الفلاح والأرض والسيد الإقطاعي
- 2- أنواع المحاصيل الزراعية والضرائب

ثانياً: تربية الحيوانات

II- النشاط الصناعي

- 1- صناعة الأسلحة ومختلف الأدوات
- 2- صناعات معدنية أخرى
- 3- الصناعة النسيجية
- 4- صناعة السكر
- 5- صناعة زيت الزيتون
- 6- صناعة النبيذ
- 7- صناعة الصابون
- 8- صناعات نباتية أخرى
- 9- صناعة الزجاج

I- النشاط الفلاحي:

أولاً: النشاطات الزراعية:

لقد شكلت الفلاحة الركيزة الأساسية للمجتمعات البشرية عبر تاريخها، إذ أنها من روافد النشاط الاقتصادي لأي مجتمع كان، وخاصة مملكة بيت المقدس الصليبية. فمنذ أن حطت جحافل جيوش الأمراء والفرسان بأرض الشام، كانت هذه الأخيرة محط أنظارهم، حتى وإن كانت نيات بعضهم قد سبقت وصولهم في إقامة مناطق استيطان لهم في هذه المنطقة، إذ يُعد ذلك قدمُ ثبوتٍ ومورد قوتٍ، خاصة وأن أرض الشام من الأراضي الخصبة نتيجة تربتها الجيدة ووفرة مياهها، وبذلك كثرت محاصيلها وتتنوع أشجارها وثمارها⁽¹⁾.

أ- حركة الاستيطان الصليبي في بلاد الشام:

إن الجيوش الصليبية عند دخولها أرض الشام وحصارها لأنطاكية، ونتيجة للشدة التي ضربتهم اضطروا لأكل من كل ما تنبته تلك الأراضي من حشائش ونباتات وشجيرات، حيث يقول فوشيه الشارترى: "وأكل الناس جذوع البقلات التي ما زالت تنبت في الحقول، وجميع أنواع الأعشاب"، وإن دل ذلك على شيء، فإنما يدل على أنها أراضٍ ذات خصب تنبت أنواع الزروع⁽²⁾. ونتيجة لطبيعة الحملة ذات الصبغة العسكرية، فإنها أحدثت هلعاً ورعباً لدى السكان، مما جعلهم يغادرون ملكياتهم، وبذلك أصبحت في متناول الغزاة حيازات ذات زروع وثمار⁽³⁾. بل إن الصليبيين حصلوا على تلك الحيازات بحد سيوفهم. وعندما استقروا في المنطقة حولوا الفلاحين من مسلمين ومسيحيين إلى أقنان⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ مصعب نجم الدين الزيدي، الاستيطان...، ص. 287.

⁽²⁾ تاريخ الحملة إلى القدس 1095-1127م، ترجمة زياد العسلي، 1990، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ص. 55.

⁽³⁾ الطحاوي حاتم، الصليبيون في بلاد الشام، صفحات من النشاط الاقتصادي، مجلة الاجتهاد، ع. 33، 1996، دار الاجتهاد، بيروت، ص. 120.

⁽⁴⁾ زابوروف، المرجع السابق، ص. 133. وأما بخصوص مصطلح القن فله عدة مرادفات في العصر الإقطاعي، فتارة توجد بمعنى رقيق Serf وهذا المصطلح مشتق من كلمة Servus اللاتينية، وتارة أخرى تحت اسم بروليتار Prolétaire، وهي كلمة ذات جذور رومانية، والتي تعني ذلك الشخص الذي ينتمي إلى أدنى الطبقات في المجتمع Proletarius، كما وجدت مرة أخرى بمصطلح فللين Vellein والتي تعني الأجير المرتبط بفلاحة الأرض ولا يغادرها. أنظر: اسحق عبيد، الفرسان والأقنان في مجتمع الإقطاع، ط. 2، 1975، مطبعة دار الكتب، بيروت، ص. 91.

وعلى ما يبدو أن الصليبيين قد طبقوا ما يعرف بقانون الغزو Low of conquest⁽¹⁾ على الأراضي التي احتلوها في الأرياف وعلى الممتلكات الأخرى، كما ادعى الفرسان ملكية عدد كبير من القرى بقوة القانون السابق⁽²⁾.

وهذا بحد ذاته مشجع على حركة الاستيطان، وفي الوقت نفسه تنظيم مؤقت في تلك الظروف، ومن أجل أن يكون الكيان الصليبي الجديد ببلاد الشام مؤمناً اقتصادياً، وخاصة الضروريات الغذائية، لذا قام الصليبيون بتشجيع مزاولة النشاط الزراعي، المعتاد في السهول والوديان والجبال، ومنها جبال لبنان والأنصارية وتقسيمها إلى مدرجات⁽³⁾، بل إن هذه المنطقة -جبل لبنان- منها ما يُنتج البخور والمواد الصمغية المستخرجة من بعض الأشجار⁽⁴⁾.

وطبعا كانت للظروف آنذاك دورٌ رئيسيٌّ في تشييد القرى الصليبية، إذ أن ذلك يشكل بعداً استراتيجياً، ولذلك أُقيمت على المرتفعات كالهضاب والتلال، لحمايتها من الهجوم الإسلامي المرتقب، علماً أن في كل قرية شُيّدت قلعة عسكرية، تابعة للملك الصليبي، ويكون موقعها في وسط القرية، بالإضافة إلى وجود كنيسة صغيرة ومخازن للمحاصيل الزراعية، كما كان للطواحين مكانها، وهي معلم للقرية الصليبية، وأبرز مظاهر النظام الزراعي في العصر الوسيط في الغرب اللاتيني. علماً أن الطواحين شكلت مورداً لصاحبها، كونها احتكاراً إقطاعياً، إذ أن الفلاحين يدفعون جزءاً من الدقيق مقابل طحن الحبوب، كما استخدم الصليبيون الطواحين في سقي

⁽¹⁾ إن فكرة قانون الغزو بحد ذاتها تعد عاملاً أساسياً في تشجيع الأمراء والفرسان، على إحراز مزيد من الانتصارات في الشام، وخاصة من كانت لهم نية مُبَيّنة في تأسيس ملك لهم في الشام. وإذا ما عدنا إلى العلاقة بين ريموند الصنجلي والإمبراطورية لم تكن كافية لجعل التاج الإمبراطوري يحتفظ بطرابلس بعد الاستيلاء عليها من طرف ريموند الصنجلي، وهذا مثال عن ذلك، وكان هذا قبل كل شيء حق استيلاء صليبي وليس استيلاء إمبراطوري، وهو الذي أدى إلى تأسيس إمارات صليبية في بلاد الشام. وعلاوة على ذلك فحق الغزو هذا توجت

قراراته في مجلس البارونات، الذي كان سبباً في خروج الجيش المسيحي. للمزيد من التفاصيل عن حقوق الاستيلاء. أنظر: Richard Jean, The Political and ecclesiastical organization of the crusader states, In, A history of the Crusades, the impact of the Crusades on the Near East, Gen. Edit, Setton Kenneth. (M)., 1985, the university of Wisconsin press, V.5, P.195.

⁽²⁾ براور، الاستيطان...، ص.87.

⁽³⁾ الطحاوي، صفحات من النشاط الاقتصادي، ص.120.

⁽⁴⁾ مصعب حمادي، الاستيطان...، ص.288.

المزروعات، وذلك عن طريق رفع المياه من الأنهار والجداول إلى القنوات الخاصة بالري⁽¹⁾. وبالرغم من الجهود المبذولة، من طرف السلطة الصليبية والسيطرة على الأرياف، إلا أن الريف كان كله مسلماً، وقد استمرت التجمعات القروية تعمل تحت الحكم الصليبي، ولم تكن علاقة الصليبيين بالمسلمين بحد ذاتها علاقة حاكم ومحكوم، بل أصبحت علاقة مُستغل بمُستغل⁽²⁾. وعموماً كانت السهول الساحلية، تُزرع قمحا حول عسقلان وغزة ودير البلح (الداروم)، ومنها كان يصدر إلى القدس قبل مجيء الصليبيين، ولكن نتيجة الهجمة الشرسة لهؤلاء على المنطقة، فإن الأراضي الزراعية تضررت بعد أن أصابها التدمير⁽³⁾.

وبعد أن ثبت الصليبيون قدمهم في القدس، اتبعوا إستراتيجية التوسع على حساب المناطق المجاورة، إذ أنه لم تكن تتته العقود الأربع الأولى من الاحتلال، حتى استوطنوا بيت جبرين وتل الصافية. وفي بداية العقد السادس من القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري) احتلوا مدينة عسقلان، وبدأ استيطانها بحيث عمروها واستصلحو أراضيها⁽⁴⁾.

وإلى جانب زراعة القمح الذي كان مفضلاً لدى الصليبيين، فإن الشعير هو الآخر أصبح مطلوباً، حتى وإن كان بنسبة أقل من القمح، ويظهر ذلك في منطقة الخليل وحول قرى الكرمل وساموع على سواحل الصحراء الجنوبية وحتى الشمال في اتجاه بيت لحم⁽⁵⁾.

ومنذ أن وصل الصليبيون إلى الشام بدأت عملية الاستيطان، حيث أن الحركة هدفها الاستيلاء على فلسطين وتهجير سكانها وإحلال محلهم العنصر الصليبي، وعلى كل من سار على سياستهم الاستيطانية من الوافدين الجدد من الغرب اللاتيني⁽⁶⁾.

⁽¹⁾ الطحاوي، صفحات من النشاط الاقتصادي، ص. 121.

⁽²⁾ براور، عالم...، ص. 77.

⁽³⁾ جمعة الجندي، الاستيطان، ص. 140.

⁽⁴⁾ نفسه، ص. ص. 140-141.

⁽⁵⁾ نفسه، ص. 141.

⁽⁶⁾ رياض مصطفى أحمد شاهين، حسام حلمي الآغا، الاستيطان الصليبي في فلسطين 1098-1252م/491هـ-650هـ، دار مؤسسة

فلسطين للثقافة، 2007، دمشق، سورية، ص. 14.

وأصبحت المناطق الممتدة من بيت لحم، إلى القدس والرملة وغيرها أهلة بالسكان، وعلى الرغم من نقص المياه وخاصة الينابيع، فإن المحاصيل كانت وفيرة⁽¹⁾، حيث يقول الحاج الروسي دانيال: "والمنطقة خالية من الماء بشكل مطلق، حيث لا يجد المرء نهرا أو آبارا، أو ينابيع قرب بيت المقدس، باستثناء بركة سليمان، لذلك ليس أمام سكان المدينة ... شيء يستخدمونه سوى ماء المطر، وبالرغم من ذلك فالحنطة تزدهر بشكل جيد، في تلك الأراضي الصخرية... إن محاصيل القمح والشعير ممتازة... أليست بركة الله تخيم على هذه الأرض المقدسة"⁽²⁾.

إن معظم القرى التي تم تأسيسها في بلاد الشام، كانت على الأراضي التابعة للتاج أو المؤسسات الدينية الرسمية أو الهيئات الدينية، وبالتالي تظهر المحاولات الجادة لملاك الأراضي الكبار لاستغلال الموارد الطبيعية بالمنطقة، مثل العنب والزيتون وقصب السكر، بالإضافة إلى الماشية، كالأغنام والماعز والخنازير⁽³⁾.

ولقد كان الهدف من نشاطهم هذا، هو استكمال نظامهم الغذائي في بلاد الشام⁽⁴⁾، ولكن زراعة قصب السكر وإنتاجه كان له وقعه في العصر الصليبي، وأصبح من أهم المواد المصدرة إلى الغرب⁽⁵⁾.

ب- تقسيم المساحات الزراعية:

شكلت الأراضي في بلاد الشام محور حياة المجتمع الوافد من الغرب اللاتيني، بمختلف أعرافه وفئاته، ولذلك اتبع الصليبيون في قرى الشام، وخاصة بيت المقدس، نظاما خاصا بتقسيم المساحات الزراعية إلى وحدات، أو قطع البعض منها كان قانوني اعتمده الحكومة الصليبية،

⁽¹⁾ جمعة الجندي، الاستيطان...، ص. 141.

⁽²⁾ وصف الأرض المقدسة في فلسطين 1106-1107م، ت. سعيد عبد الله البيشاوي، داود إسماعيل أبو هدبة، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2003، ص. 62.

⁽³⁾ أنظر: Andrew Jostischky, Crusading and the crusader states, Routledge, London, New York, 2013, P.181.

⁽⁴⁾ أنظر: Ibidem.

⁽⁵⁾ أنظر: Ibidem.

وأصبح وحدة إدارية على أساسها يتم تحصيل الضريبة⁽¹⁾.

في حين أن البعض الآخر عبارة عن قطع صغيرة من الأراضي، يمكن لزوج من الثيران حثها في مدة يوم، وقد عرفت هذه الوحدات باسم: كاريوكيت Carrucate أو كاريوكا Carruca، وكانت الكاريوكا غير الرسمية تساوي الفدان⁽²⁾ العربي، وهي مختلفة عن الكاريوكا القانونية في المساحة، كما أنها تختلف عنها في كيفية استخدامها، وقد كانت هذه الوحدة هي أساس مستوى الدخل وتحصيل الضريبة⁽³⁾.

ولقد ورد ذكر الكاريوكا في سجلات كنيسة القبر المقدس، كوحدة قياس للأراضي التي مُنحت لها⁽⁴⁾، حيث كان قياس المساحات كما هو الحال في الغرب بواسطة لشاريو، أو كاريوكاتا la charruée، carrucata، أي كمية الأرض التي يمكن أن يحثها ثوران، خلال موسم الحرث⁽⁵⁾.

ومما يذكره براور "أن الأراضي الفلاحية في القرية، كانت وحدة قياسها الكاريوكا، التي تسمى في اللغة الفرنسية بالشاريوس (المحراث) Charrues، إذ أن وحدة قياس الأراضي الزراعية في أوروبا العصور الوسطى تقاس بمحراث ذي عجلات في فصل زراعي واحد، وبهذا لا يمكن تطبيق المصطلحات الأوربية في أرض فلسطين، لأن هناك ظروفًا وأوضاعًا مختلفة"⁽⁶⁾. وقد كانت الكاريوكا القانونية تساوي خمسة وثلاثين هكتارًا، أي ما يعادل ثلاثمائة وخمسين دونما

⁽¹⁾ البيشاوي، الأملاك...، ص.122.

⁽²⁾ المحراث، وعلى ما يبدو يقصد به ما يحثه الفلاح بمحراثه في يوم واحد، للمزيد من المعلومات، أنظر: ابن قدامة المقدسي، المغني، تح. عبدالله بن عبد المحسن التركي، عبدالفتاح محمد الحلو، ط.3، 1997، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، ج.7، ص.567.

⁽³⁾ البيشاوي، الأملاك...، ص.122-123.

⁽⁴⁾ أنظر: Cartulaire de L'église, op.cit., N.31, P.57.

⁽⁵⁾ أنظر: Adolphe Tardif, Cartulaire de l'église du Saint-Sépulcre de Jérusalem.. In: Bibliothèque de l'école des chartes. 1852, T.13, P.520..

⁽⁶⁾ الاستيطان...، ص.441.

Dunams⁽¹⁾، وهذا ما يعادل ثلاثمائة وخمسين ألف متر مربع⁽²⁾.

وأما بخصوص النوع الثاني من الكاريوكات فهو غير الرسمي، وهي تساوي أربعة دونمات، وذلك ما يعادل أربعة آلاف متر مربع⁽³⁾، ويقول روني إلين بلوم Ronnie Ellenblum إن الكاريوكا، هي ما مساحته يمكن لثورين حراثتها⁽⁴⁾. ويضيف قائلاً: "إن تحديد مساحة الأرض كان وفقاً لحرث ثورين، كان معروفاً في أوروبا العصور الوسطى، وكذلك في شرق عالم البحر الأبيض المتوسط، والذي يسمى بالفدان العربي، هذه هي الطريقة لتحديد مساحة الأرض، ومن الصعب إيجاد تعريف آخر للكاريوكا في الوثائق اللاتينية في الفترة نفسها"⁽⁵⁾.

وتم استخدام مصطلح كاريوكا، للدلالة على المحراث ذي عجلتين، وفقاً لما أشار إليه Du-Cange في قاموسه: "carruca sequioris aetatis Scriptoribus sumitur pro aratro"⁽⁶⁾. ويقول إلين بلوم: "وتؤكد جميع المصادر، ومن خلال اطلاعي على حقيقة أنه في بلاد الشام، كما هو الحال في أوروبا، تم تحديد حجم قطع الأراضي وفقاً لحجم المساحة القياسية، التي يمكن أن يحراثها ثوران، ويمكن الافتراض أن هذه الوحدة القياسية لم تختلف بشكل كبير عن نظيرتها الأوربية، وأن جميع العلماء وافقوا على أن حجم الكاريوكا الأوربية، لم يكن أكثر من ثلاثة أو أربعة هكتارات"⁽⁷⁾.

وقد كان بإمكان الفلاح في القرى التي يستغلها الصليبيون، أن يحراث أكثر من كاريوكا في

⁽¹⁾ البيشاوي، الأملاك...، ص. 123.

⁽²⁾ مصعب حمادي، الاستيطان، ص. 291، حاشية (03).

⁽³⁾ المرجع نفسه، ص. 291، حاشية (03).

⁽⁴⁾ أنظر: Ronnie Ellenblum, Frankish rural settlement in the latin kingdom of Jérusalem, Cambridge University Press, U.K., 1998, P.98.

⁽⁵⁾ أنظر: Ibidem.

⁽⁶⁾ أنظر: Du-Cange, Charles fresne, Glossarium mediae infimae latinitatis, Didot, Instituti Regii Franciae Typographi, Parisiis, 1842, T.2, P.203.

⁽⁷⁾ أنظر: op.cit., PP.98-99.

اليوم الواحد⁽¹⁾. إن الكاريوكا هو مصطلح لاتيني مشتق من محراث معدني ثقيل، أُستعمل في أوروبا خلال القرن العاشر الميلادي⁽²⁾. "إن الفكرة القائلة بأن الكاريوكا الصليبية، كان يمكن أن تكون أكبر بعشر مرات من الكاريوكا في العصور الوسطى الأخرى، أو حتى من الفدان العربي، كما ذكره براور Prawer وروي Rey وقدّر حجمها من ثلاثين إلى خمسة وثلاثين هكتارا، وهذا غير ممكن بالتأكيد، لا يعتمد على أية مصادر باستثناء مصدر مجهول"⁽³⁾.

كما أن روني إلين بلوم يُبيّن من خلال محاولاته ودراساته إن حجم الكاريوكا الصليبية في الشام كان مساويا لحجمها في أوروبا في الفترة نفسها. حيث يقول: "من المفترض وفي مرحلة لاحقة، سأحاول أن أُبيّن أن هناك دليلا أثريا على ذلك. إن حجم كاريوكا الفرنجة كان مشابها للوحدة الزراعية الموازية في أوروبا في الفترة نفسها"⁽⁴⁾.

وفضلا عن الكاريوكا كوحدة قياس للأراضي الفلاحية في الشام، وخاصة بيت المقدس، كانت هناك وحدات قياس أخرى، حيث كان يوجد المحراث Aratrum، إذ كان يعادل الأرض الفلاحية التي يحرثها محراث واحد، أو مساحة أرض يحرثها محراثان، وذلك لم يختلف عن الكاريوكا، لأن المحراث في المشرق العربي، كان موصوف بدقة بأنه الأرض المحروثة Aratrum، وكان هذا من أنواع المحاريث التي أُستعملت في العصر القديم، كما كان هناك نظام لقياس الأراضي الفلاحية" مثل الأرض التي يعمل في فلاحتها اثنان من الثيران في يوم واحد"⁽⁵⁾.

ويقول روني إلين بلوم: "تتفاقم صعوبة قبول المصطلحات المستخدمة، في كل من أوروبا وبلاد الشام الفرنجية، لتحديد المساحات الزراعية، والمأخوذة من أنواع المحاريث المستخدمة في ذلك الوقت Aratrum: (محراث متماثل خفيف)، والذي هو أيضا المساحة التي يمكن حرثها بمحراث

⁽¹⁾ البيشاوي، الأملاك...، ص.123.

⁽²⁾ أنظر:

Boas Adrian, Domestic Settings P.364.

⁽³⁾ أنظر:

Ellenblum, op.cit., P.99.

⁽⁴⁾ أنظر:

Ibidem.

⁽⁵⁾ براور، الاستيطان...، ص.442.

يجره ثوران⁽¹⁾.

بالإضافة أنهم استعملوا ما يماثل الكاريوكا الرسمية (الكاريوكيت الإغريقية) Carrucate Greca، التي كانت مرادفة للكاريوكيت الفرنسية Carrucate Francesiae، وكلها تشير إلى مساحة الأرض، التي يستطيع فريق واحد حرثها خلال سنة (فصل). وهي تعادل الفدان الرومي (البيزنطي) Feddan Rumi، الذي استعمله الصليبيون والمماليك، وحتى العثمانيون فيما بعد. كما وُجدت بعض المقاييس التي تعادل الكاريوكا العربية، أو الفدان العربي مثل Jornatae اللاتينية و Kournal الإنجليزية و Journee الفرنسية، إضافة إلى وجود Paraille شبيه بالفدان، الذي تم استخدامه لقياس الأراضي الصالحة للزراع، وقد كُثِر استعماله في ضواحي طرابلس⁽²⁾. وعموما كانت الأراضي الزراعية تقاس وفق كمية الحبوب التي تكفي لبزرها، لأن ذلك الإجراء يأخذ بعين الاعتبار خصوبة التربة ومدى ظروفها. وبهذا يكون المعنى السائد لأرض المحراث هو عبارة عن وحدة الأرض المحروثة التي تساوي مساحة الأرض التي هي بحوزة أسرة فلاحية واحدة، والتي يمكنها أن تعيل هذه الأسرة. وعليه فإن فكرة وحدة الكاريوكا كانت تساوي وحدة القياس الأوربية، والتي ظلت تعرف باسم مانسوس Mansus، في حين أن الصليبيين قد عرفوا ذلك باسم ماسوس Masus⁽³⁾.

ويقول حاتم الطحاوي: "وبخصوص الكاريوكات في أراضي الشام الصليبي، فإنها قد تشابهت مع المانسوس Mansus في النظام الحقلي للإقطاع في الغرب اللاتيني، كما أُستخدمت كوحدة ضريبية، بحيث يحاسب الفلاح على المحصول المُنتج عنها. كما استخدم الصليبيون أيضا وحدة قياس أخرى في الزراعة، تساوي مساحة الفدان العربي وتسمى جورنات Jornate⁽⁴⁾.

لقد كان المحراث Charrue عبارة عن وحدة لقياس الأراضي الزراعية، بحيث كانت هذه

op.cit., P.98.

⁽¹⁾ أنظر:

⁽²⁾ البيشاوي، الأملاك...، ص.123.

⁽³⁾ براور، الاستيطان...، ص.442.

⁽⁴⁾ الطحاوي، صفحات من النشاط الاقتصادي، ص.124.

الوحدة تتماشى والاحتياجات الحقيقية الخاصة بحياة الفلاح، وهذا حسب ما يراه براور. وقد كانت مساحة الأراضي المزروعة تتباين من منطقة إلى أخرى، حسب خصوبتها وكمية إنتاجها. وبهذا، فإن مساحة الفدان العربي في المناطق الزراعية المستوية، تزيد مساحتها إلى الضعف عن الفدان العربي في المناطق الجبلية في منطقة بيت المقدس⁽¹⁾.

غير أن الضرورة حتمت على الصليبيين إيجاد وحدة قياس زراعية جديدة، تتعامل بها رسمياً حكومة المملكة الصليبية، وتتماشى ورغبتهم في تحقيق مكاسب عينية ونقدية. وعُرفت وحدة القياس هذه بالكاريوكا، وقد حُفظت هذه الأخيرة في سجلات المساحة الخاصة بالأراضي الزراعية، وكان غرضها ضربياً، وهذا في التشريعات والقوانين الإدارية الصليبية. ومن خلال التقديرات نجد أن الكاريوكا كانت تساوي خمسة وثلاثين هكتاراً، وهي وحدة القياس الحكومية للمساحات الزراعية في المملكة، وبذلك قُدرت الضرائب في كل القرى على أساس هذا الإجراء⁽²⁾.

ج- إدارة القرى الفلاحية وامتيازات الهيئة المُشرفة:

إن النظام الزراعي الذي اعتمده الصليبيون في بلاد الشام، وخاصة بيت المقدس لم يكن مغايراً تماماً عن نظمهم الزراعية في الغرب اللاتيني، ولكنهم استفادوا من التنظيم الإداري لقرى بلاد الشام في العصر الإسلامي، في حين نجدهم قد أضافوا إليه حسب الظروف والمستجدات، وكيفوا ذلك مع حياتهم الجديدة في الشام، فعدم وجود السادة الإقطاعيين ملاك الأراضي الزراعية في الريف، كان من الضروري أن يكون هناك وكلاء يُسيرون ما في القرية ويتعاملون مع الفلاحين، وبذلك اختاروا كبار رجال القرى، حيث يلقب أحدهم بالريس Rays، وهو شيخ القرية تُعطى له صلاحيات عديدة، كونه ممثلاً للسيد الإقطاعي، وحلقة وصل بينه وبين الفلاحين⁽³⁾.

ولقد كان هذا الشيخ ممثلاً رسمياً لقريته أمام الإدارة الصليبية، يتحمل مسؤولية حفظ الأمن في

⁽¹⁾ براور، الاستيطان...، ص. 443.

⁽²⁾ نفسه.

⁽³⁾ مصعب حمادي نجم الدين الزبيدي، الاستيطان...، ص. 289.

القرية وتحصيل الضرائب⁽¹⁾، كما كان لرئيس القرية مشاركة في سن القوانين والتشريعات، من بينها قانون نقل الملكية من شخص إلى آخر من سكان القرية الفلاحية⁽²⁾. وقد كان للمدن الإيطالية في بلاد الشام ممثلون من بينها البندقية، حيث يقول هايد وليم: "وكانوا يُعَيَّنون في الضياع (الـ Casaux) الكبيرة مديرين يقال لهم جاستالديوناس Gastaldiones، وكان المزارعون الحقيقيون لهذه الأراضي فلاحين سوريين"⁽³⁾.

ويذكر لنا ذلك ابن جبير أثناء رحلته، حيث يقول: "فنزلنا... بضیعة من ضیاع عكة...ورئيسها الناظر فيها من المسلمين، مقدم من جهة الإفرنج على من فيها من عمّارها من المسلمين"⁽⁴⁾. ويقول رنسيمان: "وكان التعامل بين القرويين وسيدهم عن طريق رئيسهم، وكان أحيانا يسمى بالاسم العربي (الريس)، وأحيانا أخرى بالاسم اللاتيني (ريجولوس Regulos)"، وقد كان يوجد إلى جانب السيد أحد السكان المحليين، كترجمان Dragoman، وهو كاتب يتكلم العربية، وبإمكانه أن يحتفظ بالسجلات⁽⁵⁾.

ولقد تقلد هذه الوظيفة العديد من المترجمين، من المسيحيين الشرقيين الذين يعرفون اللغة العربية، إضافة إلى أنهم على معرفة بلغة الغزاة الصليبيين، كما أنه كان يوجد الكاتب، وهو بمثابة المساعد الثاني للريس، مهمته تتمثل في جمع الإيرادات، وتسجيل أسماء الحيازات الخاصة بالفلاحين في القرية الفلاحية⁽⁶⁾.

وفي بعض الأحيان كان الترجمان مسؤولاً عن مهمته أمام رجال الكنيسة، أو مقدمي الهيئات

⁽¹⁾ براور، الاستيطان...، ص.438. بينما يذكر مرة أخرى في مؤلفه عالم الصليبيين، حيث يقول: "وفي حالة عدم وجود وكيل للخراج للإشراف على ضرائب الدخل، كان الرئيس يتحمل هذه المسؤولية بتفويض من الفرنج"، ومن هنا نستنتج أن تحصيل الضريبة من اختصاص شخص آخر وهو وكيل الخراج. للمزيد عن ذلك، أنظر: المرجع نفسه، ص.77.

⁽²⁾ براور، الاستيطان...، ص.438.

⁽³⁾ هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، 1985، الهيئة العامة المصرية للكتاب، ج.1، ص.167.

⁽⁴⁾ ابن جبير، المصدر السابق، ص.275.

⁽⁵⁾ رنسيمان، المرجع السابق، ج.2، ص.345.

⁽⁶⁾ الطحاوي حاتم، الصليبيون، صفحات من النشاط...، ص.122-123.

الدينية العسكرية الذين يملكون كثيرا من القرى في الريف الشامي، وقد استخدم رجال كنيسة القبر المقدس المترجمين تحت لقب أنتربرس Interpres، علما أن هؤلاء المترجمين كانوا من المسيحيين الشرقيين، الذين يتكلمون اللغة العربية، كما تعلموا اللسان اللاتيني السائد آنذاك.

وقد حُظي المترجم بوضع اجتماعي واقتصادي تميز به عن باقي الفلاحين، إذ أنه وجب على كل فلاح في القرية أن يدفع له عن كل كاريوكا Carruca مودايوس Modius واحد⁽¹⁾، (ما يساوي 190 لترا) من القمح ومكيال من الشعير⁽²⁾.

لقد كان على كل واحد من السكان مودايوس واحد من القمح، وآخر من الشعير عن كل كاريوكا من المساحة المزروعة، بالإضافة إلى ذلك كان يتم دفع اثنين Manipuli من القمح والشعير عن كل كاريوكا، من الأراضي المزروعة بشكل مشترك من قبل السيد والمزارعين⁽³⁾.

وعلى ما يبدو أنه لا يتعامل فقط مع أنواع مختلفة من الإنتاج، ولكن يتعامل أيضا مع أنواع مختلفة من الملكية، إذ أنه ذكر نوعين مختلفين من الحقول كاريوكا للمزارعين، وكاريوكا تم من خلالها حصاد المنتج المشترك للسيد والمزارعين⁽⁴⁾، أي يمكنه الحصول على اثنين Manipuli من القمح أو الشعير، عن كل كاريوكا وهذا في القرى القريبة من عكا⁽⁵⁾.

بالإضافة إلى أنه عند الحصاد بإمكانه أن يحصل على ستة مودي Modii، من كل مائة مودي Modii من الحبوب، على الرغم من قلة المحاصيل في بعض السنوات. وعند مباشرة عمله في قرية أخرى يمكن تزويده مع حصانه بما يحتاجه، وإذا ما فقد حصانه⁽⁶⁾ أثناء الخدمة، وجب

⁽¹⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.193.

⁽²⁾ براور، الاستيطان...، ص.440.

⁽³⁾ أنظر:

Ellenblum, op.cit., P.195.

Ibidem.

⁽⁴⁾ أنظر:

⁽⁵⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.193.

⁽⁶⁾ إن الحملة الصليبية الأولى على بلاد الشام، تعد مشروعا استيطانيا لأمرء وفرسان الغرب اللاتيني، فمنذ أن وصلت جحافلهم إلى المنطقة بدأت عملية الاستيلاء على الأراضي. وقد ظهر التنافس بين مختلف الأمراء والفرسان من أجل بسط النفوذ والسيطرة، لأنه من يستولي على الأرض فهي له بحكم ما يعرف بقانون الغزو، وبما أن الغرب قد عرف النظام الإقطاعي، وقد ساهم هذا الأخير في زيادة توسع

على السيد الإقطاعي أن يقدم له 15 بيزنتا، وفي حالة اصطحابه خارج الإقطاع، وجب على السيد الإقطاعي التكفل بنفقته⁽¹⁾.

علما أن وظيفة الترجمان كانت تُورث وتباع مثل الإقطاع، ويتم ذلك في المحكمة العليا، مقابل مبلغ مالي قدره مائتان وخمسون بيزنتا⁽²⁾، وإلى جانب الترجمان يوجد كاتب القرية⁽³⁾، وهو بمثابة المساعد الثاني للريس، وعلى الرغم من وجود ريس لكل قرية، إلا أن عدد الكتبة الذين زولوا مهمتهم عند السيد الإقطاعي كان كبيراً، وبذلك وُجد نوعان منهم، فالنوع الأول هم الكتبة المحليون، والذين ازداد عددهم في القرن الثالث عشر الميلادي، وأما النوع الثاني، فهم الموثقون الايطاليون، الذين يستخدمهم السادة الإقطاعيون، في كتابة عقودهم ومختلف امتيازاتهم⁽⁴⁾.

وقد كانت الحرية تامة لسيد الإقطاع في اختيار شيخ القرية، الذي يعاونه كبار الرجال من قريته وكلهم ملزمون بالتبعية للسيد الإقطاعي الصليبي، حيث يقدمون له الطعام كلما زارهم، ويرحبون به، كما يمكنهم تقديم بضع عملات فضية والقمح والزيتون.

وفي حالة انتقال الإقطاع في القرية من سيد إلى آخر، فكان السيد الإقطاعي يلزم رئيس القرية ومعاونيه أن يقسموا يمين الولاء لسيدهم الجديد، وكان القسم يتم طبقاً لشروط الإقطاع بين السيد الإقطاعي وأتباعه وعادة ما "يقسمون على سيف مسلول وفقاً لتقاليدهم في الوقت الذي يحدد فيه

الاستيطان خاصة في بيت المقدس. ومحاولة من الصليبيين من أجل تثبيت الاستيطان لجأوا إلى تطبيق تشريعات وقوانين لعلها تكون ذات فعالية في تثبيت قدمهم بالمنطقة وتجاوز كل العقبات التي قد تحدّد وجودهم بها، وبما أن الفارس بعدته يعد قوام العملية الاستيطانية، وخاصة الخيول التي تعد ركيزة أساسية في العملية، ففقدان الحصان يعدّ خسارة كبيرة، خاصة وأن الصليبيين عانوا من نقصه في تلك الفترة، فكيف يتم التعامل مع من فقد حصانه، فتشريعات مملكة بيت المقدس لجأت إلى سن تشريع التأمين على خيل الحرب لتجاوز هذه المعضلة. للمزيد عن هذا التشريع في مملكة بيت المقدس. أنظر: محمد فوزي رحيل، قانون التأمين على خيل الحرب في مملكة بيت المقدس الصليبية، في الحروب الصليبية، حركة الاستعمار الأوربي في العصور الوسطى، تح. محمد مؤنس عوض، 2014، دار الأفاق العربية، القاهرة، ص.ص. 43-59.

⁽¹⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص. 193.

⁽²⁾ براور، الاستيطان...، ص. 440.

⁽³⁾ نفسه، ص. 439.

⁽⁴⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص. 194.

الترجمان نصوص القسم، ثم يعلنون الولاء ويقيمون حفل البيعة للسيد الجديد⁽¹⁾. وفي مقابل ذلك كان رئيس القرية يتمتع بامتيازات، ومنها زيادة مساحة الأرض عن باقي الفلاحين في القرية، وإعفاء جزء من أراضيهم من الضريبة، زيادة على ذلك أنه يقيم في منزل أكبر من منازل الفلاحين في القرية⁽²⁾. ويذكر ابن جبير خبر ذلك عن رئيس القرية، فيقول: "فأضاف جميع أهل القافلة ضيافة حفيلة، وأحضرهم صغيرا وكبيرا في غرفة متسعة بمنزله، وأنالهم ألواناً من الطعام قدمها لهم، فعمهم بتكرمه وكنا فيمن حضر هذه الدعوة"⁽³⁾. وفي ظل الإدارة الصليبية للقرى الفلاحية، كان الرئيس يقوم بوظيفته بوصفه من الأعيان، ويتأخر محكمة الرئيس Rais Court، والتي تتمثل مهمتها في النظر في القضايا البسيطة بين الفلاحين والفصل فيها، غير أنها لا تنظر في القضايا الكبرى التي كانت من اختصاص المحكمة البورجوازية⁽⁴⁾.

وأما محكمة السيد الإقطاعي فإنها تبت في القضايا المدنية والجنائية، إذ أنها تفصل في قضايا النزاع والخدمات التي لم يؤدها الأفعال، بالإضافة إلى الغرامات غير المدفوعة، هذا إلى نظرها في جرائم الهجوم والاعتداء ونهب الأراضي، والأضرار الملحقة بموارد القرية كالأبار، فضلا عن النظر والفصل في الإساءة للآخرين، وبازدياد حاجة الإدارة وضرورة تطبيقها تطورت وظيفتها الكتابة والترجمة، وأصبح لكل منهما راتب أو اقطاع⁽⁵⁾.

د - النظام الزراعي والأدوات المستخدمة:

إن ما يتعلق بالأراضي في الشام الصليبي أنها لم تكن جميعها صالحة للزراعة، حيث غطت المستنقعات مساحات كبيرة منها، فضلا عن وجود العديد من أراضي البور Gastina، والسبب

⁽¹⁾ مصعب حمادي، الاستيطان...، ص.ص. 289-290.

⁽²⁾ نفسه.

⁽³⁾ ابن جبير، المصدر السابق، ص. 275.

⁽⁴⁾ مصعب حمادي، الاستيطان...، ص. 290.

⁽⁵⁾ مصعب حمادي، الاستيطان...، ص.ص. 290-291.

ربما يعود لهجر السكان لها. وقد سُمى العرب الأراضي المهجورة بالخربة، كما أن الغزو الصليبي وردة الفعل الإسلامي، قد شكلا سببا رئيسيا للهجرة وخاصة في الريف⁽¹⁾.

علما أن منطقة الشام قد عرفت عبر تاريخها النشاط الزراعي، لذا فالوجود الصليبي بها تأثر بأساليب الزراعة المتبعة من طرف سكان الشام، وقد اعتمد هؤلاء في زراعتهم على مياه الأمطار والينابيع والأنهار وقد كان لذلك أثر على إنتاجها، من مختلف المحاصيل الزراعية⁽²⁾.

ويقول النويري بخصوص أراضي الشام وسقيها: "ومن أراضي الشام ما يُسقى بالمياه السارحة(الجارية)، من الأنهار والعيون"، علما أن سكان بلاد الشام، قد عرفوا نظام الدورة الزراعية(نظام الحقلين)، حيث يزرعون شطرا ويتركون الشطر الآخر، بالمقابل يزرع الذي كان متروكا ويريح الذي كان مزروعا، وهذه طريقتهم وطبعا هذا له أثر ايجابي على الإنتاج⁽³⁾.

وأما بخصوص النظام الزراعي الذي اتبعه الصليبيون في بلاد الشام، يقول هيربرت هيتون Herbert Heaton بشأنه: "وقد أُعتبر نظام الحقلين والثلاثة نظاما لتنظيم دوران المحاصيل أمرا مفروغا منه، حتى ولو لم تكن هناك قاعدة محددة. ولقد رأينا أن المزارعين في البحر الأبيض المتوسط، قاوموا استنزاف التربة وهطول الأمطار قليلاً عن طريق زرع حقل بالمحاصيل، لمدة عام واحد ثم تركه في السنة الموالية، كان هذا نظام التناوب، أو إذا كنا نفكر في حقل واحد لإنتاج المحاصيل، كان هناك نظام آخر يسمى نظام الحقلين في أوروبا لم يكن هناك نقص في هطول الأمطار، ولكن كان استنفاد التربة ممكناً"⁽⁴⁾.

ويقول اسحق عبيد: "وكانت الأرض تقسم إلى نظام الحقلين أو الثلاثة حقول، يتم زراعتها بالتناوب، ففي حالة الحقلين يُزرع أحدهما ويترك الآخر دون زراعة من أجل راحة الأرض، وفي

⁽¹⁾ الطحاوي، صفحات من النشاط الاقتصادي...، ص.ص.124-125.

⁽²⁾ نفسه، ص.125.

⁽³⁾ المصدر السابق، ج.8، ص.187.

⁽⁴⁾ أنظر: Economic history of Europe, harper, New York, 1948, P.101.

حالة الثلاثة حقول يُزرع حقلان ويترك الثالث دون زراعة⁽¹⁾. وهذا طبعاً من أجل راحة التربة والمحافظة على قدرتها الإنتاجية، فالمعمول به في الغرب اللاتيني في العصور الوسطى، شبيهاً بالنظام الزراعي الحديث، لذا نجد أن الأراضي الزراعية قد قُسمت إلى ثلاثة أقسام، يزرع منها اثنان في الزراعة الواحدة ويُترك الثالث كراباً (محروث غير مرزوع)، وهكذا يتم تطبيق العملية على الأقسام الثلاثة⁽²⁾.

لقد كانت زراعة الأراضي تخضع لقوانين صارمة، إذ أنه يُزرع محصول في هذه السنة، وفي السنة التالية يُزرع محصول آخر، وطبعاً يتم التأكيد على تحديد كمية البذور التي سيزرعونها في كل أرض محراث⁽³⁾، ويقول متر آدم: "وكان أهم حادث في الاقتصاد الزراعي الأوربي في العصور الوسطى، هو إحلال الحنطة محل الذرة والشعير، أما في الشرق فكانت الحنطة قد استوطنت واستقرت منذ زمان طويل"⁽⁴⁾.

وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على مدى أهمية الإنتاج الزراعي والعناية به، لأنه يشكل عصب الحياة واستمرارها في أرض تعد مكسباً عظيماً، حققه الصليبيون بحد سيوفهم، في ظل انقسام البيت الإسلامي وضعفه.

ومن أجل سير العملية الزراعية وضمانها، كان الرئيس ومعاونوه يناقشون الأمور الخاصة بالعملية الزراعية مع كبار الفلاحين، بحيث يتم تحديد المساحات الفلاحية التي ستزرع لاحقاً، والتي ستترك محروثة بدون زراعة. وبعد أن يتم البت في المنتج وتقسيمه حسب النسب المخصصة لسيد الإقطاع والرئيس والترجمان والكاتب والفلاحين، يقومون بتخزينها في الأماكن

⁽¹⁾ المرجع السابق، ص.96.

⁽²⁾ كوبلاد (ج.و)، فينوجرادوف (ب)، المرجع السابق، ص.8.

⁽³⁾ أنظر: Archer.T.A, Charles.Kingsford.L, the crusades, the story of the latin kingdom of Jerusalem, New York.1894. P.292. للمزيد عن النظام الزراعي ودوراته، التي اتبعها الصليبيون في الشام،

أنظر: الملحق رقم: (10).

⁽⁴⁾ متر آدم، المرجع السابق، مج.2، ص.302.

المناسبة تحت الأرض (مطمورة) وفي الكهوف، حينها تقوم السلطات الصليبية بنقل الفائض من الإنتاج إلى الأسواق، وتخزين كمية من البذور لزراعتها العام المقبل⁽¹⁾.

وفيما يتعلق بالأراضي الزراعية في مملكة بيت المقدس الصليبية، وخاصة الأراضي الصالحة للزراعة، فقد تم تقسيمها إلى ثلاثة أقسام في تلك الفترة، فالأول يشمل الأراضي المحيطة بالتجمع السكاني في القرية، حيث كانت هناك الحدائق ومزارع الكروم وأشجار الزيتون، وقد كانت تلك المزروعات ملكيات خاصة لأهل القرية. وقد جرت العادة على أنه لم تكن للريس السيطرة الكاملة على تلك المزروعات، بالرغم من أنه كان يجمع الضريبة العينية على إنتاجها، لفائدة السيد الإقطاعي. وأما القسم الثاني فهو الأراضي التي كانت ترعى فيها مختلف مواشي سكان القرية، وهي أراضٍ مشاعة لجميع فلاحي القرية. وأما القسم الثالث فهو الأراضي الصالحة للزراعة الخاضعة للسيد الإقطاعي، حيث يُكلف الفلاحون من المسلمين بغراستها، بعد ذلك يجمع المحاصيل في مكان واحد، ويقسمه حسب الاتفاق بنسب مختلفة.

وعموماً فملكية السيد الإقطاعي من الأراضي الصالحة للزراعة، كانت ما تقارب نسبة الثلث، ولتحديد الملكيات في الأراضي الزراعية، يتم وضع شريط من الحجارة لمنع حدوث أية مشاكل بين الملاك، وكذلك لتثبيت التربة ومنعها من الانجراف⁽²⁾.

وتوضع الشرائط جنباً إلى جنب، وفي كثير من الأحيان لا يوجد شيء مستديم لتكون بمثابة خط حدودي بينهما. ولقد كانت أراضي المحراث في نطاق السيد الإقطاعي والكنيسة عادة ما تقترن بين المستأجرين⁽³⁾. وهذا شبيه بما كان موجود في الغرب اللاتيني، إذ أن الجزء الصالح للزراعة كان مقسماً إلى مساحات معينة، من غير أن يكون بين الحصص حواجز مرتفعة تفصلها عن بعضها البعض⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ الطحاوي، صفحات من النشاط الاقتصادي...، ص.126.

⁽²⁾ مصعب حمادي، الاستيطان...، ص.292-293.

⁽³⁾ أنظر:

⁽⁴⁾ كويلاد (ج.و)، فينوجرادوف (ب)، المرجع السابق، ص.8.

وكان بعض الفلاحين يفتقرون إلى ما يكفي من الثيران، أو الخيول لإنشاء فريق حرث، وحتى بعضهم لم يكن لديه محراث، ولم يكن لديه ما يكفي من الأراضي الصالحة للزراعة، لتبرير امتلاك أي منهما، ولم يكن لدى أي منهم ما يكفي من الماشية، ليبرر توظيف أحد أفراد العائلة بدوام كامل لرعي الماشية مثلا⁽¹⁾. ولقد كانت الأعمال الفلاحية والزراعية في مساحة معينة من الأراضي تتطلب تعاوننا وتضامنا بين الأفراد⁽²⁾.

لذلك يكون التعاون في الحرثة ورعي المواشي أمراً حتمياً، وأن تنظيم الزراعة أمر ضروري، ولكن كيفية التعاون والتنظيم غير واضحة، وقد كان السيد الإقطاعي يمتلك نطاقاً واسعاً من الأراضي، بما في ذلك العديد من الشرائط الصالحة للزراعة، وكان تأثيره واضحاً في جعل القرويين يعملون معاً تحت رقابته، وخاصة في الأراضي التي يحرثونها. عندما كانت هناك حقوق قليلة أو معدومة، كان القرويون أسياد أنفسهم، ووضعوا قواعدهم الخاصة فيما يشبه اجتماع الفلاحين. وقد حددت القواعد تواريخ بداية الحرث ونهاية الحصاد، وكذلك الإعداد للعمل المقبل وفي أي الحقول المختلفة التي يجب زراعتها⁽³⁾.

إذ أنه من الأحسن للسيد الإقطاعي أن يُشرف مباشرة على تسيير ممتلكاته الإقطاعية، لتكون أكثر تنظيماً وفعالية، لأن غياب السيد يؤثر تأثيراً سلبياً على بنية إقطاعه وما ينتجه⁽⁴⁾. وقبل عملية البذر كان على الفلاح أن يحرث الأرض أولاً بواسطة المحراث، الذي كانوا يستعملونه بشكل كبير، حيث تكونت هذه الآلة من هيكل خشبي ومقبض وسكين حديدية، وقد كان الهدف من ذلك هو قطع الطبقة السطحية للأرض، من أجل إعدادها لعملية الزراعة⁽⁵⁾. في حين يقول براور أن المحراث الفلسطيني يتكون من إطار خشبي ومقبضين ونصل حديدية،

Heaton Herbert, op.cit., P.101.

⁽¹⁾ أنظر:

⁽²⁾ كويلاذ (ج.و)، فينوجرادوف (ب)، المرجع السابق، ص.ص.7-8.

Heaton Herbert, op.cit., P.101.

⁽³⁾ أنظر:

⁽⁴⁾ براور، الاستيطان...، ص.454.

⁽⁵⁾ الطحاوي، الاقتصاد الصليبي...، ص.200.

والذي كان يقلب الأرض بصعوبة، وكان الهدف منه شق القشرة السطحية للأرض، وإعداد التربة للبذر، "لقد كان هذا المحراث يناسب التربة الخفيفة، ويتواءم للمحافظة على رطوبة هذه التربة بصعوبة"⁽¹⁾. ويقول متى الباريسي Mathieu Paris، بشأن المحراث الفلسطيني: "أن هذا المحراث كان يجره ثور واحد"⁽²⁾.

كما نجد أن الصليبيين قد أصدروا مرسوماً يقضي بنثر الحبوب وجعل المروج مفتوحة، بحيث يمكن للماشية أن ترعى على العشب، ومنعوا أي شخص يلحق الضرر بنباتات المستأجرين الآخرين. ولقد كانت هناك عقوبات لأولئك الذين تركوا مواشيهم تتجول في المحاصيل، والذين سرقوا ثلما من الشريط الحقلي لجيرانهم، أو ارتكبوا من الجرائم الكبيرة أو الصغيرة، إضافة إلى أن القرويين قاموا بتعيين الرعاة، وحراس كرمة العنب، ومربي الخنازير، وبسطوا سيطرتهم على المراعي، وأخذوا بعض العناية بالطرق والجسور ومجاري المياه⁽³⁾.

وبخصوص كمية البذور التي كان يبذرها الفلاحون في المساحات الزراعية، فقد تباينت كمياتها وهذا حسب نوعية الكاريوكا وخصوبة التربة، فمثلا قرب مدينة صور، كانت الكمية المبذورة في الكاريوكا الرسمية هي تسعة مودي، وأما بالقرب من عسقلان فالكمية تساوي اثني عشر مودي من البذور في الكاريوكا الواحدة⁽⁴⁾.

ويقول براور: "إن مقدار كيل البذور الذي تحتاجه أرض زراعية بمحراث بأربع عجلات، هو مقدار اثني عشر مكيال مودي، وبخصوص أرض زراعية تدار بمحراث ذو عجلة واحدة، فتنطلب أربعة مكاييل مودي، أي أربعة كاريوكات من الأراضي الزراعية، التي تحرث بواسطة محراث بعجلة واحدة"⁽⁵⁾.

⁽¹⁾ الاستيطان...، ص.441.

⁽²⁾ نقلا عن براور، الاستيطان...، ص.442.

⁽³⁾ أنظر:

Heaton Herbert, op.cit., P.101.

⁽⁴⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.200.

⁽⁵⁾ الاستيطان...، ص.444.

ويضيف قائلاً: " من الصعب تحديد مساحة الأرض الزراعية الفعلية بالنسبة للأرض المحروثة، سواء تم حراثتها بمحراث واحد، أو أكثر من محراث بعجلة أو بأربع عجلات"⁽¹⁾. وفي الحقول من حول بيروت فكان يتم استعمال عشرة مودي، من البذور للكاريوكا الواحدة، وأما فيما يخص بذور النباتات البقولية، فإنه يبذر موديس واحد لكل كاريوكا، في الحقول القريبة من مدينة صور⁽²⁾.
وأما فيما يتعلق بقياس كمية البذور، فكان ذلك عن طريق الموديس الملكي Modius في الحقول حول مدينة عكا، على الرغم من وجود الموديس البندقي، والذي ظهر باسم Modius domini Accon، والذي كان يساوي موديس عكا خمس مرات، وكذلك وُجدت أداة أخرى لقياس كمية البذور، وهي الغرارة Ghiraras حيث كان يخصص لكل كاريوكا أربع غرارات من الحبوب، وهذا طبعا في الحقول القريبة من مدينة بيروت، بمعنى أن الغرارة الواحدة تساوي 2.5 مودي.
هذا فضلا عن وجود موازين أخرى مثل الكارة Carra في مدينة الرملة، وهي ضعف كارة بيروت، وبذلك ربما تكون وحدة المكيال هذه هي الجرة التي توصف بأنها أقل من الغرارة⁽³⁾.
وكان السيد الإقطاعي يقدم البذور للفلاحين عند الحاجة، وفي المقابل يعطون له دجاجة عن كل كاريوكا⁽⁴⁾. إن جني المحصول في قرية البترون التي تم تخصيص جزء منها للبنادقة، اقتصر على مساحة زراعية قدرها خمسة كاريوكات تم استعمال اثني عشر مودي من الحبوب، وثلاثة مودي من البذور البقولية، وكان حصاد البنادقة حسب تقييم القنصل مارزيجليو زورزي Marziglio Zorzi، يبلغ عشرون مودي من القمح أو الشعير وعشرة مودي من البقوليات⁽⁵⁾.
وهذا في النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي (1240م)، إن شخصيته فرضت أن

(1) نفسه.

(2) الطحاوي، الاقتصاد...، ص.200.

(3) الطحاوي، الاقتصاد، ص.201.

(4) أنظر: Conder , the latin kingdom..., P.240.

(5) الطحاوي، الاقتصاد...، ص.201.

يكون بايل (أي حاكم مستعمرات البندقية في بلاد الشام)، كما أنه احتفظ بمنصبه لعدة سنوات⁽¹⁾، حتى وإن كانت هذه الفترة متأخرة، إلا أنها تعطينا صورة تكاد تكون واضحة عن نفوذ المدن التجارية الإيطالية في بلاد الشام.

إن الموسم الفلاحي في فلسطين وغيرها من أراضي الشام، كان يبدأ قبل نزول الأمطار، وبصفة خاصة كان في بيت المقدس يبدأ منذ منتصف شهر نوفمبر. وقد شكلت المحاصيل الشتوية الركيزة الأساسية، ويتم حرق جميع الأراضي جزء منها يُعد للمحاصيل الشتوية وجزء منها للمحاصيل الصيفية. وأما بخصوص الأراضي التي أُعدت للمحاصيل الشتوية، فيزرع بها القمح والشعير، والجزء المتبقي يخصص للمحاصيل البقلية مثل البسلة (البازلاء) والعدس وغيرها، في حين أن الجزء الآخر يبقى في فترة راحة، ويظل محروثا ليزرع العام المقبل بالمحاصيل الشتوية، والتي يبدأ حصادها في فصل الربيع⁽²⁾.

إن مزاوله نشاط المحاصيل الصيفية يتطلب حراثة الأرض في فصل الخريف، ثم حراستها للمرة الثانية في فصل الربيع وعندئذ تصبح جاهزة لزراعتها بالمحاصيل الصيفية⁽³⁾.

ولقد اعتنى الصليبيون بأنواع الزراعات في المملكة خاصة، للاستفادة منها مباشرة أو من مشتقاتها، فمثلا نبات السمسم شكل مصدرا من مصادر الزيت النباتي⁽⁴⁾، وهو من المحاصيل ذات الأهمية، بالإضافة إلى البسلة (البازلاء) الصغيرة، وحبّة الدخن بنوعيهما والذرة السكرية، وقد كان بالإمكان زراعة مساحات شاسعة من هذه الأراضي بأقل جهد⁽⁵⁾. وفي جوار بيت المقدس تكثرت أشجار الكرمة والفاكهة والتين والزيتون والخروب، بالإضافة إلى أنواع أخرى من الأشجار

⁽¹⁾ هايد وليم، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ت. أحمد محمد رضا، الهيئة العامة المصرية للكتاب، 1985، ج. 1، ص. 167.

⁽²⁾ براور، الاستيطان...، ص. 443.

⁽³⁾ المرجع نفسه، ص. 443.

⁽⁴⁾ جمعة الجندي، الاستيطان...، ص. 143.

⁽⁵⁾ براور، الاستيطان...، ص. 444.

والنباتات⁽¹⁾.

هـ- المحاصيل الزراعية:

1- الفلاح والأرض والسيد الإقطاعي:

إن الوجود الصليبي ببلاد الشام كان له دور في دفع عجلة الاقتصاد الشامي، لأن وجوده ارتبط بالأرض، بل أن بقاءهم ومصيرهم متعلق بها، لكن هذا لا ينفي الدور الذي قام به الفلاح ببلاد الشام، إذ أنه يعد ركيزة أساسية في استغلال الأرض، وقد ارتبط بسيد الأرض بعلاقات، حتى وإن كانت معظمها لصالح السيد الإقطاعي⁽²⁾.

وقد قام السادة الإقطاعيون في القرى الفلاحية ببناء بيوت لفلاحهم⁽³⁾، وكانت مادة البناء هي الحجارة نتيجة سهولة الحصول عليها، وهي أقل تكلفة من الأخشاب، كما كانت هناك أكواخ تُبنى من الطين والقش، وكانت منازل القرية تضم طابقاً واحداً، مزودة بأسقف مفتوحة، بحيث يضع الفلاحون فوقها أدواتهم الفلاحية، كما تُستخدم كمستودع للحبوب، وتُستعمل أيضاً للنوم صيفاً⁽⁴⁾. وقد احتوت منازل القرية على فناء داخلي، أُستعملت بعض أجزائه لتربية الماشية والدواجن، كما كان لبعض البيوت أقبية تحت الأرض لتخزين الحبوب⁽⁵⁾، بالإضافة إلى تزويد المنزل بفرن لإعداد الخبز، وكان وقود الفرن هذا من الفضلات الجافة للحيوانات، والحطب من أغصان الأشجار والنباتات الشوكية الجافة⁽⁶⁾.

إن العلاقة التي جمعت بين الصليبيين والمسلمين، ليست بحد ذاتها علاقة حاكم ومحكوم، بل كانت لقاءً اقتصادياً استفاد منه الصليبيون بالدرجة الأولى، مستغلين اليد العاملة الشامية،

⁽¹⁾ دانيال الراهب، المصدر السابق، ص.62.

⁽²⁾ أحمد الشامي، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، 1985، دار النهضة العربية، القاهرة، ص.202.

⁽³⁾ الطحاوي، الاقتصاد الصليبي...، ص.190.

⁽⁴⁾ براور، الاستيطان...، ص.436.

⁽⁵⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.190.

⁽⁶⁾ براور، الاستيطان...، ص.437.

وأصبحت علاقة مُستغلٍ بمستغلٍ (1).

لقد كان القانون القديم الخاص بالأراضي في الشام، عبارة عن حيازة القرية، حيث تم توزيع الأراضي حسب عدد أفراد كل عائلة ومقدارها، وهناك تم وضع الشروط التي تقسم الأراضي، والتي يتم تخصيصها لكل محراث، وكل مساحة من الأرض فيها الخصيب وغيره (2).

والصليبيون بعد غزوهم للمنطقة لم يُغيروا ذلك، وظلت الكاريوكات كوحدة بيع، وتم تسليم الأبقان والفلاحين المستأجرين، وهكذا لم يكن الفلاحون نازحين قط، ونادرا ما كانوا ينتقلون أكثر من بضعة أميال من القرية بحثا عن مورد قوتهم، على الرغم من أن القانون كان يحظر على الرجال دون السادة التنقل في البلاد إلا لغرض الحج (3).

وقد تلقى الفلاحون قطع أراضي مساحة كل منها 02 كاريوكا (6-8 هكتار)، من حيازة البورجوازيين مع دفع الضريبة العينية والعشور، ماعدا محاصيل الزيتون، وهذا من أجل جذب المستوطنين. وقد تخلى الأسبتيارية عن حقهم المعتاد، بمنح المستوطنين حق التصرف في أراضيهم مقابل دفع مبلغ مالي (4).

وكان السيد الإقطاعي يقدم البذور للفلاحين عند الضرورة لذلك، وفي مقابلها يعطون له دجاجة عن كل أرض محراث (كاريوكا) (5)، وبعد جمع المحصول وأخذه إلى الأجران (موضع درس الحبوب)، يُقسّم إلى أسهم وهذا حسب نصيب السيد الإقطاعي أولا، ثم بعد ذلك أنصبة الرئيس والترجمان والكاتب والفلاحين، وقد كان هؤلاء في مواضع الدرس يقومون بفصل الحبوب عن القش، ثم ينزعون لحاء الحبوب، وبعد ذلك يخبئونها خوفا من الخطر المحدق بهم (6).

(1) براور، عالم...، ص.77.

(2) أنظر:

Conder, the latin kingdom, P.238.

(3) أنظر:

Ibid., PP.238-239.

(4) أنظر:

Boas Adrian, Archaeology, P.73.

(5) أنظر:

Conder , the latin kingdom, P.240.

(6) الطحاوي، الاقتصاد...، ص.202.

ويذكر لنا ابن جبير أثناء رحلته إلى بلاد الشام، وهو يصف لنا تلك الضياع، ومَن كان بها من الصليبيين والمسلمين وما يجري بينهم، حيث يقول: "ورحلنا من تبنين... وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة، سكانها مسلمون، وهم مع الإفرنج على حالة ترفيه، نعوذ بالله من الفتنة، وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة، عند أوان ضمها وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط، ولا يعترضونهم في غير ذلك، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضا، ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم. وكل ما بأيدي الإفرنج من مدن بساحل الشام على هذه السبيل، وقراهم وضياعهم كلها للمسلمين"⁽¹⁾.

ويضيف قائلاً وهو يصف أحوال الفلاحين المسلمين، في أراضي إخوانهم المسلمين، حيث يقول: "وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم، لمّا يبصرون عليه إخوانهم من أهل رساتيق (قرى ضياع) المسلمين وعمالهم، لأنهم على عكس أحوالهم من الترفيه والرفق. وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين، أن يشتكي الصنف الإسلامي جور صنفه المالك له، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الإفرنج، ويأنس بعدله فإلى الله المشتكى من هذه الحال"⁽²⁾.

هنا أعطانا صورة لتعامل الصليبيين مع فلاحهم من المسلمين بالرفق والتعامل بالحسنى، لأن ذلك فيه مصلحة لهم بالدرجة الأولى، كما أن هذه الفترة وهي أواخر القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري)، تعد فترة ساد فيها التقارب والتفاعل بين المجتمعين الغربي والشرقي، وأصبح تحقيق المصلحة من الأولويات. بينما الصورة الثانية التي أعطاها لنا، وهي تعامل المسلمين مع فلاحهم من المسلمين، لا ترقى إلى مستوى أحسن وجعلت الفلاح المسلم ينظر إلى سيده المسلم بنظرة ملؤها الغل والحقد، بل جعلته يفقد ثقته فيه ويفتنن بمن هو قادم من أوربا.

إن عدم وجود السخرة في القرى الفلاحية الصليبية في بلاد الشام، أدى إلى أن يكون وضع الفلاحين الشاميين أحسن حالا من أقرانهم في الغرب اللاتيني، ولم يكن بمقدور الصليبيين تطبيق

⁽¹⁾ المصدر السابق، ص.ص. 274-275.

⁽²⁾ ابن جبير، المصدر السابق، ص. 275.

نظام اقتصاد الضيعة⁽¹⁾ في فلسطين ومناطق الشام الأخرى، وهذا نتيجة ضعفهم في إيجاد نظام سياسي ومعيشي أحسن من النظام الذي كان موجود بهذه المناطق ذات الخصب.

فلم تقم المملكة الصليبية بتقسيم الأرض بين السيد الإقطاعي ومستأجريه، بل كان السيد هو الذي يستغل أملاكه، التي يعمل فيها مجموعة من الأبقان بشكل إلزامي، ولم يحتفظ بجزء من الأرض ليستغلها لنفسه، وقد كان الفلاحون يحرقون جميع أراضي القرية، وبالتالي لا إجبار للفلاحين بالعمل في أراضي السيد الإقطاعي، وبهذا كانت السخرة ممقوتة في نظام اقتصاد الضيعة، وقلما كان الصليبيون يطبقونها⁽²⁾.

حيث لم يطبق على الفلاح تأدية التزام السخرة الأسبوعية، وهي القيام بالعمل في أرض السيد ثلاثة أيام في الأسبوع، أو تأديتها أثناء النشاط الفلاحي، مثل البذر والحرق والحصاد. وعلى الرغم

⁽¹⁾ يطلق عليه النظام السنيوري أو نظام السيادة *Seigniorial System*، يعزى إليه تحديد الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للفلاحين، وهو شبيه بالنظام الإقطاعي الذي حدد وضع طبقة المحاربين ونظم حياتهم العامة، غير أن النظامين يختلفان والرباط الوثيق بينهما هو الأرض. فالنظام السنيوري المتعلق بالفلاحين وتنظيم علاقتهم بالملاك الإقطاعيين لا يدخل ضمن التنظيم الإقطاعي، وإنما على هامشه، لأن هذا الأخير كان أساسه علاقة حر بحر، وتبعية سيد لآخر أقوى منه، وفق التزام بينهما يضمن الحقوق والواجبات. أما بخصوص النظام السنيوري فهو عكس ذلك وتقوم العلاقة بينهما على أساس سيد حر مالك للأرض بمزارعين أبقان مرتبطين بالأرض. أي أن العلاقة بين سيد يتمتع بحريته وبق مرتبطين بالأرض فاقد لحريته. وفيما يتعلق بالبقن وارتباطه بالأرض فإنما كان من أجل أن يقوم بخدمات معينة ويدفع الضرائب لسيد الإقطاعي، فإذا لم يوفق في القيام بها، فإنه في هذه الحالة يصبح عرضة للبيع أو الاستبدال أو الطرد، وهي الأكثر خطورة بمعنى يصبح القن دون سيد يحميه، وبهذا أصبحت حياته في خطر، في مجتمع تميز بالفوضى وعدم الاستقرار. وإذا كان النظام الإقطاعي لم يتحدد إطاره ويتكون في الغرب اللاتيني إلا في القرنين التاسع والعاشر، فكذلك الفضل يعود لهذين القرنين في تحديد نظام الضيعة *Manorial Regime* أو ما يعرف بالنظام السنيوري، لأن في القرنين المذكورين ازداد عدد من فقد حريته، بل أصبحت قرى بأكملها ضمن محيط الاستعباد، وأصبحت ملكيات صغار الفلاحين بيد الإقطاعيين الكبار. وفي الحقيقة أن نظام الضيعة قدم ترجع أصوله إلى جذور رومانية وجرمانية، بل حتى كلتية، غير أن الجديد هنا هو أن أوروبا في العصور الوسطى اتخذته أساسا للحياة الاقتصادية في الوقت الذي تلاشت فيه السلطة المركزية وافلت أهمية المدن المزدهرة في العالم الروماني، بحيث تصدر الضياع المنتج الزراعي وتستورد مختلف المصنوعات. أما في الغرب اللاتيني في العصور الوسطى فقد عُرف نظام الضيعة على أساس أنه وحدة اقتصادية قائمة بذاتها لا تربطها أية روابط تجارية غيرها، وعلى كل من وُجد بالضيعة أن يعتمد على نفسه في كل ما يحتاجه. للمزيد عن المجتمع الزراعي والنظام السنيوري، أنظر: عاشور عبد الفتاح، أوروبا في العصور الوسطى، النظم والحضارة، 1959، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ج.2، ص.ص.71-

من أنها وجدت في تلك الفترة، إلا أن الحكام الصليبيين نادرا ما كانوا يطبقونها، وتمثلت السخرة في القيام بأعمال فعلية في الحقول، وإذ طبقها السيد فإنه كان يطبقها فيما يفيد مصلحته، وخاصة في زراعة قصب السكر وغابات الزيتون، وفي بعض الحالات كانت هذه الخدمة تؤدي بقيمة نقدية ضئيلة، وذلك دليل على عدم أهميتها⁽¹⁾.

وقد كان تقدير موارد الزراعة في المدن الشامية تحت الحكم الصليبي، يتراوح ما بين ثلاثة آلاف إلى خمسة آلاف بيزنت، على أن موارد ودخل القرى كان أعلى من ذلك، نتيجة كبر مساحتها أو قربها من المراكز الحضارية، وهناك قرى بيعت بمبالغ مالية ومنها قرية الدامور، مقابل اثني عشر ألف بيزنت، كما بيعت قرية كفر قانا (قانا الجليل) بمبلغ أربعة وعشرين ألف بيزنت، وقد قُدِّرَ معدل دخل القرية السنوي بخمسمائة بيزنت، علما أن دخل الفارس كان قدره خمسمائة بيزنت، وهي الإقطاعة التي تستحق تقديم خدمة عسكرية مقابل فارس واحد، وكان عائد الاستثمار في الزراعة يتراوح ما بين 10-12%، وهذا قليل مقارنة بعائد الاستثمار في التجارة⁽²⁾. هذا يعني بأن التجارة كانت رائجة وعائداتها مرتفعة.

2- أنواع المحاصيل الزراعية والضرائب:

إن نجاح الحملة الصليبية الأولى في بلاد الشام وخاصة بيت المقدس، قد افرز تنافسا شديدا بين الصليبيين في الحصول على الأراضي، وعلى ما يبدو أن الأراضي الممتدة من بيت لحم شمالا إلى البيرة والرملة على محور سبسطية، أصبحت محط أنظار طوائف الرهبان والفرسان والكنائس والأديرة، والتي كانت تسعى لشراء تلك الأماكن، نتيجة جودة كرومها وليس من أجل القمح. وحقيقة فالزراعة في تلك الأماكن لم تكن أمرا سهلا، إذ أنها تتطلب جهدا من الفلاح⁽³⁾، بالإضافة إلى أن القمح والشعير كانا محصولين رئيسيين في المملكة الصليبية، وكان الفلاحون يزرعون أنواعا أخرى منها الشوفان والذرة، وهي محاصيل زراعية تستخدم في غذاء الإنسان

(1) نفسه.

(2) براور، الاستيطان...، ص. 451.

(3) جمعة الجندي، الاستيطان الصليبي...، ص. 141.

والحيوان معا، فضلا عن الحبوب الجافة والخضروات، مثل الفاصوليا والعدس والحمص والفول، كما زرعوا الخيار والقاوون الأصفر (الشمام)، والقاوون الأحمر (البطيخ)⁽¹⁾.

ويصف ابن بطوطة مدينة نابلس عند وصوله إليها، بقوله: "مدينة عظيمة كثيرة الأشجار... بها البطيخ المنسوب إليها وهو طيب عجيب"⁽²⁾، بالإضافة إلى أن هناك أنواعا أخرى وُجِدَت على موائد الصليبيين، تمثلت في البصل والثوم والخردل، كما أن هناك نباتات أخرى كانت تُستخدم كتوابل وبهارات⁽³⁾.

كما أن الصليبيين كانوا يستعملون بعض الأعشاب، من بينها المريمية والشمر والسذاب⁽⁴⁾، وخاصة هذا الأخير، إذ أنه ينبت بكثرة في قرية العنب، حيث يقول ناصر خسرو: "غادرت الرملة... إلى قرية أخرى تسمى العنب، وقد رأينا في الطريق كثيرا من نبات السذاب، الذي ينبت بريا على الجبال وفي الصحراء"⁽⁵⁾، وعلى ما يبدو أن نبات السذاب والشمر، بالإضافة إلى نبات القصعين (المريمية) كانت تُستعمل كأعشاب طبية⁽⁶⁾.

وقد أحاط الصليبيون مدن مملكتهم بالحدائق والبساتين والخضروات، كما كُثرت أشجار الزيتون على حواف التلال، حيث توجد التربة الصالحة لذلك، وعادة ما كُثرت أشجار الزيتون في الجهة الجنوبية من بيت المقدس، إذ أنها تركزت بالقرب من الخليل والقدس ونابلس وبيت لحم، بالإضافة إلى عسقلان ويافا وأرسوف وقيصرية وعكا، كلها كانت ذات غابات من الزيتون⁽⁷⁾.

ويقول ناصر خسرو بشأن ذلك: "والزراعة وأشجار الزيتون، والتين وغيرها تنبت كلها بغير ماء،

⁽¹⁾ نفسه، ص. 142.

⁽²⁾ ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المطبعة الخيرية، 1322هـ/1904م، (د.ب.ن)، ص. ص. 41-42.

⁽³⁾ براور، الاستيطان...، ص. 430.

⁽⁴⁾ جمعة الجندي، الاستيطان...، ص. 142.

⁽⁵⁾ خسرو، المصدر السابق، ص. 66.

⁽⁶⁾ براور، الاستيطان...، ص. 430.

⁽⁷⁾ جمعة الجندي، الاستيطان...، ص. ص. 142-143.

وخيراتها كثيرة ورخيصة، حتى أن فيها أرباب عائلات يملك الواحد منهم خمسين ألف من⁽¹⁾، من زيت الزيتون⁽²⁾. وقد كانت في عكا وضواحيها بساتين الزيتون، وكان استغلالها تجارياً، بحيث يتم جني الزيتون ويعصر في كل القرى، وكانت المعاصر تدار في غالبها بالحيوانات، وأحياناً أخرى بواسطة الفلاحين⁽³⁾.

لقد كانت تلال فلسطين مغطاة بغطاء نباتي متنوع، وكانت سهول قيسارية تكسوها أشجار السنديان، وفي الأراضي المفتوحة توجد زراعة القمح والشعير، والشوفان والذرة والرز والدخن والعدس والفاصولياء والسّمسم، كما كانت توجد زراعة القطن والكتان⁽⁴⁾ والنيلة⁽⁵⁾ في السهول وغور الأردن⁽⁶⁾.

كما ازدهرت أنواع أخرى في الحدائق المروية، مثل الحمص والبازلاء والخيار والبطيخ، وقد كانت القرية تحتوي على الأقل مائة منزل تُضرب عليهم ضريبة سنوية⁽⁷⁾، إذ أن عدد سكان القرية لم يكن كبيراً، وربما كان ثابتاً أو حتى متناقصاً، وقلما كان هناك أكثر من عشرين عائلة تقيم في

¹ لغة من الماء، يُقال به السّمّن، وقيل الذي يوزن به رطلان. والثنية منوان، والجمع أمناؤ، وفي لغة تميم منّ والجمع أمنان والثنية منّان. وهو يساوي 260 غراماً. وعند الحنفية 812.8 غراماً، بينما عند الجمهور يساوي 773.5 غراماً. أنظر: المقرئ الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، تحقيق عبد العظيم الشناوي، ط.2، (د.ت.ط)، دار المعارف، الإسكندرية، ص.582؛ أنظر أيضاً: علي جمعة محمد، المكايل والموازن الشرعية، ط.2، 2001، القدس للإعلان والنشر والتوزيع، القاهرة، ص.28.

² المصدر السابق، ص.67.

³ جمعة الجندي، الاستيطان...، ص.143.

⁴ نبات عشبي حولي، اسمه العلمي لينم يوسيتاتيسيموم *Linum Usitatissimum*، موطنه حوض البحر الأبيض المتوسط، عرفه السكان القدامى وقاموا بزراعته واستخلصوا أليافه وتصنيعها. للمزيد عن هذه المادة، انظر: الموسوعة العربية الميسرة، ص.2664-2665.

⁵ نيلة أو نيلج، وهي صباغة زرقاء عُرفت منذ القدم، يمكن الحصول عليها من نباتات الجنس إنديجوفيرا *Indigofera* من الفصيلة القرنية، ومن الأنواع الآسيوية إنديجوفيرا تينكتوريا *I. Tinctoria*، حيث يتم تخمير النباتات المعطنة التي تطلق مادة الأنديكان عديمة اللون، التي تتأكسد عند تحريكها إلى النيلة الزرقاء. للمزيد من المعلومات، انظر: الموسوعة العربية الميسرة، ص.3456.

⁶ أنظر: Conder, the latin kingdom, P.240

⁷ أنظر: Ibidem.

القرية الواحدة، مع احتفاظ كل عائلة بـ: واحد إلى اثنين ونصف من أرض المحراث (كاريوكا)⁽¹⁾، وأن عدد أفراد الأسرة الواحدة كان يتراوح ما بين ثلاثة إلى أربعة أفراد، إذ أن الاستيطان الصليبي في الريف الشامي تميز بقلّة عدد السكان، وهذا خاصة في الفترة الباكّة منه⁽²⁾، وأن الأسرة في القرية الزراعية كانت تمتلك من واحد ونصف كاريوكا إلى كاريوكتين فقط⁽³⁾.

والمشكل المطروح ليس في الأراضي الزراعية، ولكن يكمن في نقص اليد العاملة بهذا القطاع⁽⁴⁾، وقد كانت الثمار في الحدائق هي نفسها كما هي الآن، مثل التين والزيتون والرمان والمشمش والبرتقال والموز واللوز، لقد غطت أشجار الزيتون سفوح الجبال والتلال، بينما ازدهرت مزارع الكروم في المرتفعات⁽⁵⁾.

ولم تكن زراعة قصب السكر محصورة في طرابلس، فلا تزال طواحين السكر الصليبية القديمة بالقرب من أريحا وعكا وصور، وغيرها من المدن الشامية وخاصة بيت المقدس⁽⁶⁾. وبالرغم من ندرة المياه في بيت المقدس، إلا أن سكانها يمارسون زراعة الحبوب، بل أنها مزدهرة، حيث يقول دانيال الراهب: "فالحنطة تزدهر بشكل جيد في تلك الأراضي الصخرية التي ينقصها المطر، والحمد لله على فضله ورحمته، حيث أن محاصيل القمح والشعير ممتازة، وعند بذر مكيال واحد نستطيع الحصول على مائة وتسعين عند الحصاد"⁽⁷⁾.

بينما يقول براور: "إنتاجية الأرض كانت ضعيفة، فالهكتار مثلا من الأراضي الزراعية الذي تزرع فيه كمية 33 كلغ من بذور القمح، أو كمية 26 كلغ من بذور الشعير، كان يُعطي وقت جني المحصول خمسة أو سبعة أمثال وزن هذه التقاوي (البذور)، التي أُستعملت في الزراعة من

Archer, Kingsford, the crusades, PP.292,294.

⁽¹⁾ أنظر:

⁽²⁾ براور، الاستيطان...، ص.449.

⁽³⁾ نفسه، ص.445.

⁽⁴⁾ نفسه.

Conder, the latin kingdom, P.240.

⁽⁵⁾ أنظر:

Ibid., P.240-241.

⁽⁶⁾ أنظر:

⁽⁷⁾ المصدر السابق، ص.62.

القمح وعشرة أمثال، أو ثلاثة عشر مقدار وزن التقاوي من الشعير. وبالتالي فإن إنتاجية الهكتار المزروع قمحا هو 150 كيلوغرام و200 كيلوغرام من الشعير⁽¹⁾، وطبعا هذا يرجع إلى اختلاف خصوبة التربة في بلاد الشام.

وبالرغم من استمرار الصراع بين المسلمين والصليبيين، إلا أن الضرورة حتمت أن يكون هناك تقاربا ولو لفترة معينة، به تتحقق المصالح ويُدفع به الخطر ويحفظ الأمن. وفي إطار ذلك كانت هناك مناطق حدودية اتفق الجانبان بشأنها، وأن تكون آمنة يتقاسمان النشاط فيها، والتي تُسمى ببلاد المناصفت، وهذه الأخيرة إما أن تكون للمسلمين ويتنازلون عن نصفها للصليبيين لدفع شهرهم، وإما أن تكون من نصيب الصليبيين ويقتسمونها مع المسلمين من أجل المهادنة⁽²⁾.

وبمرور الوقت تطورت بلاد المناصفت، وأصبحت تديرها إدارة إسلامية صليبية يرأسها نائبان، أحدهما يمثل سلطان المسلمين والثاني يمثل الملك أو الأمير الصليبي، الذي وافق على عقد هذا الاتفاق الخاص بأرض المناصفت. وقد كانت الاتفاقية تنص على أن لا ينفرد أحد النائين بشيء إلا باتفاق من الجهتين، وقد كان يعمل تحت قيادة كل نائب هيئة إدارية، بها عدد من الموظفين مختلفة الاختصاصات، مثل جمع الرسوم والضرائب، وكذلك أمور تتعلق بالمحاكمات وتنفيذ الأحكام⁽³⁾.

وبشأن بلاد المناصفت، يقول القلقشندي: "وعلى التجار والسفّار المترددين من جميع الجهات المذكورة، يكونون آمنين من الجهتين الإسلامية والإفرنجية في البلاد التي وقعت هذه الهدنة عليها"⁽⁴⁾، ومن أمثلة ذلك اقتسام الصليبيين مع مسلمي دمشق -قبل تبعيتها لنور الدين محمود- حصاد بعض الأراضي الزراعية الحدودية سنة 502هـ/1109م، بموجب المعاهدة بين الملك بلدوين الأول (1100-1118م) وظهير الدين طغتكين على اقتسام منتج أرض السواد وجبل

⁽¹⁾ الاستيطان...، ص.445.

⁽²⁾ علي السيد علي، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، 1996، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ص.45.

⁽³⁾ علي السيد علي، المرجع السابق، ص.45.

⁽⁴⁾ المصدر السابق، ج.14، ص.37.

عوف، بحيث يأخذ ظهير الدين التث والمك الصليبي التث والتث الآخر للفلاحين⁽¹⁾.
وبخصوص ذلك الاتفاق، يقول ابن القلانسي: "وفيها (أي سنة 502هـ) ترددت رسل الملك
بغدوين إلى ظهير الدين في التماس المهادنة والموادعة فأستقر الأمر بينهما، على أن يكون السواد
وجبل عوف أثلاثاً، للأتراك التث وللإفرنج والفلاحين التثان، فانعقد الأمر على هذه القضية وكتب
الشرط على هذه البنية"⁽²⁾.

كما يذكر مرة أخرى الاتفاق الذي كان يُعقد بشأن اقتسام الأراضي، التي وقع عليها
الصراع: "وفيها وصل (سنة 503هـ/1110م) الملك بغدوين صاحب بيت المقدس إلى ناحية بعلبك
وعزم على الإفساد في ناحية البقاع، وترددت المراسلة بينه وبين طغتكين أتابك في هذا المعنى،
إلى أن تقررت الموادعة بينهما، على أن يكون التث من استغلالات البقاع للإفرنج، والتثان
للمسلمين والفلاحين، وكتب بينهما المواصفة بهذا الشرح في صفر من السنة"⁽³⁾.

وبما أن الصليبيين كانوا يستخدمون المسلمين، في قراهم الفلاحية ومنها قرى بانياس، جرى
اقتسام منتجها سنة 1184م/580هـ مقاسمة بينهما، كما أن التعاون في هذه الجهة بلغ حداً
متقدماً، ومنه أصبحت مواشي الجميع ترعى بحرية تامة⁽⁴⁾.

ويقول ابن جبير بشأن ذلك: " هذه المدينة (بانياس) ثغر بلاد المسلمين... كانت بيد الإفرنج
فأسترجعها نور الدين رحمه الله، ولها محرث واسع في بطحاء متصلة يُشرف عليها حصن للإفرنج
يسمونه هونين، بينه وبين بانياس مقدار ثلاثة فراسخ (حوالي 5 كلم). وعمالة تلك البطحاء بين
الإفرنج والمسلمين، لهم في ذلك حد يعرف بحد المقاسمة، فهم يتشاطرون الغلة على استواء،
ومواشيهم مختلطة ولا حيف يجري بينهما فيها"⁽⁵⁾.

⁽¹⁾ الطحاوي، صفحات من النشاط الاقتصادي...، ص. 127.

⁽²⁾ المصدر السابق، ص. 164.

⁽³⁾ ابن القلانسي، المصدر السابق، ص. 171.

⁽⁴⁾ الطحاوي، صفحات من النشاط الاقتصادي...، ص. 127.

⁽⁵⁾ المصدر السابق، ص. 273-274.

كما أن فلاحي تبنين القريبة من عكا، كانوا يقتسمون محصول الأراضي الفلاحية التي يعملون بها مع الصليبيين، بالرغم من دفع ضريبة الرأس المقررة عليهم⁽¹⁾. ويقول رنسيمان: "وكان على كل فرد من الفلاحين أن يدفع ضريبة الرأس الشخصية لسيدده، إلى جانب ما تدفعه القرية على إنتاجها، وكان على الرعايا المسلمين دفع العشر أو الدايم Dime (أي مبلغ ضئيل) وعائده إلى الكنيسة"⁽²⁾.

ويُعد حصن تبنين من حصون الإفرنج لتمكيس القوافل، والضريبة فيه دينار وقيراط⁽³⁾، من الدنانير السورية والتي تفرض على الرأس، "ولا اعتراض على التجار... وهو محل التعشير والضريبة فيه قيراط من الدينار، والدينار أربعة وعشرون قيراطا"⁽⁴⁾.

إن المحاصيل الزراعية في مملكة بيت المقدس كانت متنوعة، وفي مقدمتها القمح والشعير، فضلا عن وجود البقوليات والخضروات، وقصب السكر والأشجار ذات الثمار. وبالرغم من أن صليبي المملكة توسعوا في بعض الزراعات، إلا أن المملكة استمرت في إنتاج مختلف المحاصيل الموجودة في تلك الفترة⁽⁵⁾.

وقد كانت لزراعة الكروم حينذاك مكانة رائدة، فقد كانت العناية بها كبيرة جدا، نتيجة تنوع ثمارها وعصيرها. وأثناء الحكم الإسلامي للمنطقة تم تحديد الممارسين لهذا النشاط، بسبب تحريم تناول النبيذ، حتى وإن استمر النصارى في صناعته، ولكن بعد الاحتلال الصليبي لبيت المقدس ازداد الطلب على النبيذ، وكثرت زراعة الكروم، فأدى ذلك إلى انتعاش هذه الصناعة⁽⁶⁾.

⁽¹⁾ الطحاوي، صفحات من النشاط الاقتصادي...، ص.127.

⁽²⁾ المصدر السابق، ج.2، ص.347.

⁽³⁾ جزء من أجزاء الدينار، وقد اختلفت المذاهب في تحديد مقداره، فالخفية عندهم يساوي 20/1 من الدينار، أي 20/4.25

تساوي 0.2125، بمعنى القيراط يساوي 0.2125 غرام. أما عند الجمهور قيمته 24/1 من الدينار، أي 24/4.25

تساوي 0.1771، بمعنى أن القيراط يساوي 0.1771 غرام. للمزيد، أنظر: علي جمعة محمد، المكايل والموازين الشرعية، ص.23.

⁽⁴⁾ ابن جبير، المصدر السابق، ص.274.

⁽⁵⁾ مصعب حمادي، الاستيطان...، ص.294.

⁽⁶⁾ جمعة الجندي، الاستيطان الصليبي...، ص.143-144.

ونتيجة لتواجد المدن الإيطالية في بلاد الشام، ودورها الفعال في تثبيت أقدام الصليبيين، ومن بينها البندقية، فقد أصبح لهؤلاء ممتلكات ريفية بالمملكة الصليبية، إذ أنهم امتلكوا ما يقارب ثمانين ضيعة من ضياع مدينة صور، وكانت ملكا حقيقيا لمستعمرة البندقية في الشام، حتى وإن كانت في القرن الثالث عشر الميلادي (1243م)، إلا أنها تدل على النفوذ المتزايد للبنادقة بالمنطقة⁽¹⁾. ولقد امتدت الأراضي الزراعية للقومون⁽²⁾ البندقي من ساحل البحر إلى مرتفعات مدينة صور، والتي تكثر بها زراعة الكروم وأشجار الزيتون وقصب السكر، وقد مثلت القرى التي هي بحوزة البنادقة نصيبهم من المدينة، فقد حصلوا على الثلث مقابل حصول الملك على الثلثين، وهذا نتيجة اتفاقية باكتوم وارموندي Pactum Warmundi سنة 1123م⁽³⁾، التي أعطتهم حق تملك حي بأكمله في جميع مدن المملكة، وهذا يرجع لفضل البنادقة عليها، فضلا عن رغبة المملكة في الحصول على المزيد من المساعدات، في محيط يتربص ساكنوه وخاصة المسلمين الانقضا على محتليه⁽⁴⁾.

ويقول فوشيه الشارترزي بشأن الأراضي حول مدينة صور بعد أخذها: " تم تسوية الأمور في صور حسب الأصول، إلى ثلاثة أجزاء متساوية، أعطي منها اثنان لسلطة المدينة، أما الجزء

⁽¹⁾ هايد، المرجع السابق، ج.1، ص.167.

⁽²⁾ أطلق اسم القومون على مجموعة المدن في العصور الوسطى الأوربية، تمتع فيها المدن بسيادة سياسية مستقلة، لعب التجار وأصحاب الحرف دور المدافع عن هذه القومونات، مُشكّلين جبهة دفاع ضد الأمراء الإقطاعيين، وبذلك كونوا اتحادا أي قومونا، وتم بناء الأسوار حول المدن وتشريع القوانين من أجل تحسين أوضاعهم الاجتماعية الاقتصادية. وكان ظهور القومون لأول مرة في إيطاليا وتحديدًا في توسكانيا Tuscany ولومبارديا Lombardy في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي. بعدها أصبحت للقومونات قوة سياسية وانتشرت هذه الظاهرة في كل من فرنسا وألمانيا وأجلترا. أما فيما يخص التزام القومونات أمام السلطة العليا، كالمملك والإمبراطور فقد كانت تتم عبر دفع مبلغ مالي يُدفع سنويا مع أداء الخدمة العسكرية. وقد انتقل هذا التنظيم إلى بلاد الشام مع الحروب الصليبية. للمزيد عن ذلك، أنظر: تنمة كتاب وليم لصوري والمنسوب خطأ إلى روثلان 1229-1261م، ترجمة وتحليل وتعليق، أسامة زكي زيد، ط.2، 2001، دار المصطفى للطباعة والنشر، طنطا، مصر، ص.ص.235-236، حاشية (5)؛ للمزيد عن القومونات في العصور الوسطى، أنظر: عاشور عبد

الفتاح، أوربا في العصور الوسطى، ج.2، ص.ص.105-107.

⁽³⁾ الطحاوي، الاقتصاد الصليبي...، ص.203.

⁽⁴⁾ أنظر:

الثالث الذي وقع داخل المدينة، وفي ما حول المرفأ فقد أُعطي لأهل البندقية، نتيجة تنازلات متبادلة تم الاتفاق عليها واحداً أثر الآخر، ليحتفظوا به حقا وراثيا لهم⁽¹⁾. ولم يقد القومون البندقي بتسيير هذه القرى تسييرا مباشرا، بل اشترك مع بعض العائلات البندقية، التي استوطنت المنطقة مثل عائلة بنتاليون Pantaleon وكونترني Contreni في القرن الثاني عشر الميلادي، بالإضافة إلى عائلة جوردانز Jordains في القرن الثالث عشر الميلادي⁽²⁾.

وهذا لا يعني أنهم كانوا يهملونها، بل كانت مصدر دخل آخر لهم، فقد كانوا يقدمون للفلاحين بذورا (لتجود زراعة أراضيهم)، ويُعيّنون من يشرف على إدارة هذه المزارع، يُطلق عليهم جاستالديونيز Gastaldiones، وكان الفلاحون الحقيقيون لهذه المزارع سوريين، وحسب الاتفاق يُترك لهؤلاء ثلثا أو ثلاثة أرباع المحصول، ولم يكن للجالية سوى الثلث أو الربع، إضافة إلى ذلك كان المزارعون غالبا ما يعطون لحاكم مستعمرة البندقية ثلاث مرات في السنة، في بعض مناسبات الأعياد دجاجة أو عشر بيضات أو مقدار من الجبن... إلخ من كل حرت⁽³⁾.

كما أن السخرة قد ذُكرت وعلى الفلاحين تنفيذها بدوابهم، وكانت مجموعة من المحاريت تشكل كاسال Casal حرة، وعلى ما يبدو أن جزء من الأرض الممنوحة للفلاحين كان معفى من الضرائب، وبخصوص هؤلاء الفلاحين أنهم لم يصلوا إلى طبقة القنانة، وهذه ميزة جديدة في العرف الإقطاعي في بلاد الشام⁽⁴⁾.

ويقول حاتم الطحاوي: "على ما يبدو أن البنادقة أجبروا الفلاحين على العمل بأسلوب السخرة، على أساس عمل يوم واحد عن كل كاريوكا مزروعة، وخاصة قصب السكر، كما أجبروهم أيضا على نقل نصيب البنادقة من القرى إلى مخازن الحبوب في القومون، وكذلك الإشراف على نظام

⁽¹⁾ المصدر السابق، ص.ص. 217-218.

⁽²⁾ الطحاوي، الاقتصاد الصليبي...، ص. 203.

⁽³⁾ هايد، المرجع السابق، ج. 1، ص. 167-168.

⁽⁴⁾ نفسه، ج. 1، ص. 168.

الري بقناة رأس العين⁽¹⁾.

وبما أن أرض الشام أصبحت ميدانا خصبا للوافدين من الغرب اللاتيني، ليس للفرسان فحسب، بل أصبحت الكنيسة هي الأخرى تسعى للمزيد من الحصول على الإقطاعات، لعلها بذلك تحقق مآربها. كما أن ملوك بيت المقدس حاولوا كسب تأييدها وتفادي ردود فعلها، ولهذا قام الملك بولدوين الأول (1100-1118م) بمنح الكنيسة أراضي زراعية، خاصة بزراعة الكروم حول مدينة بيت المقدس لكنيسة المهد في بيت لحم، وهذه الممتلكات كانت ضمن أملاكه الخاصة، مما أثار حفيظة رجال الدين في كنيسة القيامة⁽²⁾، ويتبين من ذلك كانت هناك منافسة بين رجال الدين في الأراضي المقدسة.

وقد مارس رجال الدين نشاطهم الزراعي في الأراضي التي حصلوا عليها، وقاموا بتطويرها وازدهارها، وبخصوص تقسيمها فقد كانت شبيهة بمساحات أراضي السادة الإقطاعيين العلمانيين. وكانت الكاريوكا هي وحدة قياس المساحات الزراعية، كما أنهم أقاموا الأبراج من أجل حمايتها، فضلا على أنهم اتبعوا الدورة الزراعية نفسها، والتي اتبعها غيرهم من الصليبيين في الشام. وقد توسعوا في زراعة الكروم والزيتون والحبوب، وغيرها من الخضروات⁽³⁾.

ولذلك نرى لهم وجودا في مستوطنة البيرة⁽⁴⁾، الواقعة بالقرب من مدينة القدس، وكانت بمثابة محطة لجذب المستوطنين الجدد، بحجة حماية المقدسات الدينية لللاتين في فلسطين، وهي في الحقيقة إستراتيجية صليبية للاستيلاء على مزيد من الأراضي نفذتها الكنيسة خدمة لمصالحها هي الأخرى.

⁽¹⁾ الاقتصاد الصليبي...، ص. 203.

⁽²⁾ نفسه.

⁽³⁾ الاقتصاد الصليبي...، ص. 204.

⁽⁴⁾ بيّره: بلدة قديمة تعود جذورها التاريخية إلى العرب الكنعانيين، والراجح أن البيرة بنيت على آثار مدينة بثروت (الآبار) الكنعانية، وفي العهد الروماني أُطلق عليها اسم بيريه Berea، وهي من أعمال القدس. أنظر: الدباغ مصطفى مراد، بلادنا فلسطين، 1991، دار الهدى كفر قرع، ج. 8، ق. 2، ص. 256.

وقد أطلق الصليبيون على هذه المستوطنة اسم ماغنا ماهوميريا Magna Mahumeria، أي منطقة التعبد الكبرى أو المستوطنة الدينية الكبرى⁽¹⁾، التي تقع شمال بيت المقدس، وكانت هذه القرية من بين ما منحه الدوق جودفري حاكم بيت المقدس (1099-1100م) لكنيسة القيامة، وبهذا أنشأ رجال الدين مستوطنة البيرة. علما أنه كان يسكنها المسلمون، ومن المرجح أن المستوطنة نمت بالتدريج لأن رجال الدين قاموا بجلب المستوطنين اللاتين الأحرار واقطعواهم الأراضي لزراعتها، مقابل ضريبة العشر واقتسام المحصول معهم⁽²⁾.

ويقول إين بلوم: "في الحقيقة أن المستوطنة الزراعية في ماهوميريا، تم تأسيسها كمستوطنة في مثل هذه الفترة المبكرة، ويمكن للمرء التعرف على الأهداف الأصلية للمستوطنين. ولا شك أن كنيسة القبر المقدس لم تكن لديها أي نية لإنشاء "موقع عسكري. ويبدو أنه بعد فترة وجيزة من استلام الأرض من جودفري البويوني، بدأوا في إنشاء منطقة ريفية، وأصبحت بعد خمسة وعشرين عامًا مستوطنة زراعية محصنة"⁽³⁾.

وفي هذه القرية أنفة الذكر تحمل مستوطنوها على عاتقهم، زراعة الكروم والبساتين وتربية المواشي، فضلا عن وجود بعض الحرف بهذه المستوطنة، كالحدادة والنجارة وغيرها فيما يتعلق بأعمال البناء وصناعة الأحذية، وتعهد مستوطنوها بدفع ضريبة العشر لرجال الدين الذين يشرفون عليها⁽⁴⁾، والتي كانت تدفع من ضريبة الخراج التي تعهد الفلاحون بدفعها.

كما أن الضريبة الزراعية التي كان يدفعها الفلاحون للسلطات الصليبية، كانت قيمتها تُقدر بثلاث المحصول المُنتج، حيث لم تكن هذه الضريبة باهظة، مقارنة بضرائب الغرب اللاتيني التي فرضت على الفلاحين هناك في الحقبة نفسها، أو حتى مقارنة بالضرائب في الفترة الحالية، غير

⁽¹⁾ رياض مصطفى أحمد شاهين، حسام حلمي الآغا، المرجع السابق، ص.85.

⁽²⁾ ثيودريش الرحالة الألماني، وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، القرن 12م/6هـ، ت. البيشاوي سعيد عبدالله، رياض مصطفى شاهين، 2003، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ص.124، حاشية (1).

⁽³⁾ أنظر: op.cit., P.74.

⁽⁴⁾ رياض مصطفى أحمد شاهين، حسام حلمي الآغا، المرجع السابق، ص.87-88..

أن هذه الضرائب كانت تزداد في صورة مبالغ مالية إضافية على شكل منح⁽¹⁾. كما كانت هناك مستوطنات أخرى مارست نشاطها الزراعي، وذلك مثل مستوطنة القبيبة التي أقامها رجال الدين في ضواحي بيت المقدس، وأطلق عليها منطقة التعبد الصغرى بارفا ماهوميريا Parva Mahumeria⁽²⁾، بالرغم من أنه لم يرد ذكر مستوطنة بارفا ماهوميريا الفرنجية (القبيبة) في الوثائق اللاتينية للنصف الأول من القرن الثاني عشر. ولا يوجد أيضاً أي تلميح لوجودها في القوائم التفصيلية للممتلكات التابعة لكنيسة القبر المقدس، كتلك التي أكدها بالدوين الأول في عام 1114م، أو في القائمة اللاحقة التي أكدها البابا سيلستين الثاني (Celestin II) (1143-1144م)⁽³⁾، وقد تم العثور على أول تلميح لوجود مستوطنة الفرنجة في بارفا ماهوميريا في وثيقة صدرت في عام 1159م، تصف هذا التبرع بأنه إلى تنظيم القديس لازاروس St. Lazarus، حيث تصف قرية بيت عنان، غرب القبيبة، وتبدو أن بيت عنان Anan لم تكن مكاناً مقفراً، لكن تبدو أنها لم تكن قرية، وتوصف بيتانام Anan " Bethanam " بأنها جزء من ماهوميريا⁽⁴⁾. وبعد خمس سنوات أي سنة 1164م، تم ذكر بارفا ماهوميريا بالفعل في قائمة الممتلكات الخاصة لكنيسة القبر المقدس، والتي أكدها أمالريك (عموري) كونت يافا وعسقلان⁽⁵⁾.

بالإضافة إلى أن هناك مستوطنة راماتيس، وقد قام رجال الدين بوضع ضرائب على المساحات التي زُرعت قمحا وخضروات، وأن الفلاحين دفعوا ربع أو ثلث المحصول، كما هو متعارف عليه في الأراضي التي هي بحوزة السادة الإقطاعيين، وربما أن رجال الدين لم يفرضوا الضرائب على الأعشاب الطبية والنباتات⁽⁶⁾.

⁽¹⁾ براور، الاستيطان...، ص.447.

⁽²⁾ رياض مصطفى أحمد شاهين، حسام حلمي الآغا، المرجع السابق، ص.89.

⁽³⁾ أنظر: Ellenblum, op.cit., P.86.

⁽⁴⁾ أنظر: Ibidem.

⁽⁵⁾ أنظر: Ibid., P.87.

⁽⁶⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.204.

وقد كانت هناك ضرائب أخرى تُضرب على الفلاحين، في القرى الزراعية مثل ضريبة الإتاوة أو الجباية Exenia أو Xenia، التي تعني في أصلها الهدايا والهبات، علما أن هذا النوع من الضريبة هو التزام مالي كان يُدفع في الأعياد الدينية، أو في مناسبات مرتبطة بالتقويم الزراعي. وبالرغم من أنها تدفع في أوقات محددة كما ذكرنا، فإنها شكلت مورداً مالياً ثابتاً، لذا ادعى رجال الدين أحقيتهم في هذه الضرائب، وأقر الملك بولدوين الرابع (1161-1185م) لوليم الصوري رئيس أساقفة مدينة صور، منحة عشر ضريبة الهبات والجباية، والتي كانت تُحصّل من سيد توروبن الإقطاعي، وهذا في أعياد الميلاد وقبل أيامهم المقدسة، وقد كانت هذه الالتزامات عبارة عن دجاج وبيض وجبن وخشب⁽¹⁾.

لقد كان ما تمتعت به الكنيسة من اقطاعات الأراضي، وما تجنيه من إيرادات وعشور تسد حاجاتها المختلفة⁽²⁾. ونتيجة لخصب منطقة الشام نجد تنوع محاصيلها الغذائية، منها القمح والشعير وخصوصاً القمح، وكل ذلك في الأجزاء السفلية من المنطقة الساحلية من قليقية وأنطاكية وجبله وغيرها، كما وُجدت مزروعات أخرى مثل الثوم والبصل والفاصولياء والعدس والبطيخ، وغيرها من الخضروات، بالإضافة إلى أشجار الفاكهة⁽³⁾.

علما أن زراعة الحبوب كانت من أهم الأنشطة الزراعية للصليبيين، لأنها تشكل العصب الرئيسي في الاقتصاد الصليبي، وبإمكانها أن تفي بالعرض في مواجهة الشدائد والتصدي للهجمات الإسلامية المرتقبة، ولهذا نجد السهول القريبة من صور وطبرية والجليل وأنطاكية وطرابلس تُزرع بالحبوب⁽⁴⁾.

لقد كثرت مزارع الكروم وأحاطت بكل المدن الساحلية، التي أصبحت بحوزة الصليبيين في مملكة بيت المقدس، كما أنها وُجدت بالمرتفعات والتلال، ولذلك نجدها في كثير من هذه المدن

⁽¹⁾ براور، الاستيطان...، ص.447.

⁽²⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.204.

⁽³⁾ أنظر:

⁽⁴⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.204.

وما حولها، مثل منطقة شمال صيدا وفي الجليل وعلى الخصوص حول بحيرة طبرية والناصرية ومحور سبسطية القدس، وغيرها مثل الرملة ونابلس والقدس وبيت لحم والخليل⁽¹⁾.

كما وُجدت أنواع أخرى من المنتجات، تمثلت في الكمثرى والمشمش والجوز واللوز والفسق وغيرها⁽²⁾. ولقد كانت لكرمة العنب أهمية كبيرة بالنسبة للصليبيين، إذ يُصنع منها النبيذ بأنطاكية وبياع في عكا⁽³⁾. إن خصب تربة بلاد الشام عامة وبيت المقدس بصفة خاصة، جعل منها مكانا لممارسة زراعة الحبوب، فقد كانت المناطق السهلية الغربية القريبة من بيت المقدس باتجاه بيت لحم تنتج القمح، كما وُجدت هذه الحقول في كل من مدينة نابلس والخليل⁽⁴⁾.

ويقول دانيال الراهب بشأن خصوبة التربة، وتنوع محاصيلها ببيت المقدس وضواحيها: "وتتسم المناطق المحيطة ببيت لحم بكونها جبلية جميلة، وتكسو المنحدرات السفلى للجبال أشجار الفاكهة والزيتون والتين وأشجار الخروب، وتكثر كروم العنب قرب بيت لحم، وهناك كثير من الحقول الخصبة في الأودية"⁽⁵⁾.

كما كانت لمدينة صور وضواحيها أهميتها الزراعية، إذ أن المناطق المجاورة لها اشتهرت بحقول القمح، كما أن الشويك Montreal لها أيضا أهميتها في زراعة ذلك المحصول. وقد كان سكان مملكة بيت المقدس يعتمدون بدرجة أولى على محصول القمح، الذي تنتجه المناطق الواقعة شرقي الأردن، وفي حالة قلته أو انعدام إنتاجه فإنهم يستوردونه من مدن الشام⁽⁶⁾، أي من المناطق الإسلامية المجاورة لهم⁽⁷⁾.

كما اشتهرت مناطق المملكة بكثير من أنواع الخضروات والفواكه والقمح، وغيرها من المواشي،

⁽¹⁾ جمعة الجندي، الاستيطان...، ص.144.

⁽²⁾ أنظر:

Cahen, op.cit., P.473.

⁽³⁾ أنظر:

Ibidem.

⁽⁴⁾ مصعب حمادي، الاستيطان...، ص.295.

⁽⁵⁾ المصدر السابق، ص.75.

⁽⁶⁾ مصعب حمادي، الاستيطان...، ص.295.

⁽⁷⁾ الطحاوي، الاقتصاد الصليبي...، ص.205.

حيث يقول دانيال الراهب مرة أخرى عن تلك المنطقة: " وينمو القمح والكرمة والزيتون وجميع الخضروات بكثرة في هذه المنطقة، وتتسم القطعان بكثرتها مثل الأغنام، والحيوانات الأخرى...وتكسو منحدرات جبالها أشجار الكروم والفاكهة المختلفة، وأشجار الزيتون والتين والخروب والتفاح والكرز وغيرها. وهناك أنواع مختلفة من الخضروات، وتعتبر الأكثر جودة، والأفضل من مثيلاتها في أي مكان على وجه الخليقة"⁽¹⁾.

وفي السهول التي تسيطر عليها المملكة، كثرت بها زراعة أشجار الفاكهة، ويقول الرحالة الألماني ثيودريش بشأن ذلك: "وعلى بُعد أكثر من ثلاثة أميال تقع حديقة إبراهيم في سهل جميل بالقرب من الأردن،... إن عرض هذا السهل يمتد على طول وادي الأردن، وطوله يمتد على طول البحر الميت، فهذا السهل يمتاز بالتربة الصالحة لزراعة كل أصناف الفواكه، كما به الخشب والنباتات الشائكة. رأينا الحديقة نفسها مليئة بالأشجار التي تحمل التفاح الكثير"⁽²⁾، على اختلاف أنواعه⁽³⁾، كما أنهم زرعوا الخيار والبطيخ الأحمر والأصفر⁽⁴⁾.

هذا الأخير يُزرع في مدينة نابلس، "وبها البطيخ الأصفر الزائد الحلاوة على جميع بطيخ الأرض"⁽⁵⁾. وبالرغم من وجود التزامات بين الفلاحين والسادة الإقطاعيين، إلا أن المؤسسة الكنسية كانت معفاة من الضريبة، غير أنها كانت في الوقت نفسه تُحصّل ضريبة العشر من السادة الإقطاعيين والنبلاء، بالإضافة أنها تحصّل الضريبة من الفلاحين المستأجرين لممتلكاتها من الأراضي الزراعية⁽⁶⁾، وهذا بعد ذاته أكسبها ثروة وثراءً وسلطةً وجاهًا.

وحسب ما ذكرت آنفاً من الضرائب التي كانت تدفع على الأراضي الزراعية والمحصول، فإن هناك

⁽¹⁾ المصدر السابق، ص.79.

⁽²⁾ المصدر السابق، ص.105.

⁽³⁾ نفسه، ص.109.

⁽⁴⁾ جمعة الجندي، الاستيطان الصليبي...، ص.142.

⁽⁵⁾ شيخ الروبة الدمشقي الصوفي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، تصحيح، أغشطس بن يحيى المدعو مهرا، مطبعة الأكاديمية

الإمبراطورية، بطربورغ، 1865م/1281هـ، ص.200.

⁽⁶⁾ البيشاوي، الأملاك...، ص.ص.152-153.

ضرائب تُفرض على أشجار الفاكهة، وأخرى على أشجار الزيتون، وكان تقديرها بثلث حجم عصير الزيتون المستخرج، وعلى أية حال فإن السادة الإقطاعيين قد أوجبوا على الفلاحين ضريبة السُخرة، في بساتين الزيتون القريبة من مدينة صور، التي كانت بها ثروة كبيرة من أشجار الزيتون، وكذلك في مزارع قصب السكر، ونتيجة لعدم وجود نظام الضيعة ببلاد الشام، فإن الفلاحين كانوا يقومون بالعمل الإجباري في هذه المزارع⁽¹⁾.

كما كانت هناك مستوطنات أخرى لها أهميتها الاقتصادية، وخاصة في مجال الزراعة، تمثل ذلك في مستوطنة رام الله، ولقد كانت تلك الجهات حول بيت المقدس تُزرع، وخاصة شمال وشرق وجنوب قرية رام الله، وهذا راجع لسهولة تضاريسها، كما أن الصليبيين شيّدوا مستوطنات أخرى وعلى سبيل المثال مستوطنة الزيب التي أطلق عليها الصليبيون اسم كاسال أمبرت Casal Imbert، نسبة إلى الفارس الصليبي الذي احتلها سنة 1104م، والتي تبعد بـ 14 كيلومتر عن عكا من الجهة الشمالية. في بادئ أمرها كانت من ممتلكات الكنيسة إلى أن تخلت عنها للتاج سنة 1146م، بمقابل آخر تمثل في بعض الأملاك في مدينة صور، ومن أجل تشجيع الاستيطان فيها تم إعطاء منزل لكل فلاح، يقيم فيه مع أسرته وقطعة من الأرض يمارس فيها نشاطه الزراعي، مقابل أن يدفع ربع الإنتاج من كروم العنب، وثلث الإنتاج من محصول الزيتون، وإعفائهم من الضريبة على المواد الغذائية المفروضة في أسواق عكا⁽²⁾.

بالإضافة إلى أن هناك مستوطنات أخرى بمملكة بيت المقدس، أنشئت غرض الاستفادة من عائدات أراضيها الزراعية، كما أنها إستراتيجية استيطانية لحماية الممتلكات التي حازها الصليبيون في أرض الشام، وخاصة مملكة بيت المقدس. ولهذا تم إنشاء مستوطنة بيت جبريل، وتم منحها لفرسان القديس يوحنا⁽³⁾، وكان ذلك سنة 1136م، حيث اعتبر هيوغ من الخليل ذلك المكان (بيت جبرين) هدية لفرسان المعبد، وقد يكون ذلك بأمر من الملك فولك الأنجوي (1131-1143م)⁽⁴⁾، وتبعد تلك المستوطنة عن مدينة عسقلان بـ: 20

⁽¹⁾ براور، الاستيطان...، ص. 448.

⁽²⁾ رياض مصطفى أحمد شاهين، حسام حلمي الآغا، المرجع السابق، ص. 93، 95-96.

⁽³⁾ علي السيد علي، المرجع السابق، ص. 157.

⁽⁴⁾ أنظر:

كيلومتر، حيث تربط بين السفوح والسهل، وبهذا أضحت تتحكم في الطريق الرابط بين عسقلان والخليل، وحماية المملكة الصليبية من جهة الجنوب⁽¹⁾.

ذلك الحصن الذي أُسند إلى الأستراتيجية لمدة خمسة عشر عاماً⁽²⁾، ولقد قام هؤلاء بتوطين العائلات اللاتينية ذات النشاط الفلاحي والحد من نشاط الفئات المحلية، ويبدو أن هذه السياسة نجحت، فبعد أن كانت العائلات التي تقيم بالمنطقة لا تزيد عن ست عائلات منذ مجيء الصليبيين، أخذ العدد يتزايد منذ أن أصبح الحصن بيد الأستراتيجية، والذي بلغ اثنتين وثلاثين عائلة سنة 1153م⁽³⁾.

بحيث أصبح بحوزة كل مستوطن قطعة أرض، مساحتها اثنان وستون هكتارا ومنزل يقيم فيه، على أن يدفع ضريبة سنوية قيمتها عُشر (10/1) المحصول، الذي يزرعه أو من الفاكهة التي يجنيها، إضافة إلى ضرائب أخرى. وفيما يخص هؤلاء المستوطنين فإنهم من الصليبيين الأحرار، ولم يخضعوا للنظام الإقطاعي، لهم ملكياتهم ولهم الحق في بيعها متى أرادوا، بالرغم من أنهم يدفعون الضريبة على الأرض وفق نسبة معينة من الإنتاج، وليست محددة بمساحة الأرض⁽⁴⁾.

كما كانت هناك مستوطنة تل الصافية، التي عُرفت باسم بلانش غارد Blanche Garde، أي برج المراقبة الأبيض، تبعد عن عسقلان بثمانية أميال (13.12 كيلومتر)، يشرف على تسييرها فرسان الداوية، وبعد الانتهاء من بنائها سنة 1141م، استوطنتها عائلات لاتينية، وعلى الأرجح أنهم من المستوطنين الأحرار، الذين قدموا من بيت جبرين ومارسوا الزراعة في سهولها، مع دفع الضريبة بنسبة معينة من الإنتاج، وليست محددة بمساحة الأرض⁽⁵⁾.

إن بناء هذه القرى وتحصينها من طرف الصليبيين، على طول تل الصافية وبيت جبرين من سنة 1130م

⁽¹⁾ رياض مصطفى أحمد شاهين، حسام حلمي الآغا، المرجع السابق، ص.99.

⁽²⁾ علي السيد علي، المرجع السابق، ص.157.

⁽³⁾ رياض مصطفى أحمد شاهين، حسام حلمي الآغا، المرجع السابق، ص.99.

⁽⁴⁾ علي السيد علي، المرجع السابق، ص.157-158.

⁽⁵⁾ رياض مصطفى أحمد شاهين، حسام حلمي الآغا، المرجع السابق، ص.103-104.

إلى سنة 1140م، هو بحد ذاته تطويقاً للفاطميين في عسقلان⁽¹⁾، بالإضافة إلى أن هناك مستوطنة أخرى أقامها الصليبيون، ومثال عن ذلك مستوطنة الداروم، التي شُيِّدت في الجهة الجنوبية الغربية من مملكة بيت المقدس. وفي سنة 1168م تم بناء قلعة الداروم على المنطقة الحدودية، وتبعد عن غزة بـ: 16 كيلومتر من الجهة الجنوبية الغربية، عمَّرها المستوطنون الذين يمارسون النشاط الفلاحي، وهم من الفئات الدنيا في المجتمع اللاتيني، كما أن هذه القرية شهدت نشاطاً تجارياً، وقد كلف الملك عموري الأول المشرفين على القرية بجمع الضريبة السنوية المفروضة على مسلمي القرى المجاورة⁽²⁾.

ومن خلال المستوطنات التي شيدها الصليبيون في مملكة بيت المقدس، وجذبهم لمختلف العناصر اللاتينية، يعكس التنوع العرقي الذي كانت عليه المملكة الصليبية، كما يُبين مدى اهتمامهم بممارسة النشاط الزراعي، وفرض الضرائب لضمان بقائهم واستمرارهم وتمويلهم لمشاريعهم، وتحكمهم في المستوطنين، كما يعكس أيضاً مدى تجاوب رغبة مختلف العناصر المستوطنة في إعلان العداوة للمسلمين⁽³⁾.

وبالرغم من التوافق بين عناصر المجتمع الصليبي في بلاد الشام ضد المسلمين، إلا أن العداوة التي سادت في الغرب اللاتيني بين الألمان والايطاليين أو الفرنسيين والإنجليز، وغيرهم من مختلف العناصر، قد انتقلت مرة أخرى إلى المملكة الصليبية ببيت المقدس⁽⁴⁾.

ومن الواجبات المالية الأخرى التي ضُربت على الفلاحين نجد ضريبة النقل، وهو واجب مالي مقابل نقل الحبوب أو استعمال الأجران، كما أن هناك ضريبة على خلايا عسل النحل، وضرائب على الدواب والمواشي. وبما أن السادة الإقطاعيين يملكون مناطق أخرى يتوفر بها الكأ والأشجار، فإن في هذه الحالة على الفلاحين أن يدفعوا ضريبة استغلال المراعي، وجمع الأخشاب للتدفئة أو حتى لاستعمالها في زراعة الكروم خاصة⁽⁵⁾.

Marwan Nader, op.cit., P.133.

⁽¹⁾ أنظر:

⁽²⁾ رياض مصطفى أحمد شاهين، حسام حلمي الآغا، المرجع السابق، ص.101.

⁽³⁾ رياض مصطفى أحمد شاهين، حسام حلمي الآغا، المرجع السابق، ص.ص. 104-105.

⁽⁴⁾ المرجع نفسه، ص.105.

⁽⁵⁾ براور، الاستيطان...، ص.448.

ثانيا: تربية الحيوانات:

إن الثروة الحيوانية تشكل منجما ذا أهمية في حياة المجتمعات، إذ أنها تُعد مورد قوتٍ وخاصة الأنعام، قال الله سبحانه وتعالى: " وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ"(1)، كما أن هناك حيوانات أخرى يستعملها الإنسان في حياته، أثناء تنقله وفي حمل أبقاله، وممارسة مختلف نشاطاته اليومية، حيث قال سبحانه وتعالى: " وَتَحْمِلُ أُنْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ، إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَوُوفٌ رَّحِيمٌ، وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا، وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ"(2).

وعلى ما يبدو أن بلاد الشام كانت غنية بثروتها الحيوانية، وخاصة الأغنام بمنطقة عمّان، إذ يقول المقدسي: " وعمّان على سيف البادية ذات قرى ومزارع، رستاقها البلقاء معدن الحبوب والأغنام"(3)، وقد فُرِضت على مستغلي الأراضي الزراعية دفع الهبات والهدايا، التي تمثلت في الدجاج والبيض والجبن(4).

وفي مرحلة لاحقة فُرِضت الهبات والأتاوى على الفلاحين، وكان فرسان التيوتون يأخذونها من هؤلاء، وهي عبارة عن دجاج وبيض وجبن(5)، وهذا يعكس لنا بأن فلاحي بلاد الشام في اقطاعات الصليبيين التي يستغلونها، أنهم كانوا يقومون بتربية الحيوانات والدواجن، وغيرها مما يتوفر في البلاد من ثروة.

ومما يورده الرحالة الألماني ثيودريش، يتبين بأن سكان بيت المقدس وضواحيها، كانوا يستخدمون الأبقار في حياتهم اليومية، حيث يقول: " بينما نمر على طول هذا الطريق، سوف نقابل حشدا من العرب المسلمين، الذين يسيرون مع عجولهم، ليحرثوا سهلا جميلا وكبيرا"(6). ومن

(1) سورة النحل، الآية، 5.

(2) سورة النحل، الآيتان، 7-8.

(3) المصدر السابق، ص.175.

(4) براور، الاستيطان...، ص.447.

(5) نفسه، ص.ص.447-448.

(6) المصدر السابق، ص.125.

خلال ذلك نستنتج بأن بلاد الشام، وخاصة بيت المقدس كانت غنية بثروتها الحيوانية، وأن الصليبيين أثناء غزوهم للمنطقة قد استولوا على كثير منها.

ولقد تنوعت الثروة الحيوانية في بلاد الشام، حيث وُجدت الأغنام والماعز والبقر والجمال والخيول والبغال والحمير، ويظهر الاهتمام لاسيما بتربية الخيول، لأنه يشكل العصب الرئيسي في الفروسية وخوض المعارك، كما أن النبلاء كانوا يخرجون للصيد والنزهة، فضلا عن تربية الدواجن التي شكلت لحومها وبيضها، بالإضافة إلى لحوم الأنعام نظاما غذائيا للصليبيين⁽¹⁾، كما اعتنى الصليبيون بتربية النحل، الذي كان عسله يباع في سوق مدينة صور⁽²⁾.

إن الثروة الحيوانية للريف الصليبي، تشكلت أساسا من الثيران التي كانت تُستعمل في حراثة الأراضي الزراعية، والجمال التي يقومون بنقل المحاصيل عليها إلى الأجران، بالإضافة إلى وجود الأغنام والأبقار والماعز، وهذا من أجل توفير اللحوم واللبن والجبن، فضلا عن وجود الدواجن لتوفير البيض، وكان ذلك ضمن ما يدفعه الفلاح مع الجبن للسيد الإقطاعي كهدية سنوية Xenia، بالإضافة إلى ما يملكه الفلاحون في الريف الشامي، وقد كان البدو في المنطقة، يملكون أعدادا كبيرة من رؤوس الماشية⁽³⁾.

وبما أن المنطقة لا تزال تعيش حالة عدم الاستقرار، وخاصة أن الصليبيين يعرفون مدى ردة فعل المسلمين بالمنطقة وتحين الفرصة لذلك، فقد كان لهم اهتمام بتربية الخيول الغربية والعربية، وقد واجهوا صعوبة في العثور عليها، فأدى بهم ذلك إلى استيرادها من المناطق الإسلامية، ومن جزيرة صقلية⁽⁴⁾.

ومن خلال ما ذكره كلود كاهن بشأن خروج النبلاء للصيد، فإنه أشار إلى أنه يوجد في تلك البرية الأسود والفهود والضباع والدببة، كما شكل السمك موردا غذائيا، خاصة للسكان القريبين من البحيرات⁽⁵⁾، بالإضافة

Cahen, op.cit., P.474.

⁽¹⁾ أنظر:

⁽²⁾ الطحاوي، الاقتصاد الصليبي...، ص.209.

⁽³⁾ الطحاوي، الاقتصاد الصليبي...، ص.209.

⁽⁴⁾ نفسه.

Cahen, op.cit., P.474.

⁽⁵⁾ أنظر:

إلى أنه كان هناك نوع من حيوان الأيل يسمى الرو⁽¹⁾.

II - النشاط الصناعي:

إن النشاط الصناعي شكل للمجتمعات عبر تاريخها الحضاري، ركنا أساسيا يتماشى مع النشاط الزراعي، إذ أنه يُستند إليه لإيجاد مختلف الحاجات الصناعية الضرورية لحياة المجتمع، سواء لصناعة الآلات التي يستعملها الإنسان في حياته اليومية، أو تحويل بعض المنتجات الزراعية إلى مواد مصنعة ضرورية لاستمرار حياته.

إن بلاد الشام قد توفرت بها المواد الأولية، ومختلف الزراعات ومساهماتها الحضارية عبر تاريخها، وصولاً إلى الحضارة العربية الإسلامية وازدهارها في تلك المنطقة وخاصة الزراعة⁽²⁾. وأما بخصوص الصناعة فهي الأخرى، كان لها باع من الاهتمام الإسلامي في منطقة الشام. فمثلاً اعتنى المسلمون بصناعة الزجاج، حيث أصبح يُضرب به المثل في الرقة والصفاء، كما أنهم اهتموا بصناعة زيت الزيتون، وصار يُضرب به المثل في الجودة والنظافة⁽³⁾.

إن غنى بلاد الشام بثروتها الزراعية والمعدنية وتنوعها⁽⁴⁾، جعل منها قاعدة لانطلاق صناعات متنوعة، تلبي مختلف الحاجات الضرورية للمجتمع الصليبي خاصة⁽⁵⁾.

إن الوجود الصليبي ببلاد الشام، لم يستحدث أية أساليب جديدة خاصة بالصناعة، لكنهم نجحوا إلى حد ما في مسايرة تلك الصناعات الموجودة بالشام، وذلك كان له انعكاسه الإيجابي، به تم تقوية الاقتصاد الصليبي، وتلبية مختلف الحاجات الضرورية للمجتمع، حتى وإن تعددت الصناعات بالشام الصليبي، إلا أنهم ركزوا على صناعات معينة⁽⁶⁾.

Conder, The Latin Kingdom... , P. 239.

⁽¹⁾ أنظر:

⁽²⁾ كرد علي، المرجع السابق، ج.4، ص.ص.162-163.

⁽³⁾ الثعالبي، المصدر السابق، ص.532.

⁽⁴⁾ المقدسي، المصدر السابق، ص.ص.183-184.

⁽⁵⁾ هنادي السيد محمود، المرجع السابق، ص.184.

⁽⁶⁾ الطحاوي، الاقتصاد الصليبي...، ص.211.

1- صناعة الأسلحة ومختلف الأدوات:

بما أن بلاد الشام كما ذكرت آنفاً، غنية بثرواتها المعدنية، فإن ذلك أصبح ضمن النفوذ الصليبي واستغلاله في حياتهم الصناعية، لاسيما أنهم بحاجة ماسة لهذه الصناعات، وخلال تلك الفترة فإن الصليبيين استغلوا ذلك في صناعة الأسلحة والدروع بشكل كبير، وطبعاً هذا نتيجة حتمية لتلك الظروف، خاصة وأنهم في محيط أغلب ساكنيه مسلمون، يترقبون عن كثب للانقضاض عليهم. وبذلك وضعوا أيديهم على المناجم، ولم يقوموا بتصدير خامها إلى الغرب اللاتيني، لأن فائدته في تصنيعه في مناطق استيطانهم والدفاع عنها، بل الاستيلاء على المزيد من الأراضي التي لا تزال بأيدي أصحابها⁽¹⁾. ولقد وجد أن الصليبيون بالمنطقة بعض الصناعات المعدنية، مثلاً كصناعة السيوف والرماح، فضلاً عن الصناعات الخشبية، كما أن الصليبيين قد جلبوا معهم إلى بلاد الشام من يُتقن النجارة والحدادة والبناء وصناعة الأحذية، بالإضافة إلى مجموعة من الصاغة. وبعد الاستيلاء على بيت المقدس، واستقرارهم واستتباب الأمن لهم، فإنهم قد تعلموا كثيراً من الحرف والصناعات⁽²⁾.

وبخصوص الحرف والصناعات خاصة في الفترة الأولى، وما وُجد من كثير المواد الأولية بأنواعها الزراعية والحيوانية، وغيرها من ثروة مائية ومعدينية، أمكن هذا التنوع أن يكون حجر الأساس، لانطلاق صناعات تتماشى وتلبية مختلف حاجات المجتمع الجديد، ببلاد الشام وخاصة بيت المقدس⁽³⁾.

وبالرغم من أن الصليبيين لجأوا إلى إقامة الحصون لحماية ممتلكاتهم في الشام، وخاصة المملكة الصليبية، إلا أن المعارك التي كانت بين الطرفين هي أكثر الأحداث أهمية. إذ أن هناك مشاكل عرقلت الوجود الصليبي في الشام، ليس فقط كثرة أعداد الجيوش الإسلامية فحسب، وإنما يكمن أيضاً في أن الصليبيين يجهلون تماماً الأسلوب الإسلامي في القتال⁽⁴⁾.

وفيما يتعلق بالمعارك والمواجهة المباشرة، لابد أن يكون للفارس عدته وعتاده، علماً أن الصليبيين لما

⁽¹⁾ المرجع نفسه، ص. 215.

⁽²⁾ مصعب حمادي، الاستيطان...، ص. 300.

⁽³⁾ هنادي السيد محمود، المرجع السابق، ص. 183-184.

⁽⁴⁾ براور، عالم...، ص. 155-156.

استعصى عليهم الاستيلاء على بيت المقدس قد صنعوا الكباش⁽¹⁾، لدك حصون المدينة المقدسة⁽²⁾. ولقد كان الفارس الصليبي مجهزا بالسيف والرمح والفأس وقضيب تكسير الدروع، فضلا عن وجود راية مثلثة معلقة برأس الرمح، وهي إشارة بارزة ومميزة لفرسان العصور الوسطى، وبما أن السيف كان ضمن تشكيلة أدوات الفارس الصليبي، والذي له أهميته القتالية، فقد كان سيف القرن الثاني عشر الميلادي سيفا قصيرا شبيها بالطراز الروماني، وكان ذا حدّين ينتهي بطرف على شكل مثلث هذا بالنسبة للنوع الأول، أما النوع الثاني من السيوف فقد كان أكثر أناقة وروعة وأضيق إلى الحافة، وعادة ما كان مقبض السيف دائريا مسطحا⁽³⁾.

كما كانت هناك أشكالا أخرى شائعة، وكان للسيف غمده المصنوع من الجلد، والمدعم بالقراب المعدنية ذات الحلقة التي تعلقه بالحزام achape. وكان يعلق في العنق أو الكتف، وأخيرا في خصر الفارس⁽⁴⁾. وقد ذكر القلقشندي أن سيف الفرنجة قيل سيف مُدكّر، حيث "كان مثنى من حديد أنثى (حديد عادي) وحداه من حديد ذكر (الفولاذ)"⁽⁵⁾. وأما بخصوص سيف القرن الثالث عشر الميلادي فقد "أصبح أكبر حجما وأثقل وزنا وأكثر حدة ومضاء"، ذا فعالية⁽⁶⁾.

ولقد كانت الأسلحة الأكثر استخداما هي السيف والرمح والفأس، وأن سيوف العصور الوسطى مختلفة الأطوال، حيث هناك ما يتراوح بين ثلاثة وأربعة أقدام (من 90 سم إلى 120 سم)، وهناك ما بين اثنين وثلاثة أقدام⁽⁷⁾. ولاشك في أن كثيرا من المستوطنين ببلاد الشام، كانوا يتقنون حرفا كثيرة منها الحدادة

¹ الكباش آلة تتكون من رأس حديدية مدببة وقطعة خشبية شبيهة بالصاري، معلقة بسلاسل يدفعها الرجال باتجاه الأسوار وضربها لإحداث فجوات. للمزيد من المعلومات، أنظر: براور، المرجع نفسه، ص.155.

² مجهول، أعمال الفرنجة، ص.116-117.

³ براور، الاستيطان...، ص.401.

⁴ براور، الاستيطان...، ص.401.

⁵ المصدر السابق، ج.2، ص.132.

⁶ براور، الاستيطان...، ص.401.

⁷ أنظر:

والنجارة، والتي ساهمت في الانتعاش، وبذلك كُثرت المنتجات الصناعية⁽¹⁾.

وكان هناك سلاح آخر وهو القوس، له أهميته في الحملة الصليبية الأولى، وعلى ما يبدو أن الصليبيين قد استخدموا القوس القصير وحده⁽²⁾، علما أن القوس المتقاطع (القوس القذوف) معروف منذ القديم، ويظهر أن اسمه قد خُلد في أنشودة رولان⁽³⁾، وكان جنود بوهمند قد استعملوا ذلك في مدينة دورازو Durazzo⁽⁴⁾، كان انتشاره بسرعة بين صفوف الصليبيين⁽⁵⁾.

2- صناعات معدنية أخرى:

مارس المستوطنون صناعات متعددة ببلاد الشام، ومن المدن التي اشتهرت بصناعتها النحاسية مدينة قيسارية، والتي تمثلت منتجاتها الصناعية في أواني الطهي، كما أنها عملت على إنتاج المكابيل والموازين، التي تقوم صناعتها على المزج بين مادتي الحديد والنحاس⁽⁶⁾.

كما أن الحلي وأدوات الزينة الأخرى المكونة من الذهب والفضة، وغيرها مما هو ثمين قد تطورت أيضا، إذ أن المستوطنين وغيرهم من سكان الشام، وخاصة الذين يتقنون حرفة الصياغة، بدؤوا يصنعون مختلف الأشياء لتلبية حاجات المستوطنين، وخاصة الأثرياء منهم. كما أن للكنايس اقتناءها الخاص من هذه

⁽¹⁾ رياض مصطفى شاهين، حسام حلمي الآغا، المرجع السابق، ص.88.

⁽²⁾ أنظر: Archer, Kingsford, op.cit., P.358.

⁽³⁾ ملحمة غنائية شعبية، والتي اشتهرت في الغرب اللاتيني، تتمحور أحداثها حول فترة حكم الملك والإمبراطور شارلمان (768-814م)، حيث يمجّد المؤلف عظمة الإمبراطور وبطولاته في الحرب ضد العرب المسلمين في إسبانيا، كما يشير إلى بطولة فرسانه في ساحة المعركة، من أجل تحقيق المثل العليا، والتي تلخص في كلمتين هما الدين والحرب، وقد كانت تلك الأنشودة، نموذجا لروح الغرب اللاتيني في العصر الوسيط. فهي بذلك تعكس مدى تمسك المجتمع الغربي بمسيحيته هذا من جهة، ومن جهة ثانية تجسد روح الفروسية والتضحية التي اقترنت خاصة بالنظام الإقطاعي. وقد انتشر هذا النوع من الملاحم في العصور الوسطى وعلى الخصوص فترة الحروب الصليبية، ولقي ذلك شيوعا ورواجا في أوساط كافة الأجناس والفئات والطوائف والطبقات، وقد عُرف ذلك بأغاني المآثر Chansons de Gest. وللمزيد عن ذلك، أنظر: جوزيف نسيم يوسف، أنشودة رولان، مجلة عالم الفكر، مج.16، ع.1، مايو 1985، وزارة الإعلام، الكويت، ص.135-153.

⁽⁴⁾ مدينة تقع على الضفة الشرقية للبحر الأدرياتي، تقابلها مدينة برينديزي Brindisi على الساحل الإيطالي. أنظر: Kleinhenz Christopher, Medieval Italy, An Encyclopedia, Routledge, 2004, London, P.558.

⁽⁵⁾ أنظر: Archer, Kingsford, op.cit., P.358.

⁽⁶⁾ الطحاوي، الاقتصاد الصليبي...، ص.216.

المصنوعات. ونتيجة لكثرة الطلب على هذه الأخيرة، وخاصة الذهبية أدى ذلك إلى انتعاشها، بل ازدهرت وأصبحت ذات أهمية بعد أن خضعت للفحص الملكي، وتم تنظيم حرفة الصائغين وأصبحت لهم شوارع يزاولون فيها حرفتهم الخاصة، ومن أمثلة ذلك شارع تجارة المصوغات في سوق بيت المقدس، وطبعا تنظيم تلك الصناعة وتجاريتها يضمن امتيازاً للملكية وتدعيم إيرادات الخزينة.

إن المصنوعات الذهبية لاشك في أنها كانت تجذب إليها أصحاب الطبقة الغنية، سواء كانوا من الأمراء والملوك وغيرهم أو من المستوطنين البورجوازيين، فضلا عن التجار الإيطاليين⁽¹⁾. ونتيجة لوفرة المادة الأولية وتنوعها تم أيضا صناعة الرخام، وجعله مادة لتزيين المنازل اقتداءً بما فعله سكان الشام، وخاصة في بناء المنازل وتزيينها⁽²⁾.

ومن خلال ما أشار إليه ناصر خسرو، فإن المنطقة توجد بها مادة الرخام، ومن بين المدن التي ذكرها مدينة الرملة، حيث قال: "وفي هذه المدينة رخام كثير، وقد زُينت معظم السرايات والبيوت بالرخام المنقوش الكثير الزينة"، ولهذا الرخام أنواع وألوان كثيرة، منها الملمع والأخضر والأحمر والأبيض والأسود، وغيرها من الألوان⁽³⁾.

كما أن دانيال الراهب قد أشار إلى وجود مادة الرخام، والتي زُينت بها كنيسة المهد، حيث يقول: "أما داخلها فهو مُزين بصورة مصنوعة من الفسيفساء، ولهذه الكنيسة خمسون عموداً من الرخام، وأجزاء الكنيسة الأخرى مرصعة بالرخام أيضا"⁽⁴⁾.

وعليه يمكن القول أن الرخام موجود في مدن الشام، سواء كانت مقالعه موجودة في كل المدن، أو تم جلبه إلى بعضها، من أجل ممارسة صناعته.

وفي مدن الشام ذات القداسة، مثل بيت المقدس وبيت لحم والناصرية، فقد كان الحجاج يشترون المصنوعات التذكارية، ومنها الصناديق الصغيرة والصلبان وغيرها من المصنوعات، التي تذكرهم

(1) نفسه.

(2) هنادي السيد، المرجع السابق، ص.ص. 190-191.

(3) المصدر السابق، ص.ص. 65-66.

(4) المصدر السابق، ص. 74.

بالأراضي المقدسة⁽¹⁾.

3-الصناعات النسيجية:

بعد استيطان الصليبيين في بلاد الشام، وخاصة بمملكة ببيت المقدس، فقد أصبح اهتمامهم بتصنيع المنتجات الزراعية بالدرجة الأولى⁽²⁾، وبهذا ازدهرت صناعة النسيج بالمنطقة وتتنوعت منتجاتها بين قطنية وصوفية وحريرية وكتانية، بل صارت مطرزة بخيوط الذهب والفضة وما شابهها، فهذا التنوع في الإنتاج يعكس لنا تنوعا في المواد الخام، فمثلا الأقمشة القطنية كان نتيجة لوجود القطن، وبهذا أصبحت صناعته مزدهرة وتلقى إقبالا عليها⁽³⁾.

لقد عرفت زراعة القطن في الإمارات الصليبية وفي أرمينيا الصغرى تطورا كبيرا، كان هذا المنتج إلى جانب الصوف أحد المواد الرئيسية، التي صدرها تجار الساحل الشامي إلى الغرب اللاتيني، كما تم تصدير الكتان والحرير والقطن كمواد خام، بالإضافة إلى أنه تم تصنيعه أيضا بالشام في شكل مواد نصف مصنعة(خيوط) وأقمشة⁽⁴⁾.

لقد كان القطن والكتان والنيلة تزرع في السهول وفي غور الأردن، بينما كانت الفوة⁽⁵⁾ تنبت في كل من طرابلس ودمشق، وقد كان كتان نابلس جيدا، فهو يضاهي بذلك كتان مصر⁽⁶⁾.

إن الصناعات الكتانية المطرزة بخيوط الذهب لاقت رواجا كبيرا، إذ أقبل على اقتنائها القساوسة ورجال الدين، وقد كان لسكان الشام وخاصة الصليبيين، عناية كبيرة بالمنسوجات الكتانية والقطنية

⁽¹⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.216.

⁽²⁾ مصعب حمادي، الاستيطان...، ص.300.

⁽³⁾ هنادي السيد محمود، المرجع السابق، ص.184.

⁽⁴⁾ أنظر: Rey, op.cit., P.190.

⁽⁵⁾ نبات يستخلص من جذوره صباغة حمراء. للمزيد عن مادة الفوة، أنظر: محمد بن أحمد الإسكندراني الدمشقي، كشف الأسرار النورانية القرآنية فيما يتعلق بالأجرام السماوية والأرضية والحيوانات والنباتات والجواهر المعدنية، اعتنى به أحمد فريد الزبيدي، (د.ت.ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج.2، ص.137.

⁽⁶⁾ أنظر: Conder, op.cit., P.240.

والصوفية، كما اهتموا بالمنسوجات الحريرية، وبذلك انتشرت تربية دودة القز⁽¹⁾ حول بيروت وطرابلس⁽²⁾.

واعتنى الصليبيون بشجرة التوت من أجل تربية دودة القز، بغية إنتاج خيوط الحرير، لأن منطقة الشام قد عرفت ذلك النوع من الشجر قصد تربية دودة القز، كما جاء في كتاب تقويم البلدان بخصوص مدينة منبج⁽³⁾، "وغالب على شجرها التوت لأجل القز"⁽⁴⁾، وكذلك أنطاكية ولبنان، حيث يقوم السكان بتربية دود الحرير (الفيالج أو الشرانق)، لإنتاج خيوط الحرير ثم القيام بصناعة الثياب⁽⁵⁾.

وقد كان القماش باختلاف أنواعه، من المواد التي تحتل المراتب الأولى في التصدير، وكان القطن والكتان من منتجات سهول فلسطين، كما كانت لمدينتي صور وطرابلس شهرتهما في المصنوعات الحريرية في الشرق والغرب⁽⁶⁾.

وبخصوص الصباغة فقد اشتهر بها المسلمون، وعند مجيء الصليبيين اهتموا بها هم أيضا في مملكة بيت المقدس⁽⁷⁾، وعلى ما يبدو أن حرفة الصباغة كانت حakra على اليهود، إذ أنه في أواخر

⁽¹⁾ وتسمى دودة الحرير، وهو اسم يُطلق على عدد من يرقات مختلفة من القز، موطنها الأصلي آسيا وإفريقيا، ولكن حاليا يربونها في جميع المناطق المعتدلة من أجل إنتاج الحرير. وأجود الحرير يُنتج من دودة بومبوكس موراي *Bombyx Mori*، وهذه الدودة تخرج من بيضة صغيرة ثم تتغذى بأوراق التوت، تنمو في غضون 32-38 يوما، ثم تتعلق بالغصن لنسج شرنقتها من خيوط الحرير التي تفرزها غددها اللعابية، يتكون الخيط من مادة الفيرين ممزوجة بقليل من مادة الشمع. ومن الأنواع الاقتصادية الأخرى أتاكس رسيبي، تتغذى بأوراق نبات الخروع، ويوجد هذا النوع في الهند، كما أن هناك أنثريا بيريني، التي تتغذى بأوراق البلوط وتوجد في الصين. للمزيد عن تربية دودة الحرير، أنظر: الموسوعة لعربية الميسرة، ص. 1535.

⁽²⁾ هنادي السيد محمود، المرجع السابق، ص. 185.

⁽³⁾ بلد قديم له عدة اشتقاقات في اللغة العربية، قيل أن أول من بناها الملك كسرى لما استولى على بلاد الشام، وسماها (من به)، بمعنى أنا أجود وتم تعريبها، فقيل له منبج. للمزيد عن هذه المدينة، أنظر: ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج. 5، ص. 205-207؛ أنظر أيضا: أبو الفداء، تقويم البلدان، تص. رينود، ماك كوكين ديسلان، دار الطباعة السلطانية، 1840، باريس، ص. 271.

⁽⁴⁾ أبو الفداء، المصدر نفسه، ص. 271.

⁽⁵⁾ كرد علي، المرجع السابق، ج. 4، ص. 227.

⁽⁶⁾ جمعة الجندي، الاستيطان الصليبي...، ص. 162.

⁽⁷⁾ هنادي السيد محمود، المرجع السابق، ص. 186.

القرن الثاني عشر الميلادي، كان قد سُمح لهم بممارسة هذه الحرفة في بيت المقدس، وكان مقرهم بالقرب من بوابة داود عليه السلام بالمدينة⁽¹⁾.

بينما أشار روي Rey إلى أن حرفة الصباغة تم تأجيرها من طرف اليهود، وهي حكر عليهم، وقد كانت في كثير من المدن الصليبية، ومنها اللاذقية وطرابلس والخليل والقدس، وقد كان الشيء نفسه بالنسبة للداغة وإعداد الفراء⁽²⁾.

وفيما يخص هذا الأخير، فقد كانت ممارسته نتيجة طبيعة المنطقة، فمدينة بيت المقدس تنخفض درجة حرارتها وخاصة في فصل الشتاء، علما أن مواده الأولية متوفرة بالمنطقة، وإن لم تكن موجودة فيستوردونها، ولذلك اهتموا بهذه الصناعة، إذ أنه كان يوجد بمدينة بيت المقدس شارع الفراء، وهذا دليل على وجود ذلك النشاط، علما أن الفراء كان قد تم ممارسة صناعته في المشرق من قبل، وقد تم استعماله كلباس من طرف الجماعات الدينية العسكرية كالأسيبتارية والداوية⁽³⁾.

وفيما يتعلق بالصباغة، فقد أشار بنيامين التطيلي إلى ذلك في رحلته إلى الشام، وخاصة في بيت المقدس، حيث قال: "وفيها معمل للصباغة يستأجره اليهود من ملك القدس (عموري الأول) سنويا، فتنحصر بهم هذه المهنة دون غيرهم"⁽⁴⁾.

وقد كان استخراج هذه الأصباغ من مصدر نباتي، حيث كانت الصباغة الزرقاء تستخرج من نبات النيلة، وكانت هذه الأخيرة تزرع في سهول مدينة صور وغور الأردن، وكان للصليبيين اهتمام بزراعة ذلك النبات، وأما اللون الأصفر فاستخلصوه من زهرة نبات الزعفران⁽⁵⁾، وكذلك من

⁽¹⁾ أدريان بوس، مدينة بيت المقدس زمن الحروب الصليبية، ت. علي السيد علي، 2010، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ص. 285.

⁽²⁾ أنظر: op.cit., P.222.

⁽³⁾ أدريان بوس، المرجع السابق، ص.ص. 286-287.

⁽⁴⁾ رحلة بنيامين التطيلي 1165-1173م، ت. عزرا حداد، دراسة وتقديم، عبد الرحمن عبد الله الشيخ، ط. 6، 2002، المجمع

الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ص.ص. 247-248.

⁽⁵⁾ اسمه العلمي كروكس ساتيفس *Crocus Sativus*، يُزهر في الخريف أزهارا بيضاء أو ذوات لون بنفسجي، تُستعمل مياهمه الجافة

في التلوين، كما يستعمل في الطب وصناعة العطور، يُكسب الطعام والشراب نكهة طيبة. للمزيد من المعلومات، انظر: الموسوعة العربية

الميسرة، ص. 1736.

شجيرات تنمو بمنطقة الأناضول، ومن شجيرة نبات الكركم⁽¹⁾، أو من قشور ثمار الرمان⁽²⁾، فضلا عن وجود الصباغة الأرجوانية، والتي كانت معروفة في مدينة صور منذ القديم⁽³⁾.

ويقول وليم الصوري بشأن الصباغة التي اشتهرت بها هذه المدينة: "كما اشتهرت مدينة صور أيضا، بأنها كانت أول من قدمت للناس اللون القرمزي وعرفتهم به، وهو ذلك اللون الرائع المستخرج من مسحوق الأصداف، ومن سمك الأرجوان الغالي، ومن ثم عُرف هذا اللون منذ ذلك الحين، حتى يومنا هذا باسم اللون الصوري"⁽⁴⁾.

وقد كان لمادة الشبّة أهمية خاصة، إذ أنها تساعد على تثبيت الألوان، وكانت تُستخرج من شاطئ البحر الميت⁽⁵⁾، حيث يقول الرحالة الألماني ثيودريش: "... وعلى ضفاف البحيرة موجود حجر الشبّ، التي يسميها العرب المسلمون كاترانوم *Katranum*..."⁽⁶⁾، وقد أستخدمت في تصفية ماء الشرب، فضلا على أنها تدخل في صناعة الأدوية، وبما أنه كانت للصليبيين الغلبة فقد سيطروا على الأسواق التجارية التي كانت عائداتها كبيرة عليهم، لأن المواد المستخرجة من البحر الميت نادرة، وتحتاجها الأسواق العربية في المشرق، بل حتى الصليبية في الشام وفي

¹ من الأعشاب المعمرة أزهاره صفراء، اسمه العلمي كركوما لونجا *Curcuma Longa*، زراعته في المناطق الحارة. والكركم المعروف تجاريا يُنتج من درنات توجد على ريزومات (جذامير) نبات الكركم. يُستعمل في تلوين الأقمشة والأغذية مثل الجبن. للمزيد عن هذا النبات، أنظر: الموسوعة العربية الميسرة، ص. 2682.

² هنادي السيد، المرجع السابق، ص. 186.

³ براور، الاستيطان...، ص. 470.

⁴ المصدر السابق، ج. 3، ص. 15.

⁵ صفاء عثمان محمد، المرجع السابق، ص. 263.

⁶ المصدر السابق، ص. 116. ويشير الرحالة فيتلوس إلى هذه المادة بأنها (أي الشبّة *Alum*) سائل ملحي يخرج من باطن الأرض، وفي فصل الشتاء يتكثف ويتجمع من الطين والوحل والماء، ويفضل حرارة الشمس يتصلب، يدعى *Alum* أو *Alumen*، واللفظ مأخوذ من *Lumen* لأنه يعكس أشعة الشمس، وبذلك يظهر ضوء ذو ألوان. للمزيد من المعلومات، أنظر: وصف الأرض المقدسة في فلسطين حوالي 1130م/525هـ، ت. البيشاوي سعيد عبد الله، دويكات فؤاد عبد الرحيم، 2011، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، اربد، دار اليازوري، عمان، ص. 40.

الغرب اللاتيني⁽¹⁾.

لقد كانت صناعة المنسوجات أكثر الصناعات بالشام الصليبي ظهوراً، وقد أولى الصليبيون بها عناية خاصة وحافظوا على استمرارها. وبذلك اشتهرت عدة مدن شامية منها صور وطرابلس وأنطاكية وطرسوس بالمنسوجات الصوفية الملونة، كما أن المنسوجات القطنية والكتانية ازدهرت هي أيضاً، وازدادت مبيعاتها في أسواق المدن الشامية تماشياً مع مناخ المنطقة. وبالرغم من وجود كثير من المنسوجات الكتانية والقطنية في جل مدن الشام، إلا أن ملابس الكتان المصنوعة في مدن المملكة الصليبية، مثل نابلس حازت الشهرة العالمية⁽²⁾.

كما كانت لمدينة صور مكانتها في الصناعة النسيجية، حيث يقول الإدريسي: "وقد يُعمل بها من الثياب البيض المحمولة إلى كل الآفاق، كل شيء حسن عالي الصفة والصنعة، ثمين القيمة وقليل ما يصنع مثله في سائر البلاد المحيطة"⁽³⁾، فمن الضروري أن تزدهر هذه الصناعات خاصة وأن المواد الأولية متوفرة، والتي تمثلت في وبر الإبل وشعر الماعز وصوف الأغنام فضلاً عن وجود الحرير⁽⁴⁾.

4- صناعة السكر:

إن مُنتج السكر عرفه سكان بلاد الشام قبل أن يعرفه الغرب اللاتيني، ولما قدم فرسان الحملة الصليبية الأولى (1095-1099م) وفرضوا الحصار على أنطاكية التي طال حصارها وقارب ثمانية أشهر، إذ أنه امتد من 20 أكتوبر سنة 1097م إلى غاية 28 جوان سنة 1098م، وبعد معاناة الكثير من الصليبيين أثناء الحصار، لجأ كثير من هؤلاء إلى أكل ذلك النبات وتذوقوا طعمه. ولقد كان أهل الشام يزرعون، وبعد نضجه يسحقونه ويقومون بتصفية عصيره ويتركونه

⁽¹⁾ سرور علي عبد المنعم، السياسة الداخلية والخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد الملك فولك الأنجوي 1131-1143م/526-538هـ، رسالة دكتوراه (غير منشورة)، إشراف الدكتورة، علي عبد السميع الجنزوري، جامعة عين شمس، كلية البنات، قسم التاريخ، 1992، ص.84.

⁽²⁾ الطحاوي، الاقتصاد الصليبي...، ص.211.

⁽³⁾ المصدر السابق، مج.1، ص.366.

⁽⁴⁾ أنظر:

حتى يتجمد، ويصبح له لون شديدٌ بياضهُ يُطلق عليه اسم السكر⁽¹⁾.

إذ أن الصليبيين أثناء مسيرتهم المرهقة إلى القدس قد وجدوا في قصب السكر خير غذاء للتخفيف من غائلة الجوع⁽²⁾، ومن مدن الشام التي فيها زراعة هذه المادة بكثرة مدينة صيدا بها يُزرع قصب السكر بوفرة⁽³⁾، ولقد كانت لها أهميتها، ومن بين المدن التي تنتجها أيضا مدينة صور، حيث كانت تعتمد على عائدات تصديره⁽⁴⁾.

وقد ازدادت عناية الصليبيين بزراعة قصب السكر، وأعفوه من الضريبة تحفيزا على زراعته، وبهذا توسعت مساحاته المزروعة على طول الساحل الممتد من صور إلى طرابلس، إضافة إلى وجوده على سواحل البحر الميت، وكان المحصول منه يُعرف عند الصليبيين باسم سكر الكرك والشويك⁽⁵⁾. ويبدو أن الصليبيين قد أعجبتهم طريقة استخلاص هذه المادة، فتعلموها من الشاميين وأصبحت تُستغل على موائدهم، بل حتى في العلاج، وقد كان إهداء قطعة من السكر تعنى مدى الحب للمُهدى إليه⁽⁶⁾.

إن بلاد الشام قبل مجيء الصليبيين قد عرفت زراعة قصب السكر، وليس هذا فحسب، بل كيفية إعداده وعصره لاستخراج منه ذلك العصير حلو المذاق، ثم تركيزه على النار وتجفيفه حتى يتبلور السكر. وبعد نجاح الحملة الصليبية الأولى في بلاد الشام، اهتم الصليبيون بزراعة هذه المادة واستخلاص عصيرها، لأنها تشكل موردا ذا أهمية كبيرة⁽⁷⁾.

⁽¹⁾ الحويري، المرجع السابق، ص.ص. 133-134.

Archer, Kongsford, op.cit., P.299.

⁽²⁾ أنظر:

⁽³⁾ خسرو، المصدر السابق، ص.60.

⁽⁴⁾ المقدسي، المصدر السابق، ص.180.

⁽⁵⁾ جمعة الجندي، الاستيطان...، ص.146.

⁽⁶⁾ هنادي السيد محمود، المرجع السابق، ص.187.

⁽⁷⁾ هايد، المرجع السابق، ج.4، ص.196. للمزيد عن هذه المادة ذات الأهمية عند المسلمين ببلاد الشام، وكيف استطاع الصليبيون تقليد المسلمين وزراعتها وصناعتها، والاستفادة من عائداتها. أنظر: عبد الرحمن المغربي، قصب السكر في فلسطين إبان السيطرة الفرنجية 492-690هـ/1099-1291م، مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية)، مج.20، ع.3، 2006، نابلس، القدس، ص.ص.731-763.

وفيما يخص تحضيره فقد اتبعوا الطريقة الموجودة قبلهم ببلاد الشام، وقد كان الأصل العربي لهذه الطرق يظهر في كلمة معصرة Massar، فأخذوا ذلك إلى لغتهم وسموها بآلة العصر، وفي مدينة عكا كان الصليبيون يسخّرون أسرى المسلمين ويستخدمونهم في صناعة السكر، كما ازدهرت صناعته في مدينة صور⁽¹⁾.

وأما بخصوص معاصر صناعة قصب السكر، فقد كانت ملكا للملك الصليبي، ومن أراد أن يستعملها فعليه أن يدفع مبلغا ماليا، أو جزءا من المحصول، وقد استعان الصليبيون بأسرى المسلمين في المعاصر، وكان للنساء أيضا مساهمة في ذلك، خاصة بعد سقوط مدينة قيسارية في أيدي الصليبيين. كما أنهم استعملوا مياه الأنهار لإدارة المعاصر⁽²⁾. إن مادة السكر شددت انتباه الصليبيين منذ قدومهم إلى الشام، ولهذا وجهوا اهتمامهم لزراعتها وصناعتها⁽³⁾.

لقد كان المستوطنون الأحرار (البورجوازية)، يقومون بزراعة الكروم وقصب السكر وأشجار الزيتون، وذلك جزء من أنشطة الحياة الريفية⁽⁴⁾. وبما أن زراعة قصب السكر تتطلب المياه الكثيرة، لهذا نجد زراعته قرب الينابيع والجداول في المناطق السهلية، ومنها سهول مدينة صور وعكا وغور الأردن وأريحا وطبرية، وبهذا من الضروري وجود معاصره في هذه المناطق المذكورة⁽⁵⁾، إذ لم تكن زراعته تقتصر على مدينة طرابلس وحدها، فلا تزال بقايا معاصر السكر القديمة بالقرب من أريحا وفي عكا وصور، وغيرها من مدن الشام، تدل على أن الصليبيين المستوطنين قد مارسوا تلك الزراعة والاهتمام بصناعتها⁽⁶⁾.

غير أن عمال صناعة السكر في مدينة صور، تميزوا بالمهارة عن غيرهم في جميع مدن الشام⁽⁷⁾، ويقول

⁽¹⁾ هايد، المرجع السابق، ج.4، ص.197.

⁽²⁾ هنادي، المرجع السابق، ص.187.

⁽³⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.213.

⁽⁴⁾ أنظر:

⁽⁵⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.214.

⁽⁶⁾ أنظر:

⁽⁷⁾ أنظر:

Marwan Nader, op.cit., PP.72-73.

Conder, op.cit., PP.240-241.

Rey, op.cit., P.222.

بنيامين التطيلي بشأن سكر مدينة صور: "وفيها السكر الجيد"⁽¹⁾، حتى أن ما كان يتم استهلاكه في الغرب اللاتيني من مادة السكر كان يتم تصديرها من بلاد الشام، إبان الاحتلال الصليبي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين (السادس والسابع الهجريين)⁽²⁾.

كما كان الصليبيون يقومون باستخراج العسل من مادة السكر⁽³⁾، ويقول هايد: "أثناء صناعة السكر فإن الكتلة لا تتبلور كلها، فثمة جزء من العصير يكون لزجاً لزوجة صفراء وسميكة،... تُسحب من المرجل بمغرفة، ويُمَلَأُ منها براميل ويُعطى للتجار باسم العسل أو المولاس Mellaci، Mellas"⁽⁴⁾، كما كان الأطباء العرب يستخدمون السكر لعلاج أمراض الصدر، وقد حذا حذوهم سكان الغرب اللاتيني لاستعماله في العلاج⁽⁵⁾. بالإضافة إلى أن الصليبيين في الشام قد قاموا بتربية النحل، واستخلاص عسله من خلاياه للاستفادة منه ومن عائداته⁽⁶⁾، كما أنهم كانوا يستخدمون السكر لصناعة المشروبات وحفظ الفاكهة⁽⁷⁾.

إن الريف والمدينة في منجزات الصليبيين في ما وراء البحار، لم يكونا مختلفين تماماً في مجالات النشاط الاقتصادي، فالموارد الطبيعية الداخلية شملت الرمال لصناعة الزجاج، وغيرها من المواد التي توفرت مثل صناعة الصابون، وكلاهما من الصناعات الحضرية في المقام الأول، وقد توسعت زراعة قصب السكر، من وادي الأردن إلى المنطقة الساحلية بالقرب من مدينة عكا في القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري)⁽⁸⁾، كما كانت هناك صناعات حرفية متطورة في المدن التي أنشأها الصليبيون في الشام، مثل الأعمال المعدنية وصناعة الفخار⁽⁹⁾.

⁽¹⁾ المصدر السابق، ص. 238.

⁽²⁾ جمعة الجندي، الاستيطان...، ص. 162.

⁽³⁾ هنادي السيد، المرجع السابق، ص. 188.

⁽⁴⁾ هايد، المرجع السابق، ج. 4، ص. 203.

⁽⁵⁾ نفسه.

⁽⁶⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص. 209.

⁽⁷⁾ هنادي السيد، المرجع السابق، ص. 188.

⁽⁸⁾ أنظر:

⁽⁹⁾ أنظر:

5- صناعة زيت الزيتون:

لاشك في أن الصليبيين بعد استيلائهم على الشام وخاصة بيت المقدس، أولوا عناية كبيرة بشجر الزيتون، خاصة وأن المنطقة تشتهر به قبل غزوه لها، ولذلك يُعد موردا ذا أهمية سواء استعماله محليا أو تصديره والاستفادة من عائداته. ومن المدن التي اشتهرت بإنتاجها مدينة نابلس، حيث يقول شيخ الربوة بشأنها: "مدينة خصبة نزهة،...، خصها الله تبارك وتعالى بالشجرة المباركة، وهي الزيتون ويُحمل زيتها إلى الديار المصرية والشامية والحجاز والبراري مع العريان"⁽¹⁾.

إن مدينة نابلس كانت تقوم بتصدير زيت الزيتون إلى الغرب اللاتيني، خلال فترة السيطرة الصليبية على الشام، غير أن الكمية المصدرة إلى الغرب كانت قليلة، إذا ما قورنت بكميات السكر الوارد على الغرب⁽²⁾.

ونتيجة لوجود أشجار الزيتون في مناطق كثيرة، فقد انتشرت معاصره في جل القرى التي كانت تحت السيطرة الصليبية، حيث كان الفلاحون يقومون بجني المحصول، ويحملونه إلى المعاصر، التي تعمل بواسطة الإنسان أو الحيوان ويشرف عليها المعصراني⁽³⁾.

وقد كان استثماره ذا فائدة كبيرة على المستوطنين، حيث كانوا يصدرونه إلى المدن الإسلامية بالشام أو إلى مدن الغرب اللاتيني⁽⁴⁾. ولقد اعتنى الملوك بغرس أشجار الزيتون وصناعته، كونها صناعة ذات فائدة، خاصة إذا كانت موجهة للتجارة. ولا شك في أن الاقطاعات الكنسية قد أولت عناية خاصة بصناعة زيت الزيتون، لما لها من عائدات على رجال الدين⁽⁵⁾.

إذ أن هؤلاء ركزوا خاصة في الاقطاعات التي مُنحت لهم، على زراعة كرمة العنب وأشجار الزيتون، نتيجة ما تدره هذه المزروعات من أرباح على الكنائس والأديرة بصفة خاصة، ولا ريب

⁽¹⁾ المصدر السابق، ص. 200.

⁽²⁾ البيشاوي، إقطاعية نابلس في عصر الحروب الصليبية 1099-1291م/492-690هـ، ط. 2، 2014، دار الشيماء للنشر

والتوزيع، رام الله، فلسطين، ص. 195.

⁽³⁾ هنادي، المرجع السابق، ص. 189.

⁽⁴⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص. 214.

⁽⁵⁾ صفاء عثمان، المرجع السابق، ص. 264.

في أن ثمار العنب تُعتبر المادة الأساسية لصناعة النبيذ، الذي له مكانته عند رجال الدين، كما أن ثمار الزيتون ومستخلصها تقوم عليه صناعة الصابون⁽¹⁾.

ويذكر لنا براور Prawer بشأن زراعة أشجار الزيتون، وتوزيع الحصص بين السيد الإقطاعي والفلاحين، حيث يقول: "نسمع عن طريقة مثيرة للاهتمام خاصة بزراعة بساتين الزيتون، والتي تمتد على طول الجداول، تلقى كل ساكن حصته من بساتين الزيتون، ثم القيام بالعمل المشترك، بعد ذلك يأخذ الملك ثلثي الإنتاج، بينما يأخذ السكان الثلث، ونحن لا نعرف ما إذا كان هذا المثال نموذجاً معمولاً به في الغرب"⁽²⁾.

6- صناعة النبيذ:

بما أن بلاد الشام تتوفر على ثروة معتبرة من كرمة العنب، فلا بد أن يكون هناك اهتمام بها نتيجة عائداتها، خاصة وأن هذه الثروة سيوجه جزء منها لصناعة النبيذ، الذي يعد بالدرجة الأولى من أولويات المجتمع الصليبي بالشام.

ومما يشد الانتباه في مجال زراعة الكروم، ذلك الاهتمام المتزايد للمؤسسات الكنسية بزراعة كرمة العنب، إذ أنه في القرى التي استوطنها رجال كنيسة القيامة، على محور القدس والرملة كانت المزارع بارزة بشكل ملفت للانتباه، كما أن فرق الرهبان العسكرية تخلت عن زراعة الذرة وتوجهت إلى زراعة كرمة العنب، وربما كان السبب في ذلك يعود إلى الطلب المتزايد على النبيذ، بل أن هذه الأخيرة أكثر ربحاً من زراعة الذرة⁽³⁾.

لقد كانت لصناعة النبيذ في الشام الصليبي أهمية كبيرة في حياة المجتمع الوافد⁽⁴⁾، خاصة وأن مدن الشام تشتهر بزراعة كرمة العنب، ومنها مدينة القدس، "وإن عنب القدس خطير وليس

⁽¹⁾ البيشاوي، الأملاك...، ص.238.

⁽²⁾ أنظر: Colonization activities In, the Latin kingdom of Jerusalem in Revue Belge de philologie et d'histoire, T.29, fasc.4,1951, P.1117.

⁽³⁾ جمعة الجندي، الاستيطان...، ص.144.

⁽⁴⁾ هنادي السيد محمود، المرجع السابق، ص.189.

لمعتقدتها نظير⁽¹⁾، وبتوطن الصليبيين زاولوا نشاطهم، وخاصة صناعة النبيذ التي يصنعها الصليبيون والنصارى الشرقيون⁽²⁾.

وقد كانت أنطاكية وصيدا وصفورية وبيت المقدس، من مناطق الشام التي تعد مراكز لإنتاجه، وقد حقق نبيذ الأراضي المقدسة شهرة ذائعة الصيت في الغرب اللاتيني⁽³⁾.

وكانت صناعة النبيذ من أجل تحقيق الحاجة اليومية، من استهلاك الصليبيين لهذا المنتج، وكذلك استعماله في الطقوس الدينية، فضلا عن تصديره إلى الغرب اللاتيني، كمادة لها عائداتها المعتبرة في تمويل الخزينة الملكية بصفة خاصة⁽⁴⁾.

ولقد اهتم الملوك الصليبيون بصناعة النبيذ، ففي عهد بولدوين الثاني (1118-1131م)، بلغت صناعته شأنا كبيرا ومبلغا عظيما. كما كان لرجال الدين في إقطاعاتهم اهتمام بصناعته، فقد كانت تدر عليهم أرباحا طائلة، كما تمثل موردا للصليبيين، حيث يحصلون على نصف ثمار كرمة العنب من المستوطنين، بالإضافة إلى العشور المفروضة على السكان⁽⁵⁾.

لقد كانت مزارع كرمة العنب على نوعين، إما أن تكون متناثرة حول الكنيسة أو هناك مزارع خاصة للسكان، وتعتبر الأخيرة نموذجا بتقنية محددة، وقد تخلى المستوطنون عن ممتلكاتهم الفردية للملكيات الأكبر⁽⁶⁾.

كانت بعض مدن الشام تستورد منتج النبيذ، ومنها بيت المقدس التي كانت تستورده من مدينة نابلس، التي كان إنتاجها كبيرا من هذه المادة، وغيرها من المنتجات⁽⁷⁾. إن رجال الدين هم أيضا استغلوا إقطاعاتهم في بيت المقدس لزراعة كرمة العنب وصناعة النبيذ، للاستهلاك وإقامة

⁽¹⁾ كرد علي، خطط الشام، ج.4، ص.165.

⁽²⁾ مصعب حمادي، الاستيطان الصليبي...، ص.301.

⁽³⁾ هنادي السيد، المرجع السابق، ص.190.

⁽⁴⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.215.

⁽⁵⁾ صفاء عثمان، المرجع السابق، ص.263-264.

⁽⁶⁾ أنظر:

⁽⁷⁾ دانيال الراهب، المصدر السابق، ص.92.

طقوسهم الدينية⁽¹⁾.

7- صناعة الصابون:

إن تعدد المواد الأولية وتنوعها ببلاد الشام، جعلها منجما لا ينفد لكثير من الصناعات، فهذه صناعة المنسوجات وهذه صناعة زيت الزيتون، وغيرها كثير، ومن المصنوعات التي زادت أهميتها في الشام الصليبي، ومنها مملكة بيت المقدس نجد بها صناعة الصابون⁽²⁾، هذه الأخيرة التي تعتبر ضرورية في الحياة اليومية لأي مجتمع، فالصليبيون أقاموا لها عدة مصانع في مدن الشام، ومنها عكا ونابلس وصور وغيرها من المدن، التي وقعت تحت النفوذ الصليبي، ونتيجة لأهميته وتنوع إنتاجه أصبحت هناك محلات خاصة لبيعه⁽³⁾.

لقد كانت هناك مصانع كثيرة لهذه المادة المصنعة، في أنطاكية وطرطوس وعكا وغيرها كثير، وكان استخدام مُنتَج الصابون عاما في بلاد الشام، خلال القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري). واكتسبت هذه الصناعة أهمية كبيرة في المستعمرات الصليبية في بلاد الشام، وأصبحت له محلاته مثل باقي محلات المنتجات الأخرى في الأسواق⁽⁴⁾. وطبعا هذا يعكس اهتمامهم بالنظافة تأثرا بالمسلمين من جهة، ومن جهة أخرى يشكل موردا لعائدات الخزينة الملكية بصفة خاصة.

ويشير الرحالة دانيال الراهب إلى منتجات مدينة نابلس التي كانت تُصدر إلى بيت المقدس، ومنها الزيت الذي هو من المكونات الأساسية لصناعة الصابون، حيث يقول: "تتسم المدينة

⁽¹⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.215.

⁽²⁾ صناعة معروفة منذ القدم، وطريقة صناعة هذه المادة، أن يُخلط جزء من مادة القلي (بيكربونات الصوديوم) وجزء من الجير، بعد ذلك يضاف إليهما الزيت بعد أن كان قد تم وضعه على النار. وأجوده ما كان قد صُنِع من الزيت الخالص والقلي النقي والجير الطيب المحكم الطبخ والتجفيف والقطع على أوضاع مخصوصة. وأحسن نوع ما كان يُصنع في مدينة نابلس، وصانعه وبائعه يسمى بالصبان، وكان صنعه يعرف بالمصبنة. للمزيد عن كيفية تحضير وصناعة الصابون، أنظر: محمد سعيد القاسمي، جمال الدين القاسمي، ت. ظافر القاسمي، قاموس الصناعات الشامية، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، 1988، دمشق، ص.ص. 268-269.

⁽³⁾ مصعب حمادي، الاستيطان الصليبي...، ص.302.

Rey, op.cit., P.222.

⁽⁴⁾ أنظر:

بجمالها، وتنتج الزيت والنبيد والقمح والفاكهة بكثرة، وتستورد بيت المقدس جميع ما تحتاجه من طعام من هذا المكان⁽¹⁾. لقد كان لزيت الزيتون دوره الأساسي في صناعة الصابون، بالإضافة إلى بعض المركبات الأخرى⁽²⁾.

وبالرغم من أن العديد من مدن الشام كانت تصنع هذه المادة منذ القديم، مثل حلب وأنطاكية وطرابلس ونابلس ودمشق واللاذقية وحيفا وغيرها من مدن الشام، غير أن صابون نابلس فيه على ما يبدو خاصية تميزه عن غيره أو إتقان بدون غش⁽³⁾.

لقد كان الملوك الصليبيون يحتكرون صناعة الصابون، وبالتالي فصناعته محظورة على أصحاب المصانع، إلا بموافقة الملك مقابل دفع مبلغ من المال، وهذا بحد ذاته يشكل امتيازاً لملوك بيت المقدس ومورداً للخزينة الملكية⁽⁴⁾. وبما أن محصول الزيتون متوفر في جميع القرى، والقيام بعصره في معاصر السادة الإقطاعيين، فإن السكان وخاصة المسلمين في حاجة ماسة لهذه المادة، فإنهم من المرجح أنهم قاموا بتصنيعها في بيوتهم تلبية لاحتياجاتهم⁽⁵⁾.

8- صناعات نباتية أخرى:

إن ما جادت به بلاد الشام من ثروات متنوعة، وخاصة النباتية جعلها مصدراً لمختلف الصناعات وقد ذكرنا بعضها، علماً أن هناك كثيراً من الصناعات التي تعود إلى أصل نباتي، وقد استغل الصليبيون تلك الثروات للقيام بعدة صناعات يحتاجونها في حياتهم الغذائية، وحتى لممارسة طقوسهم الدينية، بل أنها ذات بعد استراتيجي يضمن لهم دخلاً مناسباً لتمويل مشاريعهم. لذا نجدهم قاموا باستخلاص زيت البلسم، والذي كانت له أهمية خاصة في بلاد الشام، حيث

⁽¹⁾ المصدر السابق، ص.92.

⁽²⁾ أنظر:

⁽³⁾ كرد علي، المرجع السابق، ج.4، ص.176.

⁽⁴⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.214.

⁽⁵⁾ نفسه.

كانت زراعة هذا النبات بأرض فلسطين⁽¹⁾.

ويذكر لنا الرحالة فيتلوس ذلك النبات الذي يُزرع في مناطق الشام، حيث يقول: "وبين سيجور وأريحا تقع عين جدي، التي اشتهرت بزراعة أشجار الكرمة، والشهيرة بالعنب الأنجادي، كما اشتهرت أيضا بزراعة أشجار البلسم"⁽²⁾،

وقد كانت لهذا المستخرج أهميته الخاصة في الشام الصليبي، نتيجة حاجتهم إليه في الطقوس الدينية، فكان بذلك عاملا مشجعا على ممارسة زراعته وازدهارها، إذ كان يتم وضع قليل من هذا الزيت في الماء الذي يستعملونه في التعميد أو التنصير، فضلا عن استعماله في تنظيف الجروح واستعماله كدهن لجثث الموتى⁽³⁾.

كما كانت هناك مستخلصات أخرى من بعض النباتات المنتشرة ببلاد الشام، كالسمسم والكتان والزيتون⁽⁴⁾ الذي كانت أشجاره تغطي مساحات كبيرة من مدن الشام وخاصة نابلس⁽⁵⁾.

بالإضافة إلى أن هناك تصنيعا لنباتات أخرى ببلاد الشام، وخاصة بيت المقدس، إذ كان لنبات البلسان أهميته، ونتيجة لاستخدام هذا المستخلص في الطقوس الدينية في الغرب اللاتيني، فأصبح لما يردُّ على الكنيسة من الأراضي المقدسة مكانة خاصة لهذه المادة⁽⁶⁾.

وقد كان لصناعة العطور أهمية بين المصنوعات النباتية، فقد احتلت مكانة مرموقة في بلاد الشام، وهذا راجع إلى حرصهم على تصدير منتجاتها إلى أسواق الغرب اللاتيني⁽⁷⁾، هذه بعض الصناعات التي قامت على مواد أولية ذات أساس زراعي. وهناك صناعات أخرى قامت على وجود مواد أخرى طبيعية كالرمل والمعادن وغيرها كثير ومنها:

⁽¹⁾ هنادي السيد، المرجع السابق، ص.188.

⁽²⁾ المصدر السابق، ص.40.

⁽³⁾ هنادي السيد، المرجع السابق، ص.188.

⁽⁴⁾ نفسه.

⁽⁵⁾ شيخ الربوة، المصدر السابق، ص.200.

⁽⁶⁾ جمعة الجندي، الاستيطان...، ص.163.

⁽⁷⁾ صفاء عثمان، المرجع السابق، ص.266.

9- صناعة الزجاج:

إن تعدد ثروات بلاد الشام جعل منها ركيزة أساسية لكثير من الصناعات، ومنها الزجاج الذي اشتهرت به المنطقة قبل الغزو الصليبي، فقد اعتنى المسلمون بصناعة الزجاج، وأصبح يضرب به المثل في الرقة والصفاء⁽¹⁾، ومن المدن التي اشتهرت بصناعاته مدينة صور، حيث أصبح إنتاجه ذا شهرة عالمية⁽²⁾. وكانت مادته الأولية هي الرمل الموجودة بجوار المدينة، تزيد الزجاج بهجة وهو مميز عن غيره في جميع البلاد⁽³⁾.

ويقول الإدريسي: "ولهذه المدينة ربح كبير ويُعمل بها جيد الزجاج"⁽⁴⁾، وكان بها اليهود هم أيضا أصحاب سفن وصناعة زجاج، وقُدِّر عددهم بأربعمئة يهودي⁽⁵⁾، ويؤكد ذلك الخبر بنيامين التطيلي، بأن عدد اليهود في مدينة صور كان يبلغ الأربعمئة، من بينهم "من يمتلك السفائن التي تجوب البحار، ومنهم من يحترف صناعة الزجاج النفيس، المعروف بالزجاج السوري الشهير في العالم"⁽⁶⁾.

حتى أن البنادقة لما استقروا بمدن الساحل الشامي، قد تأثروا بتلك الصناعة وأخذوا تقنية صناعاته إلى موطنهم الأصلي⁽⁷⁾، ومن بين ما يتم تصنيعه من الزجاج، صناعة النوافذ الملونة، والمرايا والمصابيح، وكذلك مختلف الأواني الزجاجية⁽⁸⁾.

لقد كانت بمدن المملكة الصليبية عدة عائلات يهودية، منهم من يمتحن التجارة البحرية

⁽¹⁾ الثعالبي، المصدر السابق، ص.532.

⁽²⁾ مصعب حمادي، الاستيطان...، ص.303.

⁽³⁾ كرد علي، المرجع السابق، ج.4، ص.238.

⁽⁴⁾ المصدر السابق، مج.1، ص.365.

⁽⁵⁾ أنظر: Conder, op.cit., P.243.

⁽⁶⁾ المصدر السابق، ص.238.

⁽⁷⁾ أنظر: Conder, op.cit. P.334.

⁽⁸⁾ صفاء عثمان، مملكة بيت المقدس، ص.265.

وصناعة الزجاج⁽¹⁾، وعلى ما يبدو أن صناعة الخزف، ومثله صناعة الزجاج في مدينتي يافا وصور، كان ذلك حكرا على اليهود⁽²⁾.

وبالرغم من أن اليهود تمكنوا من إنتاج الزجاج وتصديره إلى الغرب اللاتيني، إلا أنهم قد وجدوا في الساحة آنذاك منافسا قويا، تمثل في مصر التي كانت لها مكانتها في صناعة الزجاج، والتي قطعت شوطا في ممارسة هذه الحرفة والاتجار بها⁽³⁾.

كما يتم في كل من صور وحيفا تصنيع المصابيح والكؤوس ومختلف الأواني، ومثلها في المدن الإسلامية كمدينة دمشق⁽⁴⁾. لقد وصلت مدن الشام، مثل صور، الخليل، عكا، أنطاكية الخاضعة للحكم الصليبي، بالإضافة إلى دمشق الإسلامية، إلى درجة متقدمة في صناعة الزجاج، وفي تلك الورشات يتم صناعة المصابيح الرائعة والأكواب والأحواض ومختلف الأوعية الزجاجية⁽⁵⁾.

إن ذلك النشاط والمتمثل في صناعة الزجاج، الذي يمارسه اليهود وخاصة في مدينة صور، يُعتقد أن الملك الصليبي كان يأخذ نسبة من هذه المصانع، مقابل السماح لهذه الطائفة بمزاولة نشاطها، علما أن هذه المدينة كانت تحت النفوذ الملكي⁽⁶⁾.

Rey, op.cit., P.102.

Ibid., P. 212.

Rey. Op.cit., P.213.

Ibid., P.224.

⁽¹⁾ أنظر:

⁽²⁾ أنظر:

⁽³⁾ عاشور، الحركة...، ج.1، ص.488.

⁽⁴⁾ أنظر:

⁽⁵⁾ أنظر:

⁽⁶⁾ مصعب حمادي، الاستيطان...، ص.303.

الفصل الرابع: التجارة الداخلية لمملكة بيت المقدس الصليبية

- 1- التجارة عند حكام مملكة بيت المقدس الصليبية
- 2- الطرق التجارية الداخلية ببلاد الشام ومحطاتها
- 3- الأسواق
- 4- النقود والمعاملات التجارية
- 5- المكاييل والموازين والمقاييس
- 6- الرسوم والضرائب
- 7- الإشراف على الأسواق وإدارتها
- 8- محكمة السوق

النشاط التجاري:

نتيجة لما سبق، أن وفرة الإنتاج الزراعي والصناعي وتنوعه، يُحتمُّ على المستوطنين ممارسة تصريف فائض الإنتاج، إلى السوق لتلبية مختلف حاجات المجتمع الصليبي، ولهذا أصبحت التجارة ركنا أساسيا في الحياة الاقتصادية، ليس للصليبيين فحسب، بل لكل مجتمع يمارس أنشطته الاقتصادية.

إن التجارة بنوعها (الداخلية والخارجية)، تعد قطاعا ثالثا له أهميته، ويقول الدمشقي جعفر بن علي بشأن التجارة ومزاياها: "التجارة إذا مُيّزت من جميع المعايير كلها، وجدتها أفضل وأسعد للناس في الدنيا، والتاجر موسع عليه"⁽¹⁾.

وما يمكن التطرق إليه هنا هو التجارة الداخلية، إذ أن المملكة الصليبية رأت من الضروري تنشيط التجارة الداخلية، وتزويد السوق المحلية، بمختلف ضروريات المجتمع الصليبي، لضمان استمراره وبقائه في هذه البيئة، لاسيما أن الظروف المحيطة بها غير مواتية.

1- التجارة عند حكام مملكة بيت المقدس الصليبية:

بالرغم من أن الصليبيين منذ قدومهم، ركزوا على النشاط الزراعي والصناعي لتوفير مختلف الحاجات الضرورية، إلا أنهم وضعوا صوب أعينهم أن التجارة هي محور الصدارة، لأنها تشكل دعامة أساسية في الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام، ولهذا حرص الملوك الأوائل على تطوير هذا القطاع، باستغلال الظروف لتنشيط التجارة في المدن، التي أصبحت بحوزتهم، خاصة وأن هناك دعامة يستندون إليها لإنعاش التجارة، والتي تمثلت في وجود المدن الإيطالية في الساحل الشامي⁽²⁾.

علما أن هذه المدن وخاصة مدينة جنوة، لولاها لما استطاع الصليبيون الاستيلاء على مدن

⁽¹⁾ الإشارة إلى محاسن التجارة وغشوش المدلسين فيها، تقديم وتعليق، محمود الأرنؤوط، 1999، دار

صادر للطباعة والنشر، بيروت، ص.62.

⁽²⁾ عبد الحافظ عبد الخالق يوسف البناء، أسواق الشام في عصر الحروب الصليبية، 2007، عين للدراسات والبحوث الإنسانية

والاجتماعية، القاهرة، ص.19.

الشام، وخاصة الساحلية منها⁽¹⁾.

فوجود مثل هذه المدن ذات النشاط البحري، بالضرورة سيكون له انعكاس ايجابي على تحفيز وتنشيط التجار لممارسة نشاطهم، وفتح أسواق في المدن التي استولى عليها الصليبيون، ليس فقط للمدينة المحتلة فحسب، بل نظرة إستراتيجية للمملكة، وتواصلها مع الغرب اللاتيني خاصة⁽²⁾.

كما أن طرق التجارة المعهودة من قبل في المنطقة، ساهمت في إحياء التجارة، فضلا عن تواصل العلاقات التجارية بين الصليبيين والمسلمين. كل ذلك كان من العوامل التي أحدثت انتعاشا للتجارة الصليبية في بلاد الشام، بل في الغرب والشرق الأقصى، وكل ذلك كان له انعكاس ايجابي على أسواق المستعمرات الصليبية بالشام، وخاصة المملكة ببيت المقدس⁽³⁾.

ومن أولى المحاولات التي قام بها الملوك محاولة الدوق جودفري(1099-1100م) كسب ود بعض شيوخ شرق الأردن، وعدم التعرض للاعتداء من الجهتين، وبذلك يكون الملك قد حقق جزءاً من السلم، ليضمن استقرار مملكته الناشئة، وممارسة نشاطها وخاصة التجاري⁽⁴⁾.

وبهذا يكون من السهل على القوافل العربية، العبور الآمن في المناطق الصليبية، وبإمكان التجار المسلمين المجيء إلى المدن الصليبية، ومنها يافا وبيت المقدس⁽⁵⁾.

إن إستراتيجية ملوك بيت المقدس، ليس بحد ذاتها تكمن في الاستيلاء على الأراضي في منطقة الشام، وإنما تعزيز وجودهم بالمنطقة، ولا يكون إلا بتواصلهم مع الغرب، ورباطهم في ذلك يظهر في جذب المدن الايطالية، والإغداق عليهم بالامتيازات التي جعلت هذه المدن تُقبل على المنطقة بدون شك.

⁽¹⁾ مصطفى حسن محمود الكنايني، العلاقات بين جنوة والفاطميين في الشرق الأدنى 1095-1171م/488-567هـ، الهيئة

العامية المصرية للكتاب، 1981، القاهرة، ص.97.

⁽²⁾ عبد الحافظ عبد الخالق يوسف البناء، المرجع السابق، ص.19.

⁽³⁾ نفسه، ص.ص.19-20.

⁽⁴⁾ ماير، المرجع السابق، ج.1، ص.98.

⁽⁵⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.137.

ومن أولى الاتصالات مع المدن الايطالية، وعلى الخصوص البنادقة، ما قام به الدوق جودفري حاكم بيت المقدس، وفي شهر جوان سنة 1100م وصل أسطول بندقي إلى ميناء يافا، فرأى الملك في ذلك إستراتيجية للمملكة، فقام بعقد اتفاق معهم، وبالرغم من أنه قد أُصيب بالمرض، إلا أنه أتم بنود الاتفاق، ومنها أن يمارس البنادقة حرية التجارة في أرجاء المملكة⁽¹⁾.

وبإمكانهم أن يُنشئوا سوقا في كل مدينة، ويأخذوا الثلث من كل مدينة يشاركون في الاستيلاء عليها، وفي مقابل ذلك يساعدون جودفري في توسعته، إلى غاية 15 من شهر أوت سنة 1100م. ولقد حاول الملك أن يستغل البنادقة لتنشيط التجارة بالمملكة، ومن جهة أخرى إيجاد طرف يساعده على ترجيح كفته، والحد من نفوذ البطريرك دايمبرت، غير أن المنية وافته في 18 جويلية سنة 1100م⁽²⁾.

إن المملكة اعتمدت على التجارة كدعامة أساسية لميزانيتها، فضلا عن حركة الحج، ولهذا نرى بأن الملك بولدوين الأول (1100-1118م) قد اعتنى بذلك عناية خاصة، ولاسيما أن العوامل توافرت لممارسة ذلك النشاط، حيث وفرة الإنتاج الزراعي والصناعي، بالإضافة إلى وجود بعض الحرف، كما أن بعض مدن الشام الرئيسية شكلت حجر الأساس في ازدهار التجارة، خصوصا وأن المدن الايطالية التجارية والمتمثلة في جنوة وبيزا والبندقية، كانت تسعى لتحقيق مكاسب على هذه الأراضي⁽³⁾.

علما أن سياسة بولدوين الأول، لم تكن تقتصر على الشمال والساحل، بل كانت نظرتة أيضا صوب تأمين حدود مملكته من جهة الجنوب، فنجده يتموقع من أجل السيطرة على جنوب البحر الميت، ليتحكم في الطريق المؤدي إلى العقبة، حيث بنى هناك قلعة الشوبك والمعروفة لدى الصليبيين بقلعة Montreal سنة 1115م⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ ماير، المرجع السابق، ج.1، ص.98.

⁽²⁾ نفسه.

⁽³⁾ هنادي السيد، المرجع السابق، ص.191.

⁽⁴⁾ ماير، المرجع السابق، ج.1، ص.111.

ومن أشهر المدن الشامية ونشاط التجارة بها، مدينة عكا التي أصبحت تحت السيطرة الصليبية عام 1104م/497هـ، وبهذا يمكن لها أن تصدر وتستورد، فضلا عن وجود مدينة بيروت كمركز تجاري له أهميته، بالإضافة إلى مدن ساحلية وداخلية لها أهميتها التجارية في بلاد الشام⁽¹⁾. ومن الاستراتيجيات التي اتبعتها بولدوين الثاني (1118-1131م) فيما تعلق بالتجارة الداخلية، فإنه أصدر مرسوما سنة 1120م، لعب دورا فعّالا في تنشيط حركة التجارة الداخلية، بأن أعفى منتجات الحبوب والخضروات من الرسوم الجمركية، التي كانت حجر عثرة أمام البضائع والسلع، التي كانت ترد إلى بيت المقدس، وهذا يعكس مدى نظرتة الاقتصادية لصالح المملكة، وخاصة التجارة الداخلية⁽²⁾.

كما أن هذا المرسوم أتاح للمسلمين أيضا المجيء ببضائعهم إلى المدن المحتلة، وطبعا يعود ذلك إلى تجاوز الأزمات التي ضربت الصليبيين، إذ أن وقوع الكوارث حتم عليهم التعامل مع المسلمين، كما أن هؤلاء وجدوا فرصتهم في تصريف فائض إنتاجهم في الأسواق الصليبية، بمعنى أن الظروف والمصالح حتمت إقامة العلاقات التجارية بين الطرفين⁽³⁾.

ونتيجة لنظرة ملوك بيت المقدس بعين البعد الاستراتيجي، قام الملك فولك الأنجوي (1131-1143م) بالسيطرة على الطرق التجارية، التي تربط مصر بالشام وشبه الجزيرة العربية، لتكون قاعدة خلفية لحماية مواقع الاستيطان بالمملكة من الجهة الشرقية، وقام في سنة 1142م بإنشاء حصن الكرك في صحراء البتراء، وقد كانت لهذا الحصن أهميته، إذ أصبحت الطرق التجارية من مصر وغربي بلاد العرب، إلى الشام على مرمى حجر من الحاميات الصليبية المرابطة هناك، بالإضافة إلى أنه على مشارف نهر الأردن الأدنى⁽⁴⁾.

لقد كانت قلعتا الكرك والشوبك، حسب موقعهما ومدى تأثيرهما من أهم البارونيات الكبيرة في

⁽¹⁾ هنادي السيد، المرجع السابق، ص. 192..

⁽²⁾ صفاء عثمان، المرجع السابق، ص. 267.

⁽³⁾ نفسه، ص. ص. 267-268.

⁽⁴⁾ جمعة الجندي، الاستيطان الصليبي...، ص. 153-154.

مملكة بيت المقدس، فموقعهما على الشاطئ الشرقي للبحر الميت، جعلهما مفتاحا لجميع الطرق العسكرية والتجارية، المؤدية من مصر إلى الشام والجزيرة العربية⁽¹⁾.

ولقد كانت عائدات هذه البارونية كبيرة للغاية، وكان مصدرها إلى جانب الجزء الأكبر الذي أخذه سيد الكرك، من الرسوم التي تدفعها العديد من القوافل التجارية الإسلامية، التي تعبر أراضيها، التي كانت أكثر تنوعا وقيمة. كما كان إنتاج حوض البحر الميت، متنوعا والذي يتمثل في البلسم، والعنب الذي تُصنع منه الخمر "النبذ الأنجادي"، وبصفة خاصة إنتاج السكر، فضلا عن وجود رسوم الملاحة في البحيرة، كما كانت هناك غلة كبيرة في هضبة مؤاب⁽²⁾.

ومن خلال ما توفر في مدن المملكة الصليبية، من سلع وبضائع في مختلف الأسواق، تكون سياسة ملوك بيت المقدس قد نجحت إلى حد ما، في اهتمامهم بالحياة الاقتصادية وخاصة التجارية⁽³⁾.

2- الطرق التجارية الداخلية ببلاد الشام ومحطاتها:

لقد كان للطرق التجارية الداخلية ببلاد الشام، دورا كبيرا في تفعيل حركة البضائع بين مختلف المدن الشامية، سواء الساحلية أو الداخلية، وبالرغم من استيلاء الصليبيين على كثير من المدن بالشام، إلا أن الطرق التجارية كانت معروفة، وقد سلكتها القوافل التي تُقَلُّ مختلف البضائع، ومن هذه الطرق، طريق القاهرة دمشق، حيث يمر بالعريش وبلبيس ورفح وغزة والرملة وطبرية وصولا إلى دمشق⁽⁴⁾.

وعلى الرغم مما هو متعارف عليه، من عدم التعرض للقوافل التجارية السالكة لطريق القاهرة دمشق، إلا أنه كثيرا ما تعرضت القوافل للاعتداء والنهب، وهذا ما قام به الملك الصليبي، حيث تعرّض للقافلة التي تعبر وادي موسى جنوب البحر الميت سنة 1127م/521هـ، حيث قام

Rey, op.cit., P.21.

Ibid., P.22.

⁽¹⁾ أنظر:

⁽²⁾ أنظر:

⁽³⁾ سرور محمد علي، المرجع السابق، ص.ص.85-86.

⁽⁴⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.136.

الصليبيون بنهب البضائع والأموال⁽¹⁾، ويقول ابن القلانسي بشأن ذلك الاعتداء على القافلة: "وفي شعبان من هذه السنة (521هـ) قصد بغدوين صاحب بيت المقدس في عسكره، وادي موسى فنهب أهله وسباهم وشردهم وعاد عنهم"⁽²⁾.

إن البضائع التي كانت تصل دمشق، فإنها تُحمل مرة أخرى عبر الطرق البرية إلى الساحل الشامي⁽³⁾، وعلى ما يبدو أن الطرق البرية التي كانت معروفة منذ القديم، لا زالت تقوم بنشاطها، فيذكر لنا ابن جبير أثناء رحلته أنه سلك الطريق من دمشق إلى عكا، ومحطاته تمثلت في قرية بيت جنّ وبانياس وقرية بالمسية وتبنين وعكا، وأن دروب هذا الطريق صعبة المسالك، كما أشار إلى طريق آخر ومن بين محطاته دمشق وطبرية وهو أسهل مسلك⁽⁴⁾.

وقد استخدمت القوافل التجارية المُغادرة لشرق دمشق، طريق الجولان إلى سهول الجليل ثم تسلك الساحل إلى مدينة عكا، والتي تحمل مختلف البضائع والسلع الواردة من الشرق لبيعها في أسواق المدينة أو تصديرها مرة أخرى إلى الغرب اللاتيني⁽⁵⁾.

وهناك طريق من عكا إلى القدس له محطاته، وكذلك كان التواصل بين عكا ودمشق، ومحطاته تورون وطبرية وبانياس وبيت جنّ، وكان ذلك عبر مناطق تخضع للنفوذ الصليبي. كما كانت بانياس محطة على طريق صور ودمشق وطبعاً لها محطاتها⁽⁶⁾.

ومن الطرق القديمة التي تسلكها القوافل التجارية: انطلاقاً من اليمن بمحاذاة ساحل البحر الأحمر باتجاه مكة شمالاً، ثم البتراء فغزة وإلى باقي موانئ الساحل الشامي⁽⁷⁾، ومهما كان الطريق الذي تسلكه القوافل، سواء كان من دخول غزة والصعود نحو الشمال الشرقي، حيث بحيرة طبرية،

⁽¹⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.136.

⁽²⁾ المصدر السابق، ص.218.

⁽³⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.137.

⁽⁴⁾ المصدر السابق، ص.ص.272-275، 282.

⁽⁵⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.137.

⁽⁶⁾ أنظر:

⁽⁷⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.138.

أو أنها تأتي من البحر الأحمر وصولاً إلى وادي الأردن عن طريق غور، فإنها بهذا تصبح مرغمة على عبور الأراضي التي تسيطر عليها المملكة الصليبية في بيت المقدس⁽¹⁾.

أي تكون ضمن النفوذ الصليبي، لأن طريق الغور تتحكم في منافذ قلعتي كرك Karak وشوبك Choubek⁽²⁾. كما كانت هناك طرق تجارية تسلكها القوافل، ما بين دمشق وأنطاكية ومينائها بالسويدية، بالإضافة إلى طريق دمشق وميناء طرابلس، والتي أسهمت مع موانئ مملكة بيت المقدس في عكا وصور، مساهمة فعّالة في إنعاش التجارة بالمملكة الصليبية خاصة، فضلاً عن فعاليتها في تزويد الغرب بمختلف المنتجات الشرقية، وكذلك تزويد الشرق بمختلف صادرات الغرب، كما كانت هناك طرق تجارية أخرى لها محطاتها، لعبت دوراً ريادياً في عملية التبادل الداخلي والخارجي⁽³⁾.

فبعد استقرار الصليبيين في بلاد الشام، كان لزاماً عليهم استعمال الطرق التجارية المعروفة، كما أنهم لم يضيفوا طرقاً جديدة، ولكنهم قاموا بتقسيم ما وجدوه إلى طرق ملكية وهي الطرق الرومانية القديمة، بالإضافة إلى الطرق العامة، أي الطرق الثانوية التي تربط بين مختلف القرى بالريف الصليبي⁽⁴⁾. وتجد الخانات⁽⁵⁾ في المدن التي تقع على أطراف الطرق التجارية البرية العالمية، وأماكن لاستراحة التجار، وكانت لهذه الخانات المهمة نفسها مع الموانئ التجارية⁽⁶⁾.

وبما أن لموظفي بوابات المدن على الطرق البرية المهمة نفسها مع موظفي الموانئ، فإنهم يقومون بمراقبة السلع والبضائع الواردة، وفرض الرسوم الجمركية المقررة عليها، أما إذا كان المسافر لا يملك سلعة فيطلب منه القَسَم، وأن ما يحمله للاستعمال الشخصي فقط، وبهذا يتم

⁽¹⁾ هايد، المرجع السابق، ج.1، ص.184.

⁽²⁾ نفسه، ج.1، ص.184.

⁽³⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.137-138.

⁽⁴⁾ نفسه، ص.138.

⁽⁵⁾ مفردة خان، وجمعه خانات وهي الوكالات، أو الفنادق المجهزة، لاستقبال التجار وبضائعهم، وغيرهم من المسافرين، حيث يوجد بالخان بئر ومصلب. للمزيد عن هذه المخطات، أنظر: عبد الحافظ عبد الخالق، المرجع السابق، ص.115، حاشية (3).

⁽⁶⁾ براور، الاستيطان...، ص.481.

إخراجه من دائرة الجمركة، وأن قيمة الرسوم هي نفسها، كما هو في رسوم الموانئ، أي حسب قيمة البضاعة وحجمها⁽¹⁾.

3- الأسواق:

إن مصطلح السوق وإن اختلفت مسمياته، فهو في الحقيقة مكان لتجمع التجار والباعه لممارسة عملية البيع والشراء، فيه يجد السكان مختلف السلع والبضائع التي تفي بسد حاجاتهم⁽²⁾.

إن اهتمام ملوك بيت المقدس بالتجارة الداخلية، كان إستراتيجية منهم لمد السوق المحلية بكل ما يلزمها من سلع وبضائع لتلبية مختلف حاجات المستوطنين، وليكون ذلك أكثر تنظيماً وفعالية وُجدت الأسواق.

إن هذه الأخيرة كانت لها أهميتها في مملكة بيت المقدس، وتعكس إلى حد ما أن المجتمع الصليبي في بلاد الشام أصبح أكثر وعياً بمدنيته عن سكان الغرب. وبما أن أصحاب الاقطاعات لا يمكنهم أن يحصلوا على كل الضروريات من اقطاعاتهم، لذا توجهوا لسوق المدينة لاقتناء كل ما يلزمهم، هذا بالإضافة إلى سكان المدن الصليبية فهم بحاجة إلى السوق لسد متطلبات حياتهم، كما كان سكان القومونات الايطالية بحاجة ماسة إلى ما يتم عرضه من متطلبات الحياة، وطبعاً كان ذلك ضرورياً للفلاحين القادمين من الأرياف، لتسويق فائض إنتاجهم الذي يشكل مورداً أساسياً لسكان المدن الصليبية⁽³⁾.

ولقد كانت الأسواق بالمدن الصليبية فضاءً ملائماً للإيطاليين المستقرين بالساحل الشامي خاصة، لمزاولة نشاطهم التجاري. وبالرغم من أن الأسواق الصليبية كانت قليلة الأهمية من الأسواق الإسلامية والبيزنطية، إلا أنها استطاعت أن تضع لنفسها مكانة في تجارة المشرق الإسلامي والغرب اللاتيني⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.ص. 139-140.

⁽²⁾ براور، الاستيطان...، ص.ص. 486-487.

⁽³⁾ عبد الحافظ عبد الخالق، المرجع السابق، ص. 76.

⁽⁴⁾ عبد الحافظ عبد الخالق، المرجع السابق، ص. 76.

إن استقرار الصليبيين في المنطقة العربية الإسلامية، أدى إلى تكيف النشاط التجاري على الساحل الشرقي للمتوسط مع احتياجات وإمكانات الغرب اللاتيني، ومن هنا سيلعب الغرب دوراً ثنائياً من حيث تسويق منتجاته إلى الشرق، وفي الوقت نفسه سيجد منفذاً آخر للمنتجات الشرقية باتجاه الغرب⁽¹⁾. ولقد كان الدور الريادي في ذلك التبادل بين الشرق والغرب للمدن التجارية، وخاصة الإيطالية ومنها بيزا والبندقية وجنوة⁽²⁾.

ولقد اهتمت هذه الأخيرة بأساطيلها البحرية من أجل مساعدة الصليبيين، والحصول على المزيد من الامتيازات، لذا قامت البندقية بتطوير ترسانتها البحرية سنة 1104م، حيث تضمنت أحواضاً لبناء السفن ومراكز لصناعة الأسلحة، بالإضافة إلى مخازن للأجهزة الحربية والبحرية، وكل ما يتعلق بمختلف التجهيزات الأخرى، وواصلت هذه الترسانة إمدادها للجاليات البندقية، في بيت المقدس بكل ما تحتاجه، كما زودت باقي المدن الأخرى⁽³⁾.

إن هذه الأسواق كانت تعقد بصفة دائمة، أو في أوقات معينة ومنتظمة من أيام الأسبوع أو من شهور السنة⁽⁴⁾.

وتبرز شهادة التاجر الفلورنسي فرانثيسكو بالدوتشي بيجولوتي Francesco Balducci Pegolotti (1290-1347م) في كتابه المشهور بـ: أوصاف البلدان والأنظمة التجارية، أن الأسواق الصليبية في المشرق، هي أسواق ذات ديمومة⁽⁵⁾.

ولقد تعددت أسواق المدن الصليبية بالشام، والتي كانت تؤدي دوراً فعالاً في تلبية مختلف حاجات السكان اليومية، وهذه الأسواق كانت عبارة عن مجموعة من الشوارع الطويلة والمتوازية،

⁽¹⁾ براور، الاستيطان...، ص.468.

⁽²⁾ نفسه، ص.473.

⁽³⁾ الطحاوي حاتم، القانون البحري لمملكة بيت المقدس الصليبية، قراءة في قوانين بيت المقدس، مجلة كلية الآداب، مج.58، ع.4، جامعة القاهرة، أكتوبر 1998، ص.481.

⁽⁴⁾ عبد الحافظ عبد الخالق، المرجع السابق، ص.76.

⁽⁵⁾ أنظر: La Pratica Della Mercatura, Ed. Allan Evans, Medieval Academy of America, Publication No.24, Cambridge, Mass. 1936, PP.63-68.

لها أبوابها وذات سقوف، بالإضافة إلى بعض المصاطب المنخفضة بداخل الأسواق، بحيث كانت هذه الأخيرة، تمتد على طول جوانب السوق، وتُستخدم كمقاعد للجلوس أو عرض الباعة لبضائعهم⁽¹⁾.

ويذكر لنا الرحالة الألماني ثيودريش، عن حال سوق تعقد كل سنة في سهل ميدان⁽²⁾، فيقول: "ويجتمع حشد لا حصر لهم من الناس في هذا السهل، من كل سنة في بداية الصيف، جالبين معهم الأشياء للبيع"⁽³⁾، ولقد كان اتجاه الأسواق في المدن التي استولى عليها الصليبيون، تمتد من الشمال إلى الجنوب في نهايتها قباب، يصل ارتفاعها إلى ستة أمتار⁽⁴⁾.

ومن خلال ما أشار إليه الرحالة الألماني مرة أخرى، في وصفه لبيت المقدس فإن معظم شوارع المدينة مغطى بالحجارة، وبما أن السوق جزء من المدينة، فإنها هي الأخرى تكون شوارعها أيضا مرصوفة بالحجارة⁽⁵⁾.

وتماشيا مع الأوضاع السياسية والاقتصادية للمستوطنات الصليبية بالشام، كان هناك نوعان من الأسواق في المدن الصليبية، إذ توجد الأسواق الملكية وهي الأسواق التابعة للسلطة الرسمية، والمتمثلة في ملك بيت المقدس، و(الأسواق الإقطاعية التابعة لأمرأ الكونتيات والبارونيات)، وأسواق المدن الإيطالية، أي أسواق القومونات الإيطالية ببلاد الشام⁽⁶⁾.

ونتيجة لاختلاف نظرة الاستيطان الصليبي، في المستعمرات التي أُسّئت ببلاد الشام، أدى إلى اختلاف البعد الاستراتيجي، من خلال ما تم إيجاده في الأسواق، حيث أن هذه الأخيرة التابعة للملك الصليبي والأمرأ كان هدفها تلبية حاجات المستوطنين، إذ أنه يتم فيها بيع وشراء ما

⁽¹⁾ عبد الحافظ عبد الخالق، المرجع السابق، ص.77.

⁽²⁾ ربما تعني المكان الواسع، أو أنها مشتقة من ماء الميدان، وهو أحد فروع نهر اليرموك. أنظر: عبد الحافظ عبد الخالق، المرجع نفسه، ص.84، حاشية (1).

⁽³⁾ المصدر السابق، ص.135.

⁽⁴⁾ عبد الحافظ عبد الخالق، المرجع السابق، ص.77.

⁽⁵⁾ ثيودريش، المصدر السابق، ص.59.

⁽⁶⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.143.

يستهلكه سكان المدن الصليبية، وليس ذلك مقتصر على المواد الاستهلاكية، بل كانت هناك ضروريات أخرى في السوق الصليبية، وبصفة خاصة ما يحتاجه الفرسان الذين هم قوام المملكة، في حين نجد أن المدن الإيطالية، وجهت نشاطها للبضائع ذات الطابع التجاري، بحيث يتم جلبها من أسواق المدن الإسلامية، ومن الغرب اللاتيني⁽¹⁾.

وبهذا يكون الاختلاف، بحيث تنتوع سلع وبضائع أسواق القومونات الإيطالية، عمّا هو موجود في أسواق الملك والأمراء الصليبيين، وهذا بحد ذاته انعكس على سعر البضاعة، نتيجة انعدامها في أسواق الملك، وارتفاع سعرها أثناء شحنها إلى أسواق القومونات، وكل ذلك عاملاً مساعداً على ارتفاع الأسعار، وليس هذا فقط، بل أن أسواق القومونات تعتبر أسواقاً للبيع بالجملة، بل وجهت نشاطها للتصدير والاستيراد⁽²⁾.

وإستراتيجية من الملوك الصليبيين، حاولوا جذب تجار الشام إلى الأسواق الملكية، لإنعاشها بمختلف المنتجات وتشجيعهم على ذلك، مقابل الحد من توجه السكان إلى أسواق المدن الإيطالية⁽³⁾.

ومنها ما قام به الأمير حنا دي برين Jean de Prienne (1210-1225م)، في مدينة صور، حيث ألقى التجار الشاميين، الذين يقطنون بالحي الملكي من الرسوم الجمركية، التي تُدفع إلى الميناء، فأثر ذلك على البنادقة، وأدى بانتقال الشاميين إلى الحي الملكي ببيت المقدس⁽⁴⁾. حتى وإن كان ذلك في القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري)، إلا أنه يعطينا صورة عن بُعد نظر ملوك بيت المقدس، في إنعاش التجارة الداخلية بالمملكة.

لقد كان النبلاء يحصلون على مستلزماتهم، من الغذاء من أسواق المدينة، وقد شاركهم في ذلك البورجوازيون وسكان القومونات الإيطالية، الذين حُرّموا من امتلاك الضياع الإقطاعية. وعموماً

(1) نفسه.

(2) نفسه.

(3) نفسه.

(4) براور، الاستيطان، ص. 486.

يمكن القول بأن السكان الصليبيين كانوا مستهلكين للطعام، دون اللجوء إلى موارد الدخل الخاصة بهم⁽¹⁾.

في حين كانت الهيئات الدينية العسكرية، والمتمثلة في الأسبترارية والداوية والتوتون، تقوم بإجراء احتياطي، إذ أن فائض إنتاجها تخزنه لكفاية سنة، وربما زيادة عن ذلك، وهذا بحد ذاته رؤية مستقبلية لما سيحدث من اضطراب⁽²⁾. علما أنهم في الضياع التي امتلكوها، والتي كانت لهم بها منتجات، فقد وجهوا فائض إنتاجها إلى الأسواق⁽³⁾.

ولقد كانت لكل مدينة صليبية أسواقها الخاصة، منها ما هو دائم ومنها ما هو موسمي، ولم تختلف الأسواق بين داخل مدن الشام وساحلها، إلا ما تعلق بالتجارة، فإن الساحل تميز بتجارة نشطة بسبب وجود الموانئ، وتركز القومونات الإيطالية خاصة، ومباشرة عمليتي التصدير والاستيراد، في حين كان للمدن الداخلية أهميتها الدينية أو التجارية، مثل بيت المقدس وبيت لحم والناصر، فقد كانت أسواقها تعج بالنشاط التجاري، ومدى إقبال سكانها على السوق لاقتناء ما يريدونه⁽⁴⁾.

لقد كان سوق البنادقة في الحي المقيمين به في كل مدينة، عبارة عن شارع ضيق محاط بعدة مباني، كان أسفلها عبارة عن حوانيت للبيع، وفي أعلى هذه الحوانيت إقامة التجار وأصحاب الحرف، في حين يُخصص جزء منها لتخزين البضائع، وكانت شوارع السوق مسقوفة، مع أن التجار الإيطاليين استخدموا مظلات مصنوعة من القماش، يتم استعمالها حسب الفصول⁽⁵⁾.

ونتيجة لما هو متعارف عليه في الغرب اللاتيني، فإن هذه الأسواق كانت متخصصة في بيع وشراء أنواع معينة من البضائع وغيرها من المنتجات، بمعنى هذه السوق سمتها التخصص في

⁽¹⁾ نفسه، ص.493.

⁽²⁾ نفسه، ص.494.

⁽³⁾ أنظر:

Boas Adrian, Archaeology, P.71.

⁽⁴⁾ الطحاوي، الاقتصاد، ص.144.

⁽⁵⁾ عبد الحافظ عبد الخالق، المرجع السابق، ص.78.

نوع معين من البضاعة، أُقيمت على الأصل العرقي أو الديني للتجار، إضافة إلى أن هذه الأسواق أُقيمت على أساس تعدد القوى السياسية، والاجتماعية بالمدينة الصليبية⁽¹⁾.

لقد كانت التجارة الداخلية للأسواق الصليبية، وما يعرض فيها هو عبارة عن مختلف المأكولات والأطعمة، بالإضافة إلى ما ينتجه أصحاب الحرف من مواد مصنعة، يحتاجها سكان المدن، وقد تمثلت مختلف المعروضات في الحبوب والزيت والنبيد، ومختلف الخضروات، وطبعاً هذا يعكس مدى توفر الإنتاج الزراعي والصناعي بالمنطقة. ونتيجة لكثرتها وتنوعها، فإنها كانت توضع في ميادين أوسع، فسوق مدينة القدس يقع في مساحة كبيرة إلى الشمال من البوابة الرئيسية للمدينة قريباً من القلعة، وكان تخصصه في بيع الحبوب، وكان تحصيل الضرائب عند القلعة⁽²⁾.

وعند الدخول من الغرب عند باب داود عليه السلام، سيجد الحاج سوقاً مفتوحة تعج بالفلاحين التجار، ومن حصافة رأي الحكام أنهم الغوا رسوماً على الحجاج، الذين احضروا معهم مؤناً أو بضائع، وبالتالي يمكن لهؤلاء أن يبيعوا ما كان معهم⁽³⁾.

و بما أن الأسواق الصليبية كانت تتخصص في أنواع مختلفة من البضائع والسلع، فقد كانت هناك سوق التوابل والفواكه، وهي من السلع الأقل حجماً والأكثر ثمناً، ولقد كان سوق التوابل والأعشاب الطبية في القدس، عبارة عن شارع مسقوف يعرف بشارع الأعشاب، حيث يباع فيه مختلف الفواكه والبهارات، يقابله سوق آخر يسمى بسوق الدجاج، حيث تعرض فيه جميع الطيور والبيض والجبين، كما كانت هناك تقسيمات للسوق تحتوي على المطاعم، التي تُعرض المأكولات الجاهزة، بالإضافة إلى بيع الأقمشة، كما كان يوجد سوق أغلب ماشيته الأغنام، وهو قريب من مكان ذبح الماشية، وسلخها ومدبغة المدينة⁽⁴⁾.

وفي تلك الشوارع ترى الصرافين يجلسون أمام محلاتهم، ويعرضون ما لديهم من أموال، وقد أُقبل

⁽¹⁾ براور، الاستيطان...، ص.487.

⁽²⁾ نفسه، ص.ص.487-488.

⁽³⁾ أنظر:

⁽⁴⁾ براور، الاستيطان...، ص.488.

عليهم السكان والوافدون لتحويل العملات⁽¹⁾. وعلى ما يبدو أن في عالم التسوق سقطت كل الفوارق العرقية، فترى المسلمين إلى جانب المستوطنين والحجاج الوافدين إلى الأراضي المقدسة⁽²⁾.

ولقد كانت الصيرفة عملية مرتبطة بالمدينة، إلا أنها في بيت المقدس كانت حتمية يومية، بسبب وجود الصليبيين والحجاج، والتجار الوافدين خاصة من الغرب اللاتيني، حيث توجد الطاولات على شكل صفوف، ويتم تبادل عملات الغرب بالعملة المحلية، والتعامل بمختلف العملات التي ضربت في دور السك الغربية، بحيث يتم تثمين قيمتها الرئيسية كمعدن، وبعد ذلك يتم تحويلها إلى عملة محلية⁽³⁾.

من خلال ذلك نستنتج بأن التجارة كانت نشطة في المدن التي احتلها الصليبيون، وهذا يعكس مدى اهتمام الملوك بها، تلبية لحاجات السكان. إن المدن الصليبية قد تعددت أسواقها وتخصصت، من حيث عرض نوع معين من البضائع، وكانت هناك أسواق لتجارة الجملة وأخرى للبيع بالتجزئة⁽⁴⁾.

وكان التجار الايطاليون خاصة أصحاب تجارة الجملة، وكذلك المسلمون يفتدون إلى الأسواق الصليبية، بينما تجارة التجزئة كانت في الأسواق المحلية بصفة خاصة، والتي كانت ميزة لمدن المشرق العربي⁽⁵⁾، حيث قال متر بشأن تلك الأسواق: "أما أسواق المدن فقد كانت أسواقاً أسبوعية، تقام في أيام معينة من الأسبوع، فمثلاً كان السوق بشرفي بغداد يوم الثلاثاء"⁽⁶⁾.

إن عمليتي البيع والشراء كانت متواصلة في الأسواق المحلية للمدن الصليبية، كما هو موجود

Conder, The Latin..., P.101.

Ibidem.

⁽¹⁾ أنظر:

⁽²⁾ أنظر:

⁽³⁾ براور، عالم...، ص.168.

⁽⁴⁾ عبد الحافظ عبد الخالق، المرجع السابق، ص.79.

⁽⁵⁾ عبد الحافظ عبد الخالق، المرجع السابق، ص.79.

⁽⁶⁾ متر آدم، المرجع السابق، مج.2، ص.386.

في مدن المشرق الإسلامي، ولقد كان الغالب على السوق الأسبوعي سمة التخصص، حيث كانت هناك أنواع معينة تباع في السوق⁽¹⁾، إذ نجد كل سوق يُتجر فيه بنوع معين من البضاعة، حيث تجد سوق الشماعين يختص ببيع الشموع، وسوق الدجاج فيه تعرض مختلف الطيور والدجاج والبيض، بالإضافة إلى سوق السلاح، وما يتم فيه من بيع القسي والرماح.

ومن خلال التخصص هذا، يستطيع السكان الحصول على ما يريدون من سلع وبضائع وأشياء مختلفة، بالأسعار التي يرونها مناسبة لهم، وإن لم ترق السلعة وثمانها للمشتري، فبإمكانه أن ينتقل إلى بائع آخر. وبالتالي فالباعة دائماً يحافظون على الأسعار التي تتناسب وقدرة المشتري، لكن ما يعاب على هذا التخصص أن المشتري إذا أراد أن يشتري عدة أنواع، فعليه أن يجوب السوق ذهاباً وإياباً لتحقيق رغبته⁽²⁾.

لقد كان عقد الأسواق المحلية، هو توفير مستلزمات الحياة اليومية لسكان المستوطنة، وهذا يفسر عقدها الأسبوعي، وكانت تتم فيها عملية البيع بالتجزئة الصغيرة، كما كانت هناك لقاءات دورية للتجار المتخصصين، وكانت مراكز للبيع بالجملة، وقد أصبحت مناطق جذب للناس والبضائع بغض النظر عن الاعتبارات المحلية، فهي شبيهة بالمعارض الدولية، كل مادة تم بيعها أو شراؤها أياً كانت طبيعتها، وكانت هذه الأسواق تعقد مرة أو مرتين في السنة، لذا كان الإعداد اللازم لها ضرورياً⁽³⁾.

ومن مدن المملكة الصليبية التي لعبت دوراً كبيراً في التجارة، مدينة عكا بمينائها الشهير، تُعد العاصمة الثانية للمملكة بعد سقوط القدس في يد السلطان صلاح الدين الأيوبي (1174-1193م) عام 1187م/583هـ، علماً أن هذه المدينة معروفة بأسواقها منذ العصر الإسلامي، والتي تُعد آخر محطات الطريق البري للقوافل، على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، الذي يربط الساحل

⁽¹⁾ عبد الحافظ عبد الخالق، المرجع السابق، ص.79.

⁽²⁾ عاشور عبد الفتاح، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، 1992، دار النهضة العربية، القاهرة، ص.97.

⁽³⁾ أنظر: Pirenne henri, Economic and social history of medieval Europe, harcourt, Brace and company 1937, N. Y., U.S.A., PP.96-97.

الشامي بمختلف الموانئ⁽¹⁾.

وكما انتشرت الأسواق في المدن بتخصصها، فكذلك كان لها وجود في القرى وقرب القلاع، التي شيدها الصليبيون في بلاد الشام⁽²⁾. إن سقوط مدينة عكا في يد الملك بولدوين الأول، جعل منها قاعدة بحرية هامة للمملكة الصليبية، وميناء له أهميته التجارية، وبما أنها محطة في أطراف الطرق، التي تصلها بالداخل فازدادت مكانتها على الصعيدين الداخلي والخارجي. وبشأن سقوطها في يد الصليبيين، يقول ابن القلانسي: "وفي هذا الشهر (شعبان سنة 497هـ)، ورد الخبر بنزول بغدوين ملك الإفرنج، صاحب بيت المقدس في عسكره، على ثغر عكا ومعه الجنويون والمراكب في البحر والبر، ... إلى أن عجز واليه ورجاله عن حربهم، وضعف أهله عن المقاتلة لهم وملكوه بالسيف قهراً"⁽³⁾.

ولقد تعززت مكانة مركز عكا التجاري في القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري)، من خلال العوامل الجغرافية والسياسية والاقتصادية للمدينة، وهذا عقب سقوط المدينة في يد ملك بيت المقدس بولدوين الأول سنة 1104م/497هـ⁽⁴⁾.

وبسقوط بيت المقدس في يد السلطان صلاح الدين الأيوبي، ازداد الازدهار التجاري للمدينة نتيجة توجه الصليبيين للمدن الساحلية، وبما أن للمدينة مكانتها الاقتصادية وارتباطها بالطرق التجارية، فضلا عن وجود تعداد سكاني كبير، فإن ذلك ساهم في انتعاش حركتها التجارية، طيلة القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري)، و وجدت في مدينة عكا الأسواق الملكية، إلى جانب أسواق القومونات الإيطالية، ولكن على حسب ما يبدو أن تموقع أسواق القومونات من ساحل البحر، كان يعكس مدى نشاط القومونات في التصدير والاستيراد⁽⁵⁾.

⁽¹⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.144.

⁽²⁾ عبد الحافظ عبد الخالق، المرجع السابق، ص.80.

⁽³⁾ المصدر السابق، ص.ص.143-144.

⁽⁴⁾ أنظر: David Jacoby, Medieval Trade in the Eastern Mediterranean and Beyond, Rouledge, 2018, N.Y., P.152.

⁽⁵⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.144.

وبما أن المدينة أصبحت ذات كثافة سكانية مرتفعة، فقد زاد الطلب على السلع والبضائع، والمتمثلة في الحبوب والخضروات، والفواكه والنبيد والزيتون وزيت الزيتون، ومختلف الأطعمة الجاهزة، كما نشطت بالمدينة عملية بيع وشراء الأغنام والماعز والدواجن⁽¹⁾.

وبخصوص المدن الداخلية للمملكة، نجد بيت المقدس وما اكتسبته هذه المدينة من مكانة دينية وتجارية، فإن أسواقها هي الأخرى كان لها باع في تلبية حاجات السكان المختلفة، وتوجد بها الأسواق الدائمة والموسمية. ولقد حافظ الصليبيون على ما وجدوه من تخطيط عمراني في المدينة، وقد احتوى سوقها على ثلاثة شوارع مغطاة ذات اتجاه من الشمال إلى الجنوب، في حين كانت لهذه الشوارع ممرات تصلها ببعضها البعض⁽²⁾.

ولقد ارتبطت الأسواق المحلية بالأعياد الدينية خاصة لدى النصارى في مدينة القدس، حيث وُجدت بعض الأسواق السنوية المتخصصة، في بيع بعض المنتجات، ومنها وجود شارع لبيع سعف النخيل. وقد كان لهذا السوق وجود منذ التمرکز الصليبي الباكر في بيت المقدس، وخاصة في فترة حكم الملك بولدوين الأول (1100-1118م)، حيث كان الحجاج النصارى يتسوقون لشراء سعف النخيل، الذي يضعونه على صدورهم بشكل صليب، وهم عائدون إلى الغرب، بالإضافة إلى وجود شارع آخر متخصص في بيع الشموع للحجاج⁽³⁾.

كما تُعرض للبيع في السوق السنوية مختلف الحلي وصور القديسين والتحف الشرقية، حيث كان الوافدون من الغرب اللاتيني حريصين على شرائها⁽⁴⁾. وكان للكنيسة والهيئات الدينية العسكرية أيضا كثير من الحوانيت والدكاكين في بيت المقدس⁽⁵⁾.

ومن بين المدن أيضا مدينة الرملة، التي كانت لها أربعة أسواق ذات نشاط مكثف للتجار

(1) نفسه، ص.145.

(2) نفسه.

(3) عبد الحافظ عبد الخالق، المرجع السابق، ص.83. للمزيد عن وصف شوارع بيت المقدس، أنظر:

Conder, The City of Jerusalem, London, 1909, PP.287-288.

(4) صفاء عثمان، المرجع السابق، ص.269.

(5) الطحاوي، الاقتصاد...، ص.147.

ومختلف المتسوقين⁽¹⁾، وبشأن مدينة الرملة يقول مجير الدين الحنبلي: "وأما صفة الرملة قديماً قبل الإسلام وبعد إلى حدود الخمسمائة، فكان لها سور محيط بها، وكان لها قلعة، واثنان عشر باباً، منها باب القدس وعسقلان ويافا ويازور (من قرى فلسطين)، ونابلس، ولها أربعة أسواق متصلة من أربعة أبواب إلى وسطها، وهناك مسجد جامعها، فمن باب يافا يدخل في سوق القماحين، وهو متصل بسوق البصاليين، ...، وهي أسواق حسنة، يباع فيها أنواع السلع، ويتصل بباب القدس سوق القطانين، إلى سوق المشاطين للكتان إلى سوق العطارين، ...، ويتصل بسوق الخشابيين من باب يازور، ثم سوق الخرازين، ثم سوق البقالين إلى المسجد الجامع، ويتصل بباب آخر من أبوابها بسوق الصياقلة، ثم سوق السراجين إلى المسجد الجامع"⁽²⁾.

وإن دل ذلك على شيء، فإنما يدل على وجود مختلف المنتجات الزراعية والصناعية، وكثرة الحرف بمدينة الرملة، كما أن هناك التخصصات في بيع السلع والبضائع. ويذكر الرحالة كازولا Casola في أثناء رحلته إلى الأراضي المقدسة، عمّا شاهده في مدينة الرملة، وما بقي لها من آثار، حيث قال: "على ما يبدو أن تلك الآثار، كانت لمساكن قديمة في الماضي، ولكن الآن تم هدمها كلها، فكان هناك بقايا قصر جميل، كما لها مسجدها، لقد كان في هذه المدينة شارعين بهما محلات جميلة، يباع فيها المأكولات الجاهزة والخضروات، هذه المدينة لديها فاكهة أكثر وفرة من القدس، قد يكون تم استيرادها من مدينة غزة. وفهمت ذلك من خلال ما أشار إليه البائعون، فكثيراً ما دعوا المشتريين وقالوا لهم إن بضائعهم جاءت من غزة. في الواقع، أخبرني راهب من جبل دير صهيون -وقد كان عارف باللسان المغربي جيداً-، مراراً بأن هذه الفواكه أفضل الفواكه على الإطلاق، وأنه شاهد عناقيد من العنب في غزة، تزن ستة وثلاثين رطلاً من قياس اثنتي عشرة أوقية"⁽³⁾.

⁽¹⁾ عبد الحافظ عبد الخالق، المرجع السابق، ص. 93.

⁽²⁾ الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تح. محمود عودة الكعابنة، 1999، مكتبة دنديس، عمان، الأردن،

مج. 2، ص. ص. 127-128.

⁽³⁾ من الموازين التي كانت مشهورة الاستعمال بشبه الجزيرة العربية، وبناءً على الحديث الشريف، أن سلمة بن عبد الرحمن قال:

وبالرغم من أنه من رهبان التنظيم العسكري الديني، بدا لي الأمر غير عادي، ولقد رأيت عنقودا كبيرا أكبر مما رأيته في بلدنا وأفضل منه بكثير، بالإضافة إلى الفواكه الأخرى، الرملة لديها وفرة من التمر، أكثر من أي مكان رأيته في بلاد المشرق، كما كان الحجاج يشترون كمية كبيرة من الميلانزين Melanzane (الباذنجان) المطبوخ والمحضر جيدا⁽¹⁾.

وقد كان لمدينة بيت لحم أسواقها أيضا، في داخل أسوار المدينة، وكانت شوارعها مسقوفة ذات قباب محمولة بأعمدة من الرخام، وقد وُجدت بهذه الأسواق مختلف المنتجات، وقد كان لمدينة طبرية عاصمة إقليم الجليل سوقها، الذي حفل بالتجار، كما كانت هناك أسواق بالإقليم، ومنها سوق بيسان الذي وُجدت به مختلف السلع والبضائع⁽²⁾.

كما كانت مدينة صور ذات أهمية تجارية في المملكة الصليبية ببيت المقدس، حيث يصفها ابن جبير أثناء رحلته إلى بلاد الشام، فيقول: "قد أعدها الإفرنج مفزعا لحادثة زمانهم، وجعلوها مثابة لأمانهم، هي أنظف من عكة سكا وشوارع، وأهلها ألين في الكفر طبائع"، لها ميناؤها ذو الموضع الحسن، الذي ترسو فيه السفن، غير أن ميناء عكا أكبر وأوسع⁽³⁾.

لقد كانت أسواق عكا من أهم أسواق المدن الصليبية، من حيث النشاط التجاري وكثرة السلع

سألت عائشة رضي الله عنها، كم كان صداق الرسول صلى الله عليه وسلم؟ قال: كان صداقه لأزواجه اثني عشرة أوقية ونشأ، ثم قالت عائشة رضي الله عنها، أتدري ما النش؟ قلت: لا، قالت النش نصف أوقية، فذلك خمسمائة درهم. ومقدار الأوقية حسب ما قُدِّر فهو أربعون درهما، ويؤكد ذلك التقدير ما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها، حيث أن اثنتا عشرة أوقية ونصف مقدارها خمسمائة دينار. وبهذا يكون مقدار الأوقية كالتالي: $40 = 12.5/500$ ، أي أن الأوقية مقدارها 40 درهما. وبهذا يكون وزن الأوقية عند الحنفية هو: $124.8 = 3.125 \times 40$ ، أي أن الأوقية تساوي 124.8 غراما، أما عند الجمهور فهي: $119 = 2.975 \times 40$ ، أي أن الأوقية تساوي 119 غرام تقريبا. أنظر: علي جمعة محمد، المكايل والموازين الشرعية، ط. 2، 2001، القدس للإعلان والنشر والتسويق، القاهرة، ص. ص. 20-21. وللمزيد عن ورود الحديث بصيغة أخرى، أنظر: الترمذي، الجامع الكبير (سنن الترمذي)، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، 1996، بيروت، لبنان، مج. 2، ص. ص. 407-408.

⁽¹⁾ أنظر: Casola, Casola's Pilgrimage to Jerusalem, Margaret, M, Newett, B.A, Manchester, University Press, 1907, P.240.

⁽²⁾ عبد الحافظ عبد الخالق، المرجع السابق، ص. ص. 93-94.

⁽³⁾ المصدر السابق، ص. ص. 277-278.

والبضائع وتتنوعها، وبعد أن استرد المسلمون بيت المقدس سنة 1187م/583هـ، أصبحت مدينة عكا عاصمة المملكة ذات أهمية سياسية ودينية واقتصادية، وبذلك صارت منطقة جذب لمختلف تجار الغرب اللاتيني، وخاصة الجاليات الايطالية، وأصبح التنافس ممكناً مما تولد عنه نشاطٌ تجاريٌّ تعددت وتتنوعت أسواقه⁽¹⁾.

وعن حال هذه المدينة وما يجري عند الدخول إليها، يقول ابن جبير: "وحملنا إلى الديوان وهو خان⁽²⁾ معد لنزول القافلة، وأمام بابه مصاطب مفروشة فيها كُتّاب الديوان من النصارى بمحابرهم،... وهم يكتبون بالعربية ويتكلمون بها،...، ورئيسهم يُعرف بالصاحب،...، وكل ما يُجبي عندهم راجع إلى الضمان، وضمان هذا الديوان بمال عظيم"⁽³⁾.

من خلال ذلك يتبين أن الإدارة الصليبية تقوم بتحصيل الضرائب، عن السلع الواردة إلى مدينة عكا، كما أشار مرة أخرى إلى أن المدينة ذات كثافة ونشاط تجاري، ويؤكد ذلك بقوله: "هي قاعدة مدن الإفرنج بالشام ومحط الجوّاري المنشآت في البحر كالأعلام، مرفأ كل سفينة والمشبهة في عظمتها بالقسطنطينية، مجتمع السفن والرفاق وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق. سككها وشوارعها تغص بالزحام، وتضيق فيها مواطئ الأقدام"⁽⁴⁾.

إن سوق عكا الملكي يقع في الجزء الشمالي الشرقي من المدينة، حيث كان شارعها الممتد من الشرق إلى الغرب يحتوى عدة أسواق، بالإضافة إلى وجود مكاتب لتحصيل الرسوم الجمركية ومقر محكمة السوق وكذلك فندق⁽⁵⁾ أو نزل للتجار⁽¹⁾.

⁽¹⁾ عبد الحافظ عبد الخالق، المرجع السابق، ص.96.

⁽²⁾ من بين التسميات التي أُطلقت على الفندق، حوله فناء مفتوح يتكون من طابقين السفلي منه لتخزين السلع والبضائع، بينما العلوي لإقامة التجار، كما كان أيضا الفندق يعني السوق، أو القيسارية، حتى أن كلمة فندق تستعمل للدلالة على مجموعة الأسواق التي تعمل تحت إشراف إدارة واحدة. للمزيد عن الفندق ووظيفته، أنظر: عبد الحافظ عبد الخالق، المرجع السابق، ص.97، حاشية(3).

⁽³⁾ المصدر السابق، ص.275-276.

⁽⁴⁾ ابن جبير، المصدر السابق، ص.275-276.

⁽⁵⁾ مصطلح يوناني باندوخيون Pandocheion، التي تعني مركز أو محطة تجارية، وأصبحت لدى العرب تعرف بفندق Funduk،

4- النقود والمعاملات التجارية:

إن استقرار الصليبيين بمدن الشام وخاصة بيت المقدس، سيجعل لهم نظرة تتماشى وحياتهم بالمنطقة، فكما قاموا بالاستيلاء على الأراضي وتنشيط الزراعة، بالإضافة إلى ممارسة الصناعة ومختلف الحرف، فإنه تطلب منهم وجود أداة يتم التعامل بها خاصة في البيع والشراء وهي العملة.

لقد قام الصليبيون بضرب عملة صليبية في بلاد الشام، تقليداً للدينار الإسلامي وأطلقوا عليها اسم البيزنط الصليبي، وكانت الغاية من سك هذه العملة لتصبح في ميدان التعامل على غرار ما هو في المنطقة من عملات بيزنطية (الهيبريرو أو النوميما) وإسلامية، ولقد كان اعتماد الصليبيين لصناعة هذه العملة على ما يصل إليهم من أكوام الذهب الوافد من الغرب⁽²⁾.

وبهذا انتشر استعمال هذه العملة في التداول التجاري، وفي أسواق الدويلات الإسلامية القريبة من حدود المملكة الصليبية ببيت المقدس، وعلى الرغم من ذلك لم تصل هذه العملة إلى مرتبة العملة الإسلامية والبيزنطية، غير أنه من خلال التسمية البيزنطية الصليبية فإنه يؤكد حقيقة بأن الصليبيين قد قلدوا النوميما البيزنطية، وأضافوا الكتابات العربية تقليداً للدينار الإسلامي، مع إضافة رموز تحمل طابعا دينيا كالصليب، وطبعا كان ذلك العمل لتُحظى العملة بالقبول في الأسواق خاصة الإسلامية⁽³⁾. وبمرور الوقت، وعلى ما يبدو أن ملوك بيت المقدس قد سكوا عملة نقدية، عليها كتابة لاتينية وشعارات دينية، كالصليب وأماكن لها قداستها، كالقبر المقدس وقلعة داود عليه السلام⁽⁴⁾.

ويمدنا التاجر الفلورنسي، بيجولوتي بمعلومات عن كيفية إعداد سك العملة، وعملياتها في ميناء

بينما الإيطاليون أصبحوا يتداولونها باسم فنداكو Fondaco. وللمزيد من المعلومات عن هذه الفنادق، ودورها الاقتصادي، في عالم البحر الأبيض المتوسط، وبصفة خاصة الكيانات الصليبية في الشام. أنظر: أوليفيا ريمي كونستابل، إسكان الغرب في العالم المتوسطي، السكن والتجارة والرحلة، في أواخر العصر القديم وفي العصر الوسيط، ت. محمد الطاهر المنصوري، دار المدار الإسلامي، 2013، بيروت، لبنان، ص.ص. 297-342؛ وعن الفندق ووظيفته، أنظر أيضا: الحويري محمد، المرجع السابق، ص. 117.

⁽¹⁾ عبد الحافظ عبد الخالق، المرجع السابق، ص. 97.

⁽²⁾ براور، الاستيطان...، ص. 456.

⁽³⁾ براور، الاستيطان، ص.ص. 456-457.

⁽⁴⁾ للمزيد عن العملة التي سكها ملوك بيت المقدس، أنظر: الملحق رقم (11).

بيزنطي معروف هو غلارينزا Glarentza، والتي قام الصليبيون بمحاكاتها إثر اكتشافهم لها، خلال تحركاتهم في الأراضي اليونانية وتعلموها هناك⁽¹⁾.

وعلى ما يبدو أن هذا النوع من النقود، هو النوع الثاني الذي ضربه الصليبيون في إماراتهم للتداول الخارجي، والذي انتشر استعماله في منطقة المشرق، وكانت مادته من الذهب أو الفضة، ذا كتابات لاتينية أو يونانية أو فرنسية، وكان تقليدا للعملة الفاطمية والأيوبية، التي صنعت من الذهب أو الفضة، وأما بخصوص النوع الأول الذي ضربه الصليبيون فقد كانت مادته من البرونز والنحاس، ذات كتابات لاتينية أو يونانية أو فرنسية، وقد كان استعماله محليا داخل الإمارات الصليبية⁽²⁾.

ولقد لاقى البيزنط الذهبي الصليبي سمعة طيبة، باعتباره أول عملة ذهبية صليبية تُستعمل على نطاق واسع. إن العملات الأجنبية المتداولة في المملكة الصليبية، كانت أكثر من العملات المتداولة في الغرب اللاتيني، وطبعا هذا نتيجة توافد التجار والحجاج على منطقة الشام، وخاصة بيت المقدس⁽³⁾.

علما أن الصليبيين قد استعملوا النقود الذهبية، والتي تُعرف ببيزنطيات ميخائيل السابع دوقاس Michael VII Ducas⁽⁴⁾، الإمبراطور البيزنطي (1071-1078م)⁽⁵⁾، وكان ذلك عند غزوهم للرها وأنطاكية، وطبعا تلك النقود كانت تمثل مكافأة الإمبراطور الكسيوس كومينوس (1081-1118م)، لأمرء الحملة الصليبية الأولى، نتيجة إعلان الولاء والطاعة له⁽⁶⁾.

وفي حديثنا عن العملة في مملكة بيت المقدس، تتوارد بين الباحثين نظرية شلومبرجر

⁽¹⁾ أنظر: Francesco Balducci Pegolotti, op.cit., PP.116-118.

⁽²⁾ النبراوي رأفت محمد، النقود الصليبية في الشام ومصر، 2004، مكتبة القاهرة للكتاب، القاهرة، ص.23.

⁽³⁾ براور، الاستيطان...، ص.457.

⁽⁴⁾ النبراوي، المرجع السابق، ص.23.

⁽⁵⁾ أنظر: The Crusades An Encyclopedia, op.cit., P.913.

⁽⁶⁾ النبراوي، المرجع السابق، ص.ص.23-24.

Schlumberger، التي تقول بأن مملكة بيت المقدس شكلت نظاماً إقطاعياً مثالياً، وفي شرحه لإحدى الفقرات الواردة في الأسيز (التشريعات L'Assises)، بأن الحق "المحكمة، الحكم والعملية"، تنطوي على حق سك النقود⁽¹⁾، وعلى ما يبدو أن ذلك قد ورد في الفصل الخامس، من الأسيز، في تشريعات المحكمة العليا⁽²⁾.

وفي الأسواق الصليبية بالشام، استعمل الصليبيون المعاملات المعروفة في أسواق العصور الوسطى، والتي من بينها البيع بالمقايضة والمزاد والبيع بالأجل والنقد. وفي ما تعلق بطريقة المقايضة، فقد كان التجار يتبادلون السلع المتعارف عنها، والمتمثلة في الحبوب والماشية والخيول. إذ لم يكن للسلطة الصليبية أن تتدخل في ذلك الشأن، كونه متعارف عنه وتتم برضا الطرفين. وربما يرجع ذلك إلى أن السلطة هدفها تحصيل الضريبة، غير أن التعامل بطريقة المزاد بدأ تداولها بداية من القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري). حيث أن موظفي الحكومة يعلنون عن السلعة، في حين يجتمع المشترون حول السلعة ليستقر ثمنها فلا زيادة، وبذلك تصبح السلعة للذي دفع الثمن الأعلى⁽³⁾.

وكان الوكلاء على السلعة، يُرتّبون في حلقات البيع من كانت له زيادة في ثمن البضاعة، وهذا فعل يلجأ إليه هؤلاء المزايدون لبيع البضاعة بالتحايل⁽⁴⁾.

إن عملية البيع والشراء في الأسواق الصليبية، كان معظمها يتم نقداً، فبعد الاتفاق على ثمن البضاعة، وجب على المشتري أن يدفع الثمن مباشرة⁽⁵⁾. وعلى البائع كتابة الأصول من أجل الاحتياط، وإن لم يرض بذلك وأرادها له، فعلى المشتري أن يأخذ منه نسخة ويشهد شهود عدل

⁽¹⁾ أنظر: Alex Malloy (G), Irene Fraley Briston, (A.J). Seltmen, op.cit., P.51؛ للمزيد

عن الاقطاعات التي لها حق إنشاء محكمة، و سك العملة في مملكة بيت المقدس، أنظر: الملحق رقم (12).

⁽²⁾ للمزيد عن ذلك، أنظر: Assises, op.cit., T.I, PP.27-28.

⁽³⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.ص.150-151.

⁽⁴⁾ الدمشقي جعفر بن علي، المصدر السابق، ص.58.

⁽⁵⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.151.

على ذلك التملك⁽¹⁾.

وبما أن عملية المساومة طريقة سائدة في السوق، إذ أن المشتري يحاول تخفيض ثمن السلعة على حسب استطاعته⁽²⁾، وبهذا كان هناك مشترون يمضون الليل بطوله يساومون التجار، وكل مكان يذهب إليه الحجاج، أثناء وجودهم في الأرض المقدسة، يرافقهم تجار مسيحيون مشرقيو المولد، وأكثرهم مبتدعون جشعون متذوقون، لا ينامون قط خلال الوقت الذي يقضيه الحجاج في الأرض المقدسة، بل أكثر من ذلك، كلما دخل الحجاج إلى كنيسة القبر المقدس، يأتي هؤلاء التجار معهم حاملين بضاعتهم، ويحصل هؤلاء التجار على رسم الدخول للكنيسة، بدفع مبلغ من المال من أجل بيع بضاعتهم، ويقومون أمام باب الكنيسة، وينشرون قطعة قماش على الرصيف ويُعرضون بضاعتهم للبيع⁽³⁾.

وقد كان بعض الحجاج الذين رأوا بأن وقت مغادرتهم قد حان، ظلوا مستيقظين كل تلك الليلة من أجل المساومة، واشتروا كل أنواع السلع، لأن التجار هناك لم يكتفوا ببيع الأحجار الكريمة، والحبات المرصعة بالخرز فقط، بل باعوا أيضا القماش الدمشقي المصنوع من الوبر والحريز، وفي الوقت الذي كانت فيه عملية البيع والشراء، كان هناك كثير من الضوضاء حتى في مكان السوق⁽⁴⁾.

وبما أن للتجار الايطاليين سطوة على السوق وريح مادي، فقد فرضوا أنفسهم أثناء عملية البيع والشراء، وكان دفع النقد هو أساس البيع، وبما أن كثيرا من السكان كانت قدرتهم الشرائية ضعيفة، فقد تم إيجاد طريقة البيع بالأجل⁽⁵⁾.

ولقد كان باعة النبيذ المتجولون يجوبون الشوارع، حيث كان التاجر منهم يملأ القنينات من النبيذ، وينقل من شارع إلى آخر معلنا عن بضاعته⁽⁶⁾، وبشأن ذلك الخبر الذي يؤكد أسامه ابن منقذ بقوله: "ومما

⁽¹⁾ الدمشقي، المصدر السابق، ص.49.

⁽²⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.151.

⁽³⁾ أنظر: Fabri Felix, the book of the wandering of Brother Felix Fabri, Trans., Aubrey Stewart, M.A, Vol.II, Part, I, in, P.P.T.S., London,1893, P.84.

⁽⁴⁾ أنظر: Fabri Felix, op.cit., P.84.

⁽⁵⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.151.

⁽⁶⁾ أنظر: Holmes urban Tignor, life Among the Europeans in Palestine and Syria in the

شاهدت من ذلك: أني كنت إذ جئت إلى نابلس، أنزل في دار رجل يقال له مُعز، داره عمارة المسلمين، لها طاقات تُفتح إلى الطريق، ويقابلها من جانب الطريق الآخر دار لرجل إفرنجي، يبيع الخمر للتجار، يأخذه في قنينة من النبيذ، وينادي عليه ويقول: فلان التاجر قد فتح بئية⁽¹⁾ من هذا الخمر، من أراد منها شيئاً فهو في موضع كذا وكذا"، ويأخذ أجرته من ندائه لهذا النبيذ⁽²⁾.

وبهذا يكون السماسرة (مصطلح مقتبس من عند البيزنطيين) *Sensales* وسطاء⁽³⁾، أي أن هؤلاء هم من قاموا بتعريف السلعة للمشتري، وقد كانوا يتحايلون على المشتري، حيث يقول الدمشقي: "ويجب أن لا يُصدق لأحد من السماسرة قولاً، ولا يُقبل لهم نصحاء، فإنها صناعة مبنية على الكذب، ...، فإن الدلال تارة يصف البضاعة وجودتها، وبياهت أهل الخبرة بها، وتارة يذكر قلتها، ...، وتارة أنها ستغلو، ...، وتارة أن يذكر أن الراغبين إليه فيها كثير، ...،"⁽⁴⁾.

وقد كان هؤلاء السماسرة *Les Sensars* اهتمام ببيع البضائع تجزئة، وخاصة في الموانئ أثناء نشاط المدن التجارية⁽⁵⁾.

وبخصوص أنواع التجار فإن الدمشقي يعطينا صورة عن ذلك، حيث يذكر لنا منهم الخزّان (المحتكر)، وهو ذلك التاجر الذي يشتري البضاعة وقت وفرتها، وحين ندرتها في السوق وحاجة الناس إليها، حينذاك يُخرجها للبيع، وبذلك يكثر طالبوها ويرتفع ثمنها.

وأما فيما يتعلق بالنوع الثاني من التجار فهو الرّكاض، حيث أن هذا الصنف من التجار أن يتتبع أسعار

twelfth and thirteenth centuries, in A history of crusades, Edited by Setton Kenneth(M), Vol.IV, the university of Winsconsin Press, U.S.A., 1977. P.17.

⁽¹⁾ برميل أو ما يشبهها في المصطلح *Bouteille* أو *Bouteillon*، للمزيد، أنظر: عبد الحافظ عبد الخالق، المرجع السابق، ص.106، حاشية (4).

⁽²⁾ الاعتبار، تحقيق، فيليب حتي، د.فن، مكتبة الثقافة الدينية، (د.ت.ط)، القاهرة، ص.136.

⁽³⁾ أنظر: Pirenne Henri, Economic and social history, P.175.

⁽⁴⁾ المصدر السابق، ص.58.

⁽⁵⁾ أنظر: Richard Jean, Colonies marchandes privilégiées et marché seigneurial, la Fonde d'Acre et ses droitures, le Moyen Age, Revue d'histoire et de philology,N.59, Paris, Anée, 1953, P.326.

البضائع قبل شرائها، ثم يجري عملية حسابية وينظر إلى تكاليف هذه التجارة أولاً، "التبصرة نصف عطية"، وكأنه يستطلع قبل أن يُقدم على التجارة. وأما النوع الثالث من التجار فهو المُجَهِّز، وهو الذي يُعد مكاناً لاستقبال البضاعة للتجار بها، وله نسبة من الربح⁽¹⁾، كما ذكر أيضا المتحايين على المشتريين من السكان، وحتى على الذين يبيعون بضائعهم⁽²⁾.

إن الأسعار في المدن الصليبية، ارتبطت بالسياسة النقدية التي اتبعتها الملوك والأمراء في الشام⁽³⁾، إذ أن اليوناني في حوادث سنة 658هـ/1259م، يذكر الاضطراب الذي حدث في بلاد الشام، بقوله: "وفيها ابتلى الناس بالشام بغلاء شديد عام، في جميع الأشياء من المأكول والملبوس وغيرهما، وبلغ رطل الخبز درهمين ورطل اللحم خمسة عشر درهماً..."⁽⁴⁾، وطبعاً هذا هو حال السوق وتقلباته، سواء كان في المدن الإسلامية، أو في المدن التي وقعت تحت السيطرة الصليبية، وخاصة في مملكة بيت المقدس.

ويُرجع اليوناني ذلك الاضطراب، إلى سبب أن الصليبيين سكوا عملة تُسمى اليافية مغشوشة المعدن، قيل أنه كان في المائة نحو خمسة عشر درهماً فضة، والباقي نحاس وكثرت في أيدي الناس، وتحدث في إبطالها، "... فدأب الناس على شراء أي شيء خوفاً من بطلانها"⁽⁵⁾.

وهذا بحد ذاته انعكس على الأسواق، إذ أن الناس اقبلوا على الشراء، مما أدى إلى ارتفاع الأسعار، وهذا هو حال كل مجتمع في أي مكان وزمان.

ولقد كانت هناك أسباب أخرى انعكست على حالة المجتمع، وخاصة فيما يتعلق بالأقوات وأسعارها، ومنها الكوارث الطبيعية كالزلازل خاصة⁽⁶⁾، و وقعت في سنة 552هـ/1160م زلازل قوية ببلاد الشام فخرت جزءاً كبيراً من البلاد ومن بين مدنها حمص وحماة وشيزر وكفرطاب

⁽¹⁾ الدمشقي، المصدر السابق، ص.ص. 63-68.

⁽²⁾ نفسه، ص.ص. 68-71.

⁽³⁾ عبد الحافظ عبد الخالق، المرجع السابق، ص. 108.

⁽⁴⁾ ذيل مرآة الزمان، 1954، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، الهند، مج. 1، ص. 376.

⁽⁵⁾ المصدر السابق، مج. 1، ص. 376.

⁽⁶⁾ عبد الحافظ عبد الخالق، المرجع السابق، ص. 109.

والمعرة وأفامية⁽¹⁾، بالإضافة إلى أن حالة التوتر بين الطرفين الإسلامي والصليبي، تؤدي إلى اضطراب الأحوال، وانعكاس ذلك على تراجع حركة القوافل التجارية، وبذلك تقل البضائع ومختلف السلع وترتفع الأسعار⁽²⁾.

5- المكايل والموازين والمقاييس:

لاشك أن أية منطقة لها مكايلها وموازينها ومقاييسها، التي تستعمل في الحياة اليومية وخاصة في عمليتي البيع والشراء، ولقد كانت لبلاد الشام أدواتها وأجهزتها المستعملة في التجارة، إذ أنه قبيل الاحتلال الصليبي للمنطقة كان المسلمون يستعملون الموديوس Modius⁽³⁾ الروماني⁽⁴⁾، كما كان هناك استعمال لأدوات أخرى في عملية البيع والشراء، مثل الأوقية والرطل⁽⁵⁾ والصاع⁽⁶⁾ والقسط⁽⁷⁾.

ويعطي لنا وليم الصوري فكرة عن استعمال المكايل ببلاد الشام، حيث يقول: " بالرغم من أن مدينة صور قاومت الصليبيين بعد طول حصار وصبر أهلها وتجلدهم، إلا أن المدينة سقطت في أيديهم"، إذ لم يجد رجالنا بعد احتلالهم المدينة سوى خمسة مكايل من القمح⁽⁸⁾.

⁽¹⁾ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، تص. أنطوني صالحى اليسوعي، ط.2، 1994، دار الرائد اللبناني، بيروت، ص.362.

⁽²⁾ عبد الحافظ عبد الخالق، المرجع السابق، ص.109.

⁽³⁾ مكيال روماني، يُستعمل لكيل الحبوب. أنظر: زياد السلامين، معجم المصطلحات الأثرية المصور أنجلزي عربي، 2012، دار ناشري للنشر الالكتروني، القاهرة، ص.164.

⁽⁴⁾ الطحاوي، الاقتصاد، ص.151.

⁽⁵⁾ معيار للوزن ومكيال أيضا، فالرطل العراقي، عند الحنفية هو نصف من أي 130 درهم، وعند العراقيين يساوي 406.25 غراما أما عند الجمهور فهو يساوي 128 درهم وأربعة أسباع (7/4) أي 382.5 غرام. وبخصوص الرطل الشامي فمقداره 600 درهم، فهو عند الحنفية يساوي 1875 غرام وعند الجمهور 1785 غراما، أما الرطل المصري فمقداره 449.28 غرام. للمزيد عن ذلك أنظر: علي جمعة محمد، المرجع السابق، ص. ص.29-30.

⁽⁶⁾ لغة هو المكيال وعند سكان المدينة سعته أربعة أمداد(الملد مقداره ملء اليدين المتوسطتين)، مقدار الصاع عند الحنفية يساوي 3.25 كيلوغرام، وعند الجمهور يساوي 2.04 كيلوغرام. للمزيد عن ذلك انظر: علي جمعة محمد، المرجع السابق، ص.ص.36-37.

⁽⁷⁾ نصف صاع، عند الحنفية يساوي 1.625 كيلوغرام، أما عند الجمهور فيساوي 102 كيلوغرام، للمزيد أنظر: علي جمعة محمد، المرجع السابق، ص.38.

⁽⁸⁾ المصدر السابق، ج.3، ص.43.

وبما أن الصليبيين قد أصبحوا يسيطرون على مدن الشام، وهم بحاجة إلى استعمال تلك المكايل والموازين، فمن المرجح أنهم استعملوها في علميتي البيع والشراء، ونتيجة لوجود نوعين من الأسواق والمتمثلة في الأسواق الملكية وأسواق القومونات الإيطالية، فقد اختلفت الموازين والمقاييس والمكايل⁽¹⁾.

ولقد كانت هذه المكايل والموازين تسجل ضمن الاحتكارات الملكية أو الأميرية، والتي كانت بمثابة حقوق لهؤلاء وهي محرمة على الآخرين. وحددت إحدى المعاهدات التي تم إبرامها بين البنادقة والحكام الصليبيين، حيث منحت للبنادقة حق استخدام الفرن والطاحونة والحمام والموازين، وخاصة المكايل ومكايل السوائل، وخاصة المستعملة في النبيذ والزيت وعسل النحل في الحي البندقي، في حين كان يتم فرض الموازين والمكايل الملكية على التجار والأسواق⁽²⁾.

وبهذا أصبح بإمكان التجار الإيطاليين استخدام موازينهم الخاصة، والموجودة في مدنهم بايطاليا. ولعلها الموازين نفسها التي شاع استخدامها في العصور الوسطى كالقنطار⁽³⁾ والطن والرطل، كما استخدموا الذراع⁽⁴⁾ الذي يُستعمل في قياس طول القماش، وكذلك المتقال لمعرفة وزن المسك⁽⁵⁾.

ويقول الدمشقي بشأن المسك: "والبيعة منه عشرة مثاقيل ونصف، وعليها تقع المساومة"⁽⁶⁾. وبصفة عامة كانت المقاييس والموازين والمكايل الصليبية مختلفة، في الشكل والقيمة عن المكايل والموازين العالمية، وهذا أمر عادي يتماشى مع ما تريد الحكومة تحقيقه، سواء السلطة الملكية أو

⁽¹⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.152.

⁽²⁾ براور، الاستيطان...، ص.490.

⁽³⁾ معيار للوزن، وقيل أيضا أنه العقدة الكبيرة من المال، مقداره حسب ما روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم، ففي الرواية الأولى مقداره ألف ومائتا أوقية، أما الرواية الثانية فمقداره اثنا عشر ألف أوقية. وعليه فمقدار القنطار عند الحنفية ما يساوي 149.76 كيلوغرام، أما عند الجمهور فمقداره هو 142.8 كيلوغرام. للمزيد أنظر: علي جمعة محمد، المرجع السابق، ص. 24-25.

⁽⁴⁾ هو الساعد الممتد بين طرف المرفق وطرف الأصبع الوسطى، مقداره عند الحنفية هو 46.375 سم، وعند المالكية 53 سم، أما عند الشافعية والحنابلة فمقداره هو 61.834 سم. للمزيد عن الأطوال، أنظر: علي جمعة محمد، المكايل والأوزان والمقاييس، ص.50.

⁽⁵⁾ الطحاوي، الاقتصاد، ص.152.

⁽⁶⁾ المصدر السابق، ص.31.

الأميرية ببلاد الشام⁽¹⁾.

ومن بين الامتيازات⁽²⁾ التي حصل عليها البنادقة في مدينة صور، أصبح لهم الحق في استخدام مكابيلهم وموازينهم الخاصة بهم، وهذا في حالة تعاملهم مع أبناء وطنهم، أو في حالة بيع محلاتهم وبضائعهم لتجار آخرين، وبالمقابل فُرض عليهم استعمال المكابيل الملكية عند شراء بضائع من التجار الآخرين⁽³⁾.

إن المحلات التجارية في المدن التي خضعت للاستيطان الصليبي، قد زاولت نشاطها باستمرار، وعادة ما كان التجار يفتحون دكاكينهم وحوانيتهم على الدوام، بحيث يفتحون متاجرهم بعد الفجر بوقت قصير، ويستمررون حتى بعد حلول الظلام، مما جعل ساعات عملهم تبدو طويلة للغاية، ولكن هناك فترات راحة تتخلل هذا التوقيت، وخاصة أثناء تناول الوجبات، كما كانت هذه المحلات تُغلق أبوابها في الأيام المقدسة والتي كانت كثيرة، وكذلك أثناء تأدية الواجبات الإقطاعية⁽⁴⁾.

وكما أشرت إلى أن الأسواق كانت مكانا للبيع والشراء، فإنها هي الأخرى أصبحت مكانا لتبادل الأفكار، ومناقشة ما هو سائد في البلد من أحداث، بالإضافة إلى ما تعلق بحياتهم العامة والخاصة⁽⁵⁾، فهي بذلك تكون مكانا مفضلا للناس في منطقة المشرق⁽⁶⁾.

إن الأسواق قد احتوت على كل أنواع السلع والبضائع، التي يحتاجها السكان، وكل ما يباع في السوق، على حد تعبير الدمشقي جعفر بن علي، "كل ما يباع ويشترى، فهو إما مكيل أو موزون أو مذروع، أو مقدر بالزمان أو مقدر بالعدد"، وبذلك يتطلب من التاجر والمشتري معرفة الحيل والغشوش، التي يمكن أن يكون ضحيتها في البيع والشراء⁽⁷⁾.

ولقد استخدم الصليبيون في أسواقهم الغرارة، كوحدة كيل للحبوب ومختلف الغلال المشابهة⁽⁸⁾،

⁽¹⁾ براور، الاستيطان، ص.490.

⁽²⁾ للمزيد عن امتيازات المدن الإيطالية والبروفنسالية في المملكة الصليبية، أنظر: الملحق رقم (13).

⁽³⁾ براور، الاستيطان، ص.490-491.

⁽⁴⁾ أنظر: Holmes urban Tignor, op.cit., P.25.

⁽⁵⁾ عبد الحافظ عبد الخالق، المرجع السابق، ص.108.

⁽⁶⁾ جوستاف لوبون، حضارة العرب، ت. عادل زعيتر، 2012، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ص.376.

⁽⁷⁾ المصدر السابق، ص.58.

⁽⁸⁾ عبد الحافظ عبد الخالق، المرجع السابق، ص.110.

وفي ذلك الشأن يذكر القلقشندي، في قوله: "وأما كيلها الذي يعتبر به مكيلاتها فالبغراة، وهي اثنا عشر كيلا، كل كليلة ستة أمداد، ينقص قليلا عن رُبع الوَيْبَةِ⁽¹⁾ المصري، ونسبة الإردب⁽²⁾ من الغرارة أن كل غرارة ومدّ ونصف وثلاثة أَرادب بالكيل المصري"⁽³⁾.

كما كان المَكُوكُ⁽⁴⁾ أيضا من وحدات الكيل في الأسواق الصليبية في بلاد الشام⁽⁵⁾، وقد كان المَدْيُ⁽⁶⁾ من المكايل المستعملة في بلاد الشام، ويسمى بالجَرِيْبُ⁽⁷⁾، كما كانت هناك مكايل أخرى مستعملة في بلاد الشام أثناء الفترة الصليبية ومنها القَفَيْزُ⁽⁸⁾، بالإضافة إلى مكيالي الوَسْقُ⁽⁹⁾ والكَرُّ⁽¹⁰⁾.

⁽¹⁾ كيل مصري يساوي سدس (6/1) إردب، كما أنها تساوي كيلتين. وأما بخصوص سعتها فهي تساوي 33 لترا. للمزيد، أنظر: علي جمعة محمد، المرجع السابق، ص.42.

⁽²⁾ جمعه أَرادب، وهو مكيال يستخدمه المصريون، يساوي أربعة وعشرون صاعا بصاع النبي صلى الله عليه وسلم. مقداره عند الحنفية يساوي 78 كيلوغرام، أما عند الجمهور فيساوي 48.96 كيلوغرام. للمزيد عن هذه المكايل، أنظر: علي جمعة، المرجع السابق، ص.39.

⁽³⁾ المصدر السابق، ج.4، ص.181.

⁽⁴⁾ مكيال يختلف الناس في تقدير كميته، مقداره صاع ونصف، وهو بذلك يساوي 3.06 كيلوغرام، كما ذكر أنه يساوي ثلاثة كيلجات (تساوي مئاً وسبعة أثمان، وهي عند الحنفية تساوي 1523.5 غرام، أما عند الجمهور فهي تساوي 1450.3 غرام، وعند الحنفية يساوي 4570.5 غرام، أما عند الجمهور فيساوي 4350.9 غرام. للمزيد، أنظر: علي جمعة، المرجع السابق، ص. ص. 29، 43-44.

⁽⁵⁾ عبد الحافظ عبد الخالق، المرجع السابق، ص.110.

⁽⁶⁾ مكيال يستخدمه أهل الشام، يسع خمسة عشر مكوكا. للمزيد أنظر: علي جمعة، المرجع السابق، ص.45.

⁽⁷⁾ عبد الحافظ، المرجع السابق، ص.111، والجَرِيْبُ يساوي 48 صاعا، ومقداره عند الحنفية يساوي 156 كيلوغرام، أما عند الجمهور فيساوي، 97.92 كيلوغرام. أنظر: علي جمعة، المرجع السابق، ص.41.

⁽⁸⁾ من المكايل التي اختلف الناس في تقديرها، عند المالكية 48 صاعا، أي 98 كيلوغرام تقريبا، أما عند الشافعية فهو 12 صاعا، أي 24.480 كيلوغرام. للمزيد، أنظر: علي جمعة، المرجع نفسه، ص.39.

⁽⁹⁾ يساوي عند أهل الحجاز ستون صاعا، مقداره عند الحنفية يساوي 195 كيلوغرام، أما عند الجمهور فيساوي 122.4 كيلوغرام. للمزيد، أنظر: علي جمعة، المرجع نفسه، ص.41.

⁽¹⁰⁾ مكيال لسكان العراق، مقداره 720 صاعا، أما عند الحنفية فيساوي 2340 كيلوغرام، وأما عند الجمهور فيساوي 1468.8 كيلوغرام. للمزيد، أنظر: علي جمعة، المرجع نفسه، ص.42.

وعليه يمكن اعتبار أن الصليبيين قد اقرروا تلك المكايل بمنطقة الشام⁽¹⁾، كما كانت هناك المقاييس التي تستعمل لقيس القماش أثناء بيعه وشرائه، ومنها الذراع، حيث يذكر لنا الدمشقي بشأن القماش الأوداري، ويقول: "طول كل ثوب منه، إذا[...] كاملا خمسون ذراعا في شبرين⁽²⁾ ونصف، وهي تُفصلُ ثوبين كاملين، وربما فضل منهما فضلة أجودها ما دقّ منه وصفق نسجه"⁽³⁾.

كما أشار القلقشندي أن الذراع الشامي يزيد عن الذراع بالقاهرة، حيث يقول: "وأما قيس قماشها فبذراع يزيد على ذراع القماش بالقاهرة، بنصف سدس ذراع وهو قيراطان"⁽⁴⁾.

ولقد كانت المكايل والموازين والمقاييس، التي تم استخدامها في أسواق المدن الصليبية، احتكارا للسلطة الملكية، التي كانت تسعى من وراء ذلك إلى تأكيد سلطتها على التجار، وضمان ولائهم، وبذلك إقرارا على سيادتها، بالإضافة إلى الحصول على موارد مالية ثابتة، لدعم خزانة مملكة بيت المقدس⁽⁵⁾.

6- الرسوم والضرائب:

لقد كانت الطرق البرية التي تسلكها القوافل، قبل إبان الفترة الصليبية تنتهي عند بوابات المدن، التي تشكل مركزا لجمع الرسوم على هذه القوافل، فهي شبيهة بالموانئ، ويظهر ذلك من خلال وجود مكاتب للجمركة بالقرب من البوابات، وأمام القلاع ومدخل الأودية، حيث كانت مكاتب

⁽¹⁾ عبد الحافظ، المرجع السابق، ص. 111.

⁽²⁾ مفرد ها شبر، ومقداره ستة أصابع، (والإصبع مقداره عند الحنفية 42/1 من الذراع، وبالتالي مقاسه 1.932 سم، أما عند المالكية 36/1 من الذراع، وبالتالي قيسه 1.472 سم، أما عند الشافعية والحنابلة فمقداره هو 24/1 من الذراع، أي مقاسه (يساوي 2.576 سم). وعليه يكون الشبر كالتالي: عند الحنفية هو (6 x 1.932) = 11.592 سم، وأما عند المالكية فيكون (6 x 1.472) = 8.832 سم، وأما الشافعية والحنابلة فهو (6 x 2.576) = 15.456 سم. للمزيد عن الأطوال والقياسات، أنظر: علي جمعة، المرجع السابق، ص. 51-52.

⁽³⁾ المصدر السابق، ص. 40.

⁽⁴⁾ المصدر السابق، ج. 4، ص. 181.

⁽⁵⁾ عبد الحافظ عبد الخالق، المرجع السابق، ص. 112.

الجمارك عبارة عن خانات⁽¹⁾.

إن زيادة مداخيل الخزينة الملكية، كان يتم عبر تحصيل الرسوم على القوافل التجارية، التي تدخل إلى المدينة عبر بوابتها، بالإضافة إلى ضرائب الأسواق، وبذلك تكون طريقة ناجعة في تحصيل الأموال على كل السلع والبضائع، التي تلج إلى المدينة عبر البوابة أو تباع في الأسواق المحلية⁽²⁾.

ولقد كانت أسواق مدينة القدس أسواقا ملكية، وبالرغم من وجود الحي البطريركي، الذي يتمتع بالحكم الذاتي، وله أملاكه لم يمنعه ذلك من دفع ضريبة السوق على متاجره للخزانة الملكية⁽³⁾.

إن الموارد المالية للخزانة الملكية ببيت المقدس، تشكلت أساسا من نوعين من الضرائب أولاها: الضرائب الخاصة بالمتاجر والتجار، وأما بخصوص النوع الثاني فيتمثل في الضرائب المفروضة على استعمال المكايل والموازين والمقاييس الملكية في السوق، وبذلك شكلت هذه الأدوات امتيازات للسوق التي بإمكان الملك أن يمنحها للتجار الأجانب. وكانت تسجل ضمن الاحتكارات الملكية أو الأميرية⁽⁴⁾.

ومن الإجراءات التي تقوم بها الحكومة الملكية في السوق، وعلى أساسها يتم تحصيل الضريبة، أن تضع ثمنا للبضاعة أو السلعة، ثم بعد ذلك تُقدر الضريبة المفروضة عليها *advolarem*، وهذا ما كان موجودا في عملية البيع بالمقايضة، أو البيع بالأجل، أما بخصوص الإجراء الثاني، فهو عند البيع بالمزاد، حيث تكون الضريبة تقديرا على أعلى ثمن بلغته البضاعة، وكان كل من البائع والمشتري، يتحملان دفع الضريبة مقاسمة⁽⁵⁾.

ولقد شكلت ضرائب الأسواق والتجار، دخلا ممتازا للحكومة الصليبية، وخاصة الحكومة الملكية

⁽¹⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص. 139.

⁽²⁾ براور، الاستيطان...، ص. 489.

⁽³⁾ نفسه.

⁽⁴⁾ براور، الاستيطان، ص. ص. 489-490.

⁽⁵⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص. 153.

ببيت المقدس، لأن في تلك الفترة أصبحت التجارة أكثر انتعاشاً⁽¹⁾، بالرغم من أن هناك إعفاءات ملكية، على بعض المنتجات، مثلاً كالسكر وعسله، بل إعفاء التجار من ضريبتهم، حيث كان لبولدوين الرابع مزارع بالقرب من مدينة عكا سنة 1179م، وفي سنة 1185م منح عمه جوسلين دي كورتيناوي Jocelin of Courtenay، والإعفاء الضريبي لورثة هذا الأخير لنقل السكر وعسله من معصرة مزرعة عمه في لاناهايا Lanahia الواقعة شمال عكا، وكذلك لبيع هذه السلع، وحتى التجار الذين قاموا بالتصدير هم معفيين أيضاً⁽²⁾. كما كانت هناك ضرائب أخرى، تم فرضها على الطاولات الخشبية الخاصة بالصيارفة في الشوارع، وكانت ضرائب معتبرة⁽³⁾.

إن دخل المكايل والموازين والمقاييس، شكل دخلاً للخزينة الملكية، حيث بلغت كتلته النقدية ألفاً وتسعمائة بيزنتا (1900) سنوياً، إذ أن رسوم استعمال المكايل الخاصة بالحبوب والنبيد وزيت الزيتون ثلاثمائة وعشرة بيزنتا (310) سنوياً، كما أن السلطة الصليبية كانت تحتكر بيع الآلات الموسيقية، المتمثلة في الطبول والسلامية Flageole والطمبور، وقد بلغت قيمتها خمسمائة بيزنتا (500) سنوياً. كما كانت التزامات الجزارين وبائعي لحم الخنزير، نتيجة استعمالهم للموازين الملكية التي قُدِّرت بأربعمائة بيزنتا (400) سنوياً، وبائعو الزجاج ثلاثمائة وخمسون بيزنتا (350)، وباعة زيت السمسم مائة وستون بيزنتا (160)، والسمك سبعون بيزنتا (70) سنوياً، وباعة الليمون مائة وستون بيزنتا (160) سنوياً، في حين تقرر على باعة النبيد اثنان وعشرون بيزنتا (22)، وباعة اللبن عشرون بيزنتا (20) سنوياً⁽⁴⁾. وعليه يمكن أن نستنتج، أن نسبة الرسوم والضرائب متفاوتة، وهذا حسب حاجة الناس للمواد المستعملة، ورؤية الحكومة وما يتماشى وموارد خزينتها الملكية.

⁽¹⁾ عبد الحافظ عبد الخالق، المرجع السابق، ص. 119.

⁽²⁾ أنظر:

David Jacoby, op.cit., P.171.

⁽³⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص. 153.

⁽⁴⁾ براور، الاستيطان...، ص. 490.

7- الإشراف على الأسواق وإدارتها:

لاشك في أن السوق يشكل قلب الحياة العامة، خاصة وأن أفراد المجتمع يتزودون بمختلف الضروريات من هذا المورد، لذا وجب على الحكومة أن تضع لذلك تنظيمًا خاصًا به، لكي يتسنى للعامة قضاء مختلف حاجاتهم، بالإضافة إلى أن الحكومة ستجني من ذلك رسوماً وضرائب تعتبر دخلاً ثابتاً لخزيرتها.

ونتيجة للدور الذي ستلعبه الأسواق، خاصة في المستعمرات الصليبية، أوجدت الإدارة المركزية نظاماً صارماً على أساسه يتم إدارة الأسواق، وعلى رأس ذلك الفيسكونت Visconte⁽¹⁾، وهو من أهم المسؤولين المحليين، يمثل الملك في المدن الملكية، كما هو اللورد في المدن البارونية، وقد كُفِّ بجمع مختلف الضرائب، وإرسالها إلى خزينة المملكة، وطبعاً بعد أن يأخذ جزءاً منها لإدارته. كما أنه مسؤولٌ عن المحاكم القانونية، وحفظ الأمن في مدينته، وعادة ما كان الفيسكونت من أسرة نبيلة، غير أن وظيفته لم تكن تُورث⁽²⁾، وإلى جانبه المحتسب⁽³⁾ الذي يتحمل جزءاً معتبراً من العبء في الأسواق⁽⁴⁾.

هذا الأخير يأتي بعد الفيسكونت، في القيادة واسمه مشتق من المصطلح العربي "المحتسب" Mathesep، وأحياناً أخرى يكون رئيس ضباط النظام Master-Sergeant، والذي تمثلت مهمته في مراقبة لوائح التسويق⁽⁵⁾، وقد كان عناصر الشرطة (الرقباء) يساعدون المحتسب في مهامه.

ولقد كان للفيسكونت ومساعدوه دور كبير في الإشراف على الأسواق، وسلعها ومكاييلها

⁽¹⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.153.

⁽²⁾ رنسيان، المرجع السابق، ج.2، ص.353.

⁽³⁾ أختلف في اختصاص وظيفة المحتسب باختلاف العصور والحكام، غير أن النظام المتبع جمع بين السلطة البلدية والمحافظه على الأرض ومكافحة الغش، مع محدودية في بعض الأحوال الشخصية، والمحتسب منصب ديني مرتبط بالقضاء. وفي عصر المماليك أصبح من وظائف الإدارة الهامة، حيث كان يُشرف على الأسواق والطرق، ويحافظ على الآداب العامة وتطبيق القوانين، وكان له نوابه يساعدونه في كل أعماله. للمزيد عن نظام الحسبة والمحتسب، أنظر: ابن الأخوة القرشي، معالم القرية في أحكام الحسبة، تح. محمد محمد شعبان، صديق أحمد عيسى المطيعي، 1976، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص.25.

⁽⁴⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.153.

⁽⁵⁾ رنسيان، المرجع السابق، ج.2، ص.353.

وموازيتها ومقاييسها المستعملة، وعلى كل ما يتعلق بالنشاط التجاري في الأسواق، فضلا عن فرض النظام والأمن بالمدينة⁽¹⁾، إذ شكل المحتسب الساعد الأيمن للفيسكونت، ومن واجباته المرور صباحا على مختلف المحلات، ومراقبة السلع والبضائع والتي ربما تكون مغشوشة، وخاصة التي سرعان ما تفسد مثل اللحوم الحمراء والبيضاء، كما أنه بإمكانه أن يلاحق التجار الذين يزدون في الأسعار، حيث يرفع تقريرا مفصلا عن هؤلاء إلى الفيسكونت، كما وجب عليه دفع المبالغ التي حصلها إلى الأمير⁽²⁾.

ولقد كان المحتسب يتقاضى راتبا شهريا قيمته اثني عشرة بيزنتا، بالإضافة إلى سهمه في عمليات البيع أو الكمية المحجوزة من ممتلكات الباعة، كما كانت الرقابة على الأسواق ليلا لتفادي حدوث السطو والسرقة، وكانت الحراسة في الليل مقاسمة بين الفيسكونت والمحتسب، بحيث أن كلا منهما يتحمل مسؤولية ليلة حراسته⁽³⁾.

كما كان للرقباء دورهم في الأسواق، إذ أنهم يجمعون الأخبار ويتحرون ما يجري بداخل السوق، ويقومون بالقبض على الجشعين والمجرمين، بالإضافة إلى أنهم يقومون بتحصيل الأموال على المحلات والمخازن، وقد كان هؤلاء يحصلون على راتب شهري قيمته ستة بيزنت⁽⁴⁾.

8- محكمة السوق Court de la fonde

بمرور الوقت والحاجة المتزايدة للموارد المالية أكثر، وضبط النشاط التجاري وإقرار القضاء بمدن المملكة، أنشأ الملك عموري الأول محكمتين، الأولى محكمة السوق المتعلقة بالأمر التجارية، مهمتها جمع ضرائب البيع والشراء⁽⁵⁾، أما بخصوص المحكمة الثانية، فإنها تتعلق بأمر البحرية، إن محكمتي السوق والسلسلة من أحسن تشريعات عموري الأول أثناء اعتلائه سدة

⁽¹⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.153.

⁽²⁾ نفسه.

⁽³⁾ نفسه، ص.ص.153-154.

⁽⁴⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.154.

⁽⁵⁾ حسين عطية، تشريعات الصليبيين، ص.175.

الحكم⁽¹⁾.

وكما أشار إلى ذلك بلدوين مارشال Baldwin Marshal بقوله: " ويبدو أن الملك أمالريك (عموري الأول)، قد أنشأ اثنتين من المحاكم الجديدة للتقاضي البحري، وهما محكمة السوق ومحكمة الميناء، وبالفعل فإن دور أمالريك (عموري) كان بارزا في التطور القانوني لمملكة بيت المقدس، ويتضح ذلك من خلال كثير من الإشارات الهامة لاسمه في قوانين المملكة"⁽²⁾.

وقد أشار باترسون Patterson إلى محكمتي السوق والميناء، بأن لهما دورا كبيرا بالنسبة للمملكة الصليبية في بيت المقدس، حيث كان وجودهما من أجل تنظيم التجارة، وأن هذه الأخيرة تشكل قطاعا له أهمية كبيرة بالنسبة للصليبيين، إذ أنها مصدر دخل مالي، وقد كانت المحكمتان تنظران في جميع القضايا المختلفة، المتعلقة بالأمر التجاري والبحرية في الأسواق والموانئ، التي تديرها السلطات الصليبية، وأن هذا التطور القانوني يعكس مدى قدرة المملكة الصليبية، على إدارة ما تملكه من أراضي الشام الداخلية والساحلية، وتوحي تواريخ تأسيس هذه المحاكم في الوقت الذي بدأت فيه المراقبة القانونية والقيمية تُستخدم بشكل له فعاليته، وحسب الرأي التاريخي الحديث، فإن محكمتي السوق والميناء، يرجع تأسيسهما إلى الملك عموري الأول (1161-1174م)⁽³⁾.

غير أن باترسون له رأي آخر، إذ أنه يشير إلى ما قبل هذه الفترة، فقد تكون محكمة السوق قد أُنشئت في عهد بولدوين الثاني (1118-1131م)، وتظهر الإشارة في اتفاقه مع دوج البندقية دومينيكو ميخائيلي Domenico Michaeli، بشأن الامتيازات في مدينة صور سنة 1121م⁽⁴⁾، وطبعا يرتبط ذلك بشرط مساعدة البنادقة لملك بيت المقدس. وحينما وصل البنادقة إلى الشام سنة 1123م كان حينها الملك بولدوين الثاني سجيناً لدى الملك بلق⁽⁵⁾، لذا قام بطيريك القدس

⁽¹⁾ أنظر: LA Monte, Feudal, P.21.

⁽²⁾ أنظر: The Latin states under Baldwin III and Amalric I, 1143-1174, In A history of crusades, Gen.Edit., Setton Mayer, Vol.I. P.549.

⁽³⁾ أنظر: The Early existence of the Fonda and Catena in the Twelfth Century Latin Kingdom of Jerusalem, In Speculum, Vol.39, N.3, July,1964, The University of Chicago Press, U.S.A., P.474.)

⁽⁴⁾ أنظر: Patterson Robert(B), op.cit., P.474.

⁽⁵⁾ بلق بن بھرام بن أرتق، الملقب بنور الدولة، من الأمراء الذين كان لهم نفوذ ببلاد الشام، وأعلى الجزيرة الفراتية. للمزيد عن هذه الشخصية، أنظر: ابن العديم، زبدة الحلب، ج.2، ص.ص.210-219.

والبارونات، بتأكيد وعود الملك السابقة بالامتيازات للبنادقة، بخصوص مدينة صور. وبعد عودة الملك من الأسر، أكد وعوده مرة أخرى للبنادقة، في 02 من شهر مايو سنة 1125م، وهنا تكون إشارة لمحكمة السوق في مدينة صور⁽¹⁾.

إن محكمة السوق التي تنتظر في القضايا التجارية، كان عددها ثلاثا وثلاثين محكمة، بعدد مدن مملكة بيت المقدس، والتي تقام فيها الأسواق، حيث كان يرأسها نائب Bailli، يتم تعيينه من سيد المدينة، وتتكون هيئتها من ستة أعضاء اثنين من الصليبيين وأربعة من السكان، أما بخصوص محكمة السلسلة، فقد أُقيمت من أجل قضايا الشحن وغرق السفن، وكل العمليات البحرية، وتُسجل فيها كل الرسوم والضرائب، وكان أعضاؤها المشرفين على تسييرها، من البحارة والتجار، والذين يتم اختيارهم من طرف نائب الفيسكونت⁽²⁾.

Patterson Robert(B), op.cit., PP.474-475.

⁽¹⁾ أنظر:

⁽²⁾ حسين عطية، تشريعات الصليبيين...، ص.ص.175-176.

الفصل الخامس: التجارة الخارجية لمملكة بيت المقدس الصليبية

1- طرق التجارة الخارجية المؤدية إلى المملكة الصليبية وبلاد الشام

أ- الطرق البرية

ب- الطرق البحرية

2- الموانئ وتحصيل الرسوم والضرائب

3- محكمة الميناء

4- الصادرات والواردات

5- العوامل المؤثرة على النشاط الاقتصادي

التجارة الخارجية:

منذ أن وطأت أقدام الصليبيين بلاد الشام، كان هدفهم مواقع الشام الساحلية، وخاصة ملوك بيت المقدس، لأن ذلك يشكل حلقة اتصال بالغرب اللاتيني، الداعم الرئيسي لحركتهم واستيطانهم، كما أنه يشكل موقعا استراتيجيا، لممارسة النشاط التجاري بصفة خاصة⁽¹⁾.

وهذا بعد أن بسطوا نفوذهم على كثير من المناطق الداخلية، وبذلك يستطيعون ربط المناطق الداخلية للمملكة بالساحل، الذي يعد منفذاً له أهميته السياسية والعسكرية والاقتصادية. وقبل التطرق للمبادلات التجارية بين مملكة بيت المقدس والعالم الخارجي، وجب علينا أن نعرض على الطرق المؤدية إلى بلاد الشام، التي تسلكها القوافل عبر الطرق البرية التي تتجه إلى المنطقة، أو المسالك البحرية، التي تسلكها السفن التي تقصد الساحل الشامي.

1- طرق التجارة الخارجية المؤدية إلى المملكة الصليبية وبلاد الشام⁽²⁾:

لقد شكلت بلاد الشام حلقة وصل واتصال بين الشرق والغرب، وبذلك أصبحت لها أهميتها الإستراتيجية، خاصة بعد الغزو الصليبي للمنطقة، إذ أن هؤلاء سيطروا على معظم الطرق الداخلية، كما أنهم امتلكوا مدناً ذات موانئ هامة، مكنتهم من الاتصال بالغرب اللاتيني⁽³⁾، وشكل الساحل الشامي ملتقى الطرق القادمة من الشرق والغرب، سواء عن طريق البر أو البحر⁽⁴⁾. ومن أبرز الطرق البرية التي انتهت إلى بلاد الشام هي:

أ- الطرق البرية المؤدية إلى بلاد الشام:

- طريق الخليج العربي، بغداد:

هذا الطريق كان معروفا منذ القديم، وزادت أهميته في العصر الوسيط، وكانت بدايته من رأس الخليج العربي، ثم يتفرع بفروع نهريّة وبرية من البصرة إلى بغداد، حيث يصبح فرعان الأول باتجاه ديار بكر شمالاً، والفرع الثاني باتجاه دمشق غرباً، ومنها يتفرع باتجاه موانئ الشام على

⁽¹⁾ مصعب حمادي، الاستيطان...، ص.43.

⁽²⁾ للمزيد عن طرق التجارة الخارجية المؤدية إلى مملكة بيت المقدس، وباقى مدن الشام، أنظر: الملحق رقم(14).

⁽³⁾ عاشور، الحركة...، ج.2، ص.1262.

⁽⁴⁾ الحويري، المرجع السابق، ص.121.

البحر الأبيض المتوسط، ثم جنوبا إلى مصر، كما أن هناك فرعا باتجاه مدينة حلب، ثم إلى بلاد الأناضول، حينها يلتقي بالطرق القادمة من وسط آسيا عن طريق البر، ليتجه معها إلى مدينة القسطنطينية⁽¹⁾، بعد ذلك باتجاه الغرب⁽²⁾.

هذا الطريق تعطل اتصاله بالطرق القادمة من وسط آسيا، خلال الغزو المغولي في القرن الثالث عشر الميلادي، ليعود مرة أخرى إلى الحياة بعد أن سيطر العثمانيون على آسيا الصغرى، وتأمين الطرق المارة بها، وبذلك أصبح طريقا احتياطيا لتجارة الشرق، في حالة عدم توفر الظروف الملائمة⁽³⁾.

-طريق الشام، مصر:

هذا الطريق مسلكه من دمشق إلى طبرية، ثم إلى اللجون (لعلها تكون الفيلق الروماني)، بعد ذلك باتجاه الرملة وغزة والعريش فالقاهرة، حيث كانت القوافل تسلك هذا الطريق إلى غاية الحملة الصليبية الأولى، ومن إستراتيجية ملوك بيت المقدس، أن قام الملك بولدوين الأول ببناء حصن الشوبك، ليكون بمثابة محطة تراقب طريق القوافل القادمة من وإلى الشام، ولما استرد السلطان صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس، عادت الحياة إلى طريق الساحل⁽⁴⁾.

-طريق وسط آسيا:

طريق بري من وسط آسيا ومن الهند، عبر تلك الجبال والممرات وصولا إلى نهر الأثيل، حيث تصل القوافل الوافدة من الصين، ثم باتجاه مدينة بخارى⁽⁵⁾، حيث يبرز فرعان الأول باتجاه بحر قزوين ونهر الفولجا وبلاد البلغار Bulgars⁽⁶⁾، أما الثاني فيتجه إلى البحر الأسود وموانئه، ثم

¹ الحويري، المرجع السابق، ص.ص. 121-122.

² نعيم زكي فهمي، المرجع السابق، ص. 118.

³ نفسه.

⁴ الحويري، المرجع السابق، ص. 122.

⁵ من أعظم وأجل مدن ما وراء النهر، وهي من المدن القديمة، ذات بساتين كثيرة، وفواكه متنوعة، والتي تحمل إلى المدن المجاورة لها، مثل مَرَوَ وخوارزم وسمرقند. للمزيد من المعلومات، أنظر: ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج. 1، ص.ص. 353-356.

⁶ من الشعوب البدوية التي تمارس حرفة الرعي، في آسيا الوسطى، الذين هاجروا غربا عبر سهوب شمال بحر قزوين، ثم تحركوا جنوبا.

القسطنطينية فالغرب، وتتفرع عنه دروب باتجاه حلب وساحل البحر الأبيض المتوسط، وآخر إلى بغداد وديار بكر. في حين هناك فرع ثالث، ولكنه غير أهل يعبر أرمينيا وآسيا الصغرى برا إلى القسطنطينية⁽¹⁾.

-طريق القسطنطينية، أنطاكية:

طريق بري يعبر جبال طوروس، من خلال الممر الكبير المعروف بـ:(أبواب قليقية)، ثم إلى قليقية ويعبر جبال الأمانوس(اللُّكام)⁽²⁾، وصولاً إلى أنطاكية عبر الدرب المعروف بـ: (أبواب الشام)⁽³⁾.

-طريق اليمن، مكة والشام:

هذا الطريق تسلكه القوافل بمحاذاة البحر الأحمر، من اليمن إلى مكة ثم البتراء شمالاً، ومنها إلى أسواق الشام ومصر، وبلاد ما بين النهرين⁽⁴⁾.

لقد كانت التجارة مصدر الثروة لشبه الجزيرة العربية، إذ أن هذه الأخيرة بمثابة مستودع عبور بين الهند والغرب عبر بلاد الشام ومصر⁽⁵⁾.

-الطريق البري من غرب أوروبا إلى المشرق:

وفي سنة 681م، اعترف البيزنطيون بكيان بلغاريا Bulgaria المستقل في شبه جزيرة البلقان Balkan . كانت عاصمة البلغار بليسكا Pliska ، حيث اتحدوا مع عدد من السكان الأصليين السلاف Slavs و الإغريق Greeks. وفي القرن العاشر الميلادي شكل البلغار والسلاف شعباً واحداً، تكلم البلغار لغة الجنوب بلاني Blavei. للمزيد عن العنصر البلغاري، أنظر: the Encyclopedia of the Medieval World, op.cit., P.132.

⁽¹⁾ نعيم زكي فهمي، المرجع السابق، ص.154.

⁽²⁾ جبل يشرف على أرمينية وأنطاكية، للمزيد عن ذلك الجبل، أنظر: ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج.5، ص.22. أنظر أيضاً: Thomas Asbridge (S), the Creation of the Principality of Antioch 1098-1130, the Boas, Adrian, Archaeology, P.71. ;Boydell Press, Woodbridge, 2000, U.K., P.18.

⁽³⁾ الحويري، المرجع السابق، ص.ص.122-123. للمزيد عن هذا الدرب وفروعه. أنظر: رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ت.الباز العربي، ط.3، 1993، (د.د.ن)، ج.1، ص.ص.275-276.

⁽⁴⁾ الحويري، المرجع نفسه، ص.123.

⁽⁵⁾ أنظر: François Nau, les arabes chritiens de mésopotamie et de Syrie de VII au VIII siecle, etude sur les Origine de l' Islam, dans le cahiers de la société asiatique, Premiere série,N.1, Imp.National, Paris, 1933. P.7.

بداية هذا الطريق من الأندلس إلى طنجة، عبر مضيق جبل طارق، عابرا المغرب الأقصى، ثم الأوسط فالأدنى، وصولا إلى مصر، ثم يتوجه إلى بلاد الشام، عبر المحطات ومنها الرملة ودمشق، فالعراق مارا بالكوفة وبغداد والبصرة، مواصلا مسيره إلى بلاد فارس عبر الأهواز⁽¹⁾، ثم كَرَمَان⁽²⁾ والهند والصين⁽³⁾.

ولقد كانت بحق بلاد الشام منطقة إستراتيجية في موقعها، استطاعت أن تربط بين الشرق والغرب، وخاصة في التبادل التجاري.

ب- الطرق البحرية المؤدية إلى الشام:

بما أن بلاد الشام تشرف على ساحل له أهميته الاقتصادية، وخاصة التجارية، فمن الطبيعي أن تكون له موانئه ومحطاته، منها وإليها تتحرك السفن لشحن وتفريغ بضائعها. وبخصوص الطرق التي تسلكها السفن باتجاه الشام، فمن الغرب اللاتيني تخرج السفن، وخاصة الإيطالية متفرعة باتجاه الموانئ الغربية، وشرقا باتجاه الشام ومصر والأناضول، وذلك عبر محطات عديدة، إذ أن السفن تخرج من البندقية، الواقعة في شمال البحر الأدرياتي في طريقين، الأول منهما يسير بمحاذاة ساحل دلماشيا Dalmatia⁽⁴⁾ مروراً براجوزا Ragusa⁽⁵⁾، وصولاً إلى كورفو Corfu⁽¹⁾

⁽¹⁾ هي جمع هُوَز وأصلها حَوَز، ولما كثر استعمال اللفظة لدى الفرس تغيرت وُقُلبت الحاء هاء، وكان اسمها في أيام الفرس خوزستان، وفي هذه الأخيرة مواضع يقال لكل واحد منها حوز كذا، ومنها حوز بني أسد. والأهواز اسم للكورة كلها. للمزيد من التفاصيل، أنظر: الحموي، المصدر السابق، ج.1، ص.ص.284-286.

⁽²⁾ ولاية مشهورة وناحية كبيرة بها مدن وقرى، تقع بين فارس ومكران وسجستان وخراسان، وهي بلاد كثيرة النخل والزرع والمواشي. قيل سُميت كرمان بكرمان بن فلوج بن لنطي بن يافث ابن نوح عليه السلام، وقيل أيضا: سُميت بكرمان بن فارك بن سام بن نوح عليه السلام، لأنه نزلها عندما تبلبلت الألسن واستوطنها فُسُميت باسمه. للمزيد من المعلومات، أنظر: الحموي، المصدر السابق، ج.4، ص.ص.454-456.

⁽³⁾ جمال الدين سرور، تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق من عهد نفوذ الأتراك إلى منتصف القرن الخامس الهجري، دار الفكر العربي، (د.ت.ن)، القاهرة، ص.150.

⁽⁴⁾ الأرض الواقعة على الساحل الشرقي للبحر الأدرياتي Adriatic، للمزيد عن تلك الأراضي، أنظر: Encyclopedia of the Medieval world, Library of Congress, 2005, N.Y., P.209.

⁽⁵⁾ حاليا هي مدينة ديبروفنيك Dubrovnik، تأسست في القرن السابع الميلادي، تعرضت للغزو الأفاري Avars والسلافي Slaves، تقع على الساحل الشرقي للبحر الأدرياتي. للمزيد عن هذه المدينة، أنظر: Le Robert Encyclopédique،

ويلتف حول شبه جزيرة المورة وعند هذه الأخيرة، ينقسم إلى فرعين، يتجه الأول إلى ساحل بلاد الشام، مروراً بجزر كريت وروُدس وقبرص، وموانئ بيروت وطرابلس الشام وعكا، أما القسم الثاني منه فيتجه إلى الإسكندرية⁽²⁾. في حين كانت الأساطيل البحرية الجنوبية والبيزاوية، تسير عبر مضيق مسينا Messina⁽³⁾ باتجاه سواحل الشام، كما أن طريق العودة على هذا المضيق، واقتربت رحلاتها بالمخاطر، نتيجة استغراقها زمناً معتبراً⁽⁴⁾.

وأما بخصوص الطرق البحرية الآتية من الشرق الأقصى، التي وصلت إلى موانئ بلاد الشام، فنجد: الطريق البحري من الشرق الأقصى إلى البحر الأحمر، ومنه يخرج فرعان، الأول منهما يتجه شمالاً حيث سيناء، بعد ذلك دمشق ثم موانئ الساحل الشامي، أما الفرع الثاني فيتجه إلى النيل عبر الصحراء ثم إلى القاهرة، كما أنه من النيل إلى الإسكندرية فالغرب اللاتيني⁽⁵⁾.

لقد بلغت حركة السفن القادمة إلى سواحل الشام، ونشاطها التجاري فترة الحروب الصليبية درجة متقدمة من الازدهار، و كان احتكار ذلك النشاط موقوفاً على سفن الجمهوريات الإيطالية خاصة، بالإضافة إلى السفن الأخرى من الغرب اللاتيني، ويعود الفضل بالدرجة الأولى للبحرية الإيطالية، واستيلائها على الساحل الشامي، فلولاها لما استطاع الصليبيون بسط نفوذهم عليه، وقد عاد عليهم بالفائدة، إذ أن ملوك بيت المقدس أغدقوا عليهم المنح والامتيازات⁽⁶⁾.

إن الحركة الصليبية ونجاحها، كانت من العوامل التي ساعدت على انتعاش الحركة التجارية وازدهارها، ولقد كان الفضل للصليبيين، إذ أنهم أول من وضع الأسس الأولى للقانون البحري،

Encyclopedia of the Medieval world, P.389؛ P.1872.

Encyclopedia of the Medieval world, op.cit., P.320. ⁽¹⁾ من جزر البحر الأدرياتي، أنظر:

⁽²⁾ الحويري، المرجع السابق، ص124.

⁽³⁾ مدينة جزيرة صقلية Sicily، حيث تُشرف على المضيق المسمّى باسمها، مضيق مسينا. للمزيد عن هذه المدينة، أنظر: Le

Robert Encyclopédique, P.1493.

⁽⁴⁾ الطحاوي، القانون البحري لمملكة بيت المقدس، ص.481.

⁽⁵⁾ نعيم زكي فهمي، المرجع السابق، ص.124.

⁽⁶⁾ الحويري، المرجع السابق، ص124.

فالأمرء الصليبيون، أمثال ريتشارد الإنجليزي قد سنوا أوامر لحكم أساطيلهم في البحر⁽¹⁾. حتى وإن كانت فترة متأخرة بالنسبة لمملكة بيت المقدس في عهدها الأول، إلا أنها تعكس مدى اهتمام الصليبيين بتطوير أساطيلهم، وسن قوانينهم الخاصة بالبحرية.

ولقد كانت قوافل السفن البندقية والجنوية تسير باتجاه موانئ الشام، في فصلي الخريف والربيع، تقاديا للمخاطر وخاصة الطبيعية، ونتيجة لخطورة الإبحار في فصل الشتاء، فقد منعت المدن الإيطالية سفنها من التحرك في هذا الفصل⁽²⁾.

ولقد تطورت سفن الشحن الإيطالية في القرن الثاني عشر الميلادي، بحيث أصبحت السفينة أكثر اتساعا، بها صاربان وعشرة أشرعة ذات شكل مثلث، بإمكانها أن تسير عكس حركة الرياح، بل أن الإيطاليين قد نجحوا في أواخر القرن الثاني عشر، وبداية القرن الثالث عشر الميلادي، من إيجاد سفن أكبر حجما للقيام بالعمليات التجارية مع الساحل الشامي، ومن أمثلة ذلك امتلاك الجنوية سفينة تقل ألفي راكب سنة 1184م/579هـ⁽³⁾.

كانت السفن في حركتها تعتمد على المجاديف، بعد ذلك أصبحت تستخدم الأشرعة معتمدة على قوة الرياح في دفع السفن، وأصبحت السفن تنتقل بحركة مستقيمة، بدلا من الانتقال عبر الساحل، وقد كان الانتقال من مرسيليا إلى عكا، يستغرق خمسة عشر يوما، كما تم وضع قانون السفن " ship Law"، الذي ينظم التعامل بين طاقم السفينة والمسافرين⁽⁴⁾.

2- الموانئ وتحصيل الرسوم والضرائب:

لقد شكلت الموانئ على الساحل الشامي، ركنا أساسيا له تأثيره في حركة التجارة العالمية، إذ أن الاستيطان الصليبي في بلاد الشام قد شمل الداخل منها والساحل، وأصبحت الإمارات الصليبية

Archer, Kingsford, The crusades, P.438.

⁽¹⁾ أنظر:

⁽²⁾ الطحاوي، القانون البحري لمملكة بيت المقدس، ص.481.

⁽³⁾ نفسه، ص.482.

⁽⁴⁾ أنظر: Thompson James Westfall, Economic and Social History of the middle ages

300-1300, Frederick ungar Publishing. co, N.Y., london, 1928, Vol.I, P.430.

لها موانئها الهامة، وخصوصا مملكة بيت المقدس التي امتلكت ساحلا ممتازا، إذ شكلت كل من موانئ عكا وصور وبيروت بدرجة أولى، أهمية تجارية وتليها موانئ يافا وعسقلان وقيسارية. كلها كانت لها مكانتها في التجارة الخارجية لمملكة بيت المقدس⁽¹⁾.

ولقد كان بشارع الميناء أدوات وأجهزة الميناء التجاري، كما يوجد به مخازن ومستودعات لوضع البضاعة ومكاتب الجمارك، فضلا عن وجود محكمة الميناء، كما كانت المدن التي تقع على أطراف الطرق التجارية الدولية تضم الخانات، لاستراحة تجار القوافل البرية التي تشابهت مهمتها مع الموانئ⁽²⁾.

ومن الموانئ الرئيسية في مملكة بيت المقدس الصليبية، نجد ميناء عكا، حيث يقول ابن جبير بشأن مدينة عكا ومينائها "مرفاً كل سفينة، والمشبهة في عظمتها بالقسطنطينية، مجتمع السفن والرفاق"⁽³⁾، إذ أنه ميناء يحتل الصدارة بدون منازع، حيث يجمع بين نقل الحجاج والبضائع، إيرادا وتصديرا⁽⁴⁾، وأن المدن التجارية الايطالية ركزت نشاطها بهذا الميناء، نتيجة العلاقات الوطيدة التي كانت بينهم وبين ملوك بيت المقدس⁽⁵⁾.

وقد زادت أهميته، حيث أنه يجمع بين وصول الطريق البري، الذي يمر بآسيا الوسطى وساحل البحر الأبيض المتوسط، الذي يعد نافذة من وإلى الشام⁽⁶⁾. هذا بالإضافة إلى أن الميناء لعب دورا عسكريا، أثناء الحملات الصليبية على الشام ومدنه الرئيسية، إذ أن القوى البحرية الايطالية، جعلت منه قاعدة انطلاق للمدن الساحلية، وانطلقت منه في سنة 1110م حملة عسكرية باتجاه صيدا، كما تجمع به الأسطول البندقي سنة 1123م لغزو مدينة صور⁽⁷⁾.

⁽¹⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.129.

⁽²⁾ براور، الاستيطان...، ص.481.

⁽³⁾ المصدر السابق، ص.276.

⁽⁴⁾ هايد، المرجع السابق، ج.1، ص.186.

⁽⁵⁾ الطحاوي، القانون البحري، ص.483.

⁽⁶⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.129.

⁽⁷⁾ نفسه، ص.130.

و في سنة 1124م تحرك باتجاه المدينة المذكورة، وقد كانت للميناء شهادته، على قيام القوى البحرية للحملة الصليبية الثانية سنة 1148م، وكذلك اشتباكات الأسطول البحري الصليبي مع الأسطول المصري، قبالة شاطئ عكا سنة 1169م. وعند هجوم السلطان صلاح الدين الأيوبي على مدينة بيروت سنة 1182م، تجمعت القوات الصليبية في مينائي عكا وصور لمساعدة بيروت، وعند سقوط بيت المقدس في يد السلطان سنة 583هـ/1187م، أصبحت مدينة عكا العاصمة السياسية والتجارية، لمملكة بيت الصليبية في عهدها الثاني⁽¹⁾.

ويقول بنيامين التطيلي بشأن مدينة عكا: "أول حدود فلسطين، موقعها ملائم من البحر، لها ثغر كبير ترسو عنده السفن"⁽²⁾. ولقد أصبحت مدينة عكا عاصمة مستوطنات البنادقة والبيازنة في الشام، وهذا يرجع إلى كثرة المنح والامتيازات في المدينة، وبذلك كثر النشاط الاستيطاني والتجاري لهذين المدينتين بعكا⁽³⁾.

وفي الموانئ كان على التجار الالتزام، بدفع الرسوم الجمركية على بضاعتهم، التي يتم وضعها في المخازن، وقد كان من يتولى أمر الجمركة موظفون، من رجال الدين المسيحيين الشرقيين، الذين هم على دراية باللغة العربية، وهؤلاء يعينهم رئيس الجمرك، في حين أن رئيس المدينة، هو الذي يُعيّن رئيس الجمرك، وبعد قيام موظفي الجمارك بعملهم، يتوجه التجار إلى الخان للاستراحة والمبيت⁽⁴⁾.

وعن الرقابة الجمركية الدقيقة للتجار، وبضائعهم بمدينة عكا، التي ينتهي عندها الطريق البري القادم من الشام، يقول ابن جبير: "وحملنا إلى الديوان وهو خان مُعدّ لنزول القافلة، وأمام بابه مصاطب مفروشة، فيها كُتّاب الديوان من النصارى، بمحابر الأبنوس المذهبة بالحلي، وهم يكتبون بالعربية ويتكلمون بها، ورئيسهم صاحب الديوان، والضامن له يُعرف بالصاحب، ... وما يُجبي

⁽¹⁾ الطحاوي، الاقتصاد، ص.130.

⁽²⁾ المصدر السابق، ص.239.

⁽³⁾ أنظر:

⁽⁴⁾ براور، الاستيطان...، ص.481.

عندهم راجع إلى الضمان، وضمان هذا الديوان بمال عظيم، فأنزلوا التجار رحالهم به، ونزلوا في أعلاه، وطلب رَحُلٌ من لا سلعة له، لئلاً يحتوي على سلعة مخبوءة فيه، وأطلق سبيله فنزل حيث شاء. وكل ذلك برفق وتؤدة دون تعنيف ولا حمل، فنزلنا بها في بيت اكتريناه من نصرانية⁽¹⁾.

ويأتي ميناء مدينة صور في الأهمية بعد ميناء عكا، إذ أنه ميناء مزدوجاً أعطى فرصاً للسفن القادمة من الغرب، كما للسفن الشامية دورها فيه⁽²⁾. وبحلول سنة 1124م/518هـ، احتلت قوات مملكة بيت المقدس الصليبية مدينة صور، حينها كانت مدينة عكا قد وطنت نفسها بالفعل كميناء إفرنجي رئيسي، على طول الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، على حساب المدينة المذكورة⁽³⁾، بل ظلت محطة الوصول الرئيسية في الشام الصليبي، للقوات العسكرية الغربية والمهاجرين والتجار، والبضائع والحجاج، طوال قرنين من الحكم الإفرنجي⁽⁴⁾.

كما كان لمدينة بيروت ميناؤها الممتاز، وهي نفسها شكلت حلقة وصل بمدينة دمشق، فضلاً عن وجود ميناء حيفا الذي له أهميته التجارية، إذ تصله القوافل الآتية من طبرية، وكل هذه الموانئ تخص الجهة الشمالية لمملكة بيت المقدس⁽⁵⁾.

أما في ما يخص جهتها الجنوبية، فإن موانئها أقل اتساعاً ومنها قيصرية وعسقلان ويافا، وبالرغم من ذلك، فإن ميناء هذه الأخيرة، كان أقرب إلى وسط مملكة بيت المقدس، حيث كان يستقبل الكثير من السفن الآتية من الغرب اللاتيني، والتي تحمل كثيراً من الحجاج⁽⁶⁾.

ونتيجة لقرب يافا من بيت المقدس، فقد كان التجار والحجاج يقصدونها، وقد كان الميناء يتسع لحوالي ستين سفينة سنة 1110م/503هـ، وهو عدد سفن الأسطول البحري، الذي وصل بقيادة

⁽¹⁾ المصدر السابق، ص.ص. 275-276.

⁽²⁾ هايد، المرجع السابق، ج.1، ص.186.

⁽³⁾ أنظر:

David Jacoby, op.cit., P.152.

Ibidem.

⁽⁴⁾ أنظر:

⁽⁵⁾ هايد، المرجع السابق، ج.1، ص.186.

⁽⁶⁾ نفسه، ج.1، ص.ص. 186-187.

سيجوارد Siguard النرويجي، حيث كان هذا الأسطول يضم كثيرا من الانجليز والنرويجيين، لغزو مدينتي بيروت وصور⁽¹⁾.

ولقد كانت العمليات التي تتم في الميناء، من تفريغ للبضائع من بين العمليات التجارية الصعبة في تلك الفترة، فقد كان موظفو الجمارك، يهتمون بالبضائع وبحالة السفن ووضعها القانوني، بالإضافة إلى التجار. وبهذا كانت تُفرض على البضاعة رسوم حسب كميتها، وكذا الامتيازات التي حظي بها التاجر الذي يستورد هذه السلع، وهذا بحد ذاته أدى إلى اختلاف الرسوم الجمركية، التي يدفعها التجار البنادقة والبيازنة والجنوبيون، من ميناء إلى آخر⁽²⁾.

وبالرغم من ذلك، فقد كانت الرسوم التي تدفعها المدن الإيطالية، أقل بكثير من التي يدفعها التجار الآخرون، الذين ليس لهم امتيازات، وبهذا فإن الأسعار كانت مختلفة حسب الرسوم، كما أن رسوم الميناء كانت مختلفة بالنسبة للسفن. وعليه كل ذلك له تأثيره على أسعار البضائع والسلع المستوردة⁽³⁾.

وعند وصول السفن إلى الميناء، يتم تثبيتها بواسطة الحبال، وبعد ذلك تقوم القوارب الصغيرة بنقل البضاعة إلى الأرصفة، مستخدمين الحمالين وغالبيتهم من السكان المولدين الذين يُعرفون باسم بولان الميناء Poulain of the Port⁽⁴⁾.

ولقد كانت العملية المتبعة في الموانئ تتم بأربع مراحل، أولاها إنزال السلعة على الرصيف، والثانية تسجيلها، أما في ما يخص المرحلة الثالثة، فيتم وضعها في المخازن، وفي المرحلة الرابعة والأخيرة، فيتم نقلها إلى الأسواق لتعرض للبيع⁽⁵⁾.

⁽¹⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.130.

⁽²⁾ براور، الاستيطان...، ص.482.

⁽³⁾ نفسه.

⁽⁴⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.131.

⁽⁵⁾ المرجع نفسه. وعلى ما يبدو أن ذلك كان متبعاً في الموانئ المصرية، إذ كانت حمولة السفينة التجارية تدخل الميناء، في أربع عمليات:

النزول والتسجيل والتخزين والبيع. فعند وصول السفينة، كانت ترسو عادة في وسط الميناء، وليس عند الرصيف، وكانت القوارب الصغيرة تنقل حمولتها إلى الأرصفة، بينما دفع القبطان ضريبة على حق البقاء في المرسى. للمزيد عن الإجراءات المتبعة في الموانئ لشرق حوض

وأما بخصوص الرسوم التي كانت تدفعها السفن في الميناء، فهي على نوعين، أولها ضريبة الوارد Tercirium، أي تُفرض على السلع التي تستقدمها السفن التجارية، وأما الضريبة الثانية فهي ضريبة رسو السفينة في الميناء، أو ما يسمى بضريبة الوصول Anchoragium. وقد قُدرت قيمة الضريبة الأولى بثلاث البضاعة، ولم يكن الأمر واضحاً بشأنها، إذ أنها قُدرت بقيمة النقل، علماً أن قيمة هذه الأخيرة، كانت باهظة. ولاشك في أن ضريبة الوصول Terciarium تمتع بها تجار القومونات الإيطالية، والتي أدت إلى حدوث منازعات، بين سلطة المدينة والتجار الإيطاليين⁽¹⁾.

إن المعاهدة التي عُقدت سنة 1123م بين الصليبيين والبنادقة، فرضت على الجنوبية دفع ضريبة نقل الحجاج، الذين يقدون إلى الأراضي المقدسة، وكذلك أثناء عودتهم إلى الغرب، وقد كان مقابل ذلك، أن يتلقى البنادقة تعويضاً مالياً سنوياً، قُدِّر بثلاثمائة بيزنت من عائدات أسواق صور، ثم فيما بعد من أسواق عكا⁽²⁾.

ويقول كلود كاهن: "لقد كانت هناك ضريبة في الموانئ، والتي من خلالها تتمتع السفن بحق الرسو، وضريبة الحج والتي تسمى Tertionaria، والمماثلة لضريبة Tertiaris القدس"⁽³⁾. لقد كانت ضريبة الرسو في الميناء، مرتبطة بضريبة نقل الحجاج، والتي تعتبر ضريبة الميناء، في حين كانت هناك ضريبة أخرى، تسمى بضريبة القيراط Carates قيمتها 24/1 من قيمة ما تحمله السفينة من بضاعة، إذ كان لزاماً دفع ضريبة الحجاج والقيراط، وبعدها يمكن المناقشة

Riley Smith Jonathan, Government in Latin Syria and the البحر الأبيض المتوسط، أنظر: commercial Privileges of foreign Marchants, In Relations between East and West in the Middle ages, Edit, Derek Beker, University Press, Edinburgh, 1973, G.B., P.112.

⁽¹⁾ براور: الاستيطان...، ص.ص. 482-483.

⁽²⁾ نفسه، ص. 483.

Cahen, op.cit., P.478.

⁽³⁾ أنظر:

بشأن ضريبة البضاعة⁽¹⁾.

وظل الحجاج يدفعون الرسوم الجمركية، إلى حين قام الملك بولدوين الثاني سنة 1130م، برفعها عن الحجاج في ميناء عكا، وخاصة فيما يتعلق ببضاعتهم الأقل من أربعين بيزنتا، وهي مستعملة للأغراض الشخصية وليست للتجار بها⁽²⁾.

وكما ذكرنا سابقا تُقدّر الضريبة حسب قيمة البضاعة أو تكلفتها، في حين تم فرض الضرائب على بعض السلع حسب كميتها وحجمها، وليست على حسب قيمتها، ويتمثل ذلك في الحبوب والخمور والزيوت. وفي بعض الحالات يتم بيع البضائع على أرصفة الميناء، تحت رقابة موظفي الجمارك، حيث يتم تحصيل الضريبة عليها، وإذا تم نقل البضاعة إلى السوق، ينتظر الجمرك حتى تنتهي عملية البيع، ليحصل الرسوم والضرائب عليها⁽³⁾.

من خلال ذلك يتضح أن السلطات الصليبية، لم تكن متساهلة مع تحصيل الرسوم والضرائب، نتيجة لأهميتها في دعم الخزينة الملكية.

ولقد كان من الصعب تحديد وضبط نسبة الرسوم الجمركية، التي كان يدفعها تجار المدن الايطالية، في الموانئ والأسواق الصليبية⁽⁴⁾، بينما في مجموعة وثائق حجاج بيت المقدس: "وُجد على أرض فلسطين، ثلاث مدن ايطالية، وهي جنوة والبندقية وبيزا، وقد تميزت هذه بالمهارة، في استخدام الأسلحة، وهم لا يُقهررون في البحر، يمارسونها في كل نوع من أنواع الحرب. وهم بارعون أيضا في فن التجارة، وهم معفون من جميع الضرائب، ويضعون قوانينهم بأنفسهم، لكن فيما بينهم منافسة شديدة"⁽⁵⁾.

⁽¹⁾ براور: الاستيطان...، ص.483.

⁽²⁾ أنظر: La Monte, Feudal, P.173.

⁽³⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.133.

⁽⁴⁾ عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار دمشق، 1980، ص.181.

⁽⁵⁾ أنظر: Anonymous Pilgrims, I-VIII. : (11th and 12th centuries.), Trans. by Aubrey Stewart , in : Palestine Pilgrims' text Society, Vol.VI , (1100-1421 A.D.), 24 Hanover Square, W. London, 1894, Vol.V, P.29.

في حين ذكر وليم الصوري، أن البنادقة يعفون من دفع الضريبة، وهذا بعد مشاركتهم في حصار مدينة صور في شهر فبراير من سنة 1124م، إذ يقول: "أنه سوف يكون للبنادقة في كل مدينة من مدن الملك، ...، والموجودة تحت خلفائه كذلك، وفي جميع مدن باروناته، ...، سوف يكون في كل هذه المدن للبنادقة، كنيسة خاصة بهم وشارع خاص بهم بأكمله، وكذلك يكون لهم ميدان وحمام ومخبز، ويكون لهم ذلك حقا يتوارثونه، ولا يدفعون عن ذلك أبدا أية ضرائب، كما لو كان ذلك مُلكا للملك ذاته"⁽¹⁾. ولم يكن لهم ذلك الحق، إلا نتيجة لدورهم الفعال في بلاد الشام، ومملكة بيت المقدس بصفة خاصة.

وعموما استفادت القومونات الإيطالية، من الامتيازات والإعفاءات الجمركية، وتم تخفيض نسبة الضريبة إلى 5 % على بعض السلع سنة 1153م، كما تم إعفاء البيازنة في سنة 1154م من نصف الرسوم الجمركية، بينما في أنطاكية إعفاء تام سنة 1187م⁽²⁾، كما قام الملك عموري بتخفيض الرسوم إلى النصف، في مينائي يافا وأنطاكية، وبخصوص امتيازات الجنوبية، فقد ادعوا بأنهم يتمتعون بإعفاء تام في صور وجبيل وطرابلس وأنطاكية⁽³⁾، فضلا عن الإعفاء التام أو شبه التام، للقومون البندقي في موانئ صور وعكا. وبالرغم من الإعفاءات الجمركية التي تميز بها التجار البنادقة، في كثير من الأحيان، فقد تم فرض الرسوم على السلع التي يصدرها كل من البنادقة والبيازنة من عكا إلى المدن الإسلامية⁽⁴⁾.

ولقد تفاوتت نسب الرسوم الجمركية، على جميع المنتجات المستوردة والمصدرة، حيث بلغت نسبة 25 % على المنتجات الواردة على المملكة، والمتمثلة في القمح والملح والفاكهة والسّمك المملح والقش للنساجين وغيرها، بينما تراوحت النسبة بين 4.16 إلى 11.2 % على السلع

⁽¹⁾ المصدر السابق، ج.2، ص.ص.378-379.

⁽²⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.133.

⁽³⁾ براور، الاستيطان...، ص.485.

⁽⁴⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.ص.133-134.

المصدرة، وهي المنسوجات الكتانية والقطنية، والصوفية والعاج والتوابل وغيرها⁽¹⁾. وعلى ما يبدو أن قيمة الضرائب والرسوم، تزداد وتتناقص حسب احتياج المملكة، لمساعدة المدن الإيطالية، أو ربما أنها تحاول من حين إلى آخر، إعفاء مدينة أو تخفيض نسبة الضريبة والرسوم عليها إيرادها وتصديرها حسب الضرورة. أو ربما تشجيعا على الإنتاج الداخلي، لذلك ترفع نسبة الرسوم والضرائب على الوارد، وتخفيضها على الصادر تشجيعا له، وفي الوقت نفسه تُحصّل عليه الضريبة.

ولقد شكلت الموانئ الصليبية منافذ للداخل الشامي، من خلالها تمكنت القومونات الإيطالية من التغلغل داخل الدويلات الصليبية لبيع بضائعها، وبما أن الميناء احتكار للملك، وهذا حسب ما أقره الملك بولدوين الثالث (1144م-1162م)، خاصة في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي، إلا أن النشاط التجاري للمدن الإيطالية تركز في منطقة الميناء، ويظهر ذلك في موظفي القومون الذين يتواجدون دائما بهذا الموقع الاستراتيجي، ليقوموا بكل ما يلزمهم من أعمال⁽²⁾.

وقد تميزت أسواق عكا بالنشاط التجاري، طيلة القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، نتيجة استيراد التجار الإيطاليين والصليبيين للبضائع والسلع، من المدن الإسلامية، مثل حلب ودمشق والقاهرة، حيث قام هؤلاء بجلب مختلف الملابس والمنسوجات من دمشق والقاهرة، فضلا عن السمك المجفف، بالإضافة إلى استيراد النبيذ، والمنسوجات من أنطاكية وطرابلس⁽³⁾.

ونتيجة لفائدة الامتيازات التي تمتع بها التجار، وخاصة الإيطاليون، فإن كثير من التجار الذين لا يتمتعون بحقوق الامتيازات في الميناء، كانوا يحاولون مرارا إثبات أنهم يتمتعون بامتيازات الميناء، فتارة تراهم يحلفون بالأيمان، ومرة أخرى يثبتون بأنهم ينتسبون للمدن الإيطالية، ومرة

⁽¹⁾ أنظر: Richard Jean, Colonies marchandes privilégiées et marché seigneurial, P.330.

للمزيد عن نسبة الرسوم المفروضة على السلع والبضائع. أنظر الملحق: (15).

⁽²⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.ص. 134-135.

⁽³⁾ الطحاوي، القانون البحري، ص. 484.

أخرى يحاولون بالتحايل للتهرب من دفع الضريبة، كما تمتع بعض تجار المدن القريبة من مدينة جنوة، من الامتيازات التي تمتع بها الجنويون، وكذلك تجار المدن القريبة من بيزا، وأيضاً تجار البروفانس القريبون من مرسيليا، ادعوا أنهم من مرسيليا، بالإضافة إلى تجار كتلانيا الذين ادعوا الانتساب إلى برشلونة⁽¹⁾.

وهذا ليكون لهم الحظوظ نفسها مع من تمتعوا بالامتيازات، ولقد كانت عملية المراقبة في الميناء صعبة، نتيجة لعدم وجود الوثائق، غير أن موظفي الميناء كانت لهم خبرتهم في ذلك الميدان، من أجل تحصيل الضريبة⁽²⁾.

وتميزت الرسوم الجمركية، وخاصة بالموانئ الصليبية بالتعقيد وعدم الوضوح، فلم تكن الرسوم مختلفة حسب نوع البضاعة فحسب، بل كانت الرسوم تختلف حسب أماكن جلب البضاعة، وجنسية التاجر وسفينته، فقد كان على البضاعة نفسها والمحمولة على السفينة، أن تخضع لرسوم متفاوتة تتراوح بين 2% إلى 15%، وهذا يرجع إلى جنسية السفينة وجنسية صاحبها⁽³⁾، وربما هذا يرجع إلى وجود بعض الامتيازات للتجار الوافدين على الساحل الشامي.

وفيما يخص قانون المملكة البحري، حيث ورد في بنده الثالث: أن البضائع التي تم قذفها في البحر، والتي تم إنقاذها أثناء تعرض السفينة للغرق، فإن ذلك يجب تقدير قيمته، إذ أنه من الضروري عودة السفينة إلى الميناء، لتحديد الخسائر التي تعرضت لها تجهيزاتها الخشبية، بعد ذلك يتم حصر ما تم إنقاذه. ويشدد القانون على ضرورة تقدير قيمة البضائع التي أنقذت، والتي تم تلفها، وهذا حسب سعر التكلفة الخاص بها. وهذا بحد ذاته إيجاد نوع من المساواة في الخسارة بين التجار، حيث هناك تاجر فقد جزء من بضاعته، نتيجة رميها في البحر، في حين أن هناك تاجراً آخر تم إنقاذ بضاعته أو جزء منها⁽⁴⁾.

(1) براور، الاستيطان...، ص.484.

(2) نفسه.

(3) براور، عالم...، ص.166.

(4) الطحاوي، القانون البحري، ص.489.

إن ذلك الإجراء شبيه بما هو في القانون الإسلامي، إذ أن الخسارة الناتجة عن "طرح جزء من البضاعة في البحر من أجل إنقاذ السفينة والركاب، يجب أن يتحملها من له مصلحة في الرحلة التجارية البحرية"⁽¹⁾. وأما بخصوص تقدير قيمتها، فيتم وضع سعرها بيوم الشراء، أما إذا اختلفت الأسواق والأسعار ومضت مدة بين الشراء والشحن، فيتم تقدير ثمنها بيوم ركوب السفينة، "لأنه يوم اختلاط"⁽²⁾.

3- محكمة الميناء Cour de la Port:

تُشرف على أعمال الميناء، والمحافظة على أجهزته وأدواته، وتقوم بجمع الإيرادات، كما أنها مسؤولة عن مكتب الجمركة، ولقد كان لهذه المحكمة مكابيلها وموازينها ومقاييسها، التي تستخدمها لتحديد مقدار الرسوم على السلع والبضائع⁽³⁾، وكانت تنتظر في القضايا التجارية البحرية في كل موانئ المملكة⁽⁴⁾. ويقول جوناثان رايلي سميث Jonathan Riley Smith: "كانت السلسلة أو الكاتينة عبارة عن سلسلة، تمتد عبر مدخل الميناء، ويمكن أن تُستعمل في وقت الخطر، ولكن تم إعطاء اسمها أيضا إلى الميناء، أو أحد الموانئ، أو إلى البلدة المتاخمة لهذا الميناء، وإلى مكتب في مدينة عكا يشبه مبنى الخان الذي يجمع بين عدة وظائف، وكان وجود المحكمة البحرية على الأقل في عهد عموري، كما أنها هيئة مسؤولة عن تشغيل وصيانة الميناء، وجمع الإيرادات ودفع نسبة منهما في الإيجارات، فضلا على أنها مكتب الجمرك"⁽⁵⁾.

ويضيف قائلاً: "نحن نعرف القليل جدا عن كيفية عملها، في القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري)، حيث أشرف عليها بايلس Baillis (وهو المعتمد أو الوكيل)، والتي ربما كانت هي نفسها تقوم بشؤون الميناء من قبل، لها موظفوها، وهم الكتبة، ومن الممكن أن تكون إدارتها قد

⁽¹⁾ الطحاوي، القانون البحري، ص.490.

⁽²⁾ نفسه.

⁽³⁾ الطحاوي، الاقتصاد...، ص.135..

⁽⁴⁾ حسين عطية، تشريعات...، ص.175.

⁽⁵⁾ أنظر:..

وُرثت عن المسلمين⁽¹⁾.

وحسب ما ذكره جون لا مونت، فإن محكمتي السوق والميناء، قد أسسهما الملك عموري الأول⁽²⁾، بينما بولدوين مارشال Baldwin Marshal يوضح ذلك بقوله: "ويبدو أن الملك أمالريك (عموري الأول)، قد أنشأ اثنتين من المحاكم الجديدة للتقاضي البحري، وهما محكمة السوق ومحكمة الميناء، وبالفعل فإن دور أمالريك كان بارز في التطور القانوني لمملكة بيت المقدس، ويتضح ذلك من خلال كثير من الإشارات الهامة لاسمه في قوانين المملكة"⁽³⁾.

كما يشير باترسون Patterson إلى أهمية محكمتي السوق والميناء Funda and Catena بالنسبة للمملكة الصليبية في بيت المقدس، حيث أنهما وجدتا من أجل تنظيم التجارة بالمملكة، وأن التجارة تشكل قطاعا له أهمية كبيرة بالنسبة للصليبيين، إذ أنها شكلت مصدر دخل مالي يساهم في إنماء الخزينة الملكية⁽⁴⁾.

وقد كانت المحكمتان تنظران في مختلف القضايا التجارية والبحرية، في الأسواق والموانئ، التي تديرها السلطات الإدارية الصليبية، وأن هذا التطور القانوني يعكس مدى مقدرة المملكة الصليبية على إدارة كل ما بحوزتها من أراضٍ داخلية وساحلية. وتوحي تواريخ أصل هذه المحاكم، في الوقت الذي بدأت فيه المراقبة القانونية والقيمية، تُستخدم بشكل فعّال، وحسب الرأي التاريخي الحديث، فإن محكمتي السوق والميناء تعتبران من ابتكارات الملك عموري الأول (1161-1174م)⁽⁵⁾.

غير أن باترسون له رأي آخر، إذ أنه يشير إلى ما قبل هذه الفترة، فقد تكون محكمة السوق قد

Riley Smith, op.cit., P.112.

⁽¹⁾ أنظر:

Feudal, P.21.

⁽²⁾ أنظر:

The Latin states under baldwin III and Amalric I, Vol.I. P.549.

⁽³⁾ أنظر:

op.cit., P.474.

⁽⁴⁾ أنظر:

Ibidem.

⁽⁵⁾ أنظر:

أُنشئت في عهد بولدوين الثاني (1118-1131م). وتظهر الإشارة في اتفاه مع دوج البندقية دومينيكو ميخائيلي Domenico Michaeli، بشأن الامتيازات في مدينة صور سنة 1121م⁽¹⁾. وطبعاً يقترن ذلك بمدى مساعدة البنادقة للملك، ولما وصل البنادقة إلى مملكة بيت المقدس سنة 1123م، حينها كان الملك بولدوين الثاني سجيناً، لدى الملك بلك، وفي ظل غياب الملك قام بطريك القدس والبارونات، بتأكيد وعود الملك السابقة بالامتيازات للبنادقة، بشأن مدينة صور، وبعد عودة الملك من الأسر، أكد وعوده للبنادقة في 02 من شهر مايو سنة 1125م، وهنا تكون إشارة لمحكمة السوق في مدينة صور⁽²⁾.

ويذكر مرة أخرى، أن الإسناد التقليدي للكاتينا (محكمة الميناء)، أن مرجعه للملك عموري الأول، مستدلاً بذلك جزئياً، على ما أشار إليه الكونت بوغنوت Beugnot في كلمته البسيطة، والذي قام بتحرير قوانين المملكة اللاتينية Assises of The Latin Kingdom، حيث رأى بوغنوت اسم الملك عموري الأول كمؤسس لقانون البحرية، ويُفترض أن الملك الذي وضع قانون البحرية، ينبغي أن يكون مؤسس المحاكم، التي تراقب الأعمال التجارية البحرية. ومع ذلك فإن الدراسة الأخيرة جعلت الملك عموري الأول، على الأقل مؤسس قانون البحرية. ويُعقَّب باترسون مرة أخرى بقوله: "وعلى الرغم من أن عموري الأول قد وضع قانون البحرية، فإنه ليس بالضرورة أنه أسس أيضاً المحاكم، التي يقع ضمن اختصاصها المسائل المتعلقة بالتجارة البحرية، فيمكن أن تكون موجودة قبل عهد عموري الأول⁽³⁾."

ويمكن أن تشكل قرارات هذه المحاكم، الإجراءات البحرية للمملكة، والتي أصبحت في الوقت المناسب مقننة، على أنها ضمانات رسمية. إن هذه الفرضية، قد تكون هي الحالة التي اقترحها ميثاق بالدوين الثالث سنة 1156م أو 1157م، حيث يشير هذا الميثاق بوضوح، إلى أن بعض لوائح البحرية لمملكة بيت المقدس، كانت سارية المفعول، لأن البيازنة كانوا خاضعين لهذه

op.cit., P.474.

Ibid., PP.474-475.

Ibid., P.475.

⁽¹⁾ أنظر:

⁽²⁾ أنظر:

⁽³⁾ أنظر:

القوانين⁽¹⁾.

ولا زال باترسون يتتبع الأحداث والمستجدات، ويقارنها من أجل الوصول إلى ما يقارب الحقيقة، في وقت إنشاء هذه المحاكم، حيث يقول: "تشير الدلائل المتعلقة بالميثاق، إلى تاريخ بعيد للغاية لوجود catena (محكمة الميناء) من عهد عموري الأول، إذ أن ميثاق الملك بولدوين الأول في سنة 1104 م، والذي وعد به الجنوبية بثلاث إيرادات ميناء عكا، ولهذا يجب أن تكون بعض الوكالات موجودة لجمع الرسوم والضرائب، ومن المحتمل جداً أن تكون هذه الوكالة محكمة قانونية. كما أن ميثاق بولدوين الأول لا يجبرنا على الاعتقاد، بأن الوكالة المعنية كانت هي (محكمة الميناء) catena، لكن إن لم يكن كذلك، فمن الممكن أن يكون هذا هو أساس ميلاد محكمة الميناء"⁽²⁾.

وبضيف قائلاً: "ومع ذلك، ومن خلال المنحة المقدمة من دوج البندقية، إلى سانت مارك St.Mark في سنة 1164م، فمن الممكن أن يكون هناك اتفاق، بين الملك بولدوين الثاني والدوج، بخصوص الكاتينا (محكمة الميناء)، وعلاوة على ذلك، نؤكد من خلال الميثاق، على ثلاثمائة بيزنت، التي يجب أن يتلقاها قومون البندقية سنويا من أموال الملك، وذلك من خلال الميثاق، الذي كان بين الملك بولدوين ودومينيكو ميخائيلي، وطبعا يكون هذا الإيراد المالي من كاتينا عكا، ولكن الملك فولك الأنجوي، قد أوقف هذه المنحة المقدره بثلاثمائة بيزنت"⁽³⁾.

4-الصادرات والواردات:

إن الاستيطان الصليبي في الشام، وتأسيسه لمملكة ببيت المقدس، وثلاث إمارات لدليل على مدى نجاح إستراتيجية الصليبيين، في تنفيذ مشروعهم بالمنطقة، كما أنه بين ضعف الدويلات الإسلامية بالشام، بل تشرذمها وتناحرها فيما بينها، ولذلك أُتحت الفرصة للغزاة في توطين أنفسهم، والاستيلاء على مقدرات المنطقة والاستفادة منها، وصناعة جسر اتصال وتواصل خاصة

Patterson Robert(B), op.cit., P.476.

Ibidem.

Ibid., PP.476-477.

⁽¹⁾ أنظر:

⁽²⁾ أنظر:

⁽³⁾ أنظر:

مع الغرب اللاتيني الداعم الرئيسي لاستيطانهم بالشام، وإعادة تنشيط حركة التجارة، التي تشكل موردا هاما، لإيرادات مملكة بيت المقدس بصفة خاصة.

علما أن الصليبيين وبالرغم من قوتهم، فإنهم لم يستطيعوا بسط نفوذهم على بعض مدن الشام الرئيسية، مثل دمشق وحلب، التي تشكل مستودعا للتجارة العالمية⁽¹⁾، ولكن الصليبيين نجحوا في بسط نفوذهم، على بعض المدن التي لها مكانتها التجارية، مثل أنطاكية وطرابلس وصور، وقد شكلت هذه المدن جسرا تجاريا نشط مع المدن الإسلامية، مثل دمشق وحلب وبغداد، وحتى مع مصر⁽²⁾.

ولقد كانت حلب ودمشق في فترة العصور الوسطى مستودعين كبيرين، في تجارة بلاد الشام في العصر الإسلامي، مع منطقة آسيا الوسطى. إذ أن علاقات العرب مع الشرق الأقصى جعلت من منطقة الشام، وخاصة في المدينتين المذكورتين، مركز تجاري ضخم في غرب آسيا، وطرق القوافل المؤدية إليها فبلا شك أنها تغذي الأسواق الشامية باستمرار⁽³⁾. وإذا ما نظرنا لعلاقات العرب في بلاد الشام مع الهند والصين، فإنها تعود إلى زمن بعيد⁽⁴⁾.

ومنذ أن تم تأسيس الدويلات الصليبية في الشام، انخرطت هذه الأخيرة في الحركة التجارية هذه، وخاصة بعد أن تم استتباب الأمن، وعقدت المعاهدات بين المسلمين والصليبيين⁽⁵⁾.

وفي بلاد الشام بصفة خاصة، يذكر هايد أن دمشق كانت ذائعة الصيت في التجارة العالمية آنذاك، حيث يقول: "فإذا عدنا أدرجنا إلى الجزء من سوريا، الذي بقي في أيدي المسلمين، صُدنا باسم دمشق، مركز المنطقة وأهم سوق في ذلك القطر. ومما يجعل أهمية كبيرة لهذا الموقع هو أنه نقطة تلاقي البضائع الواردة من فارس وبلاد ما بين النهرين، وآسيا الصغرى، مع البضائع

⁽¹⁾ براور، الاستيطان...، ص.467.

⁽²⁾ نفسه.

⁽³⁾ أنظر:

⁽⁴⁾ أنظر:

⁽⁵⁾ أنظر:

Rey, op.cit., P.193.

Ibidem.

Ibidem.

القادمة من مصر، وبلاد العرب والمتجهة إلى الشمال"⁽¹⁾.

وإذ ما عدنا إلى نشاط المدن التجارية الإيطالية، والاتفاقيات التي عُقدت بينهم وبين ملوك وأمراء الصليبيين، وبموجبها تم منح القومونات الإيطالية امتيازات مالية وقضائية، عادت عليهم بالفائدة العظيمة، خاصة في المدن التي أصبحت بحوزة الصليبيين⁽²⁾.

ولهذا نرى بأن البندقية وجنوة وبيزا على الخصوص، قد كان معظم النشاط التجاري الخارجي بأيدي هذه المدن⁽³⁾.

وعلى الرغم من نشاط هذه المدن واحتكارها لتجارة المملكة، فإن هذه الأخيرة كانت لها مساهمتها، في التجارة مع جيرانها المسلمين، وبما أن دمشق كانت محطة انطلاق قوافل الحجاج، المتوجهة إلى مكة، كما أنها هي الأخرى محطة لأنواع البضائع القادمة من مختلف الأقطار، ولها علاقات تجارية نشطة، خاصة مع مصر بعد وحدتها مع الشام، في فترة حكم الأيوبيين، فقد كانت دمشق تنتج مواد ذات قيمة كبيرة، إذ أنها تنتج "الأقمشة الحريرية على اختلاف أنواعها، وبصفة خاصة الديباج المطرز، بخيوط ذهبية متقنة الصنع، لم يوجد ما يفوقه، إلا في أصفهان ونيسابور"، كما كانت تشتهر بصناعة السيوف، ذات الشهرة العالمية⁽⁴⁾.

ولقد كانت التجارة نشطة بهذه المنطقة، وأصبح لمملكة بيت المقدس وصولاً للأسواق العالمية، التي تقام بمنطقة الشام، فسوق ميدان أو ما يُعرف بسوق سويتا Sueta، أو سويت Suite، حيث كان هذا السوق يقام على طريق قافلة الحج السورية القادمة من مكة. إذ أنه يقام في بداية الصيف، حيث يتوافد عليه حشد كبير من التجار من مختلف الأمصار، فيصبح سهل مزرب Mauzarib، منمنمة من مختلف الأطياف ببضائع شتى، وأصبح هذا السوق لتجار الغرب بما فيهم الصليبيون، قبلة يتوجهون شطرها، خاصة وأن مملكة بيت المقدس الصليبية تشرف حدودها

⁽¹⁾ المرجع السابق، ج.1، ص.182.

⁽²⁾ براور، الاستيطان...، ص.ص.166-167.

⁽³⁾ أنظر: Archer, Kingsford, op.cit. P.294.

⁽⁴⁾ هايد، المرجع السابق، ج.1، ص.ص.182-183.

الشمالية الشرقية على موقع هذا السوق⁽¹⁾.

وعن سهل ميدان والسوق التي تقام به في بداية الصيف إلى نهايته، وما يفد إليه من مختلف الأجناس، يقول الرحالة الألماني ثيودريش: "ويجتمع حشد لا حصر لهم، من الناس في هذا السهل (ميدان)، كل سنة في بداية الصيف، جالبين معهم الأشياء للبيع، ...، ويبقون في تلك الأجزاء خلال الصيف"⁽²⁾.

ويشير روي Rey إلى أن في هذه المنطقة سيطرة صليبية ونفوذ كبير، حيث يقول: " كما تم تأسيس الهيمنة اللاتينية بطريقة جادة للغاية، في شرق وشمال شرق بحيرة طبرية خلال القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري)، حيث امتلك الفرنجة البلاد التي كانت تسمى آنذاك أرض سويتي، أو سوهيتي أو سويقة، التي يبدو أنها شكلت على الأقل واحدة من إقطاعات إمارة الجليل"⁽³⁾.

كما يشير أيضا المؤرخ كوندر Conder إلى الإقطاعات في مملكة بيت المقدس، ومنها إقطاعة سويث Suethe⁽⁴⁾، وحسب سجلات كنيسة القبر المقدس، تظهر إشارات باسم شخص يدعى غليوم دي سويقة Sueka⁽⁵⁾.

وما يمكن استنتاجه، أن هذه المنطقة مفتحة على كل التجار، الذين يفدون من كل حذب و صوب، وطبعا هذا إستراتيجية من الصليبيين، وخاصة مملكة بيت المقدس، لتحقيق مختلف احتياجات مجتمعها. ويشير روي Rey، مرة أخرى إلى تأكيد وجود هذا المكان، حيث يقول: " في وقت مبكر من عام 1110م/503هـ، تم الإشارة إلى قرية فُدمت هدية للأستبارية، على أرض

⁽¹⁾ هايد، المرجع السابق، ج.1، ص. 183.

⁽²⁾ المصدر السابق، ص.135.

⁽³⁾ أنظر:

op.cit., P.433.

The latin Kingdom, P.162.

⁽⁴⁾ أنظر:

Cartulaire de L'égglise, N.123-124, PP.226-228.

⁽⁵⁾ أنظر:

سويت⁽¹⁾. ويقول أيضا بشأن هذه المنطقة "الآن يتم تعيين أرض سويت Suede، باسم صفادا أو سواد، وهذا هو القول لأرض السواد، وهو الاسم الذي يتناسب تماما مع المظهر والطبيعة البازلتية في هذه المنطقة"⁽²⁾.

ويشير ابن جبير، أثناء رحلته في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، من دمشق باتجاه عكا، إلى القرى والأماكن التي مرت بها القافلة، حيث يقول: "...، ثم رحلنا منها سحر يوم الجمعة بعده، إلى قرية تُعرف ببيت جنّ، هي بين جبال، ثم رحلنا منها صبيحة يوم السبت إلى مدينة بانياس، واعترضنا في نصف الطريق شجرة بلوط، عظيمة الجرم متسعة التدويح، أعلمنا أنها تُعرف بشجرة الميزان"⁽³⁾. ويشير مرة أخرى بعد دخوله إلى بانياس، حيث يذكر: "لها محرث واسع في بطحاء متصلة، يشرف عليها حصن للإفرنج، يسمى هونين، ...، وعمالة تلك البطحاء بين الإفرنج والمسلمين، لهم في ذلك حد يُعرف بحد المقاسمة، فهم يتشاطرون الغلة على السواء، ومواشيهم مختلطة، ولا حيف يجري بينهما فيها"⁽⁴⁾. بمعنى هناك اتصال وتواصل بين الطرفين في ظل وجود المصالح المشتركة.

ومن خلال ما أشار إليه ابن جبير، يتبين لنا أن حركة القوافل التجارية بين الصليبيين والمسلمين لا تزال متواصلة بين الطرفين، وهذا يعكس لنا حاجة كل طرف إلى الآخر، بعيدا عن الصراع السياسي والديني في منطقة الشام. إذ أنه يشير إلى ذلك، وهو في غاية التعجب" ومن أعجب ما يحدث به في الدنيا، أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الإفرنج، وسببهم يدخل إلى بلاد

⁽¹⁾ أنظر: op.cit., P.433. قرية سوهيتا الحديثة بين بانياس وبيت جنّ، تبدو أنها هي نفسها المكان المعروف بأرض سويتا في العصر

الصليبي ببلاد الشام. للمزيد، أنظر: Ibid., P.433, marge (5).

⁽²⁾ أنظر: op.cit., P.434.

⁽³⁾ يقول فسألنا عن ذلك، فقليل لنا أنها شجرة فاصلة بين الأمن والخوف، أي أن في هذه الطريق لصوص الإفرنج وهم الشجعان وقطاع الطرق، ومن تم أخذه وراها إلى جهة بلاد المسلمين ولو بمسافة قصيرة أسروه، ومن أخذوه دونها إلى جهة بلاد الإفرنج أطلقوا سراحه، وهذا يرجع إلى وجود عهد عليهم يوفون به. ويستغرب ابن جبير ذلك، حيث يقول وهو من أغرب الارتباطات الصليبية وأطرفها.

للمزيد من المعلومات، أنظر: المصدر نفسه، ص.273.

⁽⁴⁾ نفسه، ص.ص.272-274.

المسلمين"⁽¹⁾، علما أن هذه القوافل يتم تمكيستها لتزويد الخزينة الملكية، وهذا المكتب الجمركي تم وضعه في حصن تبنين "موضع تمكيس القوافل"، والضريبة في ذلك المكان تقدر بدينار وقيراط من الدنانير السورية على الرأس. وكل التسهيلات موجودة للتجار الذين يفدون إلى أرض المملكة، وهو محل التعشير، والضريبة فيه قيراط من الدينار، والدينار أربعة وعشرون قيراطاً"⁽²⁾.

إن الاستيطان الصليبي في الشام وإيجاد مجتمع جديد بالمنطقة، قد أدى إلى ازدياد الطلب على مختلف الحاجات، وبهذا توسعت الأسواق، وزادت وارداتها من سلع وبضائع الغرب، فأدى ذلك الغنى والثراء إلى تيسير الحياة، واكتسب المجتمع الجديد ذوقاً وطعماً جديداً، بل رفاهيةً ورخاءً، وأصبحت قدراتهم الشرائية جيدة، فأقبلوا على مختلف المنتجات في أسواق الشام"⁽³⁾.

وهكذا أصبح الجسر جاهزاً بين الشرق والغرب للوارد والصادر، وعليه فإن الصادرات في المملكة الصليبية، كانت تعتمد على ما تنتجه المملكة في مراكزها الإنتاجية، وتمثلت الصادرات في المنسوجات، الزجاج، الأصباغ، والسكر ومشتقاته، غير أن المنسوجات احتلت الصدارة"⁽⁴⁾.

وعلى الرغم من أن الصليبيين قد اهتموا بدعم الفلاحة الريفية، لتوفير مختلف الحاجات الضرورية للسكان، إلا أن الحبوب والنبذ والدواجن، كان يتم استيرادها في بعض الأحيان، وهذا خاصة، بعد فقدان كثير من المناطق الريفية، لذا تم استيراد كميات كبيرة من الطعام"⁽⁵⁾.

ومن خلال ما أشارت إليه وثائق حجاج بيت المقدس، يتبين أن المدن الإيطالية وعلى الخصوص جنوة وبيزا والبندقية، قد كان لها الباع الأكبر، خاصة في التجارة الخارجية لمملكة بيت المقدس، بل حتى الإمارات الصليبية الأخرى"⁽⁶⁾.

⁽¹⁾ المصدر السابق، ص. 271.

⁽²⁾ نفسه، ص. 274.

⁽³⁾ براور، الاستيطان...، ص. 468.

⁽⁴⁾ نفسه، ص. 469.

⁽⁵⁾ أنظر: Andrew Jostischky, *Crusading and the crusader states*, Routledge, London, New York, 2013, P.181.

Anonymous Pilgrims, op.cit., V., P.29.

⁽⁶⁾ أنظر:

ولقد بذل الملوك الأوائل لبيت المقدس جهودا من أجل تطوير التجارة في المملكة الناشئة، وبما أن العلاقات بين المسيحيين والمسلمين آنذاك كانت ثابتة، مما سهل على الملوك منح كثير من الامتيازات للمدن الإيطالية، وغيرها من المدن البحرية الكبرى في حوض البحر الأبيض المتوسط، مما ساعد على فتح الأسواق لمنتجات المستعمرات الصليبية، وتجارة بلاد الشام عموما، التي لم تتوقف منذ العصر القديم، بل زادت حيوية ونشاطا⁽¹⁾.

وهكذا اندمج تجار الفرنجة في حركة التبادل التجاري الكبيرة، التي تمثل طرفاها في بلاد الشام والشرق الأقصى، حيث جلبت مختلف المنتجات، عبر القوافل التجارية أو عن طريق البحر، وفي الوقت نفسه يتم تصديرها نحو الغرب اللاتيني⁽²⁾.

إن بيت المقدس كانت واقعة على طريق البحر، فضلا عن الدويلات الصليبية، التي كانت تمتاز بمواقعها، فمكناها ذلك من أن تلعب دور الوكيل، في عملية التبادل التجاري بين الشرق والغرب⁽³⁾.

وعليه فإن المنتجات الصليبية في مملكة بيت المقدس، وغيرها من الإمارات قد وجدت أسواقا في مختلف مناطق العالم وخاصة الغرب، حيث كان القطن والكتان والحريير والصوف، يتم تصديرها إلى أسواق أوروبا، إما في شكل مواد خام، أو في شكل منسوجات، تعد من الضروريات للمجتمع الغربي⁽⁴⁾.

ولقد كانت حركة التجارة الخارجية نشطة، إذ تنوعت المنتجات المصدرة من الشرق إلى الغرب، وقد كانت مدن الشام تلعب دور الوسيط في ذلك، فمنذ زمن بعيد، تم استيراد الزنجبيل والمسك من الصين والتبت، عن طريق الهند وسيلان، وصولا إلى موانئ الخليج العربي، ومن ثم تحملها القوافل التجارية عبر غرب آسيا، فمن بغداد كانت القوافل تشق طريقها بين نهري دجلة والفرات، إلى الرقة

Rey, op.cit., P.189.

Ibid., PP.189-190.

Andrew Jostischky, op.cit. P.181.

⁽¹⁾ أنظر:

⁽²⁾ أنظر:

⁽³⁾ أنظر:

⁽⁴⁾ عبد الحافظ عبد الخالق، المرجع السابق، ص.39.

والرُّها وحران، ومن ثمّ إلى المدن الكبرى، مثل حماة، حلب، ودمشق، وتحط الرحال في الموانئ الصليبية على الساحل الشامي⁽¹⁾.

وكما ذكرنا آنفاً، فإن القوافل لم ينقطع مسيرها بين مختلف الأمصار الإسلامية، وحتى مع الصليبيين، فمثلاً طريق القوافل بين دمشق ومصر، كان يعبر الأراضي التي يمتد إليها نفوذ مملكة بيت المقدس، ويظهر ذلك في وجود حصن الشوبك، الذي يعد موقعا استراتيجيا بالنسبة للمملكة، فقد كانت الرسوم المضروبة على تلك القوافل باهظة، والتي شكلت مصدر دخل للخزينة الملكية، في عهد بولدوين الثالث (1143-1162م)، والتي احتفظ بها عندما مُنحت سيادة حصن الشوبك لفليب النابلسي Philip of Nablus⁽²⁾، ولقد تسببت غارات رينالد أف شتيلون Rainald of Chatillon⁽³⁾ صاحب الحصن فيما بعد على هذه القوافل، -بالرغم من وجود المعاهدات- في

⁽¹⁾ أنظر: Archer, Kingsford, op.cit., PP.299-300.

⁽²⁾ لورد شرق الأردن (1161-1165/1166م)، وسيد فرسان المعبد (1169-1171م)، كان فيليب واحد من ثلاثة أبناء لرجل نبيل من ميللي Milly، والذي ورث عنه اقطاعات مختلفة في السامرة حول مدينة نابلس، أصبح واحد من أكثر الجنود خبرة في مملكة بيت المقدس، حيث شارك في معظم الحملات التي خاضتها قواته ضد المسلمين من سنة 1144م إلى غاية وفاته. لقد كان فيليب من المؤيدين الرئيسيين للملكة ميليزاند Milisende في بيت المقدس، أثناء نزاعها مع ابنها بولدوين الثالث. وبعد وفاتها بوقت قصير سنة 1161م، أحجره بولدوين الثالث على تسليم اقطاعاته في السامرة، مقابل أسقفية شرق الأردن. انضم فيليب إلى فرسان المعبد، وأعطى إقطاعاته في شرق الأردن إلى ابنته الكبرى هيلين Hallin وزوجها والتر الثالث Walter III سيد بيروت. وفي غضون أربع سنوات تم انتخاب فيليب مقدم النظام سنة 1169م، وفي سنة 1171م استقال من منصبه، وذهب كسفير إلى الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين (1143-1180م)، استعدادا لزيارة دبلوماسية مخططة من قبل الملك عموري الأول، لكنه توفي أثناء إقامته في القسطنطينية، وربما كان ذلك في الثالث من شهر أبريل سنة 1171م. انظر:

The Crusades An Encyclopedia, Edit., Alan Murry, ABC ,Clio, Oxford, England, 2006, V.III, PP.954-955. وللמיד عن هذه الشخصية النبيلة ذات التوجه الديني، أنظر: محمد مؤنس عوض،

معجم أعلام...، ص.436.

⁽³⁾ من الفرسان الصليبيين الأكثر طموحا وثورا، أصبح أمير على إمارة أنطاكية الصليبية، وهذا بعد زواجه من كونستانس Constance وريثة الإمارة. هذا الأمير دخل في حرب مع الأرمن في قليقية ومع البيزنطيين، فضلا عن عدائه للمسلمين، أُلقي عليه القبض في إحدى معاركه مع المسلمين وُجِّح به في السجن من سنة 1160م إلى غاية إطلاق سراحه سنة 1177م. بعد خروجه أصبح سيد على شرق الأردن، وهذا بعد زواجه من ستيفاني Stephanie وريثة هذه الإمارة. أطلق حملاته العسكرية لسلب ونهب قوافل المسلمين، أُلقي عليه القبض مرة أخرى في معركة طبرية (معركة حطين)، من طرف السلطان صلاح الدين الأيوبي، حيث نفذ فيه حكم الإعدام. أنظر: Le Robert Encyclopédique Des Noms Propres, Ed.2008, P.1899، للمزيد عن هذا الفارس

خسائر مادية، انعكست على الخزينة الملكية. كما كانت مدينة عكا، مركز تجارة مملكة بيت المقدس على الساحل الشامي، ولقد تضمنت القائمة كثيرا من المنتجات التي كانت تُدفع لمملوك بيت المقدس، ومنها الفلفل، القرنفل، السكر والنبيد، وغيرها كثير⁽¹⁾.

ولقد كانت النيلة وقصب السكر، يزرعان في وادي الأردن، وهذه المنطقة في القرن الثاني عشر الميلادي تعد من أهم مناطق زراعة قصب السكر، إذ أن المملكة شجعت على زراعته، منذ السنوات الأولى من الاستيطان في وادي الأردن، وتم إعفاؤه من ضريبة العشر. وسرعان ما تطورت زراعته في الساحل الشامي، وخاصة في ريف صور وطرابلس⁽²⁾، ولكن النوعين المنتجين من قصب السكر في كل من صور وعكا، كانا يلقيان رواجاً كبيراً. ولقد كان عمال السكر في مدينة صور، هم الأكثر مهارة في مملكة بيت المقدس. وقد كانت مادة السكر من أهم المنتجات الأساسية لتجارة هذه المدينة، وخاصة مع الغرب⁽³⁾.

إن حيوية الحركة التجارية كانت على أشدها، فقد كان عدد كبير من السفن، وربما يقارب المائة سفينة يصل إلى موانئ الساحل الشامي، وخاصة موانئ عكا وصور ويفا، كما كانت حمولة السفن معتبرة، فبإمكان السفينة الأكثر حجماً، أن تحمل ألفاً من التجار والحجاج، بالإضافة إلى خمسمائة طن من السلع والبضائع⁽⁴⁾.

المغامر. أنظر: Schlumberger Gustave, Renaud de Chatillon Prince D'Antioche, Seigneur de la terre D'outre-Jourdain, Librairie. Plon, Rue Garancière, 10, Paris.1898.

⁽¹⁾ أنظر: Archer, Kingsford, The Crusades, P.300.

كان هناك اتفاق لمملكة بيت المقدس مع السلطان صلاح الدين، ولكن رينالد أف شاتيلون أغار على القافلة التي تعبر المنطقة، التي يشرف عليها الحصن الصليبي، ونهبها وقتل منها الكثير، فأعتبر ذلك خرقاً للمعاهدة، فأعد العدة وتوجه لغزو ممتلكات رينالد في شهر مارس من سنة 1187م. للمزيد أنظر: ميشال بالار، الحملات الصليبية والشرق اللاتيني من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر، ت. بشير السباعي، 2003، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ص.124.

⁽²⁾ أنظر: Rey, op.cit., P.248

⁽³⁾ أنظر: Ibidem.

⁽⁴⁾ براور، عالم...، ص.165.

وكان للإيطاليين دور كبير في تزويد الموانئ البحرية في المشرق بالأسلحة والذخائر، وفي البندقية خاصة في تجارة العبيد، على الأقل لفترة معينة، ولكن المنسوجات الصوفية، سرعان ما أصبحت التصدير الرئيسي. ومن النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي، أصبح التجار الإيطاليون أكثر تحركا في غرب أوربا وفي المشرق. ونتيجة لوجود المنتجات الأكثر جودة، أصبح التجار يطلبون هذه الملابس، وبإمكانها أن تكون تجارة مربحة، وقد كان ميناء مدينة جنوة في ذلك الوقت في وضع جيد، وبإمكانه تصديرها إلى الشرق⁽¹⁾.

ومن البضائع التي اجتازت مملكة بيت المقدس، والتي شكلت موردا ماليا للملوك، هي التوابل التي كانت من أهم دوافع النشاط التجاري، بين الشرق والغرب، إذ أن الأوربيين أصبحوا في أمس الحاجة إلى هذه المنتجات التي يستعملونها في تجفيف اللحوم، ومن بينها الفلفل وجوز الطيب والقرفة والزنجبيل. وقد عاد الاتجار بهذه المواد بالفائدة الكبيرة على التجار الإيطاليين خاصة، كما أنها فعّلت النشاط التجاري بين مختلف الموانئ المتوسطية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين⁽²⁾، دون أن ننسى المنسوجات التي كانت لها مكانتها في التجارة بين الشرق والغرب. فبالرغم من أن الغرب كان يتميز بالمنسوجات، إلا أن الشرق قد تفوق بجودتها وأصبحت المنسوجات القطنية والكتانية تلقى رواجاً في الغرب اللاتيني⁽³⁾.

فالحري من أجود الأصناف، والأقمشة الحريرية المطرزة بخيوط الذهب والفضة، كما أصبحت المدن التي تصنعها مرادفاً لاسم المنتج، مثل البغدادي والدمشقي وغيرها، فضلا عن وجود الألوان المختلفة، جعلت الإقبال عليها كثير. وقد كانت المجوهرات والأحجار الكريمة، تلقى طريقاً نحو الغرب، بالرغم من أن هذا الأخير كان يصدر المرجان للشرق⁽⁴⁾.

Pirenne, Economie and social..., P.144.

⁽¹⁾ أنظر:

⁽²⁾ جمعة الجندي، الاستيطان...، ص.ص. 170-171.

⁽³⁾ براور، عالم...، ص. 174.

⁽⁴⁾ براور، عالم...، ص.ص. 174-175. للمزيد عن صادرات المملكة الصليبية من مختلف المنسوجات. أنظر: براور، الاستيطان،

ص. 469.

ويتحدث براور، عن منتجات لها أهميتها الكبيرة في صادرات مملكة بيت المقدس، حيث يقول: "ولدينا معرفة قليلة عن الصادرات الأخرى، ذات الأهمية العظمى وهي الأصباغ، حيث تذكر قائمة الرسوم الجمركية لميناء عكا، الكثير من أنواع الصباغة، التي كانت تصدر إلى الخارج، بيد أنه كان يوجد عدد قليل من المراكز الصناعية والمدن التي تخصصت في إنتاج هذه الأصباغ المحلية، في مملكة بيت المقدس الصليبية"⁽¹⁾.

ولقد وجدت سلع وبضائع الغرب، طريقها إلى الشرق الإسلامي، والتي تعبر من خلال أراضي فلسطين، ومنها خيوط النسيج القادم من شمال فرنسا والفلاندرز وانجلترا والمعادن والأسلحة والمعدات الحربية كالسيوف والخُوذ⁽²⁾.

وقد كانت هناك تجارة أخرى مهمة مع سيبيريا، جلبت الفراء لبلاد الشام والغرب اللاتيني، حيث جاءت القوارب من نهر الفولجا وصولاً إلى دربند Derbend الواقعة على ساحل بحر قزوين. وكانت القوارب محملة بجلود الثعالب الحمراء والبيضاء، وقد كان لتجار الفراء شارع في بيت المقدس، حيث يبيعون فيه مختلف أنواع المادة المستوردة⁽³⁾.

وبما أن المدن البحرية الإيطالية، والمتمثلة خاصة في جنوة والبندقية وبيزا، كان لها دورٌ فعالٌ في الاستيلاء على الموانئ، وبذلك تم مكافأتها بمنح مختلفة، يتمتعون فيها بوضع قانوني وضريبي متميز. ولهذا تمكنوا من إقامة مستعمراتهم، في مملكة بيت المقدس والساحل الشامي عامة، حتى وإن لم يكن جميعهم مقيمين دائمين⁽⁴⁾.

ولقد تركز النشاط التجاري بحوزة هذه المدن، نتيجة موقعهم الاستراتيجي بين الشرق والغرب⁽⁵⁾، بل حتى كان الريح المادي هو غايتهم، مما جعلهم يستغلون الزحف الصليبي باتجاه الشام، ليحققوا

⁽¹⁾ الاستيطان...، ص.469.

⁽²⁾ جمعة الجندي، الاستيطان...، ص.173.

⁽³⁾ أنظر: Conder, The Latin Kingdom..., P.332.

⁽⁴⁾ أنظر: Barber Malcolm, The Crusader States, Yale University Press, 2012, London, P.95.

⁽⁵⁾ جمعة الجندي، الاستيطان...، ص.173.

مرادهم في ذلك. ومن خلال ما يورده براور بشأن الغرب، وخاصة المدن التجارية وطمعها في المنتجات الشرقية، وما تدره عليهم من ربح، حيث يذكر أنها وُجِدَت كتابة على كراسة حساب إيطالية مكتوب عليها: "باسم الله، وباسم الريح"⁽¹⁾.

5-العوامل المؤثرة على النشاط الاقتصادي:

مما لا شك فيه، أن العوامل سواء كانت بشرية أو طبيعية، فإنها تلعب دورا كبيرا في التأثير على الأنشطة الاقتصادية. ومثلما رأينا خصوبة أراضي الشام التي كانت عاملا مشجعا لسكانها منذ زمن بعيد، فإن هناك عوامل أخرى أثرت سلبا على النشاط الاقتصادي بصفة خاصة.

ومن الكوارث التي تزامنت مع دخول الصليبيين شمال الشام وحصارهم لأنطاكية نجد الزلازل، حيث ضرب زلزال عظيم منطقة الشام، وعلى ما يبدو أن الصليبيين قد استبشروا بذلك خيرا، وأن النصر سيتحقق لهم في الأراضي المقدسة، حيث يروي الشارترى خبر ذلك بقوله: "...كما شعرنا بزلزلة عظيمة في الأرض، مما أوقع الخوف في قلوبنا، وقد رأى الكثيرون علامة معينة على شكل صليب بيضاء اللون، تسير في طريق مستقيم إلى الشرق"⁽²⁾.

بينما يقول ريموند أجيل: "في بداية يناير، حدثت زلزلة عظيمة، وبدت في السماء ظاهرة غريبة، وكان ذلك في الجزء الأول من الليل، إذ كانت السماء حمراء للغاية، كما لو أن الفجر ظهر ليعلن مجيء يوم جديد. وعلى الرغم من أن الله استخدم هذه الإشارة لتنبئ جيشه، حتى نكون منتبهين للضوء الذي كان في حُلْكة الظلام ساطعا، إلا أن بعض الرجال ظلوا عُميا"⁽³⁾. كما كانت هناك زلزلة أخرى ضربت بيت المقدس، حينها كانت الحملة الصليبية قد وصلت وحققت انتصارها، وقد كانت زلزلة أصابت الجميع بالهلع والرعب⁽⁴⁾، وتزامن ذلك مع الاحتفال بعيد الميلاد المسيحي في

⁽¹⁾ عالم ...، ص.171.

⁽²⁾ المصدر السابق، ص.55.

⁽³⁾ أنظر:

⁽⁴⁾ الشارترى، المصدر السابق، ص.140.

بيت المقدس، يوم 23 يناير من سنة 1105م⁽¹⁾.

وتواصلت الزلازل بأرض الشام، إذ ضربت زلزلة عظيمة، كانت شديدة الوقع والأثر في نفوس السكان سنة 508هـ/1114م⁽²⁾، وخُرِّبت كثيرا من مدن الجزيرة والشام، وبسببها قُتل خلق كثير، ولا شك في أن هذا العامل له أثره السلبي على النشاط الاقتصادي. ومن بين المدن التي تضررت الرها، حران، سميساط، بالس وغيرها من المدن⁽³⁾.

في حين يذكر وليم الصوري، أن هذا الزلزال قد ضرب معظم مدن الشام، وأحدث بها وبقلاعها وأبراجها دمارا كبيرا، فضلا عن سقوط عدد كبير من القتلى، وكان أكثر تأثيره في الوسط والشمال من المنطقة⁽⁴⁾.

وفي السنة نفسها أصابت منطقة بيت المقدس موجات من الجراد، كان وقعها شديدا على المحاصيل الزراعية، خاصة وأنها في فترة نضجها. وبشأن ذلك يقول فوشيه الشارترى: "في عام 1114م زحفت حشود لا تُحصى من الجنادب، من بعض أجزاء الجزيرة العربية، وطارت إلى بيت المقدس، وقد أصابت في بضعة أيام من شهري نيسان وأيار محاصيلنا بتلف شديد"⁽⁵⁾.

وبعد مرور ثلاث سنوات أي سنة 1117م، عرفت مملكة بيت المقدس موجات أخرى من الجراد، اجتاحت أراضيها، كان أثرها سلبيًا على مختلف منتجات المملكة، وكان ذلك في شهر ماي، أي موسم نضج المحاصيل والثمار، إذ أنها "التهمت المحاصيل الزراعية، والكرمة والأشجار بمختلف أنواعها"، وعلى ما يبدو كان وقعها شديدا، خاصة وأن الجراد كان قد وضع بيضه في المنطقة، وبالتالي كان ضرره أكبر على المحاصيل، وهذا بعد فقس البيض سيزحف مرة أخرى على الأراضي الزراعية قبل تمكنه من الطيران. " وهكذا بعد أن التهموا كل ما هو أخضر،

⁽¹⁾ الشارترى، المصدر السابق، ص.173، حاشية (162).

⁽²⁾ ابن القلانسي، المصدر السابق، ص.191.

⁽³⁾ ابن الأثير، المصدر السابق، مج.9، ص.157.

⁽⁴⁾ المصدر السابق، ج.2، ص.309.

⁽⁵⁾ المصدر السابق، ص.154.

وقضوا لحاء الشجر، غادروا بأسراب بعضها مجنح وبعضها الآخر بلا أجنحة⁽¹⁾.

وحتى سنة 1120م ظلت مملكة بيت المقدس مصابة بأسراب الجراد التي اجتاحتها، بل أنها تعرضت لغزو الفئران التي ألحقت ضررا بالأراضي الزراعية. هذه الكوارث أحدثت مجاعة، وكانت سببا في استدعاء الملك لعقد مجلس نابلس⁽²⁾، ولعل ذلك يكون لمناقشة ما يتعلق بالأمور التي أضرت باقتصاد المملكة⁽³⁾.

كما عرفت المنطقة في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي هذه الكوارث، التي كان تأثيرها كبيرا على جميع الأصعدة، ومنها السياسية والاقتصادية، وكذلك على مستوى البنية السكانية. وبعد زلزال سنة 1157م وتدمير مدينة شيزر، أدرك نور الدين محمود ذلك بثاقب نظر وبادر بالقضاء على هذه الإمارة، وتوسيع نفوذه على حساب تلك المنطقة، علما أن هذه الإمارة قد أصابها الضعف قبل أن يصيبها الزلزال، وفي نفس الوقت ازداد طموحه في القضاء على أطماع الصليبيين والبيزنطيين في حماه وحمص وشيزر، والتوجه نحو مشروع الوحدة الإسلامية⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ الشارثري، المصدر السابق، ص.160.

⁽²⁾ انعقد هذا المجلس في 23 من شهر جانفي سنة 1120م في مدينة نابلس، في عهد الملك بولدوين الثاني (1118-1131م)، الذي كان قد بدأ يمارس سلطاته الملكية قبل انعقاد المجلس بعامين، وقد تزامن ذلك مع ظهور مشاكل عديدة، زادت من مسؤولياته كونه ملكا ومسؤولياته المتعلقة بالإمارات الصليبية الأخرى. ولقد كانت الأحوال الاقتصادية للمملكة في تदन مستمر، نتيجة لما تعرضت له مدة أربع سنوات من القحط، والذي سببته قلة الأمطار وغزو الجراد والفئران، بالإضافة إلى ما أحدثته الكوارث الطبيعية كالزلازل في الكيان الصليبي، وخاصة مملكة بيت المقدس من تدمير في سنوات 1114م، 1115، و1117م، وخاصة في السنة الأخيرة التي اجتمعت فيها أضرار الزلازل وغزوات الجراد والفئران. وبدأ النشاط الزراعي في المملكة يتراجع، بالإضافة إلى ما تعرض له الصليبيون من ضغط إسلامي. تضمنت قرارات المجلس، خمسة وعشرين قرارا، وقراراته الثلاثة الأولى لم تكن مجرد قرارات تكفير عن الخطايا، بل أنها مثل بقية القرارات والتي تلقي الضوء على أحوال المملكة الصليبية، كما أنها تحدد العلاقة بين الدولة والكنيسة، أي السلطتين الزمنية والدينية، وتوضح الظروف التي دفعت الملك إلى عقد هذا المجلس. للمزيد عن مجلس نابلس وقراراته، أنظر: حسين عطية، تشريعات...، ص.ص.231-261.

⁽³⁾ أنظر: Richard Jean, Agricultural Conditions In the Crusades States, In A History of the Crusades, Edit., Setton Kenneth (M), Vol.V, P.263.

⁽⁴⁾ محمد مؤنس أحمد عوض، الزلازل في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية 511-598هـ/1157-1202م، عين للدراسات والبحوث الإنسانية الاجتماعية، 1996، القاهرة، ص.ص.131-132.

وبشأن تلك الزلازل يورد ابن القلانسي خبر ذلك، حيث كانت ذات تأثير على شيزر وحماة وكفرطاب وأفامية، وكل ما جاورها وصولاً إلى مدينة حلب⁽¹⁾.

ولقد تجلت آثار الزلازل من خلال ما وقع للقلاع والحصون ببلاد الشام، بالنسبة للمسلمين والصليبيين، وخاصة الأخيرين كان حجم الأضرار التي لحقت بحصونهم كبيرة، نتيجة كثرتها وامتدادها على طول حدود مملكة بيت المقدس. علماً أن كثير من هذه القلاع والحصون كانت تحت تصرف الرهبان والهيئات الدينية العسكرية الأسبترارية والداوية. وطبعاً أن هذين الهيئتين قد اعتمدتا في قلاعهما على ممارسة النشاط الزراعي، وبالتالي تضرر ذلك من جراء التدمير والخراب الذي حل بها، بالإضافة إلى أن كثير من الفلاحين في مختلف المناطق الزراعية قد لاقوا حتفهم، وبالتالي كان له أثر سلبي على النشاط الزراعي، بل على باقي الأنشطة، وخاصة الصناعية والتجارية⁽²⁾.

ومن جانب رد فعل الصليبيين، وتعاملهم مع الكوارث الطبيعية، وخاصة الزلازل، فإنهم قاموا مرة أخرى بتأهيل المناطق المتضررة، بأن قاموا بإعادة بناء قلاعهم وحصونهم، حيث يقول ابن الأثير بشأن الزلزلة، التي ضربت مدن الشام وحصونها وقلاعها سنة 565هـ/1169م في الثاني عشر من شهر شوال" وأما بلاد الفرنج فإن الزلازل أيضاً عملت بها كذلك، فاشتغلوا بعمارة بلادهم، خوفاً عليها من نور الدين، فاشتغل كلُّ منهم بعمارة بلاده، خوفاً من الآخر"، يعني تضرر كل من الطرفين المسلمين والصليبيين، على حد سواء من هذه الزلازل⁽³⁾.

كما كان لقلة المطر وانقطاعه، أثراً على النشاط الزراعي، وبالتالي ندرة الأقوات وارتفاع الأسعار، وبشأن ذلك يقول ابن الأثير: "في هذه السنة (574هـ/1178م) انقطعت الأمطار بالكلية، في سائر البلاد الشامية، والجزيرة العراقية والديار البكرية والموصل، ... واشتد الغلاء، وكان عاماً في سائر البلاد، ...، واستسقى الناس في أقطار الأرض، فلم يُسقوا، وتعذرت الأقوات،

⁽¹⁾ المصدر السابق، ص.337.

⁽²⁾ محمد مؤنس أحمد عوض، الزلازل ...، ص.ص.134-135، 137.

⁽³⁾ المصدر السابق، مج.10، ص.24.

أكلت الناس الميتة، وما ناسبها ودام كذلك إلى آخر سنة خمس وسبعين⁽¹⁾، "وتبع الغلاء وباء شديد وكان مرض الناس شيئاً واحداً وهو سراسام⁽²⁾، فمات فيه من كل بلد أمم، لا يحصون كثرة، ثم إن الله تعالى رفعه عنهم، سنة ست وسبعين وخمسائة"⁽³⁾.

ولا شك أن لمثل هذه العوامل وقعها على النشاط الاقتصادي، خاصة وأن اليد العاملة البشرية هي محركه الأساسي. وأما بخصوص العوامل الأخرى، ومنها الصراعات السياسية والعسكرية وحتى الدينية، فقد كان لها وقعها هي الأخرى، وتأثيرها على الحياة، لاسيما الاقتصادية، ومنها ما تعلق بمملكة بيت المقدس، وحياسة الأراضي فيها التي تعد موطن ثروة وثراء للصليبيين، سواء كانوا رجالات علمانيين أو رجال دين. وقد سعى البابا في روما إلى حل النزاعات في مملكة بيت المقدس، ومنها النزاع بين الملك بولدوين الأول والبطيريك دايمبرت⁽⁴⁾.

وفي فترة حكم الملك بولدين الثاني، اعترضه اضطراب بين سنوات 1128م و1130م، بادعاءات البطيريك ستيفن Stephen، محاولاً إحياء سيادة البطيريكية، ورقابتها على الملك في مملكة بيت المقدس، لكن المشروع فشل بوفاة ستيفن، في حين انقاد وليم خليفته على البطيريكية إلى سياسات الملكية⁽⁵⁾.

كما كان هناك تأثير على الحياة الاقتصادية، نتيجة السياسة التي اتبعها الملك عموري الأول وتوسعاته على حساب مصر، حيث دعا إلى عقد اجتماع في مدينة نابلس لمواجهة ما يحدث من طوارئ ومستجدات، وما يحاك ضده من الخلافة العباسية، حيث حضر البطيريك والأساقفة، ورجال الدين، وغيرهم من البارونات، وذوو المكانة وغيرهم من أفراد المجتمع الصليبي، مبيناً لهم

⁽¹⁾ المصدر السابق، مج.10، ص.92.

⁽²⁾ السَّرْسَامُ: ورم في حجاب الدماغ، تُنتج عنه حُمى دائمة، تتبعها أعراض سيئة، كالسهر واختلاط الدهن. أنظر: المعجم الوسيط، ط.4، 2004، 1425هـ، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ص.427.

⁽³⁾ ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تح. عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة بالقاهرة، مكتبة المثنى ببغداد، (د.ت.ن)، ص.179.

⁽⁴⁾ البيشاي، الأملاك...، ص.197.

LA Monte, Feudal, op.cit., P.10.

⁽⁵⁾ أنظر:

الخطر المحدق بمملكة بيت المقدس، لذا وجب عليهم المساعدة، بأن يدفع كل منهم ضريبة، فُدِّرت بالعشر (10/1) من الأملاك العينية، فكان قراره موضع التنفيذ⁽¹⁾.

وعلى ما يبدو أنه بقدر ما كانت طموحات الملك عموري الأول، ستزيد من عمر المملكة، بقدر ما حملت في طيات ذلك الطموح، بذور فئائها العاجل، حيث يقول وليم السوري: "وهكذا وفي السنة الثالثة من حكم عموري، ابتلى الصليبيون بكثير من المصائب، وصارت المملكة كلها تعاني أشد الأخطار التي تهددها"، وسبب ذلك مرجعه إلى كثرة خطاياهم، حسب ما زعم المؤرخ والأسقف وليم السوري⁽²⁾.

ومن العوامل الخارجية، التي أثرت على الاقتصاد، وخاصة الزراعة، نجد حركة المد الإسلامي للضغط على مملكة بيت المقدس، ومنها اشتراك قوات مودود أمير الموصل وطغتكين صاحب دمشق، التي أحدثت ضررا بالمملكة، حيث "نهب المسلمون بلاد الفرنج بين عكا والقدس وخربوها، وقتلوا من ظفروا به من النصارى، وانقطعت المادة عنهم لبعدهم عن بلادهم"، وكان ذلك سنة 507هـ/1113م⁽³⁾.

وعلى ما يبدو أن مدينة بيت المقدس، والقرى التابعة لها تعرضت للتخريب والتدمير من جراء الهجومات المتكررة عليها، وبذلك تضررت الزراعة، فضلا عن مختلف المباني والحصون بالمملكة⁽⁴⁾.

كما قام العسقلانيون بالهجوم على المستوطنات الصليبية، ومنها مستوطنة "المحمرة"، وقاموا بقتل الكثير من سكانها، وأحدثوا تخريبا ودمارا بضواحي تلك المنطقة⁽⁵⁾، وكان ذلك سنة 1124م، وعندما داهم العسقلانيون مستوطنة البيرة Magna Mahumeria، لجأ الشيوخ والنساء والأطفال

⁽¹⁾ وليم السوري، المصدر السابق، ج.4، ص.40.

⁽²⁾ نفسه، ج.4، ص.38.

⁽³⁾ ابن الأثير، المصدر السابق، ج.9، ص.149.

⁽⁴⁾ الشارثري، المصدر السابق، ص.155-156.

⁽⁵⁾ وليم السوري، المصدر السابق، ج.3، ص.39.

إلى القلعة التي كانت قد بُنيت مؤخرا هناك⁽¹⁾.

علما أن هذه المستوطنة، كان موقعها استراتيجيا، إذ أنها تقع بين بيت المقدس ونابلس والقرى المحيطة بها، وبذلك كانت قلعة متقدمة لحماية المملكة، من جهة الشمال، فضلا على أنها مورد اقتصادي لإنتاج المحاصيل الزراعية، وكان يشرف عليها رجال الدين، الذين قاموا بتوطين الوافدين الأحرار من الغرب اللاتيني في البيرة، مقابل دفع ضريبة العشر لهؤلاء⁽²⁾.

وبذلك فأى هجوم يضر بالمحاصيل الزراعية، خاصة إذا كانت في فترة النضج والجني، ولا شك أن إستراتيجية الغزو، كانت تستهدف موارد العدو، وهذا حينما خرج صلاح الدين الأيوبي لجهاد الصليبيين، وقام بغارته على الرملة وعسقلان، كما قام بالهجوم على ريبض غزة، ثم عاد إلى القاهرة، وكان ذلك سنة 1170م/566هـ⁽³⁾.

وعلى ما يبدو أن وفاة الملك عموري الأول، قد كان إرھاصا لحدوث كارثة سقوط بيت المقدس سنة 1187م/583هـ، فبينما السلطان صلاح الدين يشرف على وحدة الصف الإسلامي، من مصر إلى ما وراء النهرين، حينها كان البيت الصليبي في بيت المقدس منقسما على نفسه، ويقود المملكة إلى السقوط نتيجة الأخطاء المرتكبة، إذ أنه بقصر مدة حكم الملكين، بولدوين الرابع والخامس، شهدت المملكة مشاحنات، وشقاق من أجل الوصاية على العرش، وبذلك كان جهدهم ضائعا، وغابت فيه الإستراتيجية فضلا عن ازدهار المدن الإيطالية الثلاث في المشرق والعمل لصالحها، وفشل الصليبيين في مشروعهم التوسعي على حساب مصر، كل ذلك انعكس على الحياة الاقتصادية بالمملكة⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ أنظر: Pringle Denys, Town defences in the crusades Kingdom of Jerusalem In the Medieval City Under Siege, edit., Ivy Corfis (A), Michael Wolfe, 1995, the Boydell Press, Woodbridge, U.K., P.72.

⁽²⁾ رياض مصطفى أحمد شاهين، حسام حلمي الآغا، المرجع السابق، ص.ص.85-86.

⁽³⁾ ابن واصل، المصدر السابق، ج.1، ص.198.

⁽⁴⁾ أنظر: Baldwin Marshal (W), The Decline and Fall of Jerusalem, 1174-1189, in A history of Crusades, Edit., Setton, PP.590-591.

وعليه فإن الضغط الإسلامي ازداد بعد وحدة الشام ومصر، تحت قيادة السلطان صلاح الدين الأيوبي، الذي بدأ يوجه غارات إلى عمق المملكة، ويظهر ذلك في هجومه على مدينة الناصرة، وبهذا لجأ سكانها إلى الاحتباء بكنيسة البشارة في المدينة سنة 1183م/578هـ، وكذلك أستعملت لتخزين الذخيرة في نكبة عام 1187م/583هـ⁽¹⁾.

ومن خلال تنامي وحدة الصف الإسلامي، ومواصلته للضغط على مملكة بيت المقدس، فضلا عن الصراعات الداخلية، وعدم كفاءة ملوك الصليبيين المتأخرين، يبدو أنه أثر تأثيرا كبيرا على الحياة السياسية والاقتصادية، وفقد الكيان الصليبي كثيرا من الأراضي الخصبة لصالح السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة 1187م/583هـ⁽²⁾.

كما أن تقلص أراضي الفرنجة في المدن الساحلية، ذات الزراعة النائية والمحدودة خلال معظم القرن الثالث عشر (السابع الهجري)، والتدمير المتكرر لهذه الأخيرة من قبل جيوش المماليك عام 1265 فصاعدا، أدى إلى انخفاض كبير في الاكتفاء الذاتي للصليبيين الذين أصبحوا يعتمدون بشكل متزايد على المواد الغذائية المستوردة من المناطق التي يحكمها المسلمون ومن الغرب⁽³⁾.

Pringle Denys, op.cit., P.72.

David Jacoby, op.cit., P.170.

Ibidem.

⁽¹⁾ أنظر:

⁽²⁾ أنظر:

⁽³⁾ أنظر:

الخاتمة

إن المحاولة التي قام بها الغرب اللاتيني في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي (نهاية القرن الخامس الهجري)، والتي تزعمتها البابوية بقيادة أوربان الثاني، قد جنت ثمارها تلك الجحافل من الجيوش الصليبية التي قادها الأمراء والفرسان، تحقيقاً لرغبة البابا باسترجاع المقدسات الدينية النصرانية في بلاد الشام، والتي عانت في نظرهم من سيطرة المسلمين عليها، من خلال ما تلقاه حجاج النصارى من سوء المعاملة، أثناء رحلتهم لأداء زيارتهم للأراضي المقدسة.

كانت هذه الحملة في اعتقاد اللاتين واجبا ضرورياً والزامياً لاسترجاع تلك المقدسات، ذلك ما صدر عنهم من ظاهر القول، لكن دوافع أخرى خفية حركت هذا الزحف العسكري الكاسح بتشجيع من الكنيسة، لتكون لها الأولوية في قيادة العالم المسيحي، خاصة وأن فعاليات المجتمع الأوربي باتت تسجل في تلك الفترة تناغماً وتلاحماً تحت ما عُرف باسم "سلام الرب"، حيث وُضعت السيوف في أعمادها، وخفت وطأة الحروب الإقطاعية، التي بلغت من الشدة والقسوة ما جعل الغرب اللاتيني ينعس في مشهد مأسوي من العنف والفوضى والاضطرابات.

ومن وراء دعوة الغرب اللاتيني لخوض غمار الحرب ضد المسلمين، دوافع شتى تأتي في المقام الأول سياسية، اقتصادية وأخرى اجتماعية، لأن الغرب اللاتيني كان يطمح في تأسيس كيانات صليبية ببلاد الشام، تمكنه من السيطرة على المقدرات الاقتصادية لهذه المنطقة، في ظل تواصل مستمر مع البلاد الأم وهي أوربا.

وعلى إثر نجاح الحملة الصليبية الأولى، بسط الأمراء والفرسان الصليبيون سيطرتهم على أجزاء واسعة من أراضي بلاد الشام، وقد زادت وتيرة هذا التمدد نتيجة تنافس الأمراء والفرسان فيما بينهم، وشكل ذلك كله، بداية لحركة استيطان صليبية مريرة العواقب، لتكون قاعدة لانطلاق آلة الاستغلال الاقتصادي وتفعيل دواليب النشاط التجاري المريح.

فبعد أن دانت بيت المقدس للصليبيين اتخذوها مقراً لحكمهم، وشرعوا بعدئذ في ممارسة الزراعة، من أجل توفير الحاجات الغذائية الضرورية للمجتمع الوافد، كما أنهم فتحوا باب الهجرة للعناصر الجديدة من أبناء الغرب اللاتيني لدعم وجودهم، لأن الصليبيين بعد استقرارهم أصبحوا يعانون من نقص في العنصر البشري، وكانت هذه الإستراتيجية لا تسعى إلى دعم وجودهم في المنطقة فحسب، بل لضمان الطاقة البشرية لخدمة الأرض.

ولم يلبث أن فعلوا الصناعات التي كانت قائمة بالمنطقة، لتوفير مختلف الحاجات الصناعية تلبية لرغبات المجتمع الصليبي، كصناعة الأسلحة ومنها السيوف، وصناعة النبيذ وهو مادة ضرورية لهم في حياتهم، كشراب على موائدهم فضلا عن حضوره في طقوسهم الدينية. ولم ينغلق الصليبيون على أنفسهم، بل انفتحوا على جيرانهم المسلمين، فتعاملوا معهم للاستفادة من منتجاتهم التي لا غنى عنها بالنسبة إليهم، وخاصة في بداية وجودهم بالمنطقة.

وقد أبدى الصليبيون منذ الوهلة الأولى، اهتماما بالغاً بما قد يدعم قدراتهم البحرية، لأنهم لم يتطلعوا إلى الاستيلاء على الساحل الشامي فقط، بل كانت نظرهم تصبو إلى ربط جسور مع الغرب اللاتيني لتنشيط تجارتهم البحرية، بما يضمن لهم مصالحهم الإستراتيجية وبناءً على هذا التصور، لم تجد مختلف المدن الإيطالية بدءاً من التسابق فيما بينها في سبيل نيل رضاء ملوك بيت المقدس، الذين أغدقوا عليهم المنح والامتيازات، مما فتح الباب على مصراعيه لترسيخ الوجود الإيطالي في الساحل الشامي.

وقد تجسدت هذه الحقيقة في الواقع، حيث انتشر التجار الإيطاليون بمساهماتهم الفعالة في دفع عجلة التجارة بالمملكة وبشقيها الداخلي والخارجي، ولم يلبث أن نالوا الصدارة وبرزوا في هذا النشاط، حتى أنهم نجحوا في احتواء عملية الاستيراد والتصدير التي جلبت لهم أرباحاً طائلة. وعلى ضوء ما سبق يمكن إبراز بعض النتائج، منها:

- أن الحملة الصليبية على بلاد الشام، كانت مشروعاً استيطانياً للغرب اللاتيني بالمنطقة، فالكنيسة استغلت الظروف السائدة آنذاك لتحريك هذه الحملة، ووجدت في الأمراء والفرسان أداة تنفذ بها مشروعها الديني، والاقتصادي، وعليه اندفعت السلطان الزمنية والدينية، تعملان سوياً كالجسد الواحد بدوافع دينية لتحقيق مآرب دنيوية صرفة.
- إن الغرب اللاتيني الذي عاش في ظل النظام الإقطاعي باعتباره مؤسسة شملت جميع مناحي الحياة السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية والدينية، لم يتوان قط في نقله إلى بلاد الشام وبمعالمه وآلياته وأدواته، وحرص الصليبيون على تطبيقه في أبعدهم وأعماق صورته،

وليس هذا فحسب، بل عمدوا إلى تطويره كي يتماشى ومتطلبات المجتمع الجديد، الذي يحيا في بيئة إسلامية معادية. وحتى يضمن الأمراء والسادة الصليبيون أسباب التماسك والبقاء، أبدعوا أمرا لم يكن مألوفا عند الغرب ويتجلى ذلك من خلال القانون الذي سنه الملك عموري الأول، حيث يقضي بتوسيع مجال التبعية مما يلزم كل شرائح المجتمع حتى أسفل الهرم الذي يمثله الأفيان على أداء يمين الولاء والطاعة للملك.

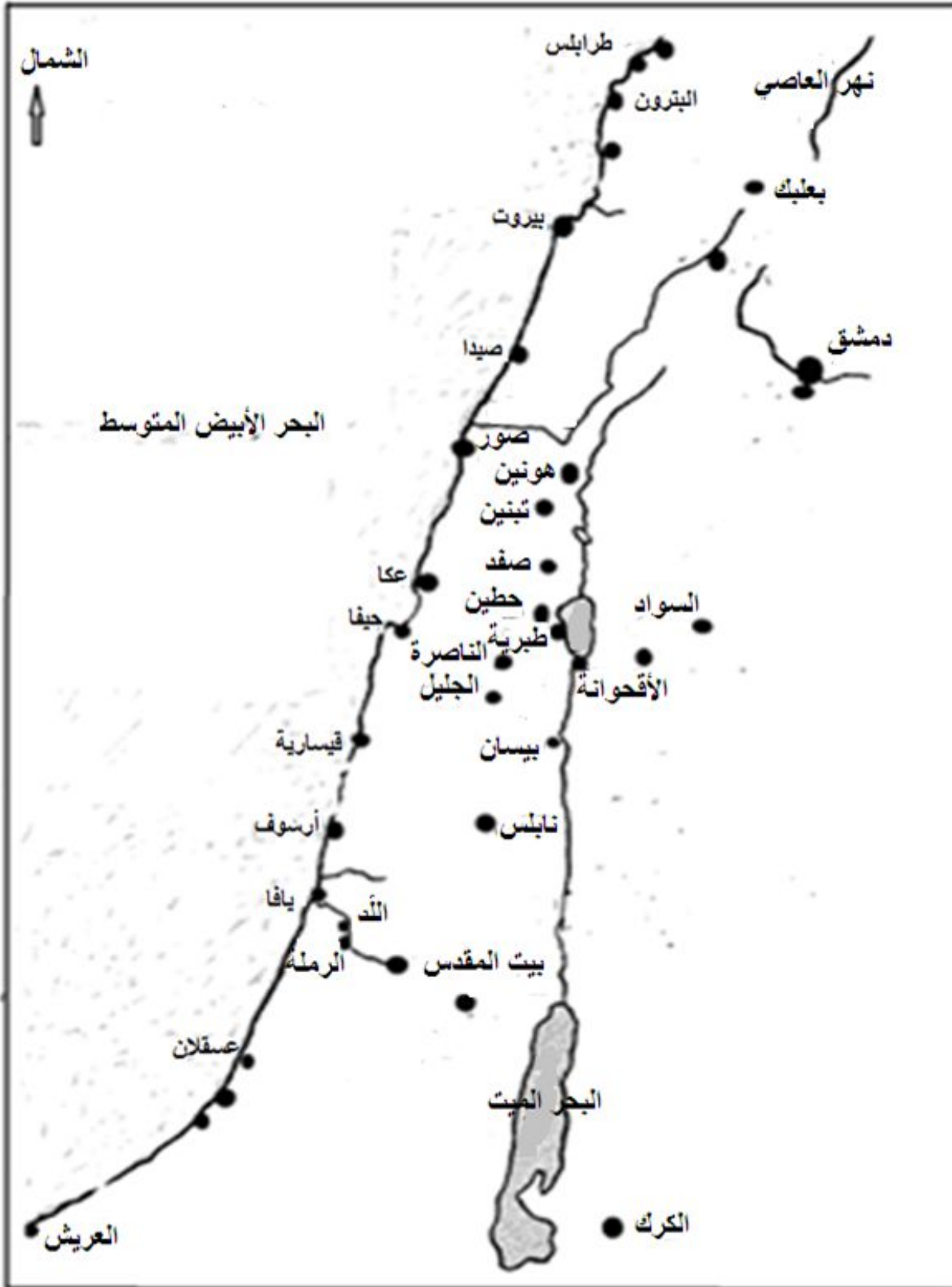
- أن الحركة الصليبية أنعشت الحياة الاقتصادية في بلاد الشام، وأصبحت بعض المزروعات المحلية كثيرة الرواج في المنطقة، كقصب السكر مثلا، مما دفع إلى تصدير بعض هذه المنتجات وهو ما ساهم فعلا في إثراء خزينة المملكة.
- ومما نتج كذلك عن استقرار الصليبيين في بلاد الشام، تنوع الحرف والصناعات، وتطوير هذا النشاط يعد مشروعا اقتصاديا، رهن عليه الصليبيون لسد مختلف حاجات المجتمع الجديد بالمملكة.
- لقد جذب الوجود الصليبي بالمنطقة أطماعا خارجية، وبخاصة المدن الإيطالية التي رأت في بلاد الشام مجالا مواتيا، لممارسة نشاطها التجاري بالساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، وسيمكن ذلك من تأسيس جسر عبور لتجارة مربحة للغاية تُثقل جوارها البضائع من مختلف الاتجاهات.
- شكلت التجارة الداخلية والخارجية عصب الحياة الاقتصادية لمملكة بيت المقدس، ومن ذلك لقيت عناية خاصة من لدن ملوكها، وعليه فإن الصليبيين لم يتأخروا عن الانخراط في إنشاء أكبر تجمع تجاري في سويتى، عند الجبهة الشمالية الشرقية لحدود المملكة وهو أشبه بسوق عالمية، يفد إليه التجار من شتى أصقاع العالم لعرض سلعهم المتنوعة، وتمكنت المملكة جراء هذه السياسة من تزويد المجتمع بالمنتجات الجديدة، وكذا التفاعل مع اقتصاديات الخارج.

- إن الوجود الصليبي نجح في تحقيق نظرية التكامل الاقتصادي، فيما بين الكيانات الصليبية، إذ سارت المدن بالمملكة وفق سياسة قامت على أساس تبادل السلع والمنتجات، فيما بينها تحقيقا للتكامل المحلي، وهذا نموذج فاعل وإيجابي في أي نظام اقتصادي.
- محاولة المملكة سد حاجاتها المختلفة، من داخل الأراضي التي تم السيطرة عليها، أي تحقيق الاكتفاء الذاتي بها.
- لقد حاول الكيان الصليبي التكيف مع الواقع المالي، الذي وجده ببلاد الشام فمراعاة لمصلحته تعامل مع العملة الإسلامية، باعتبارها وحدة نقدية سائدة في السوق العالمية وقتذاك، إلى حين تمكنهم من إدارة الاقتصاد، فضربوا عملة تميزهم عن غيرهم، عليها حروف وشعارات صليبية.
- غير أن هناك كثيرا من السلبيات، ربما كانت سببا في إرهاب المملكة الصليبية، وجعلها تعاني كثير من المشاكل ومنها:
- استيلاء المدن الإيطالية وخاصة جنوة والبندقية وبيزا، على التجارة الخارجية لمملكة بيت المقدس، وتمتعهم بالامتيازات، التي سمحت لهؤلاء بتثبيت إقدامهم في الشام، وتنافسهم فيما بينهم فانعكس سلبا على المملكة.
- المنح والهبات التي أُعطيت للكنايس والهيئات العسكرية، زاد من شهية هؤلاء في الكسب، وأصبحوا يقومون بشراء المزيد من الأراضي، وممارسة الأنشطة الاقتصادية، دون دفع الضرائب التي تشكل دعما ماليا للمملكة، كل ذلك زاد من ثراء رجال الدين، وأصبحوا ذووا نفوذ دون مراعاة ما تتطلبه المملكة من دعم مالي.
- بالرغم من أن للملك مكانته وهو الأول بين أقرانه، إلا أن تعدد أقطاب الإقطاع في مملكة بيت المقدس، من بارونات وغيرهم من رجال الدين، بل كل من له رغبة في الاستحواذ على ثروات المنطقة، وخاصة التي تتربع عليها مملكة بيت المقدس، جعل المملكة تعاني من تنافس هؤلاء فيما بينهم، لبسط النفوذ والسلطان.

وعليه يمكن أن نقول بأن الحملة الصليبية الأولى، لم تكون سوى مشروعاً استيطانياً للغرب اللاتيني في منطقة الشام، وبيت المقدس على الخصوص، والتي تزخر بخيراتها المتنوعة، كما أنها موقعا استراتيجيا يربط بين الشرق والغرب، وبهذا يستطيعون التحكم في حركة الصادر والوارد، بل يمكنهم أيضاً من صناعة قوى موازية ومنافسة للوجود الإسلامي بالمنطقة، بل أنهم يستطيعون ذلك حصون المدن الإسلامية، حتى لا تتمكن من إقامة وحدة متماسكة.

من خلال ما تطرقت إليه في بحثي، يمكن أن أتساءل هل الإقطاع الغربي الذي طبقه الصليبيون في بلاد الشام، وخاصة في بيت المقدس بمؤثرات شرقية كتجربة استيطانية، يمكن أن يصلح كمؤسسة سياسية اقتصادية تلبي حاجات المجتمع؟.

الملاحق



عن المرجع : طقوش محمد سهيل، المرجع السابق، ص.261.

الملحق(03): مقتطف من خطاب البابا أوربان الثاني في مجمع كليرمونت Clermont سنة 1095 م

في سنة 1095م تم عقد مجلس كبير في الغال في مقاطعة أوفيرني Auvergne ، في مدينة تسمى كليرمونت، ترأسه البابا أوربان الثاني، بصحبة الكرادلة والأساقفة. ولقد شهد هذا المجلس منافسة كبيرة بين الفرنسيين والألمان، سواء كانوا من الأساقفة أو الأمراء. فبعد تسوية الشؤون الكنسية، خرج البابا إلى مكان واسع، لأنه لا يمكن أن يحتوي أي مبنى على من جاء للاستماع إليه. ثم بلطف وبلاغة مقنعة، خاطب الجميع قائلاً: "الرجال الفرنسيون، رجال من وراء الجبال، أمم كما نراها تتألق بأعمالك، اختارها الله واعتز بها، وفضلها على شعوب العالم الأخرى، كلاهما بسبب الموقف من أراضيكم، إنه بالإيمان الكاثوليكي والشرف الذي تضيفهما على الكنيسة المقدسة. نوجه إليكم كلامنا، ونوجه إليكم تحياتنا: نحن نريد إطلاعك على السبب المؤلم الذي أوصلنا إلى بلادكم. وكيف اجتذبتنا رغباتك وأولئك المؤمنين، من حدود القدس ومدينة القسطنطينية أتت إلينا أخبار مخزنة.

إخواننا كثيرا ما تلقوا ضربات من "شعوب مملكة الفرس، "الأمة اللعينة"، أمة غريبة كلياً على الله... قد غزت هذه الأراضي "أرض المسيحيين، حطمتهم بالحديد"، نهب وأحرقت، وأخذ بعضهم أسيراً، ووضع الآخرون حتى الموت، وأطيح بهم من أسفل إلى أسفل، وجعلت كنائس الله تخدم احتفالات عبادته، هؤلاء الرجال يسقطون في المذابح، بعد التنكيل بهم، ويسفكون دماءهم، أولئك الذين يرغبون في تدميره يموت مخجل... ماذا أقول عن انتهاك أعراض النساء؟ سيكون من المؤسف أن أتحدث عن الأمر أكثر من الصمت... لقد قاموا بتمزيق الإمبراطورية اليونانية، واحتلوا مساحة لا يمكن عبورها خلال شهرين من السفر... إن لم يكن لك الذي منحه الرب على جميع الأمم الأخرى "شارة المجد؟... وعظمة الروح، "خفة الحركة في الجسم وقوة لخفض رؤوس" أولئك الذين يقامونك؟ دعوا قلوبكم تتحرك، ويجعل أرواحكم جريفة من أعمال أسلافكم، فضيلة وعظمة الملك شارلمان Charlemagne وابنه لويس Louis ، وملوك الآخرون، الذين دمروا هيمنة الأتراك ومددت في بلادهم إمبراطورية الكنيسة المقدسة. نأمل قبل كل شيء لصالح قبر يسوع المسيح، منقذنا، والذي يمتلكه الجنس الخسيس، والأماكن المقدسة الأخرى التي يدنسونها وينجسونها.

أيها الفرسان الشجعان، الأجيال القادمة، خرجوا من آباء لا يقهرون، لا تتراجع، ولكن تذكروا فضائل أسلافكم، إذا كنت تشعر بالضيق بسبب حب أطفالك الأعمى، من أتباعك، هل تتذكر ما يقوله الرب في إنجيله؟: "من يحب أبيه وأمه أكثر مني أنا، لا يستحقني" من ترك "منزله أو إخوته" أو أخواته أو والده أو والدته أو زوجته أو "أطفاله أو أراضييه، سيحصلون على مائة ضعف"، وسيحصلون على ميراث الحياة الأبدية.

لا تنزعج من أي اهتمام بملكاتك وشؤون عائلتك، لأن هذه الأرض التي تسكنها، والمحاطة بمياه البحر ومرتفعات الجبال، تقتصر على نطاق ضيق للسكان، لا تكثر بها الثروات، ونادراً ما توفر الغذاء لأولئك الذين يزرعونها، ومن ثم، فأنت تمزق نفسك وتلتهمها، وتثير الحروب... أطفئوا كل الكراهية بينكم،... ودعوا الحروب تهدأ، واجعل كل مرارة انشقاقاتك تنام. قبل الدخول إلى طريق القبر المقدس، وتحرير هذا البلد من أيدي هذه الأمم البغيضة، وإضافته إلى قوتك.

لقد أعطى الله إسرائيل ملكية هذه الأرض، التي يقول فيها الكتاب المقدس "تدر الحليب والعسل"، القدس هي المركز، "إن أراضيها، الخصبية قبل كل شيء، تقدم، إذا جاز التعبير، مسرات جنة أخرى" مخلص الجنس البشري الذي أوضحه "بقدمه"، تم تكريمه من قبل محل إقامته، ... "

هذه المدينة الملكية، التي تقع في وسط العالم، والتي أصبحت الآن أسيرة لأعدائها، تحولت إلى عبودية الأمم الجاهلة بقانون الله. لذلك

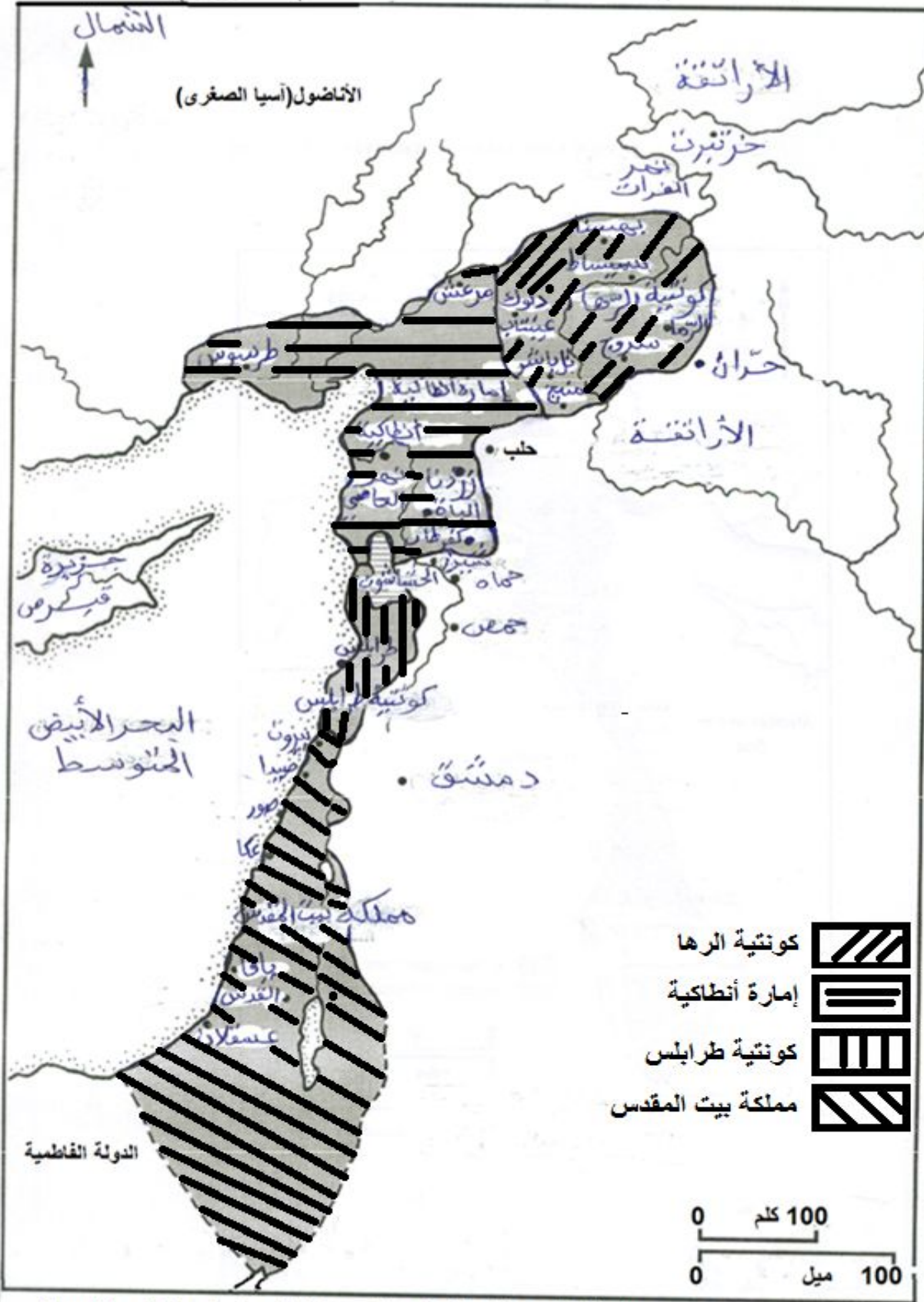
فهي تطلب منك وتمنى خلاصها، ولا تتوقف أبدا عن المطالبة بأن تأتي لإنقاذها. إنها في الغالب تتوقع منك المساعدة، لأنه كما أخبرناك، لقد منحك الله، قبل كل شيء "الشارة الجيدة". خذ هذا الطريق.... من الجهد الذي ينتظرك في مملكة السماوات.

بعد أن ألقى البابا أوربان هذا الخطاب المليء بالمدنية والعاطفة،...، توحد شعور الحاضرين وهتفوا جميعا بصوت عال "الله يريد ذلك، الله يريد ذلك" ... بعد سماع حبر روما الموقر. شكر الله ورفع عينيه إلى السماء طالبا الطمأنينة قائلا:

"أيها الإخوة الأعزاء، استمتعت في هوسكم اليوم بما قاله الرب في إنجيله: عندما يتم تجمع اثنين أو ثلاثة باسمي، سأكون في وسطهم، لأنه إذا كان الرب الإله لا يحرم في نفوسكم، فلن تنطق بنفس الكلمة، وبالرغم من أن هذه الكلمة مأخوذة من عدد كبير من الأفواه، فإنها لا تأتي بنفس المبدأ،... وبصوت واحد ردد الحاضرون "الله يريد ذلك، الله يريد ذلك".

نحن لا نعطي أو ننصح لا للمسنين ولا للضعفاء، ولا لأولئك الذين ليسوا مؤيدين للأسلحة، إن هذا الطريق لا تسلكه نساء بلا رجال،... بالنسبة لهؤلاء الأشخاص، يشكلون إحراجا وليس مساعدة، ويصبحون أكثر اعتمادا على النفع، اسمح للأثرياء بمساعدة الفقراء،...، الرجال يصلحون للحرب، لا يجوز للكهنة أو مهما كان وضعهم،...، دون إذن أسقفهم،...، لأنهم إذا ذهبوا إلى هناك بدون هذه الإجازة، فلن تكون الرحلة أكثر حكمة بالنسبة لهم،... وليست مباركة"... كل من لديه الإرادة لاتخاذ هذا الحج المقدس، وسوف يلتزم بالله، وسيكرس نفسه للتضحية،... مقدس ومقبول... أنه يرتدي علامة صليب الرب على جبينه أو على صدره،... "الرب، الذي علم في كتابه الإنجيل: "من لا يأخذ صليبه ولا يتبعني فلا يستحقني".

للمزيد من التفاصيل عن الخطاب البابوي، أنظر: Robert le Moine, op.cit., PP.301-313

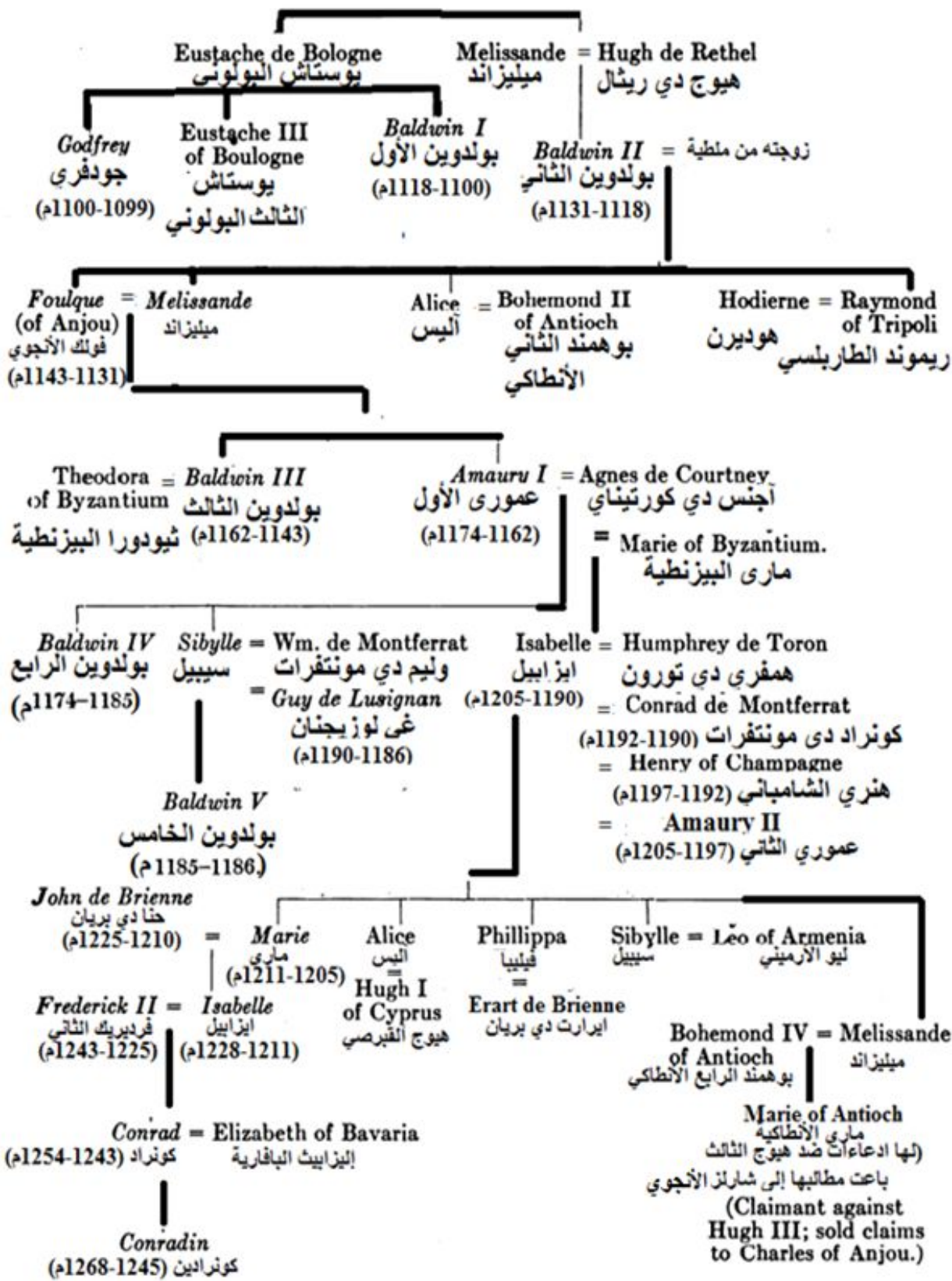


Yuval Noah Harari, Special Operation In The Age Of Chivalry : عن المرجع : 1100-1550, The Boydell Press-Woodbridge, U.K., 2007, p.75.

الملحق رقم(05): مخطط مدينة بيت المقدس في فترة حكم ملوك الصليبيين



الملحق رقم 06: شجرة نسب ملوك مملكة بيت المقدس في عهد ها الأول



عن المرجع بتصريف: LA Monte (J), op.cit., P.249.

الملحق رقم 07: أسماء الضباط وفترة حكمهم في مملكة بيت المقدس الصليبية

- I- شينيشال Seneschals
- 1- هيوغ دي سانت أومير في فترة حكم بولدوين الأول Hugh de St.Omer
 - 2- جيرفاز Gervas (1104م)
 - 3- هيوغو شوستارد Hugo Chostard (1112م)
 - 4- أنشاريوس 1122 Anscherius م؟ يبدو أنه سينيشالا من خلال منحة الملك بولدوين الثاني في يافا، وقد لا يكون سينيشال للمملكة. في منحة بولدوين في الفترة نفسها يبدو أنشاريوس موستيريولو Mosteriolo بدون لقب.
 - 5- إسحاق Isaac (1149م)
 - 6- يوحنا John (1151م)
 - 7- غي لو فرانكواز Guy le Francois (1164م).
 - 8- ميلز دو بلانسي Miles de Planci (1168-1171م).
 - 9- رالف Ralph (1176م).
 - 10- جوسلين الثالث كونت الرها Josclin III (1176-1190م).
 - 11- اوبيرتوس نيبوس Obertus Nepus (1187-1192م) تحت حكم كونراد دو منتيفرات قد يكون فقط لشخصه).
- II- كونستابل Constables
- 1- سيمون Simon (1108-1115م)
 - 2- هيوغ كوليز Hugh Colis (1120م).
 - 3- يوستاش جيرنيي Eustache Grenier (1123م).
 - 4- وليم بيروس William de Buris (1123م)، وربما حتى سنة 1141م، حيث كان لا يزال على قيد الحياة.
 - 5- موناساس Monasses (1144-1151م).
 - 6- همفري دي تورون Hamphrey de Toron (1152-1179م).
 - 7- عموري دي لوزيجنان Amaury du Lusignan (1181-1194م)، 1197م.
- III- مارشال Marshals
- 1- سادو Sado (1125-1154م).
 - 2- أودز دو سان أموند Eudes de St. Amand (1155-1156م) (تخلى عن المارشالية من أجل فيسكونية بيت المقدس قبل سنة 1160م).

- 3- جوسلين الثالث كونت الرها Joscelyn III (1156-1159م).
- 4- وليام William (1159-1171م).
- 5- جيرارد دي بوجي Gerard de Pugi (1169-1174م)، وكذلك برتبة شامبرلين Chamberlain سنة 1174م.
- 6- جون أوننت John ant (1179م).
- 7- جيرارد دي ريدفورت Gerard de Ridfort (1179م).
- 8- والت ردي روس Walter durus (1185-1192م). تحت فترة حكم كونراد دي مونتيفرات لبيت المقدس.

IV- بيتلر Butlers

- 1- وينري Winrie تحت حكم الملك جودفري Godfrey.
- 2- جيرفيز Gervis (1107م).
- 3- باجانوس Paganus (1120-1136م).
- 4- روبرت كريسبين Robert Crispin (1145-1146م).
- 5- أودز دي سان أموند Eudes de St.amand (1164-1167م).
- 6- ميلز Miles (1185-1186م).

V- شمبرلين Chamberlains

- 1- سترابيلون Strabulon شمبرلين شخصي للدوق جودفري حاكم بيت المقدس.
- 2- جيرارد Gerard (1108-1115م).
- 3- جون John (1119-1128م).
- 4- رالف Ralph (1129-1130م).
- 5- جون John (1136-1138م).
- 6- جوسلين Joscelyn (1138م).
- 7- ميلز Miles (1138م).
- 8- نيشولاس Nicholas (1150-1152م).
- 9- جوفين دي لاروش Gauvin de la Roche (1156م).
- 10- جيرارد دي بوجي Gerad de Pugi (1169م)، (هناك إشارات كثيرة أخرى للمنح في السنوات 1161-1179م انه بدون لقب).
- 11- عموري دي لوزيجنان Amaury de lusignan (1175-1178م).
- 12- جون أوننت John ante (1179م).
- 13- ريموند Raymond (1184م).

- 14 باليان دي بليين أف جافا Balian d'Iblin of Jaffa (1183-1185م).
- VI شانسلا ر Chancellor
- 1 أرنول Arnoul رئيس شمامسة القبر المقدس تحت حكم الملك بولدوين الأول.
- 2 باجانوس Paganus (1115-1128م).
- 3 أملينوس Amelinus (Hemelin) (1130م).
- 4 فرانكو Franco (1133-1135م).
- 5 هيلياس Helias (1136-1142م).
- 6 رالف Ralph أسقف بيت لحم (1146-1174م).
- 7 وليام William أسقف صور (1174-1183م).
- 8 باندينوس Bandinus (1188-1192م) مستشار كونراد دي مونتيفرات.

عن المرجع: LA Monte (J), op.cit., PP.252-256.

الملحق رقم (08): خدمات السرجندية، التي تقدمها المؤسسات الكنسية والبورجوازيون، إلى مملكة بيت المقدس الصليبية.

عدد السرجندية	المؤسسات الكنسية والبورجوازيون
5	بطريركية بيت المقدس
5	كنيسة القبر المقدس
150	دير القديسة مريم
150	كنيسة جبل صهيون
50	جبل الزيتون
50	مقدم الاستبارية
50	البورجوازيون اللاتين
100	أسقفية طبرية
100	مقدم دير جبل طابور
500	مدينة بيت المقدس
500	مدينة عكا
100	مدينة صور
300	مدينة نابلس
50	مدينة قيسارية
200	أسقفية بيت لحم
150	الرملة وإبلين
200	أسقفية القديس جورج في اللد
50	أرسوف
100	أسقفية سبسطية
150	أسقفية عكا
50	أسقفية الخليل
150	أسقفية صور
150	أسقفية الناصرة

50	أسقفية قرية دير سويث
50	أسقفية قيسارية
150	عسقلان
100	يافا
100	ليون
25	غزة
50	حيفا
200	طبرية

للمزيد من التفاصيل عن الخدمات الحربية للسرجنديّة، أنظر، الطحاوي حاتم، الاقتصاد، ص.ص. 240-241.

الملحق رقم (09): عدد الفرسان المقدمين لخدمة ملك بيت المقدس من طرف الأمراء والنبلاء

إمارة الجليل	100 فارس
إمارة الكرك والشوبك	40 فارس
إقطاعية الخليل	20 فارس
بارونية صيدا وقلعة بوفورت (الشقيف أرنون)	60 فارس
قيسارية	25 فارس
كونتية يافا وعسقلان	50 فارس
الرملة ومجدل يابا وبينه Ibelin	50 فارس
إقطاعية جوسلين	إقطاعية جورج الصغيرة: 24 فارس قلعة الملك : 04 فرسان بعض المقاطعات الواقعة في المنطقة: 10 فرسان
إقطاعية بيروت	21 فارس
أسقفية اللد والرملة	10 فرسان
رئاسة أسقفية الناصرة	06 فرسان
مدن التاج:	نابلس: 85 فارس، حيث: فيسكونت نابلس يقدم 10: فرسان، بينما سيد إقطاعية نابلس يقدم: 15 فارسا، وأما الباقي: 60 فارسا يقدمهم النبلاء. عكا: 80 فارس بيت المقدس: 61 فارس صور: 28 فارس الداروم: 02 فارس

للمزيد من المعلومات عن خدمات الفرسان، أنظر: البيشواوي عبد الله سعيد، الأملاك الكنسية...، ص.ص. 73-74.

الحقل الثاني	الحقل الأول	الفصل	السنة
نباتات بقولية / محروث بدون زراعة	محاصيل شتوية	الشتاء	السنة الأولى
محروث بدون زراعة / محاصيل صيفية	محروث بدون زراعة	الربيع / الصيف	
محاصيل شتوية	نباتات بقولية / محروث بدون زراعة	الشتاء	السنة الثانية
محروث بدون زراعة	محروث بدون زراعة / محاصيل صيفية	الربيع / الصيف	

عن المرجع: الطحاوي حاتم، الاقتصاد...، ص.200؛ براور يوشع، الاستيطان...، ص.444.

الملحق رقم 11 : دنانير صليبية (مملكة بيت المقدس)



الظهر: يوروشاليم (قلعة داود)

الوجه: الملك بولدوين

دينار صليبي ضرب في عهد بولدوين الثالث سنة 1152م



الظهر: يوروشاليم (داخل القبر المقدس)

الوجه: الملك أمالريك

دينار صليبي ضرب في عهد عموري (أمالريك) الأول سنة 1163-1164م

عن المرجع: Barber Malcolm, The Crusader States ..., Plates, N:11.

الملحق رقم(12): حق امتلاك محاكم خاصة وسك العملة في الاقطاعات التابعة لمملكة بيت المقدس

- في بداية الاستيطان الصليبي، كان ملك بيت المقدس، هو السيد الأول في المملكة، حيث يرأس المحكمة العليا وحقه في سك العملة. لكن على ما يبدو فيما بعد، أصبح للبارونات حق إنشاء محكمة، وسك العملة.
- في بيت المقدس توجد محكمة بورجوازية. - في مدينة نابلس كانت هناك محكمة بورجوازية
- كان لكونت يافا وعسقلان محكمة بورجوازية وحق سك العملة. - وجود محكمة بورجوازية في كل من مدينتي يافا وعسقلان.
- وجود محكمة لسيد الرملة الإقطاعي وحق سك العملة. - في إقطاع الرملة كانت هناك محكمة بورجوازية.
- لسيد إقطاع بينه محكمة بالإقطاع، بالإضافة إلى حق سك العملة. - وجود محكمة بورجوازية في إقطاع بينه.
- وجود محكمة بورجوازية في إقطاع طبرية. - وجود محكمة إقطاعية لأمير الجليل وحق سك العملة.
- توجد محكمة بورجوازية في إقطاع صافيتا التابع لأمير الجليل. - حظي سيد إقطاع شقيف أرنون، ودير سويث بوجود محكمة بالإقطاع وحق سك العملة.

- لسيد إقطاع قيسارية محكمة بالإقطاع وحق سك العملة. - وجود محكمة بورجوازية في إقطاع قيسارية.
- لسيد إقطاع بيسان محكمة، بالإضافة إلى حق سك العملة. - وجود محكمة بورجوازية في إقطاع بيسان.
- كان لسيد إقطاع الكرك والشوبك محكمة وحق سك العملة في الشوبك، بالإضافة إلى وجود محكمة بورجوازية.
- وجود محكمة بورجوازية في الكرك. - وجود محكمة لسيد إقطاع الخليل، وحق سك العملة.
- وجود محكمة بورجوازية في إقطاع الخليل. - وجود محكمة في إقطاع بيت لحم.
- وجود محكمة بورجوازية في إقطاع أريحا. - في إقطاع بيت جبريل محكمة بورجوازية.
- لسيد إقطاع تل الصافية محكمة بالإقطاع، وحق سك العملة. - في إقطاع غزة كان هناك محكمة بورجوازية.
- للسيد الإقطاعي (أسقف كنيسة القديس جورج)، باللد محكمة بالإقطاع، وحق سك العملة.
- وجود محكمة بورجوازية في إقطاع اللد. - للسيد الإقطاعي بأرسوف محكمة، وحق سك العملة.
- وجود محكمة بورجوازية في أرسوف. - في إقطاع كنيسة القديس يوحنا في سبسطية، كانت هناك محكمة بورجوازية.
- توجد محكمة بورجوازية في ميرل. - في إقطاع عثليت، توجد محكمة بورجوازية.
- وجود محكمة لسيد إقطاع حيفا، وحق سك العملة. - في إقطاع حيفا كانت هناك محكمة بورجوازية.
- لسيد إقطاع القيمون محكمة، وحق سك العملة. - وجود محكمة بورجوازية في إقطاع القيمون.
- لرئيس أساقفة الناصرة محكمة في إقطاعه، بالإضافة إلى حق سك العملة.
- وجود محكمة بورجوازية في الناصرة.
- في الاقطاعات التابعة للكونت جوسلين كانت، كانت هناك محكمة، بالإضافة إلى حق سك العملة، كما توجد محكمة في بحر التابع له.
- لسيد الاسكندرونه محكمة، وحق سك العملة، كما كانت في إقطاع القرية محكمة بورجوازية.
- لسيد إقطاع صور محكمة، وحق سك العملة، كما كانت هناك محكمة بورجوازية.
- حظي سيد تورون بمحكمة في إقطاعه، وحق سك العملة، كما كانت هناك محكمة بورجوازية.
- في إقطاع بانياس توجد محكمة، وحق سك العملة، كما كانت توجد محكمة بورجوازية.
- لسيد إقطاع الصبية محكمة، وحق سك العملة، كما كانت به محكمة بورجوازية.
- في إقطاع قلعة هونين محكمة بورجوازية.
- لسيد بيروت محكمة بإقطاعه، وحق سك العملة، كما كانت هناك محكمة بورجوازية.

للمزيد من المعلومات عن الاقطاعات التي تمتلك محاكم وحق سك العملة بمملكة بيت المقدس، أنظر: الطحاوي، حاتم، الاقتصاد،

ص.ص. 242-244.

الملحق رقم (13): الموائيق والمعاهدات المبرمة بين المدن الإيطالية والبروفنسالية ومملكة بيت المقدس

I- البندقية Venice :

- جوان 1100م: جودفري البويوني يمنح البنادقة الحرية في التجارة في مملكة بيت المقدس، مع وجود كنيسة وسوق في كل مدينة، وتلت كل مدينة يساعده على فتحها مستقبلا، وكذلك طرابلس عند أخذها، في مقابل ذلك دفع لتكريم الدوق.
- 1101-1114م: بولدوين الأول يؤكد ما منح للبنادقة سابقا.
- 1111م: بولدوين الأول يمنحهم حي في عكا.
- 1123م: (اتفاقية وارموند)، حيث قام البطريرك و وليم بيروس وكيل المملكة(كونستابل)، وفي غياب الملك بولدوين الثاني ووجوده بالمعتقل في حلب عقدوا المعاهدة مع دومينيكو ميخائيلي، بواسطتها يتلقى البنادقة ثلث مل من مدينتي صور وعسقلان بعد أخذهما وحي كبير في بيت المقدس مثلما عقد من قبل الملك. وكذلك أراضي وايراداتها في عكا وكل مدن المملكة، وإلى جانب ذلك الإعفاء من ضرائب البيع والشراء في موانئ وأسواق المملكة.
- مايو 1125م: الملك الثاني يؤكد الاتفاقية السابقة، مع تعديلات طفيفة، حيث يصبح البنادقة مجبرين على تأدية الخدمة العسكرية في الأراضي المقيمين فيها في مدينة صور.
- أوت 1164م: ميثاق فيتاليس ميخائيلي Vitais Michieli يمنح كنيسة سان ماركا إيرادات 300 مارك في السنة والتي منحت من قبل الملك بولدوين الثاني والتي صادرها الملك فولك. بشرط إذا كان يمكن استرداد العائد، فإنه يجب أن يرجع إلى الكنيسة.
- جوان 1175م: ميثاق سيبياستيان زباني Sebastian Ziani يمنح سان مارك، حق تملك البادقة في صور.

II- جنوة: Genoa :

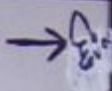
- 1101م: بولدين الأول يمنح الجنويين ثلث كل ما ساهموا في الاستيلاء عليه.
- 1104م: بولدوين الأول يمنح الإعفاء من الضرائب: ثلث أرسوف وقيسارية وعكا، ومهما كانت المدن التي يقطنها معا: ثلث عائدات ميناء عكا وشارع في بيت المقدس ويافا، بالإضافة إلى عائدات 300 بيزنت.
- 1105م: بولدوين الأول يؤكد كل ما سبق من المنح للجنوية في بيت المقدس وأنطاكية وعكا واللاذقية وطرطوس وجبيل وقيسارية وأرسوف وسان سيمون(ميناء السويدية). كما أخذ بولوين يمين الولاء من الجنوية.
- 1154م: منحة القنصل الجنوي هيوج ونيشولاس أمبرياكو Nicholas Embriaco حق تملك الجنوية في عكا، وعلى إيجار لمدة 29 سنة مقابل 1000 دينار سنويا.
- 1155-1186م: رسائل من البابوات أدريان الرابع Adrian IV (1155) و ألكسندر الثالث Alexander III (1167) وأوربان الثالث Urban III (1186م) إلى ملوك بيت المقدس : بولدوين الثالث وعموري الأول وبولدوين الخامس والكنسيين والنبلاء وكبار الشخصيات، يطالبونهم باستعادة الامتيازات الممنوحة للجنوية.
- جويلية 1187م: بارونات المحكمة العليا في بيت المقدس، يمنحون للجنوية حرية التجارة وملكية الأراضي ومحكمة في صور.

III- بيضا Pisa :

- البيازنة استقروا في يافا، عندما منح الدوق جودفري جزء من المدينة للبطريرك دايبرت Daimbert والذي كان في السابق رئيس أساقفة بيضا.
- 1111-1131م: بولدوين الثاني يمنح البيازنة خمسة منازل في صور.
- نوفمبر 1156م: بولدوين الثاني يؤكد منحة بولدوين الثاني، ويمنحهم محكمة في صور.
- جوان 1157م: عموري كونت يافا وعسقلان يمنح نصف حقوقه في يافا للبيازنة.
- 1165م: عموري الأول يمنحهم الأراضي في صور.
- 1168م: عموري الأول يمنحهم الأراضي ومحكمة في عكا، في حالة مساعدته في حصار الإسكندرية.
- سبتمبر 1169م: عموري الأول يمنحهم حرية التجارة في مصر ومحاكم في كل الأحياء في حالة السيطرة عليها.
- أوت 1182م: بولدوين الرابع يمنحهم الأراضي في عكا.
- أكتوبر 1187م: كونراد دي مونتيفرات يؤكد منحة ريموند الطرابلسي، بخصوص الأراضي الممنوحة لهم في صور.

- أكتوبر 1187م: كونراد يمنحهم امتيازات في عكا ويافا في حالة استردادها.
- IV مرسيليا و مونتبليي Marseille and Montpellier
- 1117م: بولدوين الأول يمنح امتيازات لمرسيليا.
- أبريل 1136م: فولك وميليزاند يؤكدون الإمتيازات والمنح 400 بيزنت من عائدات يافا.
- سبتمبر 1152م: بولدوين الثالث يمنح هم كنيسة وحي في بيت المقدس وحرية الضرائب في المدن البحرية مقابل 3000 بيزنت.
- 1163م: رالف Ralph أسقف بيت لحم يمنحهم منزل في عكا وقرية مقابل 1211 بيزنت.
- أكتوبر 1187م: كونراد دي مونتيفرات يمنح التجارة والأسواق ومحكمة في صور لكل من مرسيليا ومونتبليي وبرشلونة Barcelona.

عن المرجع: La Monte., op.cit., PP. 261-262, 264, 269, 272.



الملاحق رقم (14): طرق التجارة البرية والبحرية الموزنية إلى بلاد الشام



عن المرجع (بتصرف): للمزيد عن هذه الطرق، أنظر: نعيم زكي فهمي، المرجع السابق، ص.ص. 118، 124، 154؛ أنظر أيضا: الحويري، المرجع السابق، ص.ص. 121-124؛ جمال الدين سرور، المرجع السابق، ص. 150.

الملحق رقم 15:

نسبة الرسوم المفروضة على بعض السلع والبضائع (1)

25%	-سمك مملح مستورد من مصر - سمك مملح للتصدير -خزف للتصدير -بصل للتصدير - خشب زيتون* - سفرجل - اجاص -تفاح
24%	-فواكه
20%	* زيتون
15%	- عرقسوس (بضاعة سورية)
14%	-فواكه
12.5%	- جلد الماعز
12%	- عرقسوس (بضاعة افريقية)
11.2%	- الفلفل - الشب -البخور -سكر نباتي - تمر - جذور الكافور - شمع العسل - دجاج مصدر صوف*
11%	زيت السمسم
10%	- حرير

نسبة الرسوم المفروضة على بعض السلع والبضائع (2)

10.75%	- قطن * قرقة * صوف .
10%	- دجاج الهند - سمس - القمح - أحذيو تباع للمسلمين - دجاج ووز مستورد - جلد الحصان - ثوم وبصل - جبن مستورد .
9.33%	- قرنفل - الكافور
8.33%	- الطيب (العود) - الكتان - عبير المسك - زيت - قماش من القطن - العاج - اللوز - الجوز - الخروب - السهام والأقواس .
7.33%	- ألبسة مخيطة
5%	- سكر - ألبسة حريرية مطرزة .
4.16%	- الخزامية (من الأعشاب الطيبة) * قرقة - الزنجبيل - نبيذ سوري عن طريق البحر - التين المجفف
رسوم أخرى	- Alcana - (18 كروبل عن نصف الكيس) - نبيذ الجليل 12 درهم للحمولة - حمولة جمل من السكر 4 بيزنت - حمولة من السكر من السكر واحد رابون - ملح مباح للمسلمين 4 درهم - قمح مستورد غير مخصص للبيع 6 درهم - عنب مصدر حمولة جمل 2 Sous - التين 3 درهم - الخروب 4 درهم لحمولة جمل .

* تعني البضائع المذكورة مرتين في التعريفات الجمركية.

1 كروبل = Caroubles = 24/1 من البيزنت .

1 Sous = 8/1 من البيزنت الذهبي .

أنظر: **Richard Jean, op.cit., P331.**

وللمزيد عن التعريفات الجمركية، التي تحصلها جمارك عكا، في القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري)، أنظر: الطحاوي، الاقتصاد...، ص.ص. 245-251.

قائمة المصادر

والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

-القرآن الكريم

أ- المصادر العربية والمعربة :

- ابن الأثير: أبو الحسن عز الدين علي بن محمد بن عبد الكريم(ت.630هـ/1233م).
الكمال في التاريخ، تحقيق، أبو الفداء عبد الله القاضي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى1987.
- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تح. عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة بالقاهرة، مكتبة المثنى ببغداد، (د.ت.ن).

- ابن الأخوة القرشي: محمد بن محمد بن أحمد بن أبي زيد(ت. 729هـ / 1329م).
معالم القرية في أحكام الحسبة، تحقيق محمد محمد شعبان، صديق أحمد عيسى المطيعي، 1976، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- ابن بطوطة: أبو عبد الله محمد بن عبد الله(ت.779هـ/1377م).
رحلة ابن بطوطة المسماة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المطبعة الخيرية، 1322هـ/1904، (د.ب.ن).

- ابن البيبي: ناصر الدين يحيى بن محمد(ت.684هـ/1285م).
تاريخ سلاجقة الروم، دراسة وترجمة، محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة العربية، القاهرة، (د.ت.ن).

- الإدريسي: أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس(560هـ/1165م).
نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، 2002، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

- أسامة بن منقذ: مؤيد الدولة أبي مظفر أسامة بن مرشد الكنانى الشيزري(ت.583/1188م).
الاعتبار، تحرير فيليب حتي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، دون تاريخ طبعة.

- الأصفهاني: عماد الدين محمد البنداري (ت. 643هـ/1245م).
دولة آل سلجوق، شركة طبع الكتب العربية، مصر، 1900.

- الأنطاكي: يحيى بن سعيد بن يحيى(ت.458هـ/1067م).
تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتياخا، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، جروس برس، طرابلس، لبنان، 1990.

ينهارد: (القرن 8م)

- سيرة شارلمان، ترجمة: عادل زيتون، 1989، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق.

- البغدادى، محمد بن طاهر(429هـ/1038م).
الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، تحقيق، محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 1995.

الترمذي، أبي عيسى محمد بن عيسى (ت.279هـ/892م)

- الجامع الكبير (سنن الترمذي)، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، 1996، بيروت، لبنان، مج.2.

التطيلي بنيامين (ت.569هـ/1173م).

- رحلة بنيامين التطيلي 1165-1173م، ت. عزرا حداد، دراسة وتقديم، عبد الرحمن عبد الله الشيخ، ط.6، 2002، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة.

الثعالبي: أبو منصور عبد الملك النيسابوري (القرن 5هـ/11م).

- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تج. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، (د.ب.ن).

ثيودريش الرحالة الألماني (القرن 6هـ/12م).

- وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، القرن 12م/6هـ، ت. سعيد عبد الله البيشاوي، رياض شاهين، 2003، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.

ابن جبير: أبو الحسين محمد بن أحمد بن الكنائي (ت.614هـ/1217م).

- الرحلة، دار صادر، بيروت، دون تاريخ طبعة.

ابن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت.597هـ/1201م).

- المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق، محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1992.

الحراني محمد بن شعبة (القرن 4هـ).

- كتاب الأصبغر، تحقيق، رواء جمال علي، (د.د.ن)، 2016.

الحريري: أحمد بن علي بن المغربي (توفي حوالي سنة 926هـ/1520م).

- الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاحيين من ديار المسلمين، ت.سهيل زكار، مكتبة الملاح، 1981.

الحسيني: صدر الدين أبي الحسن علي بن أبي الفوارس ناصر

- أخبار الدولة السلجوقية، تصحيح، محمد إقبال، لاهور، 1933.

الحنبلي مجير الدين (ت.928هـ/1522م).

- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق، محمود عودة الكعابنة، 1999، مكتبة دنديس، عمان، الأردن، مج.2.

ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد (ت.808هـ/1406م).

- تاريخ ابن خلدون المسمي العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الفكر، بيروت، 2001.

ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد (ت.681هـ/1283م).

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء أهل الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1994.

دانيال الراهب، الحاج الروسي:

- وصف الأرض المقدسة في فلسطين (1106-1107م)، تر. سعيد عبد الله البيشاوي، داود إسماعيل أبو هذبة، 2003، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.

الدمشقي: جعفر بن علي (القرن 6هـ/12م).

- الإشارة إلى محاسن التجارة وغشوش المدلسين فيها، تقديم وتعليق، محمود الأرنؤوط، 1999، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت.

الدمشقي: شيخ الربوة (ت.728هـ/1327م).

- نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، تصحيح، أغشطس بن يحي المدعو مهرن، مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية، بطربورغ، 1865م/1281هـ.

ابن طاهر المقدسي(ت. 355هـ/966م):

- كتاب البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، ج.4، (دب)، (دط).

ابن العبري: غريغوريوس أبو الفرج بن هارون الملطي (ت. 685هـ/1286م).

- تاريخ مختصر الدول، تصحيح. أنطوني صالحاني اليسوعي، ط.2، 1994، دار الرائد اللبناني، بيروت.

ابن العديم: كمال الدين عمر بن أحمد(ت.660هـ/1261م).

- زبدة الحلب في تاريخ حلب، الجزء الأول، تحقيق سهيل زكار، دار الكتاب العربي، دمشق، 1997، والجزء الثاني، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، 1954.

- بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، دون تاريخ الطبعة.

أبو الفداء: عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر (ت.732هـ/1331م).

- تقويم البلدان، تصحيح.رينود، ماك كوكين ديسلان، دار الطباعة السلطانية، 1840، باريس.

الفارقي: أحمد بن يوسف بن علي (القرن 6هـ/12م).

- تاريخ الفارقي(الدولة المروانية)، تحقيق بدوي عبد اللطيف عوض، وزارة الثقافة، القاهرة، 1959.

فوشيه الشارترتي (القرن 6هـ/12م).

- تاريخ الرحلة إلى القدس، ت. زياد جميل العسلي، دار الشروق، عمان، الأردن، 1990.

الفيتري يعقوب: (القرن 12-13م/6-7هـ).

- تاريخ بيت المقدس، ت. سعيد البيشاوي، 1998، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.

فيتلوس: (القرن 6هـ/12م).

- وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، حوالي 1130م/525هـ، ترجمة سعيد عبد الله البيشاوي، فؤاد عبد الرحيم دويكات، 2011، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر

والتوزيع، إربد، عمان، الأردن.

القزويني زكريا بن محمد (القرن 7هـ/13م).

- القزويني زكرياء بن محمد، آثار البلاد وأخبار العباد، (د.ت.ن)، دار صادر، بيروت.

ابن القلانسي: أبو يعلى حمزة (555هـ/1160م).

- ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1908.

القلقشندي: أبو العباس احمد بن علي (ت. 821هـ/1418م).

- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922.

الشهرستاني: أبو الفتح محمد عبد الكريم (ت. 548هـ/1154م).

- الملل والنحل، تعليق، احمد فهمي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1992.

الماوردي: ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري (ت. 450هـ/1058م).

- الماوردي، الحاوي الكبير، تح. محمود مطرجي، ج. 4، دار الفكر، 1994.

- الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق أحمد مبارك البغدادى، 1989، مكتبة دار ابن قتيبة، الكويت.

مؤرخ مجهول:

- أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة، حسن حبشي، دار الفكر العربي، 1958.

مؤرخ مجهول:

- تنمة كتاب وليم الصوري المنسوب خطأ إلى روثلان (1229-1261م)، ت. أسامة زكي زيد، دار المصطفى للطباعة، طنطا، مصر، الطبعة الثانية، 2001.

المقدسي: شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد (ت. 390هـ/999م).

- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار صادر، بيروت، 1906.

المقدسي ابن قدامة (ت. 620هـ/1223م).

- المغني، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، عبد الفتاح محمد الحلوة، ط. 3، 1997،

دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، ج. 7.

المقريزي: تقي الدين احمد علي (ت. 845هـ/1441م)

- اتعاظ الحنفا في أخبار الأئمة الفاطميين الحنفا، ت. محمد حلمي، المجلس الإسلامي الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1996.

- السلوك لمعرفة دول الملوك، ت. محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997.

المقري الفيومي: أحمد بن محمد بن علي (ت. 770هـ/1368م)

- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، تحقيق عبد العظيم الشناوي، ط. 2، (د.ت.ط)، دار المعارف، الإسكندرية.

ناصر خسرو(ت.480هـ/1088م).

- سفرنامه، تر. يحيى الخشاب، الهيئة العامة المصرية للكتاب، مصر، 1993.

النويري: شهاب الدين (ت.733هـ/1333م).

- نهاية الأرب في فنون الأدب، تح. علي بوملحم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج.8.

ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم(ت.697هـ/1298م).

- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، الإدارة العامة للثقافة، القاهرة، (د.ت).

وليم الصوري (ت. 580هـ/1185م).

- الحروب الصليبية، ترجمة، حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1991.

ياقوت الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله(ت.622هـ/1225م).

- معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977.

اليونيني: قطب الدين موسى بن محمد(ت.726هـ/1326م).

- ذيل مرآة الزمان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند، الطبعة الأولى، 1954.

ب- المصادر الأجنبية:

Albert D'Aix:

- Histoire des Faits et Gestes dan les Régions d'outre-mer, traduction de Guizot(M),dans collection des mémoires relatifs AL' histoire de France, depuis la fondation de la monarchie Française Jusqu'au 13e siècle.,T.,I et II, Imp. de A. Belin, Paris,1824.

Anna Comnena:

- Alexiad, Translated by Elizabeth Dawes, Byzantine Series, Parentheses Publication,Cambridge, Ontario, 2000.

Anonymous Pilgrims, I-VIII. : (11th and 12th centuries.), Trans. By Aubrey Stewart , in : Palestine Pilgrims' text Society, Vol.VI , (1100-1421 A.D.), 24 Hanover Square, W. London, 1894, Vol.V.

Assises de Jérusalem, Pub, Le Comte Beugnot (M), dans, Recueil des historiens des croisades Recueil des ouvrages de Jurisprudence, T.1, Assises de la Haute Cour, Imp.Royale, Paris, 1841.

Cartulaire de L'église du Saint Sépulcre de Jérusalem, Publiée D'Après

les Manuscrits Du Vatican, Par De Rozière Eugène.(M, Imp.Nat., Paris, M DCCC XLIX(1849).

Casola

-Casola's Pilgrimage to Jerusalem, Margaret, M, Newett,B.A, Manchester, University Press, 1907.

Ernoul:

- Chronique D'Ernoul et Bernard de Trésorier, Traduction, Le Comte,De Mas-Latrie, Imp. De A. Gouverneur, Paris,1871.

Fabri Felix

- the book of the wandering of Brother Felix Fabri, Trans., Aubrey Stewart, M.A, Vol.II, Part, I, in, P.P.S.T., London,1893.

Guibert de Nogent:

- Histoire des Croisades, traduction de Guizot(M),dans collection des mémoires relatifs AL' histoire de France, depuis la fondation de la monarchie Française Jusqu'au 13^e siècle , Imp. de A. Belin, Paris,1825.

John of Ibelin, Le liver des Assises, Edit. Peter Edbury, In: The Medieval Mediterranean, Peoples, Economies and cultures (400-1500), Edit., Kennedy Hugh, Magdalino Paul and others, Brill, Leiden, Boston, Vol.50, 2003.

Matthieu D'edesse:

- Chronique Matthieu D'Edesse(936-1162), Traduction, Edouad Delaurier, Meaux.- Imp. A. Carro, Paris,1858.

Pegolotti Francesco Balducci:

- La Pratica Della Mercatura, Ed. Allan Evans, Medieval Academy of America, Publication No.24, Cambridge, Mass. 1936.

Raimond D'Agiles:

- Histoire des Franc qui ont pris Jérusalem ,traduction de Guizot(M),dans collection des mémoires relatifs A L'histoire de France, depuis la fondation de la monarchie Française Jusqu'au 13^e siècle, Imp.de A. Belin, Paris,1824.

Raoul De Caen:

- Histoire de Tancrede, traduction de Guizot(M), dans collection des mémoires relatifs AL' histoire de France, Imp. De Lebel, Paris, 1825.

Robert Le Moine:

- Histoire de La Première Croisade, traduction de Guizot(M), dans collection des mémoires relatifs AL' histoire de France, depuis la fondation de la monarchie Française Jusqu'au 13^e siècle, Imp. De Lebel, Paris, 1825.

ج- المراجع العربية والمعربة:

أحمد محمود شفيق جاسر:

- القدس تحت الحكم الصليبي ودور صلاح الدين في تحريرها 1099م-1244م، ط.1، 1989، عمان، الأردن.

الآغا حلمي حسام:

- الأوضاع الاجتماعية في فلسطين زمن الحروب الصليبية 1099-1291، رسالة ماجستير، إشراف، أ.د. رياض مصطفى شاهين، (غير منشورة)، الجامعة الإسلامية، غزة، 2007م / 1428هـ.

اسمت غنيم:

- دراسات في تاريخ إمبراطورية نيقية البيزنطية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1991.

بوس أدريان:

- مدينة بيت المقدس زمن الحروب الصليبية، ت.علي السيد علي، 2010، المركز القومي للترجمة، القاهرة.

باركر أرنست:

- الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، ط.2، دار النهضة العربية، بيروت، (د.ط.).

براور يوشع:

- عالم الصليبيين، ترجمة، قاسم عبده قاسم، محمد خليفة حسن، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 1999.
- الاستيطان الصليبي في فلسطين "مملكة بيت المقدس اللاتينية"، ترجمة عبد الحافظ عبد الخالق البنا، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2001.

بدوي عبد الرحمن:

- مذاهب الإسلاميين، دار العلم للملايين- بيروت، 1997.

بالار ميشال:

- الحملات الصليبية والشرق اللاتيني من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر، ت. بشير السباعي، 2003، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة.

تاووضروس عبيد اسحاق:

- الفرسان والأقنان في مجتمع الإقطاع، الطبعة الثانية، 1975، مطبعة دار الكتب، بيروت، لبنان.

جمعة محمد علي:

- المكايل والموازن الشرعية، ط.2، 2001، القدس للإعلان والنشر والتسويق، القاهرة.

الجندي جمعة:

- الاستيطان الصليبي في فلسطين 492هـ-690هـ/1099م-1291م، ط.1، 2006، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

جوزيف نسيم يوسف:

- العدوان الصليبي على بلاد الشام، دار الكتب الجامعية، الإسكندرية، 1971.
- الوحدة وحركات اليقظة العربية إبان العدوان الصليبي دار النهضة العربية، بيروت، 1981.

جوناثان رايلي سميث :

- الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، ت. محمد فتحي الشاعر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الثانية، 1999.

حامد زيان غانم:

- الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية، دار الثقافة للنشر، 1983، (د.ب.ن).

حسن عبد الوهاب حسين:

- تاريخ جماعة التوتون في الأراضي المقدسة 1190-1291م، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، 1989.

حلاق حسان:

- العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى (الأندلس-صقلية-الشام)، دار النهضة العربية، بيروت، 2012.

حسين محمد عطية :

- إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون 1171-1268، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1989.

- تشريعات الصليبيين دراسات في قوانين أنطاكية ومملكة بيت المقدس الصليبية، دار المعرفة

الجامعية، الإسكندرية، 2012.

الحويري محمد محمود:

- الأوضاع الحضارية في بلاد الشام خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر عصر الحروب الصليبية، دار المعارف، القاهرة، 1979.

الدباغ مصطفى مراد:

- بلادنا فلسطين، دار الهدى كفر قرع، 1991، ج.8، ق.2.

الدمشقي الإسكندراني محمد بن أحمد:

- كشف الأسرار النورانية القرآنية فيما يتعلق بالأجرام السماوية والأرضية والحيوانات والنباتات والجواهر المعدنية، اعتنى به أحمد فريد المزيدي، (د.ب.ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج.2.

دي طرازي فيليب:

- عصر السريان الذهبي، 2012، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة.

رنسيما ستيفن:

- تاريخ الحملات الصليبية، ترجمة نور الدين خليل، (ج.2، ج.3).
- تاريخ الحروب الصليبية، ت.الباز العريني، ط.3، 1993، (د.د.ن)، ج.1.

زابوروف ميخائيل:

- الصليبيون في الشرق، ت. إلياس شاهين، 1986، دار التقدم، موسكو.

زبيدة عطا:

- بلاد الترك في العصور الوسطى، دار الفكر العربي، د.ط.

الطحاوي حاتم عبد الرحمن:

- الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1999.

طرخان علي ابراهيم:

- النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1968.

طقوش محمد سهيل:

- تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، دار النفائس، بيروت، 2009.

الصاوي أحمد السيد:

- مجاعات مصر الفاطمية، دار التضامن، بيروت، 1988.

صفاء عثمان محمد:

- مملكة بيت المقدس في عهد بولدوين الثاني، دار العالم العربي، 2008.

عادل زيتون:

- العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار دمشق، 1980.

عبد الله سعيد البيشاوي:

- الأملاك الكنسية في بيت المقدس الصليبية 1099-1291م/492-690هـ، دار الشيماء للنشر والتوزيع 2012، رام الله، فلسطين.

- إقطاعية نابلس في عصر الحروب الصليبية 1099-1291م/492-690هـ، ط.2، 2014، دار الشيماء للنشر والتوزيع، رام الله، فلسطين.

عارف باشا العارف:

- تاريخ القدس، ط.2، (د.ب.ن)، دار المعارف، الإسكندرية.

عاشور سعيد عبد الفتاح:

- الحركة الصليبية (جزءان)، ج.1، الطبعة الثانية، 1971، مكتبة الأنجلو المصرية، وج.2، الطبعة الأولى، 1963، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

- أضواء جديدة على الحروب الصليبية، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1964.

- بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، جامعة بيروت العربية، 1977.

- أوربا العصور الوسطى، النظم والحضارة، 1959، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

- المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، 1992، دار النهضة العربية، القاهرة.

عبد الباقي أحمد:

- معالم الحضارة العربية في القرن الثالث الهجري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1991.

عبد العظيم محمد :

- السلاجقة: تاريخهم السياسي والعسكري، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2001.

العجمي نها عوض:

- الحملات الصليبية على مصر وبلاد الشام (494-690هـ/1095-1291م)، التمويل والإمداد، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2015.

العروسي المطوي:

- الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي، ط.2، 1982.

عصام الدين عبد الرؤوف:

- بلاد الجزيرة في أواخر العصر العباسي، دار الفكر العربيين القاهرة، (د.ب.ن).

- الدول المستقلة في المشرق الإسلامي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1999.

علي بن صالح المحميد :

- الدانشمنديون وجهادهم في بلاد الأناضول، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1994.

علية عبد السميع الجنزوري:

- إمارة الرها الصليبية، الهيئة العامة المصرية للكتاب، 2001.

علي محمد كرد:

- كتاب خطط الشام، مطبعة الترقى، دمشق، 1345هـ/1926م. ج.4.

علي السيد علي:

- العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصلبيين، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 1996.

عوض أحمد محمد مؤنس:

- الحروب الصليبية، العلاقات بين الشرق والغرب في القرنين 12 و13م، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 1999-2000، القاهرة.
- السياسة الداخلية والخارجية للدولة النورية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 1998.
- تاريخ الصليبيات، الصراع العالمي في العصور الوسطى، دار العالم العربي، 2012، القاهرة.
- الزلازل في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية 511-598هـ/1157-1202م، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 1996، القاهرة.
- الحروب الصليبية، حركة الاستعمار الأوربي في العصور الوسطى، دار الآفاق العربية، 2014، القاهرة.
- معجم أعلام عصر الحروب الصليبية في الشرق والغرب، 2015، مكتبة الآداب، القاهرة.

الغنائي جاسر علي:

- فتح صلاح الدين الأيوبي لبيت المقدس بين السياسة والحرب، 2012، أمواج للنشر والتوزيع، عمان، الأردن

غروسية رنيه:

- موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، أحمد إبيش، ط.1، 2014، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي.

فرج عبد العزيز وسام:

- بيزنطة، قراءة في التاريخ السياسي والإداري، 2004، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة.

فرشوخ محمد عبد الحفيظ:

- مملكة قبرص اللاتينية بين الشرق الإسلامي والغرب الأوربي "تكملة الحروب الصليبية" (588-895هـ/1192-1489م)، 2012، (د.د.ن)، بيروت، لبنان.

فوري ألان:

- النظم الرهبانية العسكرية 1120-1512م، في تاريخ أكسفورد للحروب الصليبية، تحرير رايلي سميت، ترجمة قاسم عبده قاسم، 2009، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ج.2.

فهيم زكي نعيم:

- طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، أواخر العصور الوسطى، (د.ت.ن)،

(د.ب.ن).

قاسم عبد القاسم:

- الحملة الصليبية نصوص ووثائق، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2001.

- ماهية الحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 1993.

القوصي عطية:

- تاريخ الدول المستقلة في المشرق عن الخلافة العباسية، مكتبة دار النهضة العربية، 1992-1993م، (د.ب.ن).

الساحلي عبد السلام نعيمة:

- الاستيطان الفرنجي وتأثيره في البيئة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للكيانات الصليبية في فلسطين والساحل الشامي، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، 1430/2009هـ، دمشق، سوريا.

سامعي إسماعيل:

- معالم الحضارة العربية الإسلامية، ط.2، 2017، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

سرور جمال الدين:

- تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق من عهد نفوذ الأتراك إلى منتصف القرن الخامس الهجري، دار الفكر العربي، (د.ب.ن)، القاهرة.

سميل، ر.س:

- فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر 1097-1193م، ت.محمد وليد الجلاذ، مركز الدراسات العسكرية، دمشق، 1985.

سوريال عطية:

-العلاقات بين الشرق والغرب، تجارية ثقافية صليبية، تر. فيليب صابر سيف، دار الثقافة، القاهرة، 1972،

الشامي أحمد:

- تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، القاهرة، 1985.

شحاتة محمد أميرة:

- دور الفرسان في مملكة بيت المقدس، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2017.

الشعراوي أحمد إبراهيم:

الإقطاع وأوربا في العصور الوسطى، 1970، المطبعة العالمية، القاهرة.

الشيخ مرسي محمد:

- الممالك الجرمانية في أوربا في العصور الوسطى، 1975، دار الكتب الجامعية، دار بور سعيد للطباعة، الإسكندرية.

كانتور نورمان:

- التاريخ الوسيط قصة حضارة البداية والنهاية، ت. قاسم عبده قاسم، ط.5، 1997، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ج.1، القاهرة.

كوبلاند (ج.و)، فينوجرادوف(ب):

- الإقطاع والعصور الوسطى، ترجمة محمد مصطفى زيادة، ط.3، 1985، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

كونستابل أوليفيا ريمي:

- إسكان الغريب في العالم المتوسطي، تعريب، محمد الطاهر المنصوري، السكن والتجارة والرحلة، في أواخر العصر القديم والعصر الوسيط، دار المدار الإسلامي، 2013، بيروت، لبنان.

الكناني محمود مصطفى حسن:

- العلاقات بين جنوة والفاطميين في الشرق الأدنى 1095-1171م/488-567هـ، الهيئة العامة المصرية للكتاب، 1981، القاهرة.

لوبون جوستاف:

- حضارة العرب، ت. عادل زعيتير، 2012، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة.

ماير(تش.!):

- الحملات الصليبية، ترجمة محمد فتحي الشاعر، دار الأمين، القاهرة، ج.1، 1999.

متز آدم:

- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، تعريب، محمد عبد الهادي أبو ريده، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (د.ت.ن).

محمد بيومي مهران :

- بلاد الشام(مصر والشرق الأدنى القديم)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1990.

محمد جمعة علي:

- المكابيل والموازن الشرعية، ط.2، 2001، القدس للإعلان والنشر والتوزيع، القاهرة.

محمد عبد العظيم :

- السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2001.

محمد فوزي رحيل:

- قانون التأمين على خيل الحرب في مملكة بيت المقدس الصليبية، في الحروب الصليبية، حركة الاستعمار الأوربي في العصور الوسطى، تح. محمد مؤنس عوض،

2014، دار الأفاق العربية، القاهرة.

محمود سعيد عمران :

- القادة الصليبيون الأسرى في أيدي المسلمين 1100-1137، دار النهضة العربية، بيروت 1986.
- تاريخ الحروب الصليبية، 1095-1291، دار المعرفة الجامعية، 2000.
- معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، (د.ت.ن)، دار المعرفة الجامعية، القاهرة.

محمود السيد هنادي:

- حركة الحج إلى مملكة بيت المقدس الصليبية في القرنين 12 و13 ميلادي، دار الأفاق العربية، القاهرة، 2013.

مسفر بن عريج :

- الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي قبل قيام الدولة الأيوبية، دار المطبوعات الحديثة جدة، 1986.

النبراوي محمد رأفت:

- النفود الصليبية في الشام ومصر، مكتبة القاهرة للكتاب، القاهرة، 2004.

نبيلة مقامي إبراهيم :

- فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام القرنين 12 و13، مطبعة جامعة القاهرة، 1994.

نهى فتحي الجوهري:

- إمارة طرابلس الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادي، دار العالم العربي، 2088.

هايد وليم :

- تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى ترجمة احمد محمد رضا الهيئة العامة المصرية للكتاب (4 أجزاء).

يوسف عبد الخالق عبد الحافظ:

- أسواق الشام في عصر الحروب الصليبية، 2007، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة.

د- المراجع الأجنبية:

Asbridge Thomas(S):

- the Creation of the Principality of Antioch 1098-1130, the Boydell Press, Woodbridge, 2000, U.K.

Archer.T.A, Charles.Kingsford.L

- The Crusades, the story of the latin kingdom of Jerusalem, New

York.1894.

Boas Aderian(J):

- Jerusalem In The Time of The Crusades, Routledge, London,2005.
- Archaeologie of the military orders, Routledge, New York, 2006.
- Domestic Settings, Sources domestic architectures and day to day activities in, the crusader states in the medieval Mediterranean, Peoples, economies and cultures,400-1500, Vol.84, Edit., Hugh Kennedy, Brill, Leiden, Boston,2010.

Baldwin Marshal(W)

- The Latin states under Baldwin III and Amalric I, 1143-1174, In A history of crusades, Gen.Edit., Setton Mayer, Vol.I , 1969, The University of Wisconsin Press, London.
- The Decline and Fall of Jerusalem, 1174-1189, in A history of Crusades, Edit., Setton Mayer, Vol.I, Sed. Ed., 1969, The University of Wisconsin Press, London.

Barber Malcolm:

- The Crusader States,Yale University Press, New Haven and London,2012.

Bland (A.E), B.A :

- The Normans in England 1066-1154, G.Bell And Sons, 3rd Edition, . 1921, London.

Bloch Marc:

- Feudal Society,Rowtledge, London,New York,Taylor,Francis, e- Librairy,2004. Vol.I.

Boissonnade (P) :

- Life and work in Medieval Europe, Routledge, London, N.Y. 2011.

Burgtorf Jochen:

- the central convent of hospitallers and templars, (1099/1120-1310), Brill, Leiden, Boston, 2008.

Cahen Claude:

- La Syrie du Nord A L'Époque des Croisades et La Principauté Franque D'Antioche, Librairie Orientaliste Paul Geuthner, Paris,

1940.

Cartledge Bryan :

- The will to Survive , A history of Hungary, Hurst and Company, London, 2011.

Christopher Kleinhenz

- Medieval Italy, An Encyclopedia, Routledge, London, 2004.

Conder Claude Reignier:

- The Latin Kingdom of Jerusalem 1099-1291, Hanover-Square, London, 1897.
- The City of Jerusalem, Hazel Warsob, Viny L.D. London, Aylesbury, 1909.

Crouch David :

- Normans, the history of a dynasty, London, 2007.

De La Ville Le Roulx:

- Les Hospitaliers en Terre Saint et A Chypre 1100-1310,Paris.

Dutailis Charles Petit:

- The Feudal Monarchy in the France and England from the tenth to the thirteenth century, Harper and Row, Publishers, N.Y, Evanston.

Edgar John George:

- Danes, Saxons, and Normans, or, Stories our Ancestors, S.O., Beeton, 248, Strand, London, 1863.

Elisabeth Van Houts:

- The Normans In Europe, Manchester University Press,U.K.,2000.

Ellenblum:

- Frankish rural settlement in the Latin kingdom of Jerusalem, Cambridge University Press, U.K., 1998 .

Gatheyrias(J.A):

- L'Arménie Et Les Arméniens, Librairie Léopold Cerf, Paris,1882.

Grousset René :

- L'Épopée des Croisades, Librairie Académique Perrin, Paris, 1995.

G.B. De La Gréze :

- Les Normands Dans les deux mondes, Imp. De L'institut, Rue Jacob, 56, Paris, 1890.

Haskins Charles Homer:

- The Normans in European history, Boston, N.Y.1915.

Herbert Heaton:

- Economic history of Europe, harper, New York, 1948.

Holmes urban Tignor

- life Among the Europeans in Palestine and Syria in the twelfth and thirteenth centuries, in A history of crusades, edited by Setton Kenneth(M), Vol.IV, the university of Winsconsin Press, U.S.A., 1977.

Jacoby David:

- Medieval Trade in the Eastern Mediterranean an Beyond, Rouledge, 2018, N.Y.

Jamieson Alan(G):

- Faith And Sward, Reaktion Books, London, U.K.,2006.

Jonathan Riley Smith :

- The Feudal Nobility and The Kingdom of Jerusalem 1174-1277, Published by Palgrave Macmillan, N.Y.1974.

Jostischky Andrew:

- - Crusading and the crusader states, Routledge, London, New York, 2013.

kennedy Huge:

- Crusader Castels, Cambridge, University Press, U.K., 1994.

Kleinhenz Christopher:

- Medieval Italy, An Encyclopedia, Routledge, London, 2004

LA Monte John:

- Feudal Monarchy in The Latin Kingdom of Jerusalem 1100-1291, Combridge,Massachusets,U.S.A.,1932.

Mackay(A) and Ditchburn(D):

- Atlas of Medieval Europe, Routledge, London,1997.

Malloy Alex (G), Irene Fraley Briston, (A.J). Seltmen,

- Coins of the Crusader States (1098-1291), Attic Books, L.T.D., N.Y.1994.

Michael Pain:

- The Crusades, Travelgar-Square, U.S.A., 2005.

Michaud François Joseph:

- Histoire de La Première Croisade, New York, Mac-Milan, Company, 1897.

Marwan Nader:

- Burgesses and Burgess Law in The Latin Kingdoms of Jerusalem and Cuprus 1099-1325, Ashgate, Great Britain, 2006.

Nau Frnçois:

- les arabes chritiens de mésopotamie et de syrie du VII au VIII siecle, etude sue les origine de l'islam, dans le cahiers de la société asiatique, Premiere série, N.1, Imp. National, Paris 1933.

Pal Engel:

- A history of Medieval Hungary (895-1526), the Realm of ST. Stephen, Translate, Tamas Palosfalvi, English, E^d. Edit., Andrew Ayton, I.B, Tauris Publishers, London, N.Y., 2001.

Pirene Henri:

- Medieval Cities Their Origins and the Revival of Trade, Princeton University Press, Princeton, U.S.A., 4^ed., 1946.
- Economic and Social History of Medieval Europe, New York, U.S.A., 1937.

Pringle Denys.

- Town defences in the crusades Kingdom of Jerusalem In the Medieval City Under Siege, edit., Ivy Corfis (A), Michael Wolfe, 1995, the Boydell Press, Woodbridge, U.K.

Purton Peter:

- A History of the Early Medieval Siege 450-1200, the Boydell Press, Woodbridge, U.K., 2009.

Rasamond Mckitterick:

- History and memory in the Carolingian world, Cambridge University Press, 2004.

Rey Emmanuel Guillaume:

- Les Colonies Franques de Syrie a 12-13 Siècles, Librairie des Archives National, Paris, 1883.

Richard Alfred:

- Histoire des Comtes de Poitou 778-1204, Paris, 1903.

Richard Jean

- The Political and ecclesiastical organization of the crusader states, In, A history of the Crusades, the impact of the Crusades on the Near East, Gen. Edit, Setton Kenneth. (M)., 1985, the university of Wisconsin press, V.5.
- Agricultural Conditions In the Crusades States, In A History of the Crusades, Edit., Setton Kenneth (M), Vol.V.

Riley Smith Jonathan:

- Government in Latin Syria and the commercial Privileges of foreign Marchants, In Relations between East and West in the Middle ages, Edit, Derek Beker, University Press, Edinburgh, 1973, G.B.
- The Feudal Nobility and The Kingdom of Jerusalem, 1174–1277 , Palgrave Macmillan, 1974, UK.

Runciman Steven:

- A History of Crusades, Cambridge University Press, Vol.I, U.S.A, 1995.
- The Eastern Schism, Oxford University Press, New York, 1955.

Schlumberger Gustave:

- Renaud de Chatillon Prince D'Antioche, Seigneur de la terre D'outre-Jourdain, Librairie. Plon, Rue Garancière, 10, Paris. 1898.

Setton Kenneth(M):

- A History of Crusades, The University of Madison Press, Mil Waukee, 1969.

Sharan Newman:

- The Real History Behind The Templars, Berkley Books, New York, U.S.A., 2007.

Stevenson(M.A):

- The Crusaders in The East, Cambridge University Press, 1907.

Thompson James Westfall:

- Economic and Social History of the middle ages 300-1300, Frederick ungar Publishing. co, N.Y., 1928, Vol.I.

Vasiliev:

- A History of the Byzantin Empire 324-1453, the University of Wisconsin Press, Madison, London,1952.

William Harris(W):

- The Levant a Fractured Mosaic, Princeton, U.S.A., 2^Ed. 2005.

Williams Ann:

- The World Before the Domesday, the English Aristocracy (900-1066), Cornwall, G.B. 2008.

Yewdal(R.B):

- Bohemond I, Prince of Antioch, A Dissertation Presented to the Faculty of Princeton University,U.S.A.,1917.

Yuval Noah Harari:

- Special Operation In The Age of Chivalry 1100-1550, The Boydell Press-Woodbridge, U.K., 2007.

هـ- الأطروحات والرسائل الجامعية:

• باللغة العربية:

الآغا حلمي حسام:

- الأوضاع الاجتماعية في فلسطين زمن الحروب الصليبية 1099-1291، رسالة ماجستير، إشراف، أ.د. رياض مصطفى شاهين،(غير منشورة)، الجامعة الإسلامية، غزة، 1428/2007هـ

حلاق سليم أحمد حازم:

- الأوضاع الاجتماعية والعلمية والدينية والاقتصادية والسياسية للمشرق الإسلامي قبيل الحروب الصليبية،(334-490هـ/945-1097م)، رسالة ماجستير(غير منشورة)، إشراف، رياض مصطفى شاهين، كلية الآداب، قسم التاريخ والآثار، الجامعة الإسلامية، غزة، 2014م/1436هـ.

الغامدي علي محمد:

- بلاد الشام قبل الغزو الصليبي 1070-1098م، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي (غير منشورة)، إشراف، د. حسنين محمد ربيع، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1982/1981م.

سرور علي عبد المنعم:

- السياسة الداخلية والخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد الملك فولك الأنجوي 1131-1143م/526-538هـ، رسالة دكتوراه (غير منشورة)، إشراف الدكتورة، علية عبد السميع الجنزوري، جامعة عين شمس، كلية البنات، قسم التاريخ، 1992.

نجم الدين الزيدي مصعب حمادي:

- الاستيطان الصليبي في بلاد الشام، مملكة بيت المقدس أنموذجاً، 492هـ-583هـ/1099م-1187هـ رسالة دكتوراه (غير منشورة) إشراف، د. ناصر عبد الرزاق الملا جاسم، جامعة الموصل، العراق، 2005.

يوسف عبد ربه عبد القادر:

- أحوال بلاد الشام في عهد الحملات الصليبية 492-690هـ/1098-1291م، أطروحة دكتوراه في التاريخ (غير منشورة)، إشراف، د. لويس بوزيه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فرع الآداب العربية، جامعة القديس يوسف، بيروت.

● اللغة الأجنبية:

Sidelko Paul (L)

- The Acquisition of the landed estates of the hospitallers in the Latin east 1099-1291, Ph.D., Dissertation, University of Toronto, Canada, 1998.

و- الموسوعات والدوريات

● باللغة العربية:

- حوليات كلية الآداب (ياغي سيان صاحب أنطاكية والحملة الصليبية الأولى 477هـ-491هـ/1085م-1098م)، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، ح. 18، 1998.

- الموسوعة العربية الميسرة، ط. 3، 2009، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

● باللغة الأجنبية:

- Encyclopedia of the Medieval World, , Library of Congress, 2005, N.Y.

- LA Grande Encyclopédie, Société des Savants et gens de Lettre,

Paris, (1-31 Tome).

-The Encyclopaedia Britannica, 11Th, Ed. 1911, N.Y. Vol.23.

- The Crusades An Eyclopedia, Editor, Alan Murray (V), A.B.C, Clio, Santa Barbara, California, U.S.A, 2006.
- Medieval France An Encyclopedia, Edit. John Bell Hennman, JR, Garland Publishing, 1995, N.Y, London.

ن- الأطالس والقواميس:

* باللغة العربية:

القاسمي محمد سعيد، جمال الدين القاسمي، ت. ظافر القاسمي:
- قاموس الصناعات الشامية، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، 1988، دمشق.

السلامين زياد:

- معجم المصطلحات الأثرية المصور، انجليزي عربي، 2012، دار ناشري للنشر الإلكتروني، القاهرة.
- المعجم الوسيط، ط.4، 2004، 1425هـ، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة.

* باللغة الأجنبية:

- Atlas of Medieval Europe, Edit., Angus Mackay, David Ditchburn, Routledge, London, N.Y, 1997.
- Du-Cange, Charles fresne, Glossarium Mediae Infimae Latinitatis, Didot, Instituti Regii Franciae Typographi, Parisiis, 1842, T.2.
- Robert Encyclopédique Des Noms Propres, Ed.2008.

ي- المقالات:

* باللغة العربية:

إبراهيم خليل:

- كربوغا صاحب الموصل ودوره في مقاومة الصليبيين، المؤرخ العربي، الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، بغداد، ع.5، د.ط.

الجالودي عبد الحليم عليان:

- الإقطاع العسكري في عصر سلاطين السلاجقة الكبار في المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، مج.2، ع.1، 2008.

جوزيف نسيم يوسف:

- - أنشودة رولان، مجلة عالم الفكر، مج.16، ع.1، مايو 1985، وزارة الإعلام، الكويت.

الألوسي محي الدين:

- حصار أنطاكية 1097م/491هـ، مجلة آداب المستنصرية، كلية الآداب، جامعة بغداد، ع.13، 1986.

الجندي مصطفى جمعة:

- نظم الحكم والإدارة في مملكة بيت المقدس، في دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، تح، مؤنس عوض، 2003، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة.

الطحاوي حاتم عبد الرحمن:

- الصليبيون في بلاد الشام، صفحات من النشاط الاقتصادي، مجلة الاجتهاد، ع.33، السنة الثامنة، 1996م/1417هـ، دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر، بيروت، لبنان.
- القانون البحري لمملكة بيت المقدس الصليبية، قراءة في مجموعة قوانين بيت المقدس، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد 58، العدد 4، أكتوبر 1998.

محمد الزنكي جمال الدين :

- مؤيد الدين ياغي سيان صاحب أنطاكية والحملة الصليبية الاولى 1085-1098م/477-491هـ، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، (1998)، ع.18.

المغربي عبد الرحمن:

- قصب السكر في فلسطين إبان السيطرة الفرنجية 492-690هـ/1099-1291م، مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية)، مج.20، ع.3، 2006، نابلس، القدس.

نجم الدين الزيدي مصعب حمادي:

- موقف تنظيمي الأستبارية والداوية من حروب صلاح الدين الأيوبي 573-587هـ/1177-1191م، مجلة كلية العلوم الإسلامية، جامعة الموصل، العراق، مج.3، ع.6، 1430/2009هـ.

الوريكات هالة عبد الحميد:

- التأسيس الديني في مبررات إعلان الحملة الصليبية الأولى، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، قسم العلوم الاجتماعية، ع.18، جوان 2017.

*** باللغة الأجنبية :**

Barber Malcolm

The Order of Temple In An Encyclopedia of The Crusades, Oxford, England, Vol., 4. 2006.

Failler Albert. Geneviève Bresc-Bautier :

- Le Cartulaire du Chapitre du Saint-Sépulcre de Jérusalem. In: Revue des Etudes byzantines, tome 44, 1986

Prawer (J) :

Colonization Activities in the Latin Kingdom of Jerusalem, In Revue Belge de Philologie et D'histoire, Tome 29 fasc, 4, 1951.

Patterson Robert (B)

The Early existence of the Fonda and Catena in the Twelfth –

Century Latin Kingdom of Jerusalem, In: Speculum, Vol.39, N.3, July,1964, The University of Chicago Press, U.S.A.

Richard Jean:

–Colonies marchandes privilégiées et marché seigneurial, la Fonde d'Acre et ses droitures, le Moyen Age, In: Revue d'histoire et de philology, N.59, Paris, Anée, 1953.

Tardif Adolphe :

– Cartulaire de l'église du Saint-Sépulcre de Jérusalem, In Bibliothèque de l'école des chartes. 1852, Tome.13.

ملخص الأطروحة باللغتين

(العربية والإنجليزية)

ملخص الأطروحة

إن الحملة الصليبية الأولى (1095-1099م) على بلاد الشام وتحقيقها للانتصار اللاتيني، الذي نتج عنه كيانات جديدة بالمنطقة، لها أبعادها السياسية والاقتصادية، وحتى الاجتماعية والدينية. وأولى هذه الكيانات هي مملكة بيت المقدس الصليبية، وتعتبر القلب النابض للاستيطان الصليبي ببلاد الشام، فضلا عن وجود إمارات صليبية أخرى، وبما أن مملكة بيت المقدس، شكلت قلبا نابضا للاستيطان، فإن ذلك أكسبها أهمية وقوة ونفوذًا. وفي ظل وجود النظام الإقطاعي، فإن ذلك قد أعطى دفعا قويا لعجلة الاستيلاء على الأراضي، هذه الأخيرة محور العملية الاستيطانية، وقوام الأنشطة الاقتصادية، التي تعد شريان حياة المملكة الناشئة. ومنذ الوهلة الأولى حاول ملوك بيت المقدس، تطبيق أسس النظام الإقطاعي الغربي، تماشيا مع ما هو سائد بالشام، لعلهم يحققون رغبتهم. وبهذا بدؤوا بتفعيل النشاطات الفلاحية لتلبية متطلبات المجتمع الوافد، وذلك بمسايرة ما هو موجود بالمنطقة، خاصة وأنها ذات خصب، وبهذا أصبحت إقطاعات المملكة تُنتج مختلف أنواع المنتجات الزراعية، وتربية مختلف الحيوانات. علما أن النظام الإقطاعي كان قد حدد العلاقات بين مختلف الأسياد والأفصال، من أجل الاستفادة من هذه النشاطات، كما كان للنشاط الصناعي المتنوع دور في توفير مختلف الضروريات الصناعية للمجتمع الجديد بالمملكة. وبما أن الإنتاج متنوع زراعيا وصناعيا، أصبح من الضروري تفعيل التجارة الداخلية، لتزويد الأسواق الصليبية بما يحتاجه المجتمع، حتى ولو تطلب الأمر بفتح الأسواق أمام المسلمين بصفة خاصة، فضلا عن التجارة الخارجية، التي تعد متنفسا للمملكة الصليبية، وقد كان للمدن الإيطالية دور في تنشيط التجارة الخارجية لبيت المقدس، كما أن لهذه الأخيرة تجارتها التي كانت تدر على الملوك أرباحا معتبرة.

Abstract

The first crusade (1095-1099 AD) against the Levant and its achievement of the Latin victory, has produced new settlements in the region, which have political, economic, and even social and religious dimensions. The first of these settlement is the Crusader kingdom of Jerusalem, and is considered the beating heart of Crusader settlement in the Levant, as well as the presence of other Crusader principalities. Since the Kingdom of Jerusalem was a beating heart for settlement activity, this gave it importance, strength and influence.

In the presence of the feudal system, this gave a powerful importance to the acquisition of land, the latter being the center of the settlement process, and the foundation of economic activities, which are the lifeblood of the emerging kingdom. From the first sight, the kings of Jerusalem tried to apply the foundations of the Western feudal system, in line with what is prevalent in the Levant, so that they might fulfill their wish.

With this, they started activating agricultural activities to meet the desires of the community to Requirements, by keeping pace with what is in the region, especially as it is fertile. Thus, the kingdom's fiefdoms have produced various types of agricultural products and raised various animals. Note that the feudal system had defined the relations between the different masters and vassals , in order to benefit from these activities, as the diversified industrial activity had a role in providing

various industrial necessities for the new society in the Kingdom. As the production is agricultural and industrial diversified.

It became necessary to activate the internal trade, to provide the Crusader markets with what the community needs, even if it was necessary to open the markets to Muslims in particular, as well as foreign trade, which is an outlet for the Crusader Kingdom, The Italian cities had a role in stimulating the foreign trade of Jerusalem, and the latter also had their trade, which was generating significant profits for the kings.

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

	النشاط الاقتصادي لمملكة بيت المقدس الصليبية (1099-1187م/492-583هـ) الآية الإهداء شكر وعرفان المختصرات
21-1	مقدمة
82-22	الفصل الأول: بلاد الشام والحملة الصليبية الأولى
46-23	أ- الأوضاع العامة لبلاد الشام قبيل الحملة الصليبية الأولى
33-23	أولاً: الأوضاع السياسية والعسكرية
26-23	أ- توسع السلاجقة في بلاد الشام
27-26	ب- انقسام بلاد الشام
32-28	ج- تنافس الإمارات العربية ببلاد الشام
33-32	د- انهيار الحكم الفاطمي ببلاد الشام
41-33	ثانياً: الأوضاع الاقتصادية ببلاد الشام
37-33	أ- الزراعة
38-37	ب- الصناعة
39-38	ج- التجارة
41-39	د- العوامل المؤثرة على النشاط الاقتصادي ببلاد الشام
46-41	ثالثاً: التركيبة السكانية والدينية ببلاد الشام
43-42	أ- الأقليات العرقية
46-43	ب- الطوائف والنحل
82-46	II- الحملة الصليبية الأولى وسقوط مدينة القدس
52-46	أولاً: انتصار الصليبيين في بلاد الشام واستيلائهم على بيت المقدس
63-52	ثانياً: التنافس بين الصليبيين وإرساء النظام الملكي
75-63	ثالثاً: نظام الحكم في مملكة بيت المقدس الصليبية
73-66	أ- مجلس المملكة وصلاحيات الملك
75-73	ب- تسيير الشؤون الإدارية بالمملكة

82-75	رابعاً: القضاء في مملكة بيت المقدس الصليبية
79-76	أ- المحكمة العليا
80-79	ب- المحكمة البورجوازية
81-80	ج- المحاكم العامة (الشعبية)
81	د- محكمة الميناء (السلسلة)
81	هـ- محاكم الكنيسة
82-81	و- المحاكم القنصلية (الجاليات الإيطالية والبروفنسالية)
120-83	الفصل الثاني: النظام الإقطاعي في مملكة بيت المقدس الصليبية
97-84	أولاً: ملكية الأراضي في بيت المقدس الصليبية
90-84	أ- مفهوم الإقطاع وممارسته بالمملكة
94-90	ب- إقطاعات مملكة بيت المقدس
97-94	ج- أشكال الإقطاع في مملكة بيت المقدس الصليبية
105-97	ثانياً: العلاقات والخدمات الإقطاعية في مملكة بيت المقدس الصليبية
110-105	ثالثاً: الكنيسة والإقطاع
106-105	أ- الإقطاع الكنسي
107-106	ب- الحملة الصليبية الأولى وإقطاع الكنيسة
110-107	ج- الاقطاعات العينية والنقدية
120-110	رابعاً: إقطاع فرق الرهبان العسكرية
112-111	أ- الأسبتارية والداوية ودورهما في بلاد الشام
120-112	ب- مساهمة تنظيمي الأسبتارية والداوية في محاربة المسلمين

186-121	الفصل الثالث: الأنشطة الفلاحية والصناعية في مملكة بيت المقدس الصليبية
166-122	I- النشاط الفلاحي
163-122	أولاً: النشاطات الزراعية
125-122	أ- حركة الاستيطان الصليبي في بلاد الشام
130-125	ب- تقسيم المساحات الزراعية
134-130	ج- إدارة القرى الفلاحية وامتيازات الهيئة المشرفة
142-134	د- النظام الزراعي والأدوات المستخدمة
163-142	هـ- المحاصيل الزراعية
146-142	1- الفلاح والأرض والسيد الإقطاعي
163-146	2- أنواع المحاصيل الزراعية والضرائب
166-164	ثانياً: تربية الحيوانات
186-166	II- النشاط الصناعي
169-167	1- صناعة الأسلحة ومختلف الأدوات
171-169	2- صناعات معدنية أخرى
175-171	3- الصناعة النسيجية
178-175	4- صناعة السكر
180-179	5- صناعة زيت الزيتون
182-180	6- صناعة النبيذ
-182 183	7- صناعة الصابون
184-183	8- صناعات نباتية أخرى

186-185	9- صناعة الزجاج
224-187	الفصل الرابع: التجارة الداخلية لمملكة بيت المقدس الصليبية
192-188	1- التجارة عند ملوك بيت المقدس
195-192	2- الطرق التجارية الداخلية ببلاد الشام ومحطاتها
207-195	3- الأسواق
214-208	4- النقود والمعاملات التجارية
218-214	5- المكاييل والموازين والمقاييس
220-218	6- الرسوم والضرائب
222-221	7- الإشراف على الأسواق وإدارتها
224-222	8- محكمة السوق
262-225	الفصل الخامس: التجارة الخارجية لمملكة بيت المقدس الصليبية
231-226	1- طرق التجارة الخارجية المؤدية إلى بلاد الشام
229-226	أ- الطرق البرية
231-229	ب- الطرق البحرية
241-231	2- الموانئ وتحصيل الرسوم والضرائب
244-241	3- محكمة الميناء
255-244	4- الصادرات والواردات

262-255	5- العوامل المؤثرة على النشاط الاقتصادي ببلاد الشام
268-263	الخاتمة
290-269	الملاحق
315-291	قائمة المصادر والمراجع
319-316	ملخص الأطروحة
325-320	فهرس المحتويات